
مضمار
قلبها
رواية
صابرين الديب

مضمار قلبها

رواية

جروب حلم-هن

ولنا مع الحرف حلم..

للانضمام للحلم

جروب حلم-هن

بقلم

صابرين الديب

تصميم غلاف وداخلي

صابرين الديب

ملخص

مهمته في الحياة تخطي الحدود

وهي خلقت لتبنيها

بعد اللقاء

أقامت أمامه جدرانها ومتاريس حمايتها

لكن هدفه كان ..

الفوز بآخر سباق له

فوق مضمار قلبها

وأن يكون وحده من يعبر خط النهاية

المقدمة

خلا الشارع من المارة تقريبا في ذلك الوقت، هدوء يغلف الأرجاء بصمتٍ قاتل، لكن هو لا يشغله شيء، منذ متى يشغله السكون أو تقلقه الوحدة؟ هو عاشق السرعة قافز حواجزها العتيد، ضغط دواسة الوقود لتطير به سيارته الرياضية المدللة عبر الشوارع المظلمة الفارغة، لا صوت حوله سوى أنفاسه وبضع قطرات من مطر داعبت زجاجها الأمامي برقة فأبعدها بعنف مستخدمًا ماسحات الزجاج وهو ينظر إليها بتسلية لا تزال تحاول إضعاف رؤيته.

انعكاس لضوء ساطع أغشى عينيه للحظة في مرآته الأمامية فضيقهما زاويًا ما بين حاجبيه في غضب، صاحب الضوء الأحمق قطع لحظات متعته المستترة والتي يفتقدها دوما في أيامه العادية بعيدا عن المضمار، أبعد عينيه وهو يغير مكانه على الطريق.

لقد اقترب من منزله وسيضطر لإبطاء سرعته قهرًا، عاد الضوء يسطع بشدة يغشي بصره ثانية، الآن تأجج غضبه أكثر، نظرة سريعة في مرآة السيارة الجانبية أخلت بتركيزه لثوان رفع بعدها عيناه ليجدها تقطع

الطريق عرضيًا أمامه، بكل قوته وخبراته تحكم في سيارته كابحًا جماحها محاولًا السيطرة على رعونتها، استجابت له بتفاهم مدهش بينهما لتتوقف عرضيًا هي الأخرى قبل أن تمس الضخمة المتوقفة تسد الطريق أمامه.

بغضب فتح الباب وترجل منها، توقفت خلفه السيارة صاحبة الضوء الساطع وهبط منها اثنان ومثلهما من الأخرى، هتف فيهم حانقًا:

"إنتوا مين؟ وإيه اللي عملتوه ده؟"

لم يصله رد، فقط زادوا في اقترابهم لينقضوا عليه دفعة واحدة، قاتل بكل قوته، لَكَم هذا، ركل ذاك، في النهاية هم كثر، وهو وإن كان شجاعًا يبقى وحيدًا، أتته الطعنة الغادرة في منتصف ظهره بالضبط لتفقده إحساسه بأطرافه، سقط أرضًا غارقًا في دماء تسيل من جرحه بسرعة وعنف، ورعشة تصيب جسده لا يمكنه السيطرة عليها، أما هم..! فقد هربوا.

(1)

بداية سيئة

"السهم الأسود يغادر مضمار الأوتوكروس بلا رجعة"

اشتعلت عيناه غضبا عندما وقعتا على ذلك العنوان المستفز الذي تصدر الجرائد الرياضية بعد مرور أسبوعين على حادثته، الآن هو طريح الفراش، بداخله فائر لدرجة الغليان، ويود في هذه اللحظة لو يقبض على عنق أحدهم ولا يتركها حتى يلفظ هذا الأحدهم أنفاسه الأخيرة.

لم يجد سوى الجريدة ليكورها بين قبضتيه بعنف وهو يرمي بها أرضًا هاتفًا في سخط:

"أنا قلت مش عاوز جرايد، مين جاب لي دي هنا؟"

ارتبكت الممرضة التي كانت تباشر متابعته وتهتم بأدويته، شعرت بالخوف من وجهه المحمر وعينيه الزرقاوين واللتين كانتا تبرقان في هذه اللحظة بشدة لتشبها كرتين من الزجاج اللامع بين جفنيه، أجابت بخفوت مضطرب:

"حضرتك اللي طلبتهم يا أستاذ ..."

صرخ في وجهها مقاطعًا :

"و أنت وظيفتك إيه؟ مش عارفة إن حاجة زي كده هتضايقني وتأثر عليَّ؟ إزاي تجيبيهم؟ طفل أنا بتاخديني على قد عقلي؟"

ازداد ارتباكها وهي تتساءل بداخلها كيف يبدو وسيمًا لهذه الدرجة وشرسًا بذاك الكم؟ هو بالفعل طفل ويتصرف الآن كالأطفال، فتحت فمها لترد لكن قاطعها صوت باب الغرفة مصاحبًا للصوت الرجولي العميق :

"خيريا أحمد بتزعق لسمية ليه ع الصبح ؟"

التفاتته نحو ذلك الرجل الأشيب مهيب الطلعة كادت تخلع عنقه، زم شفتيه بغضب، ثم تنهيدة حارقة صاحبتها الإجابة الساخطة:

"الآنسة جايبة لي جر ايد أشوف فيها أخبار مصيبتي"

أشار الرجل للممرضة بالخروج وهو يتوجه نحوه، جلس على مقعد مجاور للفراش ثم ربت على كفه بحنان أبوي قائلا بحزم:

"أنت طلبت منها مش كده؟ زعلان ليه بقى؟ وبعدين مصيبة إيه يا بطل؟ كل حاجة ولها حل"

ارتجافة فكه التقطتها عينا الرجل، أدار "أحمد" وجهه متطلعًا خارج نافذة غرفته الكبيرة، ثم أتى الجواب الحائر، حزين، مكلوم :

"حل يا دكتور علي؟ حل منين و أنا خلاص مش هاقدر أرجع السباقات تاني؟ أنا حتى مش قادر أقف على رجليَّ كويس، لازم أعتمد على حاجة"

عاد الرجل يربت على كفه مغمغمًا بحنو:

"أنت عارف إنه موضوع مؤقت، أنا عملت لك برنامج متكامل وقت ما كملته هترجع تمام"

استدار إليه بنظرة تمتلئ بالأمل متسائلًا بلهفة:

"هارجع التراك تاني؟"

تردد "علي" للحظة اختفت فيها لمعة الأمل من عيني "أحمد" وتهدلت أكتافه في حزن، عاجله الرجل مجيبًا بحزم:

"شوف يا أحمد، أنا مش هاقدر أوعدك إنك ترجع Black Arrow من جديد، وتدخل سباقات وتسافر وتفوز، ده في الأول وفي الآخر راجع لحاجتين مش بإيدي أنا.. إرادة ربنا سبحانه وتعالى، وإرادتك أنت كمان إنك تعافر وتعمل كل اللي تقدر عليه عشان ترجع البطل أحمد الشاذلي،

لكن اللي أقدر أوعدك بيه بجد إني عارف إنك هتوصل، وهترجع تمشي وتسوق عربيتك عادي زي كل الناس وأحسن كمان"

تطلع إليه بانكسار، فاستطرد الرجل:

"دقق معايا، شوف الضربة دي لو كانت يمين شوية ماكنتش هتقدر تمشي خالص، إحمد ربنا إنك ع الأقل قادر تقف على رجليك وتتحرك، وفي خلال فترة هنكثف فيها العلاج الطبيعي وتخلص كورساتك هتبقى زي الفل بإذن الله"

رفع حاجبيه ساخرا، وصوته حانق بنبرة خالطها الحزن :

"زي الفل؟ وماله"

أمال "علي" رأسه يمينًا ثم رد:

"أيوة زي الفل، أنا عارف إنت قوي قد إيه! ولما بتحط حاجة في دماغك بتوصل لها صح حتى لو صبرت وتعبت، فما بالك بأكتر حاجة بتحبها؟"

أومأ "أحمد" برأسه مستسلمًا، وذكريات حلمه الذي قضى أكثر من عشر سنوات يبنيه تتهاوى جدرانه أمام عينيه في كل لحظة، بطولاته، صولاته، جولاته، حتى مغامراته النسائية، كلها تهاوت وسكنت أسفل الحضيض، والسبب طعنة حاقدة، لا يعلم من خلفها.

يومها حاول القتال، نجح في إشباع بعضهم بلكمة أو ركلة، لكن الغدر دوما يفوز في النهاية، دماء، رعشة، انتفاضة، ثم سكون، أفاق بعده فوق الفراش الأبيض، فاقد القدرة على حرية الحركة، أو حتى الحركة الطبيعية.

أيام توالت فيها الزيارات، أصدقاؤه، زملاء فريقه، آخر نزواته، والتي خرجت باكية من عنده بعدما طردها تقريبًا، يود الانزواء بعيدًا، يرغب بالابتعاد عن الآخرين أولا قبل أن يبادروا هم فتضيع قدرته على التحمل عن آخرها، أو ربما يود قتل أحدهم، سيء الحظ من ستناله قبضتاه لأنه وقتها سيُخرج مخزون غضبه، حزنه، انكساره، ألمه، خوفه في وجهه.

"هنبتدي من أول الأسبوع، لأني بالظبط قدامي شهر ومضطر أسافر تلات أسابيع هاغيب عنك فيهم، بس ماتقلقش، هيتابع معاك حد كويس"

أفاق من شروده ورحلة الماضي التي غاص فيها للحظات على نهاية كلمات طبيبه، فرفع عينيه إليه مستغربًا، تساءل في قلق:

"يعني إيه هتسافر بعد شهر؟ هتسيبني لمين؟ خير يا دكتور علي؟"

ابتسم له الرجل مطمئنًا ثم أجابه بهدوء:

"يا سيدي ما تخافش، أنا هابتدي معاك البرنامج وأول شهر شغل مكثف هتتعب فيه شوية بس نتيجته كويسة بإذن الله، بعدين هاشوف حد من تلامذتي يتابع معاك البرنامج الكام أسبوع اللي هاغيبهم، مسافر لأميرة، مامتها هتتجنن وتشوفها خصوصا إنها هتولد كمان شهر ونص، وأحضر كم مؤتمر كده هناك وأرجع لك ما تقلقش، أنا عارف أنا باعمل إيه"

ابتسامة خافتة زينت وجهه وبريق لامع مر بسماء عينيه وهو يعود لشروده هامسًا:

"أميرة..؟"

ضحك "علي" مجيبًا :

"أيوة يا سيدي أميرة، شفت، هتبقى أم أهي، و إنت زي ما إنت"

نظر إليه محتفظًا بابتسامته وغمغم:

"فجأة كبرت و اتجوزت وهتبقى أم، ده أنا تقريبا اللي مربيها"

بادله الرجل ابتسامته قائلًا بحنين:

"أيوة تقريبًا، فاكر لما كنت بتاخدها معاك في العربية ومامتها تفضل تصرخ لي في التليفون لحد ما أكلمك عشان تروحها؟"

شرد مرة أخرى وهو يرد بضحكة قصيرة:

"أيوة، طنط سمر دايما كانت بتقلق مني، دي جوزتها لواحد مش بيسوق عربيته بنفسه حتى"

ربت "علي" على كفه مجددًا وهو يقول:

"طبيعي ما هي عارفة إنك بتسوق بجنون، وبعدها دخلت عالم السباقات وأميرة نفسها بقت تخاف تركب معاك"

تنهد بعمق، عقله خانه كعادته مؤخرا، يغيب عن الواقع لدقائق، قصيرة هي لكنها كمخدر يسكن ألمه وخوفه يزيح قلقه، يجبر انكساره الذي يغوص فيه حد الغرق في كل لحظة، "أميرة" الصغيرة، أخته من الرضاع، والشعلة الملتهبة التي دوما كانت تحرق شقيقه الأصغر ثم تبكي فوق صدره ليأخذ لها حقها منه، مع أنه لم يفعل لها شيئًا، لكنها دوما تتدلل، وهو لا يمانع من دلالها أبدًا.

الآن شعلته ستصبح أمًا، لا يكاد يتخيل الأمر، هي لم تتجاوز الثانية والعشرون بعد،، يعلم أنها تزوجت صغيرة، يتذكر يومًا منذ عامين عندما رمت نفسها بين ذراعيه باكية لتهتف بحب زوجها وممانعة والدها، ثم يتدخل هو وينتهي الأمر بحفل زفاف أسطوري بدت فيه كملكة من عالمٍ مسحور، غادرت بعده إلى الولايات المتحدة الأمريكية مع زوجها الطبيب الشاب، وها هو الآن على وشك أن يصبح خالًا لطفل جميل مثل والدته.

غادر عالم شروده ليعود لصديق العائلة ووالد أخته متسائلًا:

"هي مش ناوية تيجي أجازة ؟ وحشتني"

أجابه الرجل بابتسامة حنين:

"أكيد هتيجي بس على حسب ظروف جوزها بقى"

ابتسم هو الآخر وقاطع تعليقًا كاد يخرج من بين شفتيه إعصارًا صاخبًا اندفع داخل الغرفة مهللًا بمرح:

"أيوة كده اللورد صاحي وبيضحك كمان..! أكيد كنتوا بتجيبوا في سيرتي عشان كده إنت مبسوط"

رفع رأسه نحو القادم، واتسعت ابتسامته، راقبه يقترب منه وخلفه صديقه وزميل فريقه "حسن"، رد ببطء وهو يشاغبه:

"يا فتاح يا عليم، خيرع الصبح يا عمرو؟"

وصلته الضحكة المرحة قبل أن يجيبه:

"إيه يا أبو حميد ماقدرتش أروح الشغل إلا لما أعدي أطمن عليك"

رد بتأفف مصطنع:

"ماشي يا سيدي"

ثم التفت لصديقه متسائلًا:

"إزيك يا حسن، إيه اللي دبسك مع البيه؟"

ضحكا سويًا ثم أجابه صديقه:

"اتقابلنا برا قدام المستشفى، طمني عليك يا لورد"

رد بهدوء يخفي به لمحة حزن أصرت على اقتحام مقلتيه:

"أنا تمام الحمد لله، دكتور علي بيقولي هأخرج من هنا الأسبوع الجاي، وبعدها هابتدي برنامج العلاج الطبيعي بتاعي، عمل لي برنامج مكثف، ويمكن بعده أقدر أسوق عربيتي بشكل طبيعي"

نطق كلماته الأخيرة بخفوت منكسر أوجع قلب شقيقه وصديقه، رد دكتور"علي" بتربيتة حنون على كفه المستكين إلى جواره:

"هتبقى أحسن من الأول طول ما إنت بتسعى يا أحمد ما تنساش"

ثم التفت إلى "عمرو" مغيرًا اتجاه موضوع الحوار:

"إزيك يا عمرو وإزي عمك جمال؟"

أجابه "عمرو" بحيادية:

"الحمد لله تمام يا دكتور علي، وعمي كمان زي البمب كالعادة"

ابتسم الرجل بتفهم وهو يتذكر علاقة أخوَي ابنته بعمهما قطب عالم المال والأعمال "جمال الشاذلي". حاول الرجل كثيرًا الضغط على المتمرد والأخ الأكبر "أحمد" ليصبح ساعده الأيمن بعد رحيل والده و دفنه بين الثرى، لكنه رفض، عاند، تهرب، وصرخ بعنفوان، لن يكون أبدًا رجل أعمال يرتدي بذلة وربطة عنق خانقة، يحضر اجتماعات قميئة ويتحدث عن آخر أخبار البورصة.

هو صقر، لا بل هو سهم، عاشق للحرية، مغرم بالسرعة، لذلك ترك كل شيء وكل أمور العائلة المالية بين يدي عمه و انطلق هو يسابق ويدور ويطير بسيارته حول العالم حتى سطع نجمه وأصبحت شهرته تسبقه في كل مكان، ووسامته توقع الفتيات في حبائل هواه في ثوان، وهو لم يتوانَ في الأمر فأصبح الوسيم زير النساء الشهير والعازب الثري بطل السباقات.

تنهد بعمق وهو يسمع "عمرو" يمازح شقيقه:

"جرى إيه يا ملك الدريفت ؟ انجدني من عمك بقى الله يرضى عليك، إنت عارف إني مش بتاع الكلام ده"

هز "أحمد" رأسه في استسلام، صغيره المدلل لا يحب العمل ومرغم أن يساير العم وإلا انفجر غضبه في وجهيهما، دومًا ما أخبره أنه يحسده، لقد

حقق حلمه، خرج من عباءة "الشاذلي" ومجموعة شركاتهم، حرر نفسه من أسر الاسم والعمل، و انطلق يمارس هو ايته واعتبرها هي عمله فقط.

والآن انظروا أين هو؟ طريح فراش المرض نتيجة طعنة أفقدته كل ما يملك دفعة واحدة، و أيقظته عل كابوس الو اقع المرير ليتجرعه كل يوم وإلى متى ! لا يعلم، رد بهدوء:

"عاوزني أعمل إيه يعني يا عمرو، ما إحنا من زمان اتفقنا، إنت هتمسك المجموعة مع عمي، أنا لسه قدامي كتير على ما أقدر أقف على رجلي و أفكر في شغل أصلًا"

جلس شقيقه إلى جواره وربت عل كتفه بحنان غريب، وبرفق أوضح:

"يا سيدي ما أنا اتدبست واللي حصل حصل، المهم إنت تبقى بخير يا لورد"

ابتسم له بامتنان، ثم سأل بخفوت يخشى الإجابة:

"مفيش أخبار عن اللي....!"

لم يكمل سؤاله لكن من حوله فهموا مقصده، أجابه "حسن" بنبرة هادئة محاولًا عدم إثارة غضبه المعتاد:

" للأسف لا يا أحمد، لولا دورية الشرطة اللي لقيتك يومها كان.... عملوها وهربوا، ماحدش عارف هما مين ولا ليه عملوا كده وقصدهم إيه؟!"

رد "أحمد" بانكسار بدا غريبًا على جموحه المعتاد وصلابة صوته الدائمة والتي يشوبها بعض القسوة أحيانًا:

"معروف ليه عملوا كده يا حسن، ضربة بالشكل ده قصدها إني ما أسابقش تاني، أخرج من المنافسة، واضح إني كنت و اقف في طريق حد نفسه يكون الأول"

انشغلت العقول بالتفكير لكن طبيبه نهض و اقفًا مرددًا بلهجة مشجعة:

"سيبك من اللي حصل يا أحمد، ركز في اللي جاي، عشان ترجع من جديد زي ما كنت، أنا و اثق فيك قبل حتى ما أثق في العلاج، ماشي يا بطل؟"

ابتسم له، لمعة عينيه أخبرته كم يقدره، و رده عبر عما يجيش به صدره باختصار:

"و أنا ناوي أرجع يا دكتور علي، مش هاسيبه ينتصر عليَّ"

بادله الرجل ابتسامته وهو يربت على كتفه:

"بإذن الله يا أحمد، يلا هاسيبكم أنا شوية"

خرج يصاحبه "عمرو" محاولا الاستفهام عن حالة شقيقه بعيدًا عنه، قلق هو بشأنه رغم أنه الأصغر، ويود معرفة التفاصيل لكن ليس تحت سمع وبصر أخيه، في الداخل عاد هو يسأل صديقه:

"التيم عاملين إيه؟"

رد بابتسامة :

"كويسين، بيقولوا مش عارفين يعملوا إيه من غير السهم، ومين هيفوز معاهم؟"

ضحكة خافتة منكسرة ورغبة في الوحدة والصمت، شرود نحو ضوء النهار عبر النافذة، وجفنين تعانقا ببطء، سكون احترمه الصديق فاستجاب له تاركا رفيقه يغيب في عالم ذكرياته من جديد.

ذكريات عشر سنوات مضت، عندما وقف مقابلًا لعمه وهو لم يتخطَ عامه التاسع عشر بعد، والده تُوفيّ منذ أقل من شهر وعمدة العائلة يأمره:

"هتنزل الشغل من بكرة معايا يا أحمد، أخوك لسه صغير، بس مصيره يبقى معانا"

تردد للحظة بدت كدهر، ثم أجاب برعونة كانت نتيجتها صدمة فصفعة الغرض منها إفاقة:

"عمي أنا مش هاشتغل في الشركة، أنا هادخل سباقات الأوتوكروس"

وبعد الصفعة صراخ قاس:

"إنت فاكر نفسك لسه طفل، هتتدلع وتطلب وبابا يلبي ؟ فوق يا أحمد إنت كبير عيلتك دلوقتي، مامتك وأخوك مسئولين منك ولازم تكون قد المسئولية، لازم تشيلها، مش تهرب منها وتروح تلعب بعربيتك"

ونتيجة الصفعة والكلام الحاد عناد، فتصميم وإصرار ولهجة قاسية نبتت من ألم، ألم فقدان الداعم الرئيس، و تسيير حياتهم من قِبَل عم يختال بعنجهيته:

"كويس يا عمي إنك أخدت بالك إني مش طفل ينضرب لما نشوف إنه غلط، و أنا مش هارجع في قراري، حضرتك عارف إني ماليش في شغل التجارة، هاكمل دراستي وهاسافر، و شغلي الوحيد هيبقى السباقات، وناوي أنجح فيها"

ويحين وقت السخرية والتقليل من شأن الصبي عاشق السرعة وجنونها:

"وماله يا أحمد، انجح، بس أنا مش هافضل أديك مصروف في إيدك، اعتمد على نفسك بقى يا للي مش طفل"

ويأتي الرد غير المسئول، معاندًا ليثبت شيئا ما للعم أو ربما لنفسه:

"ماشي ياعمي، أنا مش محتاج مصروف، وبكرة نتقابل تاني وتشوف أحمد الشاذلي هيبقى إيه وفين!"

وتبدأ مسيرة كفاح الهوس والجنون، لم ترغب الأم كذلك لكن سببها كان الخوف على طفلها، والخوف يغذي جنونه أكثر، عشر سنوات، على أعتاب التاسعة والعشرين من عمره، ناجح، مشهور، وسيم، وبطل .. والآن .. سابق.

على استحياء قدم نفسه لمدير أحد الفرق المغمورة في مجال السباقات، وبسرعة سهم انطلق من قوس قوي أصبح هو" السهم الأسود "، بمدللته الداكنة كليل بلا قمر، اللامعة كالبرق، تملك عرش سباقات "الأوتوكروس" ومنها جاذبًا فريقه من القاع نحو العالمية، سفر، شرق الكرة الأرضية وغربها، و مغامرات ودية مع أصدقاء من مختلف الأنحاء.

حارب، سعى بقوة، حفر بأظافره صخر الو اقع الصلب وصنع لنفسه لقبًا واسمًا أصبح مصدرًا لزهو العم المغرور، العم الذي استولى على الصغير، وأجبره على العمل معه، ربما هو على حق، فهذه أموالهم أيضا

ولابد من رعايتها معه، لن يتحمل هو مسئولية رجال يقضون وقتهم في اللهو، لكنه اتخذ من هوايته حرفة وعمل ولم يعد يهمه غيرها.

وأتت النهاية بعنف، مشبعة بدم، وضعف، وقسوة تتغلغل في صدره، تنهش قلبه، وتدفعه بغضب نحو رغبة واحدة..

العودة بعد انتقام..!

(2)

تحدي

أروع ما فى الحياة

ليس فى عدم السقوط على الإطلاق

ولكن

فى الوقوف مرة أخرى بعد كل سقوط

-اقتباس-

ما بين المتاح والمستحيل شعرة، تقف على حدود تلك المنطقة الرمادية التي منها نقطة الانطلاق، لتحقق حلمًا، تخوض غمار الصعوبات، تثبت لنفسك قبل الجميع أنك تقدر، تستطيع، وستفعل.

المتاح، تنتهي عنده محدودية القدرات البشرية، والمستحيل يجبرها على تخطي تلك المحدودية والانطلاق من بعدها إلى ما لا نهاية.

ولأنه لم يعتد الاستسلام، الخنوع لسيطرة المحبطات، أو التغاضي عن حلمه مهما كان ضئيلًا، فقد انطلق، ليس كسهم هذه المرة، بل كوحش

كاسر، وضعت العقبات أمامه فقط لكي يتخطاها واحدة تلو الأخرى، ساخرًا منها، محطمًا لجبروت صمودها، ليصبح إصراره هو العلامة المميزة التي وَسَم بها المستحيل، وعزيمته التي لا تلين هي وشم انكساره ودخوله قائمة المتاح مهزومًا أمام صلابة ذاك الوحش.

مر أسبوعان، خرج من المشفى يسير متوكئًا على عصا أنيقة مصممة خصيصًا له، هدية من شقيقه الأصغر، يتابع برنامجه العلاجي المكثف باهتمام وصمود، يتقدم بدرجة أكثر من رائعة تحت ناظري أباه الروحي وطبيبه المخضرم، أسبوعان آخران وسيتركه مسافرًا لصغيرته التي على وشك منحه الحفيد الأول، أسبوعان ثم سيتعامل مع المجهول، ذلك الطبيب الذي رشحه له معالجه، مادحًا، ومصرًا على أنه سيناسبه، حسنا سيرى وقتها!

بعد جلسته هذا اليوم أوصله شقيقه للمنزل وغادر ثانية، استقبلته والدته بلهفة حنون، القلق مرسوم على ملامحها دومًا كأن قدرها أن يسبب لها رعبًا لا ينتهي، حاول إقناعها أنه بخير، لكنها تصر على عكس ذلك.

وجدها بانتظاره، كأم تترقب عودة طفلها بعد أول يوم في مدرسته، ابتسم لها محييًا، ثم هتف مداعبًا بلهجة مرحة:

"إيه يا قمر؟ و اقف مستنيني ولا إيه؟"

ابتسامتها كانت الأوسع في مواجهته، بلمحة حنان و افتقاد، أجابته برقة:

"أيوة مستنياك، يلا يا بكاش تعالى عشان تتعشى، ومن غير كلام مش زي كل يوم، هتاكل معايا يعني هتاكل"

وضع كفه الحر على قلبه متظاهرًا بالألم هامسًا بحزن مصطنع:

"بكاش يا كريمة؟ أنا بكاش؟ ده إنتِ اللي في القلب يا أجمل مزة"

شهقت معاتبة:

"أحمد، كم مرة قلت كلامك ده مش معايا؟ مع أصحابك إنت حر، إنما هنا لا"

ضحك بمرحٍ وهو يرى تلون وجهها غضبًا، رد بسرعة:

"أعمل إيه بس يا كرملة؟ ما إنت اللي زي القمر"

ابتسمت بخجل رغم علمها بمزاحه لكنها جارته بحنان:

"ماشي، عارفة إني زي القمر، مش هتضحك عليَّ بكلمتين وهتتعشى معايا غصب عنك"

مد ذراعه لها لتتأبطه مجيبًا بلهجة عسكرية مضحكة:

"تمام يا فندم، إنت تؤمر بس وإحنا علينا التنفيذ، مع إني ممكن أتعشى بيكِ شخصيًا يا كرملة"

وكزته في كتفه برفق ثم استجابت لطلبه وتعلقت بذراعه ليستند إليها متحركًا نحو غرفة الطعام وهي تهتف بصرامة مصطنعة:

" عيب يا ولد "

انطلقت ضحكته مجلجلة مرة أخرى وهو يشعر بسعادة طفولية تنتابه لمجرد وجودها إلى جواره، تناولا العشاء سويًا ثم اصطحبته إلى غرفته، ساعدته على تغيير ملابسه حتى دخل إلى الفراش استعدادًا للنوم، قبلت جبينه هامسة بعطف :

"تصبح على خير يا حبيبي، ربنا يحفظك لِيَّ"

أمسك بكفها يقبل باطنه بدفء ثم رد بلهجة فقدت تماسكها:

"ادعي لي يا أمي، محتاج دعائك بجد"

مسحت على رأسه برفق وهي تنظر إليه بتردد، قالت بعد ثوان من الصمت:

"أكيد هادعيلك يا أحمد، بس..."

ترددت ثانيةً ثم صمتت، استغرب فسألها:

"بس إيه يا ماما؟"

ازدردت لعابها تخشى أن تغضبه، لطالما نصحته لكن حياته السابقة كانت دومًا ذات إيقاعٍ سريع مثير مليء بالجنون والنساء، فكيف ينتبه؟ ردت بارتباك:

"ليه مش بتدعي لنفسك، قوم اتوضى وعلى سجادة الصلاة اسجد بين إيديه وادعيه، هو اللي هيقف جنبك ويساعدك"

شعر بالحرج، آه لو تعلمين أمي؟ سنوات من الجنون والمغامرة، البعد عنه وصل حد النسيان أو التناسي، حياة مليئة بالشهوات أضاعت مني قربه، فكيف أقترب الآن؟ بعد ضعفي؟ هل سيقبلني؟ بأي وجه أرفع يدي نحوه سائلا؟ أطلب منك أنت لأني أعلم قربك منه، مرت الأفكار برأسه سريعًا، آلمته، وما آلمه أكثر أنه في شروده لم يشعر بها وهي تقبل جبينه ثانية وتنسحب من غرفته بهدوء.

أغمض عينيه هائمًا في عالم مشحون بغضبه، لحظات اليأس التي تتخلل أوقات قوته، ضعفه المستتر والذي يعلم جيدًا كيف يخفيه عن أعين البشر، بخوف من غد قد لا يأتي كما يتمنى، من عودة بعيدة كما لو كانت بمجرة أخرى، تنهد بعمق، تنهيدة حارقة أخرجت مكنونات صدره الضائق

في ذرات الهواء من حوله، لتضيق الخناق حول عنقه أكثر، زم شفتيه في حنق وكلمات والدته يتردد صداها في أذنيه، ومع تلاشيه انتفض جالسًا.

بحركته المحدودة توجه نحو حمام غرفته، وقف أمام المغسلة يتأمل وجهه في المرآة، تبًّا لك يا ابن "الشاذلي" أي شيطان وسيم أنت؟ تلمع كنجم، لكنك فقط بداخلك، أجوف، فارغ، تشعر بخواء تغطيه بقشرة براقة لنجم رياضي شهير تتعلق بذراعه أجمل النساء، وفي النهاية تعود خالي الوفاض، حاول أخذ عهد على نفسه بالتغيير، ثم حاول ثانية أن يعد نفسه بالوفاء.

******

المرح سمته الدائمة، لكنه رغم سنه الصغير يحمل بعض الهموم التي يحتفظ بها لنفسه دومًا، هو المسلسل بقيود اسم العائلة وأعمالها ومصالحها، "عمرو" الفتى الذي يحمل من وسامة آل "الشاذلي" مقدارا مساويًا لشقيقه وإن لم يحصل على عيني والده الزرقاوين، بل اختار هو فحم مقلتي والدته، لتصبح نظراته صقرية، قوية، سوداء لكن رغم ذلك، مرحة، شقية وأحيانا كما أخيه وقحة.

كان متأخرًا هذا الصباح، فما إن دلف لغرفة مكتبه بمجموعة "الشاذلي" حتى استقبلته مساعدته بعملية، استقر خلف المكتب مستعدًا

للمشاغبة، حملت هي أوراقها لتتبعه بابتسامة واسعة بداخلها لأنها تعلم تماما طقوسه الصباحية، قدمتها له بحرفية مشيرة لما هو هام منها وما يحتاج إلى توقيعه، أنهاهم جميعا قائلا بابتسامة مشاكسة:

"إيه يا نوسة ده ع الصبح؟ كل دي توقيعات؟ إوعي تكوني بتمضيني أبيع لك اللي ورايا واللي قدامي"

ابتسمت برسمية مجيبة بهدوء:

"ما تقلقش يا أستاذ عمرو، اللي وراك واللي قدامك في أمان"

ضحك بمرح ثم هتف بخبث:

"عشان خاطرك ما عنديش مانع أبيع"

بنفس الابتسامة المرسومة كما لو كانت بقلم رصاص أجابت:

"لا يا فندم احتفظ بممتلكاتك، جمال بيه طلب حضرتك تروح له أول ما توصل"

هب و اقفًا وهو يهتف بخوف مصطنع:

"يا خبر يا نوسة؟ وبتجري رجلي كل ده وهو مستنيني؟ أنا هاعترف له بكل حاجة"

قاومت ابتسامة حقيقية تقاتل لتطفو على شفتيها رغمًا عنها وهي ترد بلهجة هادئة:

"ممكن تناديني باسمي لو سمحت؟"

عاد يضحك وهو يقترب منها بجرأة، بقيت هي محافظة على ثباتها وكأنها تفهمه تماما وتعلم إلى أين سينتهي! همس بحميمية أخجلتها:

"تؤمريني يا نانسي"

قالها و ابتعد بضحكة أخرى مغادرًا المكان نحو عمه، بعد خروجه هزت رأسها بابتسامة مرحة لهذا الطفل المشاغب.

استقبله عمه بهدوء، لمحة غضب سريعة مرت على وجهه استشفها الصغيرلكنه تجاهلها وهو يلقي التحية بابتسامة:

"صباح الخيريا عمي"

رد عمه بلهجة جافة:

"خيرمنين يا سي عمرو؟ الساعة كام؟ أنا نفسي أفهم إنت وأخوك مالكم؟ بتتصرفوا كده ليه؟ بتفكروا إزاي؟"

أجاب "عمرو" بلهجته المرحة متجاهلًا جفاء العم وأسئلته:

"معلش يا عمي، نمت متأخر شوية إمبارح"

نظر إليه عمه بغيظ كأنه يعلم أين قضى ليلته!. تغاضى عن الأمر وهو يسأل بتردد:

"أخوك عامل إيه دلوقتِ؟"

جلس على المقعد المواجه للمكتب مجيبًا بلهجة مطمئنة:

"الحمد لله تمام، ماشي كويس في الكورس بتاعه"

انشقت شفتي الرجل عما يشبه ابتسامة وعاد يسأل:

"طيب كويس، ما تعرفش ناوي على إيه؟"

هو يفهم مقصد العم جيدًا، لايزال يطمح لمساندة شقيقه الأكبر، كأنه هو لا وجود له، لكنه تجاهل الأمر ليرد ببرود:

"لا يا عمي ما أعرفش، وما أعتقدش إنه ممكن ييجي الشركة، إنت عارف دماغ أحمد"

انتابت العم عصبية حادة، هما طفليه، ابنيه اللذان لم ينجبهما، لم يحظَ بأبناء واعتمد على ولدي أخيه أن يكونا دعمه وسنده، لكن الأحمقان، متهوران، جامحان، هتف بغضب:

"إنتوا مافيش فايدة فيكم، يلا قوم روح على مكتبك"

رفع "عمرو" حاجبيه متظاهرًا بدهشة، ثم نهض و اقفًا ليغادر بالفعل، قرب الباب ناداه عمه فالتفت إليه متسائلًا، قال هو:

"ابقي سلم لي عليه"

ابتسم الفتى بمرح ثم هتف:

"من عينيا يا بوص"

وهرب خارجا قبل أن يلقي عمه على أذنيه محاضرة أخرى من محاضراته حول هيبة رب العمل ورزانته وعقله و.. و.. و..

******

خطوة أفضل من السكون.. أمام أولى من الخلف.. وإصرار يتحدى الخضوع..

ها هو الشهر يكتمل، و طبيبه يقدمه لأحد أفضل تلاميذه على حد تعبيره بابتسامة مشجعة، مع قليل من تطييب الخاطر لاضطراره لتركه، لقد أصبح أفضل بالفعل.. كثيرًا، دكتور "علي" بنفسه يستغرب الأمر ومندهش من مدى التقدم الذي حققه في برنامجه العلاجي، قالها له: "لو قمنا بحساب المدة التي مرت في العلاج في مقابل الدرجة التي ينبغي أن

تصل إليها من التحسن، لوجدناك بالفعل كأنك طبقت منها شهرين أو أكثر وليس أقل من شهر".

الجميع يظنونه قويًا، عنيدًا، محاربًا، لكنه أيضًا ثائرٌ، غاضبٌ حانقٌ، ورغبته في العودة، في الانتقام تؤجج حماسه أكثر وتدفعه لقتل نفسه ليصل إلى ما يريد، أخبره الطبيب أنه في خلال أسبوع وبنفس المعدل سيتمكن من قيادة السيارة بأمان، لكن ليس في سفر، أو لمدة طويلة، واكتفى هو بذلك مؤقتًا حتى يصل إلى ما يريد.

مد يده مصافحًا الطبيب الشاب وهو يتأمله بشيء من السخرية، أهذا هو الأفضل؟ خجول، مرتبك وصامت، بنية ضعيفة نوعا ما، منظار طبي ذو إطار ذهبي رفيع، شارب منمق وشعر أسود مجعد، عينان ربما هما الشيء الثابت فيه بخلاف اختلاجة جسده الواضحة كأنه يرهبه، ما به هذا الرجل؟ ابتسم بهدوء قائلًا:

"أهلا بيك يا دكتور صلاح"

صافحه الرجل وهو يرد:

"تشرفنا يا أستاذ أحمد، إن شاء الله أتابع معاك البرنامج ونوصل بنهاية الشهر لمستوى كويس"

أومأ برأسه موافقًا في صمت، وبدأ مسلسل جديد من التحديات، كان الطبيب بالفعل ماهرًا، للوهلة الأولى يبدو مرتبكًا لا يفقه شيئا، لكن ما إن يبدأ العمل الجاد حتى تطغى مهنيته على شخصيته العادية ويصبح كآلة تطبق ما يُملى عليها بالضبط.

جلسات برنامجه العلاجي تسير بشكل جيد، طبيبه يساعده بجدية وإن لم يشعر هو بالاكتفاء، دوما هناك نقص ما، يريد أكثر، لا يشبع أبدا حتى وإن تهالك جسده منهكًا، أحيانًا يصبح عصبيًا فيصيح في من حوله بغضب ممتزج بغرور بارد لبطل سابق، أو يكسر شيئًا أوقعه سوء حظه في متناول يديه، عدة مرات ألقى بغضبه فوق رأس الطبيب كأنه السبب فيما يحدث له، وهو يتقبل الأمر بهدوء وأحيانا بتوتر ينهي بعده الجلسة ليثور السهم من جديد.

يتحسن بشكل ملحوظ، يسير بخطى ثابتة نحو استعادة قواه، وبعد ثلاث أسابيع حاول قيادة سيارته والمرور بعدة منحنيات حادة في مضمار كان بطله يومًا، دقائق قصيرة هي ثم شعر بالتعب تلاه خدر يسري في جسده ببطء، أوقف السيارة متأملًا ساقيه الثقيلتين وكفيه تتمسكان بالمقود بقوة مقاومًا غضبًا عارمًا ألمَّ به، تركه ليضربه بقبضته عدة مرات صارخًا بعنف تحت ناظري صديقه "حسن"، والذي تابع غضبه وألمه

وحزنه في صمت مفكرًا في شيء ما قد يعيد له بعض من حيويته المفقودة، وروحه المرحة.

******

عندما تحاول الركض لتلحق بشيء قد فاتك، تصبح مجرد "دون كيشوت" آخر، غبي، مجنون، يحارب الطواحين، فقط ليظهر بمظهر البطل المغوار، وربما تدهسه حوافر الأغنام هذه المرة فيفقد روحه نفسها عوضًا عن بعض أسنانه.

هكذا هي الحياة، لن تنال منها إلا ما قُدِّر لك، مهما سعيتَ، عدوتَ لاحقًا بما ليس لك، مصيرك ينتهي عند نقطة محددة من قبل ميلادك، قدرتك على الصبر تتضاءل، صلابتك تنحني أمام رياح القدر، تحديك يخفت فقط لتحصل على بقايا ما كان الأفضل منه ملكًا لك يومًا ما من قبل.

"السهم الأسود" لن يعود لمضمار السباق، ليس في وقت قريب على الأقل، لن يستطيع التحكم في سيارته فترة كافية ليفز بأحدها، هي دقائق قليلة معدودة يتحملها جسده باذلًا ذاك الجهد العنيف ثم يبدأ في الانهيار، يفقد قدرته على التحكم في أعصابه الطرفية بشكل جزئي، وخدر قوي يسري في أنحاء جسده بادئًا من قدميه فوق دواسة الوقود أو المكابح.

وهو، الأحمق المتهور، كيف و افق على تلك الفكرة السخيفة التي نبتت في رأس صديقه فجأة؟ يا إلهي، ألهذه الدرجة أصبحت يائسًا أيها السهم ؟ تقبل بالفتات بعدما كنت على رأس المائدة؟ أفكاره حانقة غاضبة وهو يتطلع حوله بملل، أسفل مظلة في ركن المكان الواسع أمامه، خلية نحل صغيرة تعمل بحرفية واهتمام، يتابع في صمت، و انتظار، حتى يأتي دوره.

دار في عقله ذلك الحوار الذي انتهى بوجوده هنا، قبل يومين مع "حسن" عندما وقف أمامه مترددًا لدقيقة كاملة، ظل ينظر إليه في صمت، دون أن يحثه على الحديث، تردد صديقه معناه قلق من شيء ما يريد أن يخبره به لكنه يخشى ردة فعله لذلك لم ينطق بحرف، وكان على حق، وقتها هب في وجهه كقاذفة لهب هاتفًا بغضب:

"إنت اتجننت يا حسن؟ هي دي آخرتها؟"

تنهد "حسن" هازًا رأسه يحاول إقناعه:

"اسمعني بس للآخر يا أحمد، دي فرصة كويسة، منها تشغل بالك، تدرب نفسك، وتعمل حاجة بتحبها وبعائد مادي كويس، و أنا متأكد إنك هتنجح في المجال ده جدا وهيبقى لك اسم كبير"

لوى شفتيه ساخرًا، لقد وصل بالفعل إلى الحضيض حتى يصل بصديقه لتلك الفكرة، صمت للحظات قال بعدها بحنق:

"يعني إنت شايفني خلاص، ما بقاش قدامي فرصة غيركده؟"

سارع "حسن" بالنفي:

"لا طبعا مش قصدي، أحمد إنت فاهمني كويس فما تعملش فيها ضحية"

هب و اقفًا ليرتفع صراخه يرج جدران غرفته:

"دوبليريا حسن؟ دوبلير!!!"

وبقبضته أذاق الحائط لكمة عنيفة كادت تنكسر لها أصابعه وهو يكمل بعنف:

"خلاص، أحمد الشاذلي السهم، يبقى دوبلير وأجري بالعربية عشان النجم يبقى بطل الأكشن المغوار، وصلت للدرجة دي؟!"

اقترب منه صديقه بسرعة محاولًا منعه من إيذاء نفسه في فورة غضبه التي يعلمها جيدًا ويعلم عو اقبها، رد مطيبًا خاطره ومربتًا على كتفه برفق:

"مش دوبلير يا أحمد، إنت ممثل بديل لمشاهد الأكشن، عربية هتسوقها في مكان محدد زي ما تحب، والميزة إن المشاهد قصيرة، هتعيش وتعمل حاجة بتحبها، وفي نفس الوقت مفيش خطرعليك منها"

وها هو.. أحمق، غبي وربما أبله، لقد استجاب لصديقه بعد مشادة عنيفة، انتهت بموافقته على التجربة الأولية، ليعيش المتعة وفقط، متعة جنون السرعة بقوة وحِدَّة لا يضاهيه فيها أحد، ومن خلف منظاره الشمسي الأنيق راقب التحضيرات التي تجري على قدم وساق لتصوير ذلك المشهد للممثل الشهير نجم الحركة الأول، ساخرًا ربما، ممتعضًا أحيانا، وملولًا طوال الوقت، متى يبدأ هؤلاء القوم؟

"هاي"

اقتحم الصوت الناعم خلوته، فرفع عينيه ببطء تجاه صاحبته، فاتنة رقيقة، بمنظار شمسي هي الأخرى وبشرة بيضاء شاحبة، حمرة شفاه نحاسية لامعة مغوية، وشعر حريري طويل نافس النار في لونها وحرارتها، حسنًا هي جميلة، انفرجت شفتيه بابتسامة يختص بها الحسناوات فقط، رد بصوت عميق بطيء:

"هاي"

جلست إلى جواره تتطلع إليه بنظرة يعلمها جيدًا، تفحصها بوقاحة لم ترها من خلف الزجاج المعتم، وربما لو رأتها لرمت نفسها بين ذراعيه، فهي تبدو على استعداد كامل لذلك، قرر الهجوم فرفع المنظار فوق رأسه

ضاغطًا به على شعره الداكن، وبنظرة من زرقة عينيه صاحبتها ابتسامة همس:

"أحمد الشاذلي"

هاتان العينان الشرستان ببدائية مهلكة ألجمتاها لثوان قبل أن ترد بصوت أبح متودد:

"سهر نبيل"

وصمتت لثوان تدرس ملامحه، قلبها يخفق بقوة تحت وطأة عينيه المقتحمتين ونظراته الحارقة، ثم أكملت بما ظنته مبهرًا:

"بطلة الفيلم"

(3)

المخاطِر

لهاث عنيف، قلبٌ يتمرد بقوة محاولًا إختراق ضلوعها وهي تشعر بالإثارة الشديدة إلى جواره، إنه ببساطة..

رائع..

بل أكثر من رائع..

وسيم لدرجة تحبس الأنفاس، بعينين خُلِقتا لتشعرا المرأة بأنوثتها وفتنتها، نظراته فجة لكنها تدغدغ تلك الأنثى بداخلها وتسكرها، كفيه قويتين، خشنتين، تتمسكان بالمقود بقوة وإحكام، كتفيه العريضين يبثان فيها شعورًا باطمئنان، كأن انقلاب السيارة في أي وقت لا يمثل مشكلة، فقط لو ضمها إلى صدره وحماها هناك.

توقف بكتلة الصفيح الضخمة بحركة حادة لتدور حول نفسها بعنف، لولا حزام الأمان لكانت الآن مقلوبة رأسًا على عقب بداخلها، نظرت إليه

وصدرها يسحب الهواء بقوة، استدار إليها بابتسامة أهلكت ما تبقى من أنفاسها وتساءل بصوت قوي:

"إنت كويسة؟"

تلاحقت شهقاتها مما أقلقه فعقد حاجبيه وفريق العمل يقترب من السيارة بعد انتهاء المشهد، قبل أن ينطق بكلمة أخرى همست:

"كويسة قوي"

رفع حاجبًا واحدًا باستفهام مصطنع، حسنا لقد فهم الآن، ما الجديد؟ ابتسم بثقة وهو يفتح باب السيارة ملتفا حولها قبل أن يصل إليها غيره، فتح الباب المجاور لها وغمزها قائلا بمرح:

"اتفضلي يا سمو البطلة"

جف لعابها مع حركته، ابتسمت له هي الأخرى بفتنة ثم ناولته كفها لتهبط برقة وتقف أمامه، وصل باقي الفريق ليهتموا بها، فهي الجميلة، النجمة الصاعدة سلم الشهرة بسرعة الضوء، جمالها يفتح لها السبل ببساطة مع موهبتها المتواضعة.

لقد صممت أن تكون معه في السيارة رغم أن ذلك غير ممكن بالمرة، لكنها عرفت من هو؟..

وأعجبها السهم الوسيم، فقررت المجازفة إلى جواره، وكانت أكثر اللحظات -متعة ومغامرة- التي مرت بها طوال حياتها القصيرة.

انتهى اليوم بشعور جديد لديه، لقد خاض مجالًا جديدًا يعلم أنه سيكون الأفضل فيه أيضًا، فهو دومًا الأول، صاحب السبق، وحصل على موعد مع فاتنة الفيلم، أربعة أيام أخرى وسيعود طبيبه، هو يفتقده بالفعل ويود التخلص من آلة تنفيذ الأوامر التي قذفها على رأسه حظه السيء.

******

إذا كنت تعتقد أن المغامرة خطرة..

جرب الروتين فهو قاتل..

-باولو كويلو-

لرجل اعتاد مجون السرعة وتخطي حواجر الوقت، القفز نحو المجهول بجرأة ودون تردد، لوثة المغامرة وهوس الإثارة والمخاطرة، يعتبر استمراره في علاج ومداومته عليه أمر لا يحتمل، تحجيم انطلاقه وتكبيل جنونه ضرب من المستحيل المميت بالفعل، تحولت حريته اللامحدودة لروتين

يومي قاس لابد وأن يمر به في وقت محدد وفي مكان واحد حتى كاد يفقد عقله.

في اليوم التالي بعد تجربة المُخاطِر تلك توجه لمركز العلاج الطبيعي التابع للمشفى حيث ينتظره الطبيب "صلاح" في الموعد المعتاد، بخطوات واثقة عادت لها قوتها وعنفوانها دلف للمكان، أدار رؤوس بعض العاملات فحمل ثغره ابتسامة طاووسية الطابع، مزهوًا مغترًا بنفسه، دقائق وانتابه الغضب، لقد تأخر الرجل، والآن ماذا؟ اللعنة عليه حقا! جلس بصمت في أحد الأركان يتابع باقي الأخصائيين وهم يتعاملون مع مرضاهم، هذا يعنف ذاك، وهذه تبتسم لتلك، وأخرى تلقي إليه بنظرة خجول فتكرم عليها بابتسامة صاحبتها نظرة لامعة.

صوت رفض وشبه بكاء وصله من الركن على يساره، استدار ببطء متطلعًا باستخفاف لذلك الفتى النحيل الذي يتوسل معالجته بعض الراحة وهي ترفض بشدة، تحثه بشيء من القسوة، تحدثت معه قليلًا ليجده يرفع عينيه نحوها بأمل فمنحته ابتسامة مشعة استكان لها وعاد لمتابعة التدريب في صمت، حسنًا ها هي ساحرة أسطورية أخرى، ترى بماذا وعدته ليقبل على العمل بهذه الهمة وذاك النشاط؟

ظل يراقبهما لدقيقتين، فثالثة، مرت خمس عشرة دقيقة ولم يرفع عينيه بعيدًا عن ذلك الركن، الفتى يستجيب بالفعل، وبشكل جيد، كأنما ألقت عليه حقًا بتعويذة سحرية أزالت خوفه ومحت إرهاقه وتردده فانطلق يعمل بكد ونشاط، تأملها قليلا، دقيقة الجسد، لا يلمح مواطن فتنة ظاهرة، ربما لأنها تغطيها جيدًا، ملامحها رقيقة ناعمة، وله أن يخمن لون شعرها المغطى بوشاح بسيط يناسب ملابسها، ربما هو أسود، أو بني، لا يمكن أن يكون بلون أحمر أو أشقر، لها نظرة حادة زاجرة.. نالها الآن عندما أمسكت بعينيه تراقبانها فابتسم ساخرًا محييًا بأحد حاجبيه، زمت هي شفتيها في صرامة والتفتت بوجهها بعيدًا عن تلصصه، أنهت جلستها وفي طريقها للمغادرة التقت بطبيبه المتأخر لنصف ساعة كاملة عن موعده فبادلته تحية مقتضبة وخرجت.

تعلقت عيناه بالرجل المرتبك وهو يقترب منه، تلذذ بالتوتر والتشوش البادي عليه، يعلم أنه يتوقع ثورته، لكنه سيكافئه على لحظات المراقبة الماضية بالصمت، وعقاب آخر سينفذه في الحال، قبل أن يصل إليه هب واقفًا واتجه نحوه بخطوات سريعة تسمر لها الطبيب في مكانه، اقترب منه كفهد في رحلة قنص لفريسته، مد يده يقبض على معصمه ثم جره خلفه هاتفًا في مرح:

"اتأخرت يا دكتور، تعالى نشوف الكورس بتاعك جاب نتيجة ولا لا!!"

تبعه الرجل في خطوات مهرولة دون فهم، فتح باب سيارته السوداء ودفعه داخلها برفق مبتسمًا، وقف "صلاح" أمام الباب المفتوح متسائلًا:

"على فين يا أستاذ أحمد؟"

دفعه بيده مرة أخرى ليحثه على الركوب وهو يجيب بجذل:

"ما قلت لك.. هنشوف نتيجة البرنامج بتاعك"

أغلق الباب خلفه ثم جاوره منطلقًا بها، ليثبت حتى للطريق أنه سيبقى دومًا سهمًا قويًا حادًا، وسريعًا.

انكمش الطبيب على المقعد المجاور له، انتابه قلق رهيب وهو يتطلع لتلك النظرة المسعورة التي تطل من مقلتي "أحمد" بينما يقود سيارته بسرعة لا تتناسب أبدا مع الشوارع المزدحمة، يناورها، يتخطى هذا ويمر بذاك، مد يده برعشة يحكم حزام الأمان حوله ليتلقى نظرة ساخرة و ابتسامة تشبهها من المجنون المجاور له.

فجأة وجد نفسه أمام إحدى ساحات التدريب على القيادة، التفت ينظر لـ"أحمد" بتساؤل، أجابه هو بمرح:

"حزامك مربوط يا دكتور، وفي إيرباج، امسك كويس عشان هتعرف مين هو السهم الأسود بجد"

وقبل أن ينطق الرجل كان ينطلق بالسيارة بسرعة مفاجئة أنَّت لها إطاراتها مصدرة صريرًا قويًا، وصل لقرب نهاية المكان فاستدار بها بحركة عنيفة لتعود مواجهةً للطريق الذي أتت منه، انطلق ثانية، وبدأ القيادة في دوائر قطرها ضيق، تلاها دوران السيارة حول محورها، "صلاح" على وشك الإغماء بالفعل، وجهه شاحب مصفر، ويصرخ به راجيًا التوقف بلا انقطاع تصاحبه ضحكات صاخبة جنونية من "أحمد"، استمر في ذلك لدقائق أخرى، يعلم أنه لن يطيل في الأمر فدقيقة أخرى وسيفقد السيطرة، لكن ذاك عقاب كاف للكسول المتأخر.

توقف فجأة فاندفع "صلاح" للأمام ولولا الحزام المحكم حول جسده لكان عبر الزجاج الأمامي برأسه على الفور، لهث للحظات و "أحمد" يتأمله بسخرية، استدار إليه ببطء، لم ينطق، فقط فتح الباب وترجل من السيارة ليفرغ معدته أرضًا بعنف موجع جعل صاحبه يلوي شفتيه في اشمئزاز مستهجن، هبط متجهًا نحوه قائلًا باستخفاف:

"يااااه!! طلع قلبك خفيف قوي يا دكتور، مش بتقولي إني باتحسن بدرجة ممتازة؟ ولا بتجاملني؟"

التفت نحوه بوجه محمر غضبًا، صاح فيه:

"إنت أكيد مجنون، افرض في لحظة فقدت السيطرة، كنا بقينا عجينة!!"

لتقابله الضحكة العالية، بعدها صمت مفاجئ ولهجة صارمة:

"مش قلت لي إني كويس؟ إيه بتضحك عليَّ؟"

أشاح الرجل بذراعه في وجهه صارخًا:

"مش كويس لدرجة الجنون ده"

انعقاد حاجبيه أصبح قاسيًا وهو يجذبه من قميصه معنفًا:

"جنون؟ ده مش جنون يا دكتور، دي حاجة إنت مش قدها"

فقد الرجل سيطرته على أعصابه تمامًا وهو يجذب قميصه من كلابتي "أحمد" الصلبتين، عاد بعدها يهتف في حنق:

"أنا راجل متجوز وعندي ابن عاوز أربيه، لا أنا زيك كل يوم مع واحدة شكل، ولا ماعنديش مسئولية لازم أشيلها وعيلة أهتم بيها"

عبارة قصيرة، لكنها مستهزئة، قاسية، وبشدة، عصرت قلبه بعنف وألهبت عينيه وهو ينظر إلى الطبيب الذي أدرك خطأ ما نطق به في فورة

غضبه، وقبل أن يصلح موقفه كان "أحمد" قد استقر خلف مقوده ثانية وانطلق بوحشه المعدني كالصاروخ غير آبه لمن تركه خلفه.

******

عند البعض ..

الهروب خير وسيلة للدفاع.. خاصة في مواجهة الجنون..

وهذا المسلك هو ما اتبعه الطبيب "صلاح" بعد موقفه الأخير مع "أحمد" وتركه له بعيدًا عن العمران في ساحة التدريب وحيدًا بدون وسيلة انتقال متاحة، وقبلها محاولة إيقاف قلبه بتهوره.

بعد اتصال من دكتور "علي" يخبره بخجل أنه سيتأخر لأسبوعين آخرين، هاج وماج واعترض، ثم رفض، ليخبره في النهاية:

"آسف يا دكتور علي بجد مش هاقدر أكمل معاه"

استشعر "علي" الضيق وربما بعض الخوف في صوته، فسب "أحمد" في نفسه ولعن جنونه، حاول إضفاء بعض الطمأنينة والهدوء على كلامه مجيبًا:

"ليه بس يا صلاح؟ هما كم يوم كمان والبرنامج معاك يادوب تطبيق مش أكتر، وأوعدك المرة دي مفيش تأخير"

هتف هو بسرعة:

"مستحيل يا دكتور، خلاص أنا مش مستغني عن عمري، ده واحد مجنون، وكل تصرفاته بتدل على كده، سواء في الجلسات أو حتى بعد آخر مرة واللي حكيتهولك"

صمت لثوان مترددًا ثم ألقى بقنبلته:

"أنا هاحوله على دكتورة منى"

اتسعت عينا "علي" في صدمة، أو ربما رعب، هتف يلاحقه:

"إيه!! منى؟ لا يا صلاح إنت كده اللي مجنون"

رد مؤكدًا:

"بالعكس يادكتور، تخيل معايا، هي الوحيدة اللي هتقدر عليه، هتسيطر على الموقف وهتجبره على الالتزام بالبرنامج، وفي نفس الوقت مش هيقدر يتخطى حدوده معاها أو يعمل عملة مهببة زي اللي عملها معايا، لأنها مش هتسمح له، ولأنها واحدة ست"

أجاب "علي" بفهم أعمق للموقف:

"وعشان هي ست باقولك لا مش هتنفع يا صلاح"

ليعود كذبابة لحوح قائلًا:

"قصدك يعني عشان عينه زايغة؟ ما إنت عارف منى، مش هيقدر يتعدى حدوده معاها"

منحه ردًا مقنعًا:

" لا مش بس عشان كده، منى أينعم قوية وفي الشغل ما تعرفش أبوها، بس أحمد غير موضوع عينه الزايغة ده هاقولهالك بصراحة، جريء ووقح، ومش عاوزه يزعلها، إنت عارف إنها زي بنتي وأبوها صديق عزيز"

ضحك "صلاح" هاتفًا:

"مين يزعلها؟ دي هتعلمه الأدب بجد، سوري يعني يا دكتور علي أنا عارف إنه زي ابن حضرتك، بس منى قوية وهتتحمل الموقف وهتمشي معاه في العلاج صح"

تنهد الرجل، يبدو أنه لا مفر، والإلحاح لا فائدة ترجى منه، أنهى مكالمته مقررًا:

"خلاص يا صلاح، أنا هاكلمها في الموضوع وإنت بلغها التفاصيل واديها الملف بتاعه والبرنامج، ماتتكلمش معاها في حاجة تاني، ولا تقولها إنت هتسيبه ليه، تمام!"

وافقه بسرعة متنهدًا بارتياح، بعدها بدقائق كان يقف معها شارحًا موقفه، متعللًا بظرف خاص يمنعه من متابعة علاجه، وعلى الرغم من برنامجها الممتلئ عن آخره فبطيب خاطر وافقت خاصة بعدما هاتفها أستاذها بنفسه طالبًا منها العون.

في مكتبها اطلعت على ملفه جيدًا، يبدو أن لديه إرادة رائعة وقوية، ورغبة في العودة لمجال عمله بسرعة رغم صعوبة ذلك أو حتى قربه من المستحيل، لكن البرنامج الذي وضعه الأستاذ يبدو جيدًا للغاية وسيعاونه على العودة، في وقت ما ربما، أضافت إليه بعض التعديلات، جلسات متنوعة أخرى وغيرت ترتيب العمل، أصبح الآن جاهزا للبدء، جلست تراجع تعديلاتها لمرة أخيرة ثم أغلقت الملف ليبدأ العمل الجدي من اليوم التالي، وليتفقا على مبادئ برنامجه الجديد وطريقة تنفيذه والمطلوب منه بالضبط.

******

سلاح الأنثى في الغالب..

دموعها..

مصدر رقتها المذيب للذكر..

فقط إن استخدمت بشكل صحيح غير مبالغ فيه..

وعندما تتخلى الأنثى عن سلاح ضعفها واحتياجها، لتتمسك بسيف المفاتن..

تصبح الغرائز هي هدفها.. تتسلى بها.. تجذبها.. تدفعها.. تعاندها أو ببساطة تستجيب لها..

ولأنها تعلم جيدًا مدى حسنها، فقد قررت أنه يستحق بعضًا منه، تلاه قرار المنح..

وبهذا أفقدته هو غريزته الرئيسية بعد المخاطرة والجموح..

غريزة الصيد..

القنص..

داخل وحش الغاب المفترس.. وبالتالي تراجعت سيطرة باقي الغرائز..

خاصة و أنه مدرب بشكل جيد على تجاهلها، وقتما يبغي..

عندما جلست إلى جواره في السيارة، بفستان ينافس لون شعرها في ناريته، يكشف أكثر مما يخفي كأنه دعوة صريحة.. أفقدته متعة المطاردة، فخه البسيط أغلقته بنفسها عليها لمنحه ما يريد حينما يريد، وبهذا فقد الرغبة في أن يريد.

سهرة لطيفة قضاها معها، تمايلت بين ذراعيه على أنغام هادئة، ألقت برأسها على كتفه تستشعر متعة راودتها منذ وقعت عيناها عليه، عشاء شهي، بجمالها كانت أشهى وبرجولته كان خلابًا، لتصبح هي بعده في حالة استحواذ، عندما توقف بسيارته أسفل منزلها همست بأنوثة:

"ميرسي ع السهرة الجميلة دي يا أحمد، ابقى كررها"

وبين سطورها قرأ ما تخفيه وراء الشكر، فقرر لعب دور صعب المنال، ليكتفي بقبلة على ظهر كفها الناعم، و ابتسامة ساحرة ثم في النهاية وعد بلقاء جديد، رحل بعد ذلك تاركًا إياها بلا ارتواء، وبحرقة تعاند، "سوف أتملكك أيها الوسيم".

******

للمفاجآت مذاق خاص..

إن كانت مرغوبة، أصبح حلوًا كشهد الملكات..

وإن كانت صادمة، غدا لاذعًا كثمرة حامض..

كان غريبًا أن يطلبه طبيبه في مكتبه بدلا من مركز العلاج، ترى علام ينوي بعدما حدث آخر مرة؟ هز كتفيه بلامبالاة، وحملت شفتيه علامته المميزة، تلك الابتسامة الساخرة المستفزة، بخطوات واسعة متعجلة اتجه إليه،

وعلى استعداد للثورة في وجهه، فهو بالفعل لم يأتِ ليومين ولا يريد إضاعة المزيد من الوقت.

و المفاجأة التي أثارت حنقه، لم يجده هناك، جلس بانتظاره يهز قدميه بعنف غاضب، ألا يتعلم أبدا؟ بماذا سيعاقبه هذه المرة!!

غيظه بالفعل كان قد بلغ أوجه خاصة عندما أبلغه معالجه الدكتور "علي" أنه لن يعود قبل أسبوعين آخرين، ولم يصرح بأكثر من ذلك، انفتاح باب الغرفة قاطع استرساله في أفكاره، والصوت الحازم أتاه ملقيًا تحية مقتضبة:

"مساء الخير"

رفع عينيه نحو القادم الجديد، ليحصل على مفاجأته الصادمة، ويبدأ بركان غضبه في الثورة استعدادا لإحراق من يقف أمامه، أتاه السؤال بعملية:

"أستاذ أحمد الشاذلي، مش كده؟"

لم يجب، انعقد حاجبيه فقط، صمت لثوان طالت ثم فتح فمه ليبدأ في صب حممه المستعرة بقوة، حتى تأتي على الأخضرواليابس بحق.

(4)

وقح

متى ما كنت رجلًا، تكن لك امرأة

متى ما كنت ذكرًا، تكن لك أنثى

متى ما كنت ملكًا، تكن لك أميرة

متى ما كنت عاشقًا، تكن لك متيمة

فلا تكن "لا شيء"، وتريدها أن تكون "كل شيء "

-عائض القرني-

حمل حقائبه ملأى بالخيانة، ترك لها ذكرى الألم، وذهب بلا عودة، رائحة أنثى غيرها استقرت على كتفه، وقبلات منها وسمت بها عنقه، وهو.. لم يهتم بمحو الأثر، كأنه يتبجح بقدرته الذكورية ضد ضعفها وخنوعها الأنثوي.

متى كانت خاضعة؟ معه، له، لأجل عشق ظنت يومًا أنه يسكن جوارحه لها هي فقط، وتأتي رصاصة الغدر لتخترق قلبها، تسقط دعامة أمان

لحب مسطور على الماء، لا تلبث أصابعك أن تترك أحد الحروف حتى يتلاشى في دوامة تختفي بعد ثوان.

ثمار قربه لم تكن كلها شائكة موجعة، بل هناك شيئًا منحها إياه، ورحل، تركه ورحل، بلا اهتمام أو مبالاة، كأنه لا يخصه، لا ينتمي إليه، ليس قطعة منه، تطلعت إلى الساكن ضئيل الجسد نائمًا بجوارها باطمئنان، مالت تمس بشفتيها جبينه أسفل غرته الناعمة، وابتسامة حنان تجبرهما على الانفراج، مادام الوجع يسكن لوجودك، فلا أهتم بحدوثه .. يا صغيري.

رفعت عينيها تتأمل غرفته بابتسامة، السيارات في كل مكان، الحمراء الشهيرة تحتل جدارًا بأكمله وتستكين نسخة متحركة منها قرب الفراش والذي بدوره على شكل سيارة، بمرور السيارات في ذهنها استعادت ذكرى مقابلتها لذلك الوقح، بطل السباقات ظُهر هذا اليوم، لولا توصية أستاذها واهتمامه به لركلته خارج المشفى بأكمله، فما إن ألقت عليه تحية المساء وتساءلت عن هويته إلا وهب و اقفًا كإعصار يتطلع إليها بغضب، تساءل بعده ضاغطًا على أسنانه بعنف:

"فين دكتور صلاح؟"

رفعت عينيها إليه في دهشة، ثم أجابت باقتضاب:

"دكتور صلاح اعتذر عن استكمال البرنامج بتاع حضرتك بسبب ظرف خاص، ودكتور علي حول لي الحالة، اتفضل اقعد لأن في شوية تعديلات ع الكورس محتاجين نتكلم فيها"

عقد حاجبيه وغمغم بسخرية تحمل لمحة غضب نارية:

"جبان"

زوت ما بين حاجبيها لتتأكد مما سمعت:

"أفندم؟"

رد باشمئزاز وتبجح:

"بأقول جبان"

وترفع حاجبيها في دهشة ثم يعودا للانعقاد بغضب صارم قالت بعده في حزم:

"تقدر تقوله كده في وشه مش قدامي، واتفضل اقعد عشان نشوف هنعمل إيه!"

زم شفتيه في غيظ، ثم جلس باسترخاء على المقعد المقابل للمكتب يراقبها وهي تتحرك لتجلس خلفه، لاحظت نظراته المقتحمة الجريئة لكنها تجاهلتها تماما، وصلها صوته متسائلًا بسخرية كأنها تلازمه:

"هتعدلي على برنامج دكتورعلي؟"

بعملية مقتضبة ولهجة جافة أجابت:

"أيوة يافندم، هازود شوية حاجات بسيطة تحسين للبرنامج، ولو مش واثق في التعديلات تقدر تتكلم مع دكتور علي بنفسك وهو هيو افقني عليها"

رفع حاجبا بدهشة مصطنعة مغمغًا:

"للدرجة دي؟"

بنفس اللهجة كان ردها:

"أيوة، دكتورعلي أستاذي"

منحها ضحكة مستفزة قال بعدها باستخفاف:

"والطالبة النجيبة بتعدل على أستاذها..!"

أغلقت ملفه المفتوح أمامها بملل، لتجيب منهية هذا الحوار السخيف:

"لو الأستاذ مش ممانع إيه المشكلة؟ ممكن نبدأ الكلام المفيد؟"

لوى أحد طرفي شفتيه بابتسامة ساخرة وأعطاها نظرة أن هاتي ما عندك، تحدثت معه باقتضاب شارحة تعديلاتها البسيطة، وهو يستمع بنصف أذن وبلا عقل تقريبًا، أنهت حديثها قائلة:

"وبالنسبة لمكان الجلسات للأسف مش هأقدر أتابع مع حضرتك هنا، فده عنوان عيادتي اللي هنشتغل فيها بإذن الله"

تناول منها الورقة التي خطت عليها بخط أنيق دقيق عنوانها، ثم تساءل مستهجنًا:

"عيادة؟ هاتعالج بحساب جديد مخصوص؟ كمان؟"

ضمت شفتيها غضبًا من هذا المتبجح، شبكت أصابعها الرقيقة فوق المكتب فتعلقت عيناه بها للحظة، لايوجد خاتم زواج، انتزعه صوتها من أفكاره:

"يافندم أنا جدولي مزحوم جدًا، مش هاقدر أدخل حضرتك مكان حالة باتابعها هنا، ووجودك في المركز عندي مالوش تمن ما تقلقش،أنا اللي حولتك فبالتالي مش هادفعك حاجة"

رمقها بنظرة وقحة مستفزة أشعلت سخطها قبل أن يأتيها جوابه أكثر وقاحة:

"بس أنا ماعنديش مانع أدفع"

وهو يتأملها بنظرة ذكورية بحتة مزجت حمرة الخجل بحمرة الغضب على وجنتيها، استدرك نفسه قبل أن تبدي أي رد فعل وهب و اقفًا مستعدًا للرحيل، لم يقاوم أن يسأل بلهجة ملتوية:

"ميعادنا إمتى؟"

عقدت حاجبيها غيظًا، تجاهلت طريقته ثم ناولته ورقة مطبوعة عليها جدول مواعيده، فتحها ليلقي نظرة فقالت:

"لو في أي مواعيد مش مناسبة لحضرتك؛ تقدر تتكلم مع سكرتيرتي وهي هتظبط لك الجدول بإذن الله"

نطق اسمها المدون على الورقة ببطء:

"دكتورة منى سيف الدين!!"

ثم رفع عينيه نحوها في تدقيق مكررًا بلهجة ذات مغزى:

" منى!! "

فهمت مقصده لكنها أجابت بلا اهتمام:

" أيوة، بعد إذن حضرتك، عندي جلسة دلوقتِ "

قالتها ثم تحركت أمامه خارجة من الغرفة قبل أن تشج رأسه بأي شيء في متناول يدها.. تربيتة حنون على كتفها أخرجتها من شرودها فرفعت عينيها لصاحبها، إشارة بالصمت مع ابتسامة، وهمسة خافتة:

"نام، تعالي برا بقى"

منحته ابتسامة رقيقة وهي تتمسك بكفه وتتبعه خارج الغرفة، أغلقت الباب بهدوء ثم توجهت نحو غرفة المعيشة، جلست إلى جواره فأشار لصدره بحنان قائلا:

"تعالي في حضني، إيه ماوحشكيش؟"

اتسعت ابتسامتها وهي تلقي بنفسها بين ذراعيه مجيبة بحب:

"ما أقدرش أستغنى عنه"

ربت على شعرها برفق، سألها بتردد:

"مافيش أخبارعن سامح؟"

شعربتلك الرجفة التي سرت في جسدها رغما عنها، كأن ذكره دومًا يسبب لها البرودة، حتى في قلبها، تنهدت وهي تدفن رأسها في دفئه، ردت بصوت شاحب:

"مافيش، مش بيحاول يسأل أويهتم، و أنا مش هادورعليه، هوحر"

عاد يلح، رأفة بالصغير:

"ابنه بيسأل عليه"

رفعت عينيها إليه، لمعة دامعة ظهرت في مقلتيها وحيرة ترتسم هناك، هزت كتفيها دليل قلة حيلتها، وأجابته بتوتر:

"أعمل إيه يا بابا؟ هو مش عاوز ابنه، سنتين مختفي، ما أعرفش هو فين أو مع مين! و ابنه يوميا بيسألني، نفسه يحس بوجوده بس هو مستغني وبايع من زمان، خلاص بقى"

ربت على شعرها ثانية والألم يكتنف قلبه على صغيرته، غير الموضوع ببساطة:

"أخبار الشغل إيه؟ مفيش جديد عندك؟"

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيها وهي تجيبه بلهجة شبه مرحة:

"في جديد وشكله هيغلبني"

ضحك وهو يرفع وجهها نحوه متسائلًا بدهشة مصطنعة:

"يغلبك؟ دكتورة منى بنت دكتور مصطفى سيف الدين بجلالة قدرها تقول هيغلبني؟ مش مصدق"

ردت متظاهرة بالاستسلام:

"مالوش حل يا بابا؟ حالة مستعصية، بطل سباقات وعايش الدور، عاوز يرجع بطل تاني وبيحفرفي الصخر"

قال بسرعة:

"طيب دي حاجة كويسة، أي برنامج هتعمليه هيو افق عليه مادام عاوز يرجع زي الأول"

تنهدت مخفية رغبتها في البوح له عن ذاك المتعجرف والذي يستحق صفة قليل أدبٍ بجدارة، فقط و افقته بصمت، وهي تتطلع بقلق للغد، حيث يحين موعد أولى جلساته، وتمتمت في قلبها "ربنا يستر".

******

"قفل"

همس بها لنفسه مبتسمًا بسخرية، وهو يتذكر ملامحها الرقيقة، ورغم ذلك صارمة، لهجة حادة قاطعة، نبرة زاجرة، و أنوثة ناعمة للغاية، كأنه لو لمسها ستنكسر فورًا، ترى هل يمكنه لمسها فعلا؟ مستفزة هي لأقصى حد، ويمكنه أن يمارس وقاحته معها كما يريد.

ربما تراجُع ذلك الجبان "صلاح" عن استكمال البرنامج معه أمر جيد على كل حال، منذ دقيقتين أنهى مكالمة مع الفاتنة "سهر"، تخبره عن شوقها، بابتسامة تقبل هو هذا الشوق، ومنحها بكرم حاتمي كلمتي غزل، ثم عادت طبيبته تحتل تفكيره، ليعود هو فيغضب من نفسه، لقد تذكرها وهي كأنها تراه للمرة الأولى، هل حقا لا تعرف من هو؟ أم تتجاهله فقط، تلك الساحرة الصغيرة، "لا تملكين تعويذة تبطلين بها سحري أنا يا جميلة".

ابتسم ثانية وهو يتخيل ما يمكن أن يقوم به معها فقط ليحظى بوجنتين محمرتين كما اليوم، بدت شهية للغاية وذاك الغضب الرقيق مرتسم على محياها، اتسعت ابتسامته واضعًا خطة محكمة تناسب ذلك "القفل" .

طرقات مرحة على بابه ثم فتح ليظهر الصغير على عتبته هاتفًا بمكر:

"قاعد لوحدك ليه يا جميل؟ يا جميل.. يا جميل...."

أخرسه مقاطعًا:

"بس، هو إيه؟ الشريط سف!!"

قهقه "عمرو" وهو يجلس إلى جواره على الفراش بخفة، رد بمرح:

"واحشني يا أبوحميد والله، فينك ياراجل؟"

نظر له بغيظ، فاستطرد ضاحكًا:

"طيب بلاش دي، عامل إيه في الشغل الجديد؟ وأخبار المزز إيه؟"

ابتسم هذه المرة بغرور وهو يجيب:

"عيب يا ابني، الشغل تمام ومزة الفيلم الأولى لسه قافلة معايا من شوية بتقوللي إني وحشتها قوي قوي قوي"

لكمه شقيقه في كتفه هاتفًا بحسد مصطنع:

"أيوة يا عم، مين قدك بعيونك الزرق دول؟"

ضحك "أحمد" فعاد يسأله بجدية هذه المرة:

"وعامل إيه مع الدكتور بتاعك؟"

ابتسم بتهكم مجيبًا:

"طفش"

نظر إليه "عمرو" بتساؤل فأكمل:

"جبان يا بني، أخدته معايا كام دريفت ومش عاوز أقولك على اللي عمله أول ما نزل من العربية"

هتف "عمرو" في دهشة:

"أوبااااا، رعبت الراجل يا أبوحميد!!"

فرد بسرعة:

"هو اللي جبان"

هز شقيقه رأسه في استسلام وعاد يسأل:

"وبعدين، مين هيكمل معاك لحد دكتور علي ما يرجع؟"

أجابه شاردًا للحظة:

"حولني على دكتورة زميلته"

رفع "عمرو" حاجبيه في دهشة، ثم ربت على كتف أخيه بحميمية هاتفًا بمرح:

"أيوة بقى، قلت لي، دكتورة، ومزة الفيلم، مين قدك يا ابن المحظوظة؟"

ابتسم "أحمد" قائلًا:

"لا مش دي"

سأله:

"ليه، مش حلوة ولا إيه؟"

أجاب بسرعة:

"لا حلوة.. رقيقة كده.. بس!... قفل"

ضحك "عمرو" بشدة و قال وهو يغمزه:

"و إنت معاك المفتاح يا كبير"

هز رأسه مرددًا:

"قفل مصدي يا عمور"

وتعالت ضحكاتهما سويًا، بعدها قال "عمرو":

"عمك بيسلم عليك، كان بيسألني إنت ناوي على إيه؟ مارضيتش أقوله على موضوع الدوبلير ده لحد ما أشوف آخرك فين؟"

تنهد بعمق مفكرًا، إلام سينتهي حقا؟ لن يستمر للأبد في تلك المهنة التي يمقتها لكنه رمى بنفسه إليها فقط ليحظى بالقليل من لحظات المتعة، مستمتعًا بالإثارة والخطر، هو مجنون ربما، هل يعرض نفسه للموت؟ ربما أيضا، لكنه عشق يسري في دمائه، ولا بديل.

كان شقيقه ينظر إليه في شروده، يعلم أن الأخ الأكبر لا يتحمل القيود، يكرهها بقوة قد تتحول لعنف، ولذلك كان تمرده منذ اللحظة الأولى، هو لا يمانع أبدًا في عمله مع العم، ففي جميع الأحوال هذا هو ما درسه، لكن "أحمد" عاشق السرعة والانطلاق بحرية دون قيد أو شرط لن يتحمل

لحظة خانقة خلف مكتب، في اجتماع أو حتى قراءة بضع أوراق تخص العمل، لزم الصمت حتى أتاه رد أخيه:

"والله يا عمرو أنا نفسي مش عارف آخري فين؟ عاوز أرجع التراك تاني، أسافر، أسابق وأسبق، بس لحد دلوقتي مفيش فايدة، مش سهل عليَّ الحالة اللي وصلت لها، مقيد للأرض غصب عني، مش قادر أبعد، حتى إني أتنازل وأشتغل حاجة زي دي لمجرد ممارسة حاجة بحبها ولو للحظات قصيرة"

تنهد ثانية بحرارة ثم أغمض عينيه مستندًا بظهره إلى وسادة خلفه، استطرد بنبرة تحمل شيئًا من الغضب الممتزج بالحزن:

"مش هاهدى ولا أرتاح إلا لما أعرف مين عمل فيَّ كده، وأرد له اللي عمله"

اتسعت عينا شقيقه ثم هتف بتساؤل قلق:

"يعني إيه ترد له اللي عمله يا أحمد؟"

انزلق في فراشه مستعدًا للنوم، موحيًا للصغير بالرغبة في الوحدة، أجاب بغضب واضح هذه المرة متخللًا لهجته المخيفة:

"يعني يدفع التمن"

ثانية أخرى تبعتها الجملة القاطعة:

"تصبح على خير"

قلق شديد انتاب "عمرو" وهو ينظر إليه، لا يدري ما يفعل حقًا! لكنه استجاب لرغبة شقيقه ونهض بهدوء مغادرًا الغرفة، أطفأ الأنوار خلفه وعقدة قاسية تخط نفسها على جبين السهم قبل أن يستسلم لنوم يغزوه كابوس واحد متكرر..

طعنة.. دماء.. رعشة..

فموت على قيد الحياة.

(5)

جنون ذكَرِيّ النكهة

لا حياة تكتمل بدون لمسة جنون..

-باولو كويلو-

عندما يتعلق الأمر به، لا يصبح الأمر مجرد لمسة، بل يتخطى كل الحدود، يحطم الحواجز، يعبر الموانع والعقبات، وبقوة وسرعة.

جنونه له نكهة خاصة، لا تشع إلا من هالته هو، وعندما يعتمد جنونه كوسيلة للوصول للهدف، فعليك بتوخي الحذر، هنا لن يوقفه شيء، مهما كان نوع الهدف، ومهما كانت طريقة الوصول إليه.

ميكيافيللي، نعم، يعترف، ومعها، قرر أن يتسلى قليلًا، ويجرب تحدٍ من نوع جديد، سد عالٍ، يعلم متانته، فهي تتقافز بعنف في نظراتها العسلية اللامعة، وشفاه ممتلئة باعتدال لم تخطها ابتسامة طوال اللقاء، جافة، حادة كسكين، لكنها ربما تحتاج لمن يبرد حدها، ويمنحها شيئا لا تستطيع قطعه.

استعد في عصر اليوم التالي، متسلحًا بوسامة نافذة، عطر مثير، قميص قطني أسود قصير الأكمام يبرز صدره العريض، وجينز بسيط، منظاره الشمسي الضخم يحجب وقاحة سيستخدمها كسلاح في الوقت المناسب.

قاد سيارته بابتسامة، وتخيلات للدقائق التالية، حمرة سيعمل على أن تزين وجنتيها اليوم أيضًا، وفي كل مرة، عندما دلف للمكان بثقة حاجبا عينيه خلف عدستين سوداوين، التفتت إليه بضع نظرات، فازداد غروره مقدارًا آخر، بابتسامة جذابة سأل مساعدتها:

"أحمد الشاذلي، في جلسة كمان خمس دقايق مع دكتورة منى"

راجعت المرأة أوراقها ثم أشارت له بالجلوس مجيبة بعملية:

"أيوة يافندم، دقايق الدكتورة تنهي الجلسة اللي معاها"

استجاب ببساطة لإشارتها، جلس يدور بعينيه في المكان مستكشفًا، مكتب أنيق، بذوقٍ راقٍ، بضع شهادات طبية معلقة هنا وهناك كعادة الأطباء، ألوان جدران كريمية ناعمة تناسب أنثى حقا، ابتسم بخبث، وأي أنثى؟ إنها "قفل"، بعد الوقت المحدد توجه إلى غرفتها، استقبلته بهدوء وهي تنهض من خلف مكتبها متجهة نحو باب جانبي قائلة بحزم:

"اتفضل يا أستاذ أحمد"

تبعها ببطء متطلعًا حوله، التقطت عيناه صورة على المكتب، لم يعرف محتواها، فأثار الأمر فضوله، بعدما عبر الباب كان في غرفة واسعة للغاية، بها عدة أجهزة رياضية، وأجهزة طبية تعامل مع بعضها سابقًا، وجدها تقف إلى جوار أحدها تتفحصه باهتمام ثم تراجع بضعة أوراق في يدها، أشارت له بالاقتراب دون أن تنظر إليه، وبلهجة آمرة:

"اقلع التي شيرت لو سمحت"

رفع حاجبيه بلا داع مع نظرة خبيثة لمعت في عينيه، بسرعة استجاب لطلبها، خلع منظاره الشمسي مع قميصه، تركهما على مقعد جانبي ثم توجه نحوها، إشارة أخرى حازمة ليجلس على مقعد آخر أمامها، بعملية وسرعة يد خبيرة بدأت بتثبيت عدة أقطاب على صدره وكتفيه وظهره وهو يتابعها بنظرات ماكرة، سألها بنبرة تحمل بعض الخبث:

"هو إيه ده؟"

رفعت عينيها إليه بشرود كأنها لم تنتبه لوجوده إلا عندما تحدث، ثم ردت باختصار:

"اختبار كهربائي، عاوزة أعمل تيست سريع لسرعة التوصيل العصبي عندك وتخطيط كهربي بسيط للعضلات"

بدأت في تشغيل الجهازوهو يرد بنفس اللهجة:

"عضلاتي مالها؟ مش تعباني في حاجة، بالعكس زي ما إنتِ شايفة"

قالها وهو يرفع ذراعيه إلى جوار رأسه ويشد صدره بقوة مُظهرًا صلابة عضلاته الرياضية أكثر متباهيًا بها، عقدت حاجبيها ولم ترد، تابعت شاشة أمامها باهتمام وهو يتأملها متفرسًا في كل جزء منها.

ملامحها الناعمة فيها شيء يجذب عينيه دوما لا يدري ما هو..!

طريقتها في التعامل بجدية ودون انتباه حتى أنه بلا قميص، أو كيف يبدو!! -وهو يعلم جيدا كيف يبدو- أثارت حنقه، ليست مجرد قفل، إنها لوح قطبي متجمد من الثلج، قرر التسلية قليلًا فصمت للحظات ثم أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يهمس بصوت دافئ قرب أذنها:

"إمممممم.. رمان، أناناس، وزهور.. أخمن و أقول Envy me من Gucci"

ابتعدت بحركة حادة ردت بعدها بحزم:

"أستاذ أحمد ممكن نركز في الجلس ؟ مش من مصلحة حضرتك ضياع الوقت"

ابتسامة شقية تلاعبت على شفتيه فهزت رأسها في حنق وهي تدير إليه ظهرها لتطالع الشاشة مرة أخرى من زاوية مختلفة، بعبث عاد يهمس:

"البيرفيوم لذيذ وسويت عليكِ، بس يناسبك أكتر.. إمممممم Premiere من Gucci برده"

بقوة سيطرت على أعصابها، هذا الوقح، قليل أدب لا أكثر ولا أقل، لم ترد، وهذا هو ما يستحقه، التجاهل التام، دونت بضع أشياء، طلبت منه بضع حركات نفذها بسرعة، بعدما انتهت أزالت الأقطاب وتوجهت نحو جهاز رياضي مشيرة إليه ليتبعها، نصحته بهدوء بعدما جلس هناك:

" يفضل بلاش جينز في الجلسات، أكيد حضرتك مجرب مع دكتور صلاح، عشان حرية الحركة في التمارين"

بلهجة موحية كانت إجابته:

"بس بحبه"

منحته نظرة تحمل لمحة احتقار أغاظته، فقرر عقابها، هتف فجأة متألمًا، مدعيًا وجعًا غريبًا يكتنف ظهره، عقدت حاجبيها في قلق ثم طلبت منه التمدد على فراش الكشف، بعدما نام على بطنه ارتدت قفازًا طبيًا و اقتربت منه مصطحبة أداة غريبة، ضغطتها على مواضع متفرقة من ظهره، لم تشعر بحركة منه، فضغطت بيدها في رفق فوق موضع الجرح الواضح متسائلة باهتمام:

"هنا في ألم؟"

انتفض فجأة إثر ضغطتها مع صيحة قصيرة أثارت توترها، عادت تسأل:

"خير حسيت بإيه؟"

أجاب بخبث واضح ولهجة عابثة:

"مافيش، أصلي بأغير"

كادت تلكمه بعنف بعد رده ذاك وهي تهتف بدهشة:

"أفندم!!"

ضحك بمرح وهو يدير وجهه نحوها مجيبًا:

"إيه يا دكتور؟ بأغير، حسيت بزغزغة.. غريبة!!"

زمت شفتيها، وقرار التجاهل الثاني، لكنه فقط لم يمنحها الفرصة، دقائق أخرى استجاب فيها جيدًا لتمارينه، ثم انتابته رغبة العبث معها من جديد، سألها متظاهرًا باللامبالاة، رغم اهتمامه وغضبه من موقفها:

"على فكرة أنا معجب بطريقتك جدًا من يوم ما شفتك في المركز، فاكرة اليوم ده؟"

بتأفف وعينان مهتمتان بنتائج ما يقوم به فقط أجابت بلا اهتمام فعلي:

"الحقيقة لا، وميرسي على ذوق حضرتك، نكمل بتركيز لو سمحت!"

ضغطت حروف "حضرتك" تنبهه لطريقته في الحديث معها، تجاهلها وهو يشعر بالغيظ، كيف لا تتذكره لقد نظرت إليه؟ بل منحته زجرًا بعينيها، ورده بسخرية، ذكرها بلؤم:

"إزاي؟ مش معقول.. إنت يومها شفتيني كويس، كان معاكِ ولد حوالي 15 أو 16 سنة ومش عاوز يكمل تمرينه"

عقدت حاجبيها متذكرة، فاستطرد بلهجة شغوف:

"و إنت سحرتيه"

رفعت عينيها إليه باستنكار فاستدرك بابتسامة لعوب:

"كلمتيه شوية بعدين لقيته بيستجيب حلو قوي"

تنهيدة حارة أخرى مع صمتها الذي استفزه ثم همسة بمكر:

"ساحرة"

تجاهل آخر، كأنها تتعمد ذلك، لكن من قال أنه يتوقع تساهلا منها!! هي تحدي جديد، تحدي صعب، وهو!!... هو يعشق الصعوبات ويخوضها بجرأة حد الوقاحة، قرر أن يكون ذلك مسلكه معها ولنرى من يفوز في النهاية!.

شعرت هي أن جلسته قد طالت لساعات، عندما انتهت؛ تنهيدة ارتياح خافتة تسللت من صدرها، هذان أسبوعان سيطولان للغاية، وهي فقط تدعو بالصبر، في النهاية غادر و لم يحصل على حمرته الخجول التي تمناها، ودعته بجفاء وهي تستقبل التالي باهتمام و ابتسامة حنون أثارت حنقه أكثر، رغم أنه كان مجرد طفل.

******

وقح.. مغرور.. متعجرف.. قليل أدب.. ووسيم للغاية..

وصف بسيط، يحمل بداخلها الكثير، كأنه نسخة أخرى منه، الفارق الوحيد أنه واضح، صريح، يعتز بوقاحته تلك ولا يخفيها عنها، بل يتعمدها معها، كقبطانها تماما مع الاختلاف، غزا قلبها، تحكم بلجام مشاعرها، أخذ براءة قلبها وهي بعد صغيرة، انبهرت بحبه لها، أو هكذا ادعى، فضلها على باقي النساء، فسقطت أسيرة هواه، لكنه دومًا ظهر في عينيها بصفة "فارس" لم يكنه يومًا.

طويل، أنيق، عينان مقتحمتان بلون غيوم السماء، بذلة وقبعة، وسيطرة قبطان البحار الرحالة، زيارة لصديق في كليتها، و اصطياد، سحبها معه لعالم من الرومانسية الناعمة، زواج قبل أن تنهي دراستها، وبذرته بداخلها في وقت امتحاناتها، انتفخت بها، رسم سعادة كاذبة على وجهه، ضحت لأجله بالكثير، تعبت، أُرهِقت، أعطته "مالك" فقبله لبعض الوقت، ثم شعر أنه لم يكتفِ بعد، فغادرها لأخرى، وعاد ببقاياها يتبجح بها.

صرخت، غضبت، بكت، ضعفت، و أتى الانهيار، ثلاثة أشهر لم تر البشر، ونقاهة أخرى، قبلها كان انفصال..

ثم رحل..

إلى الآن، عامان بلا عودة، لهذا هي تكرههم، تخشاهم، تتحاشي أي تواصل مع نوعهم، ثم يأتي هذا القادم الجديد، بمحاولات تعلم أنها ستدوم لنصف شهر، يستنفر طاقته ويغازلها، يستميلها، وكأنها لعبة، عقدت حاجبيها في غضب، هل التجاهل هو الحل؟ كيف ستوقفه عند حده؟ هل تتخلى عن حالته هي الأخرى؟ لكن منذ متى ترفض التحدي؟ تهرب من المواجهة؟ فعلتها مرة و انكسرت، لذا لن تتكرر، وهو.. سيخضع

ويضع لسانه الطويل بفمه ثم يغلق عليه أسنانه وإلا ستخيطه هي له وتمنعه من النطق بحق.

توقفت بسيارتها أسفل منزلها، لمحت سيارتها هناك، حسنًا لقد أتت بنفسها وستخرج غضبها فيها بعد ما حدث اليوم بسببها، صعدت بسرعة ليستقبلها الصغير بحضن دافئ، قبلة على الوجنة وفرحة:

"ماما وحشتيني"

حملته رغم ثقله، أعادت له قبلته عشرًا، همست في أذنه:

"إنت وحشتني أكتر"

وصوت مرح من الخلفية:

"أنا حفظت برق بنزين مشهد مشهد وجملة جملة يا منمن، خلي ابنك يرحمني"

رفعت عينيها في غيظ للفتاة الو اقفة أمامها، هتفت فيها بحنق:

"أحسن، تستاهلي"

رفعت حاجبيها بدهشة ثم ضحكت مرددة باستغراب:

"أستاهل!! ليه بس كده يا منمنتي؟ يعني أنا جاية لك من اسكندرية يومين وراجعة تعملي فيَّ كدة إنت و ابنك؟"

أنزلت صغيرها أرضًا والذي عاد أمام جهاز الحاسب المحمول على أريكة غرفة المعيشة يتابع فيلمه المفضل، نظرت إليها ثم عقدت ذراعيها فوق صدرها هاتفة بحنق:

"عملتك المهببة النهاردة، البيرفيوم اللي رشيتيه عليَّ الصبح في المستشفى، فضل ماسك فيَّ لحد ما مريض عندي علق عليه، عاجبك كده؟"

ضحكة أخرى ثم رد ساخر:

"آه معلش نسيت إنك مش بتستخدمي بيرفيومز برا البيت، خليكِ إنتِ في داوني وكومفورت"

زمت "منى" شفتيها، لا فائدة من هذه الفتاة، وقبل أن ترد سألتها هي:

"المريض ده بقى علق قال إيه؟"

عقدت حاجبيها وبدلا من أن تجيبها سألتها:

"هو اسمه إيه؟ ماركزتش الصبح"

أجابتها بهزة كتف:

"Envy me"

زفرت حانقة، الأحمق خبير في عطور النساء، بالطبع، ومن غيره سيكون زير نون النسوة هذا؟ تساءلت الفتاة ثانية:

"ما تقوليش إنه عرف اسمه؟"

ردت مغتاظة:

"أيوة عرف يا ستي"

وبداخلها سخط يتصاعد حد الفوران، عطر الوقح المقترح!! هو مفضل "سامح"، دومًا ما همس في أذنها أنه لا يليق إلا بها، وكأنه صنع خصيصًا لأجلها، كان يختار لها عطورها التي تضعها من أجله، فقط له، وغالبًا المثير منها، ليتبعها في كل مكان في منزلهما، يتشممها بعمق، يضمها، ثم ينهل شهد حبها في غفلة منها، كانت معه دوما ثملة، تعاقر هواه كمدمن خمر، يستمتع هو بدلالها، عشقها، اهتمامها وحبها، وفي النهاية.. أصابه الملل، أو ربما الجشع والطمع، فأنثى واحدة لا تكفي فاحش الذكورة والوسامة، حتى وإن اعترف لها بعشق.

ورقة حقيرة..

عطر أخرى لا تمتلك مثله هي..

بقايا حمرة لامعة..

والنتيجة فراق..

زواجًا عرفيًا من امرأة غيرها، وقتها أخبرها أنها نزوة، مجرد خطأ، طلب سماحها، بل وطمع في الغفران، وعندما انهارت باكية ضعيفة، وأصرت على الطلاق، منحها إياه وغادر، بعدها لم يعد.

عامان لم ير طفله، رحل وهو ابن أربع، وكل ليلة تحكي له مغامرات والده قبطان أعالي البحار، سندباد خاصته، يستمع هو بنشوة، ثم يتساءل: متى يعود؟ وتجيب: قريبا.

طرقعة بأصبعين أمام عينيها أخرجتها من شرودها، أتاها صوت الفتاة:

"رحتِ فين؟ بأقولك قالك إيه لما عرف؟"

شعرت بالغيظ، فهي لن تقول ما ردده ذلك الوقح على مسامعها، يبدو أن تلك الصفة ستلتصق به داخلها على الدوام، أجابتها بحنق:

"عادي يا وصال، هو تقريبا أخته أو مراته بتستخدمه"

غمزتها بخبث:

"إمممم قلتِ لي! مهتم بالبيرفيوم عليكِ لدرجة إنه يعلق عليه، إنت متأكدة إنه متجوز؟"

عقدت حاجبيها موحية إليها أنها خاضت مستنقعًا خطرًا، فتراجعت "وصال" هاتفة:

"إيه يا منمن؟ عادي باسأل"

أشاحت بيدها بلا اهتمام وهي تتحرك من أمامها قائلة بسخط:

"مش فايقة لك بجد"

توجهت لتجلس إلى جوار صغيرها، ضمته إليها بحب، استنشقت رائحة برائته وأغمضت عينيها في حلم يقظة، حلم بسعادة لقرة عينها، حلم بعودة أبيه.

******

ابتسمت، فقط ابتسمت.. وذاب هو..

لقد نالها أخيرا، ابتسامة رقيقة، داعية، فاستجاب..

ليس بغرور، أو بتنازل من الساحر الوسيم، بل برغبة في القرب.. بحب..

مدت كفها بأصابعها الرقيقة نحوه، فتناولها بلهفة، لثمها بدفء، جذبها إليه..

والتالي.. نية.. تلاها عزم بفعل..

سينهل من شهد شفتيها الناعمتين كما يتمنى..

انحنى مقتربا، وقلبه يدفعه لتملكها..

وقبل اللمسة.. أفزعه ذلك الصوت..

فتلاشت هي.. تسربت من بين أصابعه وتسمر هو بعينين متسعتين في رهبة و.. غضب..

فتح عينيه مغتاظًا ثم التقط هاتفه ليلقي نظرة على المتصل الأحمق الذي قطع عليه حلمه، وجدها فاتنة الفيلم، أغلق الصوت، ثم الهاتف، واحتضن الوسادة على أمل استكمال حلم تلذذ بكل لحظة فيه، رغم دهشته من أن تراوده هي في منامه، بابتسامة أغمض عينيه، هامسا:

"لذيذة"

(6)

صفعة = لمسة

ليتها شقراء ..

بل ليتها حمراء ..

تلك البراءة وهاته النعومة، عسل يغمر العينين، ويغلف خصلاتها برقة يذوب معها قلبه، كانت مجرد حلم، لكن للو اقع هو أقرب، لون شعرها في حلمه، طوله، انسيابيته، كيف تخيل تلك التفاصيل و...

أتراها حقيقية؟

عندما حان وقت جلسته هذه المرة كان ينوي أن يحظى بلمسة، مهما حدث، ومهما كانت النتيجة، يعلم أنها ستغضب، وربما ينال صفعة..

أوليست الصفعة.. لمسة!!

لكنه مستعد للمخاطرة، لم ينس حلمه بعد، بشرتها الحريرية، دفء أصابعها، و ابتسامتها، التي كانت له هو، وحده وفقط.

تبعها للغرفة المعتادة، توليه ظهرها تتابع أجهزتها باهتمام لتبدأ العمل، عندما استدارت إليه وجدته بلا قميص، أدارت عينيها متشاغلة بأوراقها وهي تخبره:

"حضرتك ممكن تلبس التي شيرت، النهاردة شغلنا كله تمارين"

اقترب خطوة، ثانية، ثالثة، وقف أمامها تماما، فرفعت عينيها إليه بتساؤل ممتزج بتحدٍ أن يقترب أكثر، ابتسم بلؤمه المعتاد وتلك اللمعة الصارمة في عينيها تحفزه بشدة، أجابها مدعيًا وهو يشير قرب عنقه:

"طيب، بس في وجع بييجي هنا من إمبارح، مش عارف ليه، وحاسس إن في حاجة مكورة تحت الجلد"

عقدت حاجبيها، أهو جاد؟ تشك فيه ولا تثق في إدعائه أبدًا، فوجئت به يمسك بكفها ويسحبها ليقربها منه أكثر، وضع يدها الناعمة عن المسافة الواصلة بين عنقه وكتفه مستطردًا بلهجة شغوف:

"هنا كده، حسيتي بيها؟"

انتفضت وهي تسحب كفها منه مبتعدة، لم تشعر بشيء متكتل كما يدعي، فهي لم تعطه فرصة، وهو..! هو شعر بلسعة نار، إذن ليست مجرد لوحٍ من الثلج، هناك جنية نارية تختبئ بداخلها، لم يتأثر، ولِمَ يتأثر؟

ليست أول لمسة من إحداهن وبالطبع لن تكون الأخيرة، إذًا مصدر الحرارة تلك منها هي، وليس منه، ليس ردَ فعلٍ على لمستها الخاطفة، وصله صوتها حازمًا، حقا هي قطبية:

"أستاذ أحمد دي مش طريقة، لو في حاجة فعلا نكشف صح، اتفضل هناك"

مع إشارة باردة نحو مقعد في ركن المكان، تأملها لثانية ثم استدار ليجلس عليه، والرغبة بداخله تتعاظم..

يريد أكثر..

اقتربت منه وهي تحمل قفازها الطبي، وقفت ترتديه فسأل بصوت خفيض:

"هتحسي بيها إزاي بالجوانتي ده؟ بأقولك تحت الجلد، محتاجة تحسيها ببشرتك"

وقفت على بعد خطوتين منه، نظرت إليه مضيقة عينيها، بادلها نظرتها بابتسامة ماكرة وعينين وقحتين، ألقت قفازها على منضدة مجاورة، عقدت ذراعيها أمام صدرها، ثم بلهجة تجمع بين الحزم والملل:

"أستاذ أحمد حضرتك جاي هنا ليه؟"

رفع حاجبيه بدهشة مصطنعة:

"هيكون ليه!! جلسات علاج طبيعي"

مطت شفتيها فتعلقت عيناه بهما، لاحظت نظرته فأدارت وجهها ثم عادت تقول بصرامة:

"ولما هو جلسات، حضرتك مش جاد ليه ؟ شوف.. عشان نبقى واضحين مع بعض، حضرتك هنا عشان جلساتك وبس، لمدة أقل من أسبوعين، غير كده ولعب العيال ده لأ.. لو عاوز تلعب في أماكن تانية كتير، إنما هنا في ناس أولى بالوقت اللي إنت بتستهلكه، محتاجيني أكتر، وهيشتغلوا معايا بجدية أكبر، لأن عاوزين يتعالجوا صح، قلت إيه؟ عاوز تتعالج، وهي مدة بسيطة ودكتور علي هيرجع يستلم الحالة تاني، ولا تاخد أجازة من العلاج لحد ما يرجع؟ وحد تاني يستحق ياخد وقت جلساتك الضايع ده؟"

أهي صدمة؟ أم فقط دهشة، وربما غضب، "باردة، وصراحتها حد الجرأة"، همس بها داخله، لن يستسلم، فقط ليمر بهذا المنحنى الآن، ويكمل لاحقا، أجابها ببرود:

"ليه كل ده يا دكتور؟ أنا قلت لك على حاجة حاسس بيها وقلقاني، إيه المشكلة لما تشوفي هي إيه؟ عملت إيه للمحاضرة دي كلها؟"

اشتعل غضبها، "أحمق"، ردت بلهجة لا تحمل مشاعر معينة:

"والله أنا أدرى بشغلي، حاسس بحاجة تسيبني أكشف زي ما اتعلمت، مش تتصرف بطريقة طفولية، أو بلاش نقول طفولية، خليني صريحة معاك، طريقة وقحة!!"

اتسعت عيناه، هل تسبه؟ وقف أمامها فجأة فظهر طوله وعيناها أمام صدره العريض المكشوف، هتف بها غاضبًا:

"وقحة؟"

ابتعدت خطوة وهي تستدير على عقبيها للخروج من الغرفة مجيبة ببرود هي الأخرى:

" إنت شايف غير كده ؟ "

أعماه الغضب ففقد تعقله للحظة، جذبها من مرفقها لتواجهه، ارتطمت به وهو يهتف بحدة:

"بأي حق تكلميني بالطريقة دي؟"

حاولت تخليص ذراعها من قبضته فشدد عليها لتتألم هي، اشتعلت النيران بين جفنيها، أحرقته حد الانصهار، صرخت فيه وكفها الناعمة تترك علامتها على وجنته بينما هو غارق في عسل عينيها:

"إنت اتجننت..! من بكرة هتتحول على دكتور تاني، أو ما تتحولش إنت حر"

أفاق على الصفعة، حسنا حصل على اللمسة، فرك وجنته بأصابعه بعدما ترك ذراعها، وللغرابة، لم يكن غاضبًا، يعلم أنه استحقها، لكن مهلًا!! هل ترفض المتابعة معه؟ ابتعد بسرعة، لاحقها باعتذار:

"أنا آسف يا دكتور، بس إنت شتمتيني"

والدهشة من نصيبها هذه المرة، مضاعفة، ومن نصيبه ثلاثة أضعاف، هل اعتذر للتو؟ منذ متى؟ كاد يجن، فالتقط قميصه، ارتداه بسرعة ولم يعلق، لكن هي قالت بنبرة جافة:

"أنا ما شتمتش، ده مجرد توصيف لتصرف حضرتك الغير لائق بالمرة"

زم شفتيه ضاغطًا أسنانه بعنف، لم يشعر بذهنه صافيًا، لقد اعتذر، من هي لتنال منه اعتذارًا؟ ومتى؟ بعدما صفعته..! هذا كثير، كثير جدًا وفوق طاقة احتماله، لم تلمس يد أنثى وجنته من قبل إلا مداعِبة، كيف جرؤت؟ رد بغيظ:

"وأخدتِ حقك"

أشاحت بوجهها، تبًا لن يستسلم، استجمع هدوءه قدر استطاعته، تساءل بلهجة محايدة:

"هنكمل الجلسة ولا أمشي؟"

شعرت بالاستغراب، بعدما حدث يريد استكمال العمل معها!! بجدية أجابت:

"لو هنكمل شغل مع بعض يا أستاذ أحمد، يبقى أنا كده حطيت النقط ع الحروف، ياريت نشتغل صح وجد بقى"

تحسس وجنته مرة أخرى، رد بابتسامة جانبية ساخرة ولهجة حانقة:

"النقط وصلت تمام قوي"

كادت تبتسم، تماسكت، لقد أصبحت أكثر جرأة، حتى مع الوقحين، والشكر للزوج الراحل "سامح" نزع منها برائتها، وزرع مكانها الشك والقلق والخوف، استبدل الحنان والرقة بالخشونة والصرامة وربما الفظاظة، حول خجلها الدائم لقوة تنقلب لعنف أحيانا كما حدث الآن، حقًا له الشكر.

راقب هو ملامحها الشاردة بلمحة حزينة ارتسمت هناك دون وعي منها، اشتعل فضوله من جديد، لا يعقل أن تكون كارهة للرجال، وإن كانت

فما السبب؟ هل هو رجل؟ وماذا فعل بها؟ أحبته وخانها مثلا؟ ثم ماذا الآن؟ هل ستكمل برنامجه؟ ماذا إن رفضت؟ ولماذا هو يهتم؟ تبًا لقد صفعته المرأة وهو لايزال يريد قربها، هي تحدٍ، نعم يعترف، يريد الفوز، لن يقبل الخسارة، ومقابل كل فوز ثمن، تضحيات، وتنازلات سيمنحها أحدها فورًا مستميلًا بطريقتها هي وبجدية تامة:

"طيب نكمل الجلسة!"

رفعت عينيها نحوه، شاردتين، ونعم حزينتين، شيء ما مس قلبه لذاك الحزن، شرودها دام لثوان وهي تنظر إليه كأنها لا تراه، بل إلى فراغ خلفه شمله فابتلعه، نفض رأسه فانتهبت لحركته، ردت بهدوء:

"أوك، اتفضل حضرتك"

دقائق هي، سريعة أو بطيئة، تأملها بسكون وهو يعمل تبعًا لإرشاداتها باهتمام وجدية، تقريبا لم يتحدث، شرود، أو ربما تساؤلات تملأ عقله، نحوها، ونحو رد فعله الغريب تجاه ما قامت به، انتهت الجلسة، بصمت متبادل، وشرود مقسوم بينهما بعدل، عندما غادر، صاحبته هي، بلمسة أصابعها التي لايزال يستشعرها قرب عنقه، ويستشعر حرارتها على وجنته، تحسسها مرة أخرى، و ابتسامة وقحة تخط نفسها على شفتيه.

حسنًا لقد حصل على لمسته الخاصة، الصفعة التي توقعها، وسعى إليها غير آبه لرد فعلها الآخر، طبيبتي الصغيرة، الساحرة ذات التعاويذ، أعشق التحديات، و أنت يا حلوة، تحدٍ صعب، سأخوضه للنهاية، وحتى إن كنت مستحيلة التفاصيل، فرقمي القياسي الجديد.. سيكون كسر تلك الاستحالة، وامتلاكك كليا.

تنهد بعمق، قاد سيارته بلا اتجاه محدد، لم تكن الأولى التي تخبره عن وقاحته..

لكن رد فعله على نطقها لتلك الكلمة تصف بها تصرفه هو الجديد..

سابقًا كان يستمتع بها، يبستم ساخرًا متباهيًا، فتسقط الجميلات صرعى غروره، هذه المرة.. غضب، وبشدة، وللآن لا يدري لمَ!

******

تعشق الطهي.. تتفنن فيه.. وتتقنه..

لا تمارسه كثيرًا، لكن حينما تأتي لحظة الرغبة، على الجميع التزام الصمت والسكون في حرم عملها، عندما عاد إلى المنزل وتسللت لأنفه تلك الروائح الشهية علم أنها بالمطبخ، لا أحد غيرها يثير حواسه بنكهة طعامه، توجه إليها، وقف يراقبها لثوان، مندمجة كأنها ترسم لوحة أو

تقوم بعمل فني، اقترب أكثر وخلفها تماما مد إصبعا يدغدغ به أسفل ذراعها هاتفًا بمرح:

"بتعملي إيه يا كرملة؟"

انتفضت المرأة في فزع، التفتت إليه بملعقة خشبية في يدها، لوحت بها في وجهه مهددة وهي تصيح غاضبة:

"ولد!! إيه اللي عملته ده؟"

ضحكته الشقية كانت هي رده، تظاهر بالخوف مجيبًا:

"عملت إيه بس يا قمر؟ أنا باعاكسك"

هددته بملعقتها ثانية وهي ترد بجدية:

"عمرو اطلع برا المطبخ حالا، وإلا إنت عارف.."

انحنى أمامها متظاهرًا بطاعة:

"إنت تؤمر يا جميل، بس بشرط.. هاخد بوسة"

ابتسمت بحب فانحنى يقبل وجنتها، بعدها فاجأها بضمة ثم حملها عاليًا بين ذراعيه مداعبًا، تشبثت بكتفيه فهتف في صخب:

"باموت فيك يا كريمة"

لطمت ذقنه بخفة زاجرة:

"نزلني يا ولد، إمتى هتعقل بقى؟ كل ما بتكبر بتتجنن أكتر"

قهقه في سعادة وهو ينزلها أرضًا، عادت هي تتساءل:

"أخوك ما كلمكش؟ اتصل بيه شوفه اتأخر ليه عشان يتعشى معانا"

أجابها متصنعًا الغيرة:

"أيوة بقى البكري، و أنا مركون ع الرف"

قرصت وجنته بابتسامة:

"إنت آخر العنقود يا حبيب قلبي، السكر بتاعنا، يلا كلمه"

خرج من المكان مشاغبًا :

"ماهو العنقود مافيهوش غير اتنين أصلًا"

قبل أن يتصل برقم أخيه وجده يفتح باب المنزل ويدخل بهدوء ممتزج بشرود، جديدة عليه تلك الملامح!! لم يره "أحمد" فاقترب هو منه بعدما جلس على أريكة غرفة المعيشة، حرك كفه أمام وجهه في استغراب هاتفًا:

"أبو حميد، مااالك؟"

التفت إليه شقيقه، عينيه شاردتين، ابتسم له، تطلع إليه بتساؤل لم يره، فهتف به:

"مالك يا بني؟"

رد بلامبالاة:

"مافيش يا عمرو، أمال فين كريمة؟"

أشار خلف ظهره وهو يقترب منه مجيبًا بطريقة كأنه يفشي سرًا خطيرًا:

"كرملة في المطبخ، وشكلها كده ناوية لنا على نية مش مظبوطة، ربنا يستر"

ابتسم وصمَت، دهشة ملأت "عمرو" فقرر السؤال من جديد:

"عامل إيه مع الدكتورة بتاعتك؟ لسه القفل مصدي ولا سحر اللورد عمل الواجب؟"

هذه المرة الابتسامة ساخرة فازدادت دهشة الصغير وهو ينظر إليه، أجابه بلهجة تحمل شيئًا من حنق مستتر وغضب:

"ما تفكرنيش يا عمرو الله يخليك"

نظر إليه بدقة ثم هتف فجأة:

"آآآآخ، قول لي ع المصيبة اللي عملتها، اعترف بسرعة"

تطلع إليه في صمت، ولا إراديا امتدت أصابعه تتحسس وجنته كأنه يلتمس آثار أصابعها، تتبعت عينا الأخ حركة يده فخمن شيئًا، قال بمرح:

"قشطة عليك يا لورد، هي إيدها سلمت على خدك ولا إيه؟"

رفع عينين مغتاظتين نحوه، فبادله برفع حاجبه مثيرًا سخطه أكثر، ضغط من جديد:

"اعترف، عملت إيه؟"

هز رأسه حانقًا، فكر لثوان ثم تمتم بجواب خافت كأنه عار:

"مسكت إيدها"

دهشة، استنكار، ثم ضحكة صاخبة من الصغير والأخ الأكبر يتطلع إليه في غضب، أشار إليه بكفه محاولًا منع ضحكاته.

بعدما صمت ابتسم بخبث، تساءل بلهجة ماكرة:

"يعني كل ده عشان مسكت إيدها؟ أمال لو أموووواه"

وهو يضم شفتيه في وضع قبلة، ابتسم "أحمد" هو الآخر مجيبًا بعينين لامعتين:

"لاااا.. كان زمانكم بتقروا على روحي الفاتحة"

جلجلت ضحكاتهما سويًا، بعدها اتجه "عمرو" نحو غرفته ليغير ملابسه بعدما ربت على كتفه مواسيًا بمرح، وعاد هو لعالمه الشارد من جديد مستعيدًا آخر كلمات أخيه..

ماذا لو قبلها فعلا؟

ستقتله..

وربما تعذبه أولا ثم تقتله..

تخطى رد فعلها، إلى تخيل القبلة، كاد يحظى بها في حلمه، لولا مكالمة اللحوحة "سهر"، أرخى رأسه مستندًا إلى ظهر الأريكة، أغمض عينيه وتخيل، ترى بأي نكهة ستكون؟

وربما لا توجد نكهة محددة، إلا نكهتها هي الخاصة، لذة لا توجد إلا هناك..

تلك الشفاه الناعمة المكتنزة باعتدال مثير..

انفراجة دائرية صغيرة دائمة غير مصطنعة كأنها دعوة..

دعوة لأي شيء بالضبط؟

للاجتياح؟

للافتراس؟

للتملك حتى الثمالة، تنهد ثانية متحسسًا وجنته، وهذه المرة عاد يبتسم، لقد حظي منها بلمسته الخاصة..

صفعة..

أي جنون ذاك؟.

******

ليس ندمًا بالتأكيد، وأيضا لا يمكن تسميته خطأً أو إحساسًا بالذنب، هو من بدأ، من تجرأ، من تخطى الحدود، وأمسك بيدها، وضعها أولا على عنقه في وضع أشبه بعناق كفها له، ثم جذب مرفقها ليلصقها بجسده نافثًا لهيب غضبه في وجهها، وبالتالي استحق الصفعة، وربما كان يستحق ما هو أكثر، لكنها تجاهلت الأمر فقد قامت بفعل لم تتخيل يومًا أن تقوم به.

عشرة أيام أخرى وينتهي هذا كله، ستكون أيامًا طويلة لو استمر على هذا المنوال، لمَ قبلت حالته؟ أباها الروحي الدكتور "علي" سيناله جزءً من العقاب بالتأكيد على فعلته الشنعاء تلك، ابتسمت عندما تذكرت وجهه

المحمر الغاضب، ذلك المنتفخ بطاووسية ذكورية في أُس جيناته، نال صفعة!! ومن امرأة.. يستحق.

تناست الأمروهي تتطلع إلى جسد "مالك" النائم إلى جوارها بحب، طبعت قبلة صغيرة على جبينه ثم عادت تملأ عينيها بصورته، يحمل الكثير من وسامة أبيه، ملامح باتت تسبب لها كوابيس الألم، لكن رغمًا عنها تعشق كل تفاصيلها، هو طفلها، فلذة من كبدها وقرة عينها، من الدنيا لا تملك إلاه و أبيها الحنون.

تنهدت بعمق، آخر مرة حاولت البحث عن "سامح" لتخبره كم يفتقده طفله كانت منذ عام تقريبًا، عام طويل تجاهلت فيه كل شيء، كل شخص، كل مناسبة تجمعها بالآخرين لتتلقى منهم مصمصة شفاه العجائز ونظرات رجال تشتهيها، ونسوة يخشين منها على ذكورهن، منها هي، البريئة، الصغيرة، الأم، المطلقة الجريحة!! كأنها يمكن أن تفكر برجل أو تمنح أحدهم صك حريتها من جديد؟!

نتيجة التجربة الأولى، وجع، غدر، رحيل، وثمرة متروكة للذكرى، فما الذي يمكن أن ينتج عن تجربة أخرى غير المزيد من الألم!

زفرة أخرى بحرارة توازي نيران قلبها المنكسر، لقاء أجفان و نوم قلق، الغد يوم جديد، لقاء آخر، وصبر ستستدعيه بقوة، مع دعوة بأن تفلح في التمكن منه حتى النهاية.

******

علمه بجنونه شيء..

وأن يرى تلك الدرجة التي وصل إليها منه شيء آخر..!

اكتشاف جديد مر به اليوم، معها هي، والتي لا يدري للآن ما المميز فيها سوى صلابتها وعنادها وتمنعها!! تماسكها أمام سماء عينيه، وتجاهلها لوسامة يعلم أنه يمتلكها، تُسقِط الجميلات في حبائل هواه بدون أدنى جهد منه.

أهي محصنة؟ لديها ساتر يحميها؟ متاريس تمنع مروره داخل عقلها!! أو ربما قلبها الذي يعلم الآن علم اليقين أنه سيفوز به مهما كان الثمن، لقد تجرأت ولطمت وجنته، وللغرابة ملمس كفها الناعمة الرقيقة لايزال هناك، تنبض به شعيراته الدموية وتثير فيه رغبة امتلاك قاسية.

يخطط، يرسم، يتفنن، يناور، يضرب، يهرب، يبتسم، يتجهم، والنتيجة بالتأكيد.. ستكون هي، ودون أن تدري، ستصبح إحدى نسائه، بل وستفتخر بذلك.

رنين هاتفه أخرجه من شروده، الوقت تخطى منتصف الليل، نظرة ساخرة على الرقم وصاحبته، ثم جواب بصوت اصطنع فيه النعاس، وهذا فقط ليثير حواسها أكثر:

"سهر"

صمت جاوبه لثانيتين ثم صوتها المغري:

"كنت نايم؟"

ابتسم بتباهي، لقد تأثرت، انزلق في فراشه أكثر، ورد ببطء بنفس النبرة:

"آها"

صمت آخر وصوت دافئ:

"آسفة صحيتك، بس كنت عاوزة أقولك وحشتني، ماجيتش اللوكيشن النهاردة"

لتتسع ابتسامته، ينتفخ أكثر، مهلًا قليلًا فسيصل قريبًا حد الانفجار، بصوت ماكر:

"بجد وحشتك؟ كان عندي جلسة علاج، وكمان ماليش مشاهد"

سمع صوتها الداعي:

"هو لازم يكون في مشاهد عشان تيجي؟ تعالى شوف مشاهدي أنا يا سيدي، و... سلامتك"

أجاب بنبرة اكتسبت حميمية يعرف تأثيرها على إناثه جيدًا:

"ما اقدرش أشوفك في حضن واحد تاني حتى لو تمثيل، مش النهاردة كان في مشهد رقصة مع هاني؟ و... الله يسلمك"

يكاد يتخيلها الآن، سترقص فرحًا، وربما تطير لتحلق في سماء غرفتها، لقد منحها شيئًا من غيرة، حسنًا، هذا جيد لها، أتاه صوتها سعيدًا كما خمن:

"بتغير يا حبيبي؟"

وهذه المرة سيصدمها:

"أنا مش بتاع غيرة، بس اللي يخصني ماحبش حد تاني يبص له حتى"

صمتها جاوبه، لهجته كانت باردة، فقط لتعلم أين هي من أرضه بالضبط؟ لكن الحمقاء لاتزال سعيدة، همست له بدفء:

"و أنا أخصك؟"

يا إلهي إنها غبية، لا تفهم معنى الملكية من باب التملك فقط، رفع حاجبًا في دهشة ساخرة، ثم أجاب بجمود:

"مش إنت عاوزة كده؟ عاوزة تبقي بتاعتي؟"

يكاد يتخيل وجهها الغاضب الآن، لقد أخبرها ببساطة أنه لا يريدها تقريبًا، أنها لا تشكل فارقًا بالنسبة له، ترى ماذا ستقول؟ وردها أدهشه حد الذهول:

"أكيد عاوزة، وعاوزاك كمان تبقى ملكي، تخصني"

بسرعة رد:

"لا أنا مافيش واحدة تملكني، مش بالبساطة دي يا سمو البطلة"

هل غضبت الآن أم ماذا؟ إنها حقا باردة، تجاهلت هي الأمر، وبلهجة مغوية سألته:

"كنت بتحلم؟"

عقد حاجبيه، ما علاقة هذا بكلامهما ؟ تذكر حلم ليلة الأمس، الناعمة بشراسة، الفظة برقة "منى"، وقبلته التي كاد يحظى بها لولا تلك اللحوحة التي تسأله عن حلمه الآن، أجابها متخابثًا:

"أيوة.. باحلم.. حلم حلو قوي قوي"

بلهفة سألت من جديد:

"بمين؟"

صمت، ثانية، أربع، عشر ثوان بالضبط تركها تتآكل فيها ثم أجاب:

"بسباق جديد، نفسي أدخله وأكسبه"

وفي خياله ملكة العسل، نحلته الشقية بقرصتها الموجعة ورحيق أزهارها الذي يشتهيه بشدة، كلمات أخرى، وعد بلقاء في الغد..

فهناك متعة تنتظره ..

متعة لا تضاهيها أخرى ..

ولا حتى كل نساء الكون، غدًا مشهد آخر، يوم جديد، وسهم أسود سيثبت للطريق أنه سلطانه دائمًا و أبدًا.

(7)

آخر و.. آخر

من الصفر حتى أقصى الجنون في ثوان، ذلك هو السهم..

جلست تراقبه في افتتان، يسرع بسيارته، يدور بها، يتخطى بضع موانع، يدور، حركات حادة وزوايا لم تفكر أنها تحدث على أرض الواقع، إنه سائق ماهر وبشدة، أن تكون معه شيء وأن تراقب من بعيد وتستمتع بقوته وعنفوانه الذي يثبته للطريق شيء آخر، لذة أخرى، متعة جديدة لم تجربها من قبل.

وهو.. الوسيم أزرق العينين ذو البنية الرياضية القوية الجذابة والشعر البني الداكن الناعم، حالة أخرى، تود لو تتخلل خصلاته بأصابعها، يضمها إليه وليس في رقصة هذه المرة، يمنحها قبلة الحياة التي تنتظرها من بين شفتيه، لكنه يتمنع.. وربما يتدلل.

هي تعلم من هو جيدًا، منذ اللحظة التي وقعت عيناها عليه قررت امتلاكه، ظنته في البداية مجرد مخاطر بسيط سيقوم بمشاهد الحركة

من أجل "هاني" بطل فيلمها، وأي بساطة في كتلة الوسامة والرجولة الخشنة التي تثير أي أنثى تلك؟ بعدها اكتشفت أن البساطة وهو لا يجتمعان، بل لا يجوز اجتماعهما حتى، هو مغرور بشدة، وغروره أعجبها، عرفت من هو، بطل سباقات تعرض لحادث غادر أفقده قدرته على خوض مغامراته من جديد، يخضع لبرنامج علاجي مكثف حتى يعود، وفي أثناء الانتظار لا مانع من ممارسة بعض جنونه أمام عدة كاميرات.

هذا الفيلم شارف على الانتهاء، وفي المرة القادمة سيكون هو البطل، طلبت من مؤلف صديق -يعشقها كما تعلم لكنها فقط تتجاهله- أن يكتب قصة، عن السباقات، يكون هو بطلها.. وتؤدي هي دور البطولة أمامه، بينهما قصة حب ملتهبة ولا مانع من بضع قبلات هنا وهناك.

تتمنى لو يوافق على عرضها للفكرة، وأن يكون هو البطل أمامها وتحت الأضواء هذه المرة لا خلفها، كان يقترب منها بخطى واثقة بعدما انتهى المشهد، تنتظره أسفل مظلة، استوقفه المخرج، شد على يده فقد أدى المشهد باحتراف لا يضاهى، خطوات أخرى ووقف أمامها، ابتسامته تشق قلبها حقا، يا له من وسيم، ومثير!! نهضت واقفة، اقتربت أكثر، أكثر.. لا يفصل بينهما الآن سوى بضعة سنتيمترات قليلة، استندت بكفها إلى

صدره الهادر بعنف ومدت أصابعها تداعب ياقة قميصه و زره العلوي المفتوح، ابتسمت بأنوثة هامسة:

"كنت هايل"

أمال رأسه يمينًا و ابتسامته تكتسب لمحة خبث، بصوت عميق شكرها:

"ميرسي"

ظلت على وضعها ولم يتحرك هو، ألقت بعرض بسيط:

"نتعشى سوا النهاردة؟"

مط شفتيه مدعيًا التفكير، وبعينيه لمعة ماكرة تهلكها، إنه خبيث، مغرور، ويتدلل، وقلبها يكاد يتوقف، يعرف ما يملك وهي تريده وبشدة، منحها مباركته لعرضها بموافقة:

"أوك، بس عندي جلسة كمان ساعتين، هاروح وأعدي عليك نقول.. الساعة تسعة كويس؟"

أراحت كفيها فوق كتفيه مجيبة بابتسامة:

"كويس قوي، هاستناك، بس ما تتأخرش"

أمسك بكفيها و أنزلهما ثم جذبها نحوه أقرب و انحني هامسا في أذنها:

"ما أقدرش"

ليتركها وقلبها ينافس عجلات سيارته في سرعتها، وربما بعد قليل سيتوقف، ظلت تتابع خروجه من المكان دون التفاتة واحدة نحوها، هتفت بداخلها ورغبتها في تملكه تتعاظم: "مغرور"

******

شيئان يحبهما الرجل: الخطر واللهو..

وهو يحب المرأة لأنها أخطر أنواع اللهو..

-اقتباس-

صفعة الأمس لاتزال دافئة، انتقام يسعى إليه، وتعويضًا عن كفها ستكون شفتيها في المرة القادمة، لكنه فقط يحتاج إلى الصبر، تخطيط جيد، ومثابرة مع قليل من الإصرار، وتغيير بسيط في الخطة لتناسب ذلك النوع من الإناث.

تحب العمل الجاد، إذن هذا رائع، سنرى!! دلف لغرفة مكتبها، رفعت عيناها نحوه بجمود، وبداخلها مائة علامة استفهام عما ينتويه؟ قابلتها ملامحه الغامضة، نظراته الهادئة، وصوته الرخيم قائلًا بثبات:

"معلش اتأخرت خمس دقايق، الطريق كان صعب شوية، عطلتك عن حاجة؟"

قامت من خلف مكتبها مجيبة بلهجة باردة:

"لا أبدًا، ده وقتك والخمس دقايق مخصومين من جلستك"

لم يعلق، ولم يهتم، لقد تعمد التأخر، فقط موحيًا لها بغضبه من فعلتها، لكن يبدو أن الحنق حليفه هو، فهي باردة كما هي دومًا، عمل بجدية، التزم الصمت، وهي لم تبادله حرفا إلا في حدود العمل، قرب منتصف الجلسة رن هاتفها بنغمة مميزة انتفضت لها للحظة، نظرت إليه باعتذار مغمغمة:

"معلش يا أستاذ أحمد دقيقة وأرجع لحضرتك، كمل التمرين ده"

غريب..! أوما برأسه موافقًا عندما انطلقت هي بخطوات سريعة نحو مكتبها خارج غرفة العلاج، عقد حاجبيه في شك، منذ متى تهتم بالهاتف أو تقطع جلساتها لأجله؟ حدث مرتين سابقًا ولم تعير المتصل أدنى انتباه، هذه النغمة.. أهي تخص شخصًا له قيمة أكبر من أن تهمله؟ اشتعل فضوله فتبعها، قرب الباب توقف بهدوء وهي توليه ظهرها هامسة بحب:

"خلاص يا حبيبي، والله هاحاول... معلش أنا عارفة... مالك ماتزعلش عشان خاطري... "ثم ضحكة رقيقة ناعمة"... لا خلاص لما آجي هاصالحك وهنحل المشكلة سوا وأعملك كل اللي إنت عاوزه... إنت أكتريا قلبي مش هاتأخر أكيد... يلا سلام"

عقدة حاجبيه ازدادت وعلا ملامحه استياء ممتزج بحنق لم يدرِله سببًا، لها حبيب إذن!! لهذا هي ترفض مغازلته، شرد للحظة في ضحكتها، موسيقى ملائكية ناعمة رفرف لها قلبه بين جنبيه، كم أنت رقيقة طبيبتي!! نفض رأسه في غيظ، ما هذه الشاعرية؟ عاد السخط يتملك منه وفضوله يشتعل أكثر وهو يستأنف تمرينه، رجعت هي للغرفة بملامح شاردة، وشرودها أثار بركان الغضب بداخله أكثر.

منذ الصباح وصغيرها حزين، حفل بمدرسته، و حضور الأب أساسي، يوم لطيف سيقضيه الأطفال مع أبائهم بتخيل وتمثيل مهنة معينة يتمناها كل منهم عندما يكبر، ورحلة لمكان مناسب لتلك المهنة، اليوم سيكون رائعًا، لكن للأسف.. لا أب هنالك ليشارك صغيرها فرحته، وبالتالي سيذهب كل أصدقائه ويبقى هو في المنزل وحيدًا مع جليسته و أبيها، قبل جلسة الوقح هاتفها والدها مطيبًا خاطرها، أخبرها أن الأمور ستكون بخير وسألها متى ستنتهي عملها؟ قال أنه سينتظرها بعد نهاية مواعيد

العيادة ليتناولا العشاء سويًا ويتناقشا في الأمر، وعدها مطمئنًا أنه سيتصرف، وهي تثق به، فارسها الحقيقي.

لاحظ هو شرودها الذي طال فانفجر غضبه، حقا!! مكالمة واحدة من حبيبها وتنشغل عن كل شيء، حتى عملها الذي تتفانى فيه؟ أثاره ذلك فقال ببرود:

"مش معايا إنتِ يا دكتور؟"

نظرت إليه للحظة دون فهم، ثم ردت بحرج:

"معلش يا أستاذ أحمد، ممكن نكمل الجلسة وقت تاني؟ هاعوضلك جزء النهاردة بكرة بإذن الله"

لا.. هذا كثير، الآن تعتذرعن العمل، سيجن بعد قليل لو لم يعلم من كان معها على الهاتف؟ ابتسم بجمود مجيبًا بلامبالاة:

"أوك، ولا يهمك"

عدل هندامه وغادر المكان بخطوات سريعة، في سيارته أمام المبنى جلس يفكر، ما بها؟ أحبيب حزين يؤلمها حزنه؟ أم هي الحزينة لسبب ما؟ بعد دقائق لم تطول وجدها تخرج، خطواتها تشبهها في رقتها، كأنها تطفو فوق وسادة هوائية ناعمة تماثل السحاب .. أوقف عقله ثانية، ما هذه

الحماقة؟ لقد جن حتما، ود لو توجه نحوها وسألها مباشرة، لكنه هذه المرة سيخسر بالتأكيد، ليس صفعة بل رفض تام لاستكمال برنامجه، وبالتالي خسارته للتحدي الذي وضعه لنفسه، قبل أن يدير محرك سيارته ليبتعد رآه، ورآها معه.

******

" أصدق لحظات الرجل.. عندما يعترف لنفسه بأنه كاذب "

-مارك توين-

والآن اعترف، هو كاذب لو ادعى أنه لم يهتم، بل صرخت خلاياه اهتمامًا، حنقًا وغيظًا، واشتعل قلبه بلهيب غضب أخرجه في وجه من لا تستحق، لقد قبَّلها .. يا إلهي، لم يكن ينوي منحها أي شيء، لكنه غاضب، وقبلته هي التي عبرت عن غضبه، كانت قاسية، متملكة، والمسكينة أنَّت بين يديه حتى أفاق لما يفعل فابتعد بذعر.. ذعر!!!

لقد أصابته تلك "المنى" بلوثة، خلال موعد العشاء كان صامتًا لدرجة أغضبت "سهر" فاقترحت المغادرة ووافق هو بسرعة، يريد الانفراد بنفسه، لقد رآها بين ذراعي رجل، وليس أي رجل، بل خمسيني، يكاد يجزم أن عمره ضعف عمرها، ضمة سريعة، قبلة على الجبين وابتسامة حب منها مع لمعة عينين باطمئنان لأنها فوق صدره، من هو؟ أهو زوجها؟ من

كانت تحادثه عبر الهاتف منذ قليل، أغضبها وأحزنها ثم أتى بنفسه ليراضيها؟

لم يشعر بنفسه إلا وهو يقف أمامهما بعدما كاد يدير محرك سيارته للمغادرة من أمام مبنى عيادتها، رفعت عينيها إليه في استغراب وازته دهشة في عيني الرجل الذي تحتفظ ملامحه ببقايا وسامة رغم تجاعيد السنين وحزم غريب امتلأت به نظراته التي يوجهها نحوه، ثم وكأنه شعر أنها تحتاج للحماية ومن هذا الواقف أمامه، وضع ذراعه يحيط بكتفيها متسائلًا:

"مين حضرتك؟"

لم يمنحها فرصة الرد، بل أجاب سريعًا:

"أنا أحمد، باتابع جلساتي مع الدكتور منى"

ولم يهتم بقول ما هو أكثر، بل أدار وجهه نحوها ولمحة غضب تبرق في عينيه أدهشتها، سمع صوت الرجل يأتيه بترحاب بارد:

"أهلًا يا أستاذ أحمد، أنا دكتور مصطفى...."

ولم يكمل حديثه بسبب تلك النظرة النارية التي تلقاها منه فعقد حاجبيه مستغربًا، ما به هذا الرجل؟ أما هو فقد تصاعد رنين الاسم

بداخله، "مصطفى"!!! "مصطفى"!! لا هذا كثير، من "مالك" إذًا؟ لديها رجلان؟ هذا جنون، زوج خمسيني أحمق مدله بحبها، وعشيق مدلهة هي بحبه، وتتمنع عليه هو؟!

خاطبها بسرعة محاولًا الانفراد بها ولو للحظات:

"معلش يا دكتور، تقريبًا نسيت موبايلي فوق، مش لاقيه معايا، ممكن لو سمحتِ أطلع أشوفه ؟ دقيقة بس وسوري لو هاعطلك"

تبادلت هي نظرة مع رفيقها ثم هزت كتفيها باستسلام بينما تتحرك نحو المبنى من جديد يتبعها "أحمد" بخطوات غاضبة، في المصعد همس من بين أسنانه متظاهرًا بلامبالاة لا يملكها:

"هو دكتور مصطفى ده جوزك؟"

أدارت وجهها نحوه بلمعة غاضبة في مقلتيها فبادلها إياها بحدة، الدهشة تغمرها وهي لا تفهم ما به! ولمَ يهتم ويسأل عما لا يخصه؟ لم تجبه، وصلا إلى طابقها فخرجت يتبعها هو، داخل غرفة مكتبها تظاهر بالبحث عن هاتفه، ثم ألقى بقنبلة صغيرة:

"مش كبير عليكِ شوية؟"

رفعت عينيها نحوه بغضب، هتفت بحدة:

"في إيه يا أستاذ أحمد؟ مش ملاحظ إنك بتدخل في اللي ما يخصكش؟"

مط شفتيه مغمغًا ببرود:

"يعني يا دكتور حديث ودي، ولا أنا ليَّ الوش الخشب وبس؟"

عقدت حاجبيها، لقد تجاوز حدوده أكثر من اللازم، وجن حتمًا، قبل أن ترد مد كفه نحوها قائلا بلا اهتمام:

"ممكن موبايلك لحظة أرن عليه، مش لاقيه"

ترددت، والآن ماذا؟ أهي لعبة جديدة؟ تأففت، متى سينتهي الأمر؟ ترددها فهمه هو فرد على تساؤل لم تنطقه:

"ما تقلقيش يا دكتور، ماهو الموبايل مكتوب على ورق العيادة، مافكرتش أعاكس من يومها، أنا مش مراهق"

لا بل أنت مستفز لأقصى درجة، قالتها بداخلها وهي تناوله هاتفها، الرقم الموجود على كل أوراق العيادة ليس رقمها الخاص، لكنها لن تصحح له معلوماته، ضرب الأرقام بسرعة، الرنين بدأ ولا صوت لهاتفه في المكان، زم شفتيه متظاهرًا بالضيق، أعاده لها وهو يتوجه للخارج:

"الظاهر مش هنا، يمكن في العربية و أنا ما شفتوش"

هزت رأسها في حنق وهي تتبعه، أغلقت الباب و انتظرها هو أمام المصعد، وقف قربها يتشممها ببطء، لا عطر هذه المرة، غريب .. لكن رائحتها هي الخاصة المنبعثة من جلدها تسربت عبر مسامه بدقة وتفصيل، هذا غير ممكن، كيف تتنبه حواسه نحوها بهذه الطريقة؟ انتبه لما يفعل فغضب من نفسه للمرة المائة، خرجا من المبنى، توجه هو نحو سيارته ولم تعره هي التفاتةً حتى وهي تذهب لرجلها المنتظِر.

بعدها ذهب مع فاتنته المغرمة "سهر" لتناول العشاء، شرود، صمت، غضب يغلي بداخله كأنه إناء فوق موقد قارب الاحتراق، حاولت الجميلة لفت انتباهه، جذبه للحديث، دعته للرقص فاستجاب شاردًا، مع هدوءه وسكونه اغتاظت هي فطلبت الرحيل، وأمام منزلها في سيارته ابتسمت له، يداه على المقود وعيناه تحدقان في اللامكان، تحسست ذراعه هامسة:

"مالك يا أحمد؟ في حاجة مزعلاك؟ إنت ماكنتش طبيعي طول العشا"

التفت إليها، لمحت الغضب في عينيه فأخافها قليلًا، دارت خوفها بابتسامتها الثابتة وهي تقترب أكثر وبنفس النبرة الهامسة المغوية:

"لو زعلان اتكلم معايا، أنا ماحبش أشوفك كده أبدا"

ظل يتأملها بعينيه، ابتسامة قاسية خطت نفسها فوق شفتيه وهو يتراجع في مقعده مع تحول نظراته للوقاحة:

"بجد يهمك زعلي قوي يا سهر؟"

اقتربت أكثر، يدها تحركت من ذراعه نحو كتفه، ثم تسللت لصدره تداعب أزرار قميصه الداكن، لتهمس بإغواء أكبر:

"أكيد يا بيبي، عشان خاطري ما تبقاش زعلان كده"

وأصابعها هذه المرة تتوجه نحو عنقه، لقد لامست موضع أصابع "منى"، أشعلت فتيل غضبه من جديد بعدما كاد يتسلى، ستمحو لمستها وتستبدلها ببصمتها هي، ربما يكون هذا أمرًا جيدًا على أي حال..

اقترابها زاد عن الحد.. شفتيها بحمرة صارخة لامعة.. نكهة التوت تصل منهما لأنفه..

حسنا هي من أرادت..!

اقتنصهما مفرغًا غضبه، حنقه وغيظه بينهما..

منها.. "منى" الطبيبة التي تثير سعير جنونه..

ومن نفسه التي تهفو إليها في هذه اللحظة..

لحظات لم يعلم طولها بالضبط لكنه فوجئ بها تدفعه وهي تئن في ألم، ابتعد بسرعة مندهشًا مما كان يفعل، وجدها تهتف متأوهة في غيظ بينما تمسح شفتيها بمنديل:

"في إيه يا أحمد؟"

تطلع إليها في شرود، أهذه دماء؟ يا إلهي .. لقد أورثته "مناه" جنونا لا يعرف متى؟ مهلًا.. "مناه"!! هز رأسه بعنف.. همس باعتذار بارد:

"معلش يا سهر.. محتاج أقعد لوحدي"

تطلعت إليه في ذهول، لكن حنقها جعلها تصيح في سخط:

"أفندم!! تقعد لوحدك؟ واللي عملته ده مالوش أي أهمية؟"

انفعل في وجهها فصاح بدوره غاضبًا:

"ما قلت لك معلش.. وبعدين إنت اللي عاوزة كده، وجيتِ في وقت مش مناسب، اتفضلي بقى.. عاوز أقعد لوحدي"

لمعت عيناها بدموع، لا يدري أحقيقية هي أم دموع تماسيح تستدر شفقته بها وتستدعي ندمه؟ أعاد رأسه لمسند مقعده وهو يزفر بعمق.

نيران تلك التي خرجت من صدره.. نيران تكاد تحرق عقله الذي لا يفهم أي شيء في هذه اللحظة..

يفكر بواحدة ويقبل أخرى..!!

وذلك اللهيب الذي يتلظى فوقه لا يعرف له سببًا، شعر بأصابعها تسير فوق ذراعه من جديد، حقا يا امرأة ؟ أدار وجهه نحوها ورأسه على وضعه فلمح دمعة يتيمة تسير على وجنتها، همست له متصنعة الحنان:

"حبيبي مالك؟ ماكنتش أتمنى إن أول مرة بيننا تبقى كده، بس لو زعلان ودي طريقة تعبر بيها عن زعلك أنا خلاص مش زعلانة"

عقد حاجبيه ولم ينبس بحرف، ليس في مزاج رائق لأنثى العنكبوت التي تحاول نصب شباكها حوله واصطياده الآن، عيناها ترسم هالة من حنان مصطنع تحيط به، وخلف ذلك رغبة واضحة وضوح الشمس أمام عينيه الخبيرتين، هي تريده، يعلم ذلك، وهو .. فقط لا يريدها، ولا يريد غيرها، هي واحدة تشغل باله الآن وتحوز على كامل انتباهه، وبعد أن تصبح ملكه، سيعود من جديد، ويسمح لمن تظن نفسها صيادًا ماهرًا إلى جواره بصيده، ويمنحها متعة الظفر به .

******

أرجوكِ أن تحترمي صمتي..

إنَّ أقوى أسلحتي هو الصمتْ..

هل شعرتِ ببلاغتي عندما أسكت؟

هل شعرتِ بروعة الأشياء التي أقولها؟

عندما لا أقولُ شيئاً..

-نزار قباني-

وكان هذا هو مسلكه في الجلسات التالية، مرت خمسة أيام على متابعته العمل معها، طبيبه سيعود قريبًا، وهو لا يريد تركها، ليس الآن، صمته يحيرها، مع أنه أراحها، قلقة هي من عقله، وخطة تظنه يدبرها في الخفاء، تبًا .. لمَ يحوز على جزءٍ من تفكيرها من الأساس؟

صامت كأهل القبور، غاضب ربما، فضولي أكثر، وتكنيك جديد يتبعه معها، سيثير فضولها هي ويتركه ينهشها، يجعلها في حالة ترقب، انتظار، تنقلب لاحقا لنوع من اللهفة لمعرفة خطوته التالية، فإن كان هو يُشوى على جمر جهله برجالها!! فسيحرقها بلامبالاته، وسخرية تمر بعقله تستهزئ به، أتظنها تهتم حقًا يا مغرور حد الحمق؟

خطته الجديدة، غزل من نوع خاص، سيفعل ويقول ما يريد، دون أن تعرف من هو، لديه رقم هاتفها الخاص بالفعل، هل ظنته غبيًا عندما تحجج ليصعد معها وينفرد بها؟ هل تعتقد أنه لا يعلم أن رقمها الخاص

ليس هو المطبوع على أوراقها؟ لم تصحح له يومها، وهو يسخر منها بداخله، حلوتي.. ستكونين ملكي.. وفي غمضة عين.

بعد مشاكسات مرحة مع شقيقه، وقليل من غضب والدته اللذيذ، صعد لغرفته، غير ملابسه ووقف يتطلع لنفسه في المرآة لثوان دون سترة منامته، مغتاظًا منها، ومن اضطراره لرسم الخطط لنيلها، لم يرتدي السترة بل ألقاها بعيدًا ثم توجه نحو الفراش ليلقي بجسده فوقه كقذيفة، هاتفه بين أصابعه، اختار الكلمات التي أراد، فتح الرسائل وألصقها، ثم ضغط زر الإرسال.

ابتسم بمكر، طيف مر بخياله لها وهي تلتقط هاتفها فتقع عيناها على حروفه، ربما تغضب، تلقي بالهاتف بعيدًا، تفكر في المرسل!! لكنه وبكل تأكيد .. سيشغل بالها هذه الليلة، بعد أن تشك فيه، وربما يزورها في أحلامها هذه المرة، ويترك لنفسه العنان معها كما يشتهي.

أقفل الهاتف ثم فتح غطاءه الخلفي، انتزع الشريحة الجديدة التي اشتراها مع الكثير من مثيلاتها، ألقاها بإهمال في قمامة غرفته، وهمس بداخله: وغدا يوم آخر جميلتي.

******

أحبك جدًا

وأعرف أن الطريق إلى المستحيل طويل

وأعرف أنك ست النساء

وليس لدي بديل

وأعرف أن زمان الحنين انتهى

ومات الكلام الجميل

لست النساء ماذا نقول؟

أحبك جدًا..

رنين، انتباه، وكلمات نزارية، رقم مجهول واحتلال تفكير، لا يعقل أن يكون هو، هذا ليس رقمه الذي وصل لهاتفها سابقا، وإن كان هو؟ فما الذي يطمح إليه بشيء لا يليق به؟ بالطبع ليس هو.. لكن إن لم يكن.. فمن يكون؟

وعندما غادرت لعالم الأحلام..

صحبها هو كما تمنى..

(8)

إنذار بقيد

أن تكون خلف المقود شيء..

وأن تجلس بعيدًا في مقاعد المتفرجين فخذ هذا الشيء و اقلبه رأسًا على عقب..

حطمه، دمره، اجعله أشلاءً مبعثرة..

ثم اتركه، شتاتًا لا يمكن جمعه..

هذا هو ما دار في ذهن السهم وهو يتابع زميله أو بلفظ أدق السائق البديل بفريقه "عماد" يتقدم بالسيارة، يناور، يتحرك بحدة، تفلت منه ممرات بسيطة، لكنه يطور أسلوبه، كان يمكن أن يكون مكانه الآن، وسيكون أفضل، لأنه دومًا الأفضل، لكن ويالسخرية، ها هو، عاجز، ضعيف، شبه مشلول، تحول من بطل، لمجرد مشاهد.

أسند ظهره لذلك السور الحجري الذي يجلس فوق جزء منه، وتنهيدة حارقة تلسع صدره، هنا، وهنا فقط.. ينسى كل شيء، إلا مدللته السوداء

وسهمه المحاط بإطار ذهبي دقيق على جانبيها قرب إطاريها الأمامين، تطلع نحوها من بعيد، انكسار الحزن ينزاح من قلبه ليحل محله الغضب، احتراق، اشتعال وفوران، لابد أن يرحل من هذا المكان حالًا، لقد أخطأ بقدومه، وما ناله إلا مزيد من الوجع وإحساس العجز والقهر.

كف ربتت على كتفه برفق وصاحبها يراقب شرود عينيه ولمعة الغضب في زرقتهما حولتها للون داكن مخيف، رفع رأسه ينظر لصديقه الذي بادره:

"عماد بيتحسن مش كده؟"

ومضت بابتسامة تحمل بعض السخرية:

"أيوة، كويس"

جلس إلى جواره، ربت على ركبته هذه المرة مواسيا، والسؤال كان:

"عامل إيه في الكورس بتاعك؟ دكتور علي رجع ولا لسه؟"

زوى ما بين حاجبيه وطبيبته تقتحم ذهنه فجأة، اللامبالاة غلفت رده:

ماشي كويس، أنا يوميا عندي جلسات لحد خلاص ما زهقت، ما عدا الخميس والجمعة ريست، دكتور علي لسه مارجعش"

وبابتسامة ساخرة أكمل:

"خليه براحته، الدكتورة اللي معايا شاطرة قوي"

علت الدهشة وجه الصديق، حدق فيه بتساؤل أجابه هو بتفهم:

"أيوة واحدة ست"

تحول السؤال المحبوس لصوت مسموع نطقه بسرعة:

"بتتكلم جد؟ إنت متابع مع واحدة دكتورة؟ غريبة!!"

رفع أحد حاجبيه في دهشة مصطنعة:

"و إيه الغريب في كده يا حسن مادام ملتزمة وكويسة في شغلها!!"

وكزه بكوعه في جانبه هاتفًا في خبث مرح:

"يا أبو حميد، شغل إيه بقى؟ عليه العوض ومنه العوض في الكورس"

وهذه المرة خرجت منه قهقهة، غاضبة، ساخرة، وتحمل لمحة تصميم وعناد، مع تطلع "حسن" إليه بذهول، زادت قهقهاته، ثوان أخرى تماسك بعدها بصعوبة، ثم أجاب سريعًا:

"لا من الناحية دي ما تقلقش، هي مركزة في شغلها وبس، وبعدين مش ستايلي، ماليش في العقد والأقفال"

عقد صديقه حاجبيه مرددا:

"أقفال؟!"

أومأ برأسه مؤكدًا بجدية:

"تلات أو أربع أقفال في بعض"

وكزه مرة أخرى ونبرة الخبث تعود لتتلبس صوته:

"تحدي جديد يا لورد!"

تنهيدة بعمق، لا بل من العمق، كأنها مرت بكل خلية في جسده قبل أن تصل لرئتيه و تخرج من أنفه ببطء، هذه المرة اعترف بتسليم ونبرته تحمل تصميمًا وإصرارًا احد العناد:

"وهاكسبه يا أبو علي"

وهذه المرة، ولأول مرة أيضًا، شرد، بعيدًا عن مضمار سباقاته، مدللته الرابضة أمام عينيه، سهمه المتألق، تحول بفكره لمضمار آخر، حلبة بنيت داخل قلب أنثى، ناعمة بطريقة مهلكة، ومع أن كفها الرقيقة عانقت وجنته في صفعة إلا أنه شعر بها أرق لمسة، لا يدري ما به حقًا عندما تمر بخياله !! وهي دومًا ما تفعل، رغم صعوبتها، برودها، جمودها، عنف ألفاظها، فهو يريدها، يريدها بشدة.

ومن عالم شروده مع طبيبته انتزعه اقتراب زميله منهما بخطوات وئيدة، عيناه على "أحمد" وبهما لمعة لم يستطع فهمها، وقف أمامه مصافحًا:

"إزيك يا أحمد؟ عامل إيه؟ عاش من شافك يا راجل!!"

صافحه بابتسامة خافتة صاحبت جوابه:

"أهو الحمد لله يا عماد، أخبارك إنت إيه؟ شايف أسلوبك بقى أحسن كتير"

بابتسامة باردة ولهجة أكثر برودة:

"كنت محتاج فرصتي بس يا لورد"

عقد "أحمد" حاجبيه في غير فهم فغمغم "حسن" وهو يقف جاذبًا يد صديقه المندهش:

"طيب يلا بينا إحنا يا أحمد، قلت لي عندك جلسة"

وأومأ برأسه للآخر متحركًا نحو الخارج مع تساؤل:

"قصده إيه بفرصته دي؟ هو حد كان منعه يتدرب صح؟"

وكزه "حسن" في كتفه مغيرًا الموضوع:

"سيبك منه، ما إنت عارف عماد، المهم كملي حكاية القفل"

رفع "أحمد" حاجبيه و ابتسامة جذابة تحمل لمحة سخرية ترتسم على شفتيه، لديه بالفعل جلسة بعد قليل، لقد وصلتها رسالته بالأمس، ترى هل احتل عقلها كما خطط وتوقع؟ هل تفكر به وتشك فيه؟

حملت ابتسامته لمحة مكر وهو يتذكر ما ينوي فعله اليوم، سيثير جنونها بحق، ودون أن تعرف من هو!! كما لا يعرف هو من "مصطفى" و" مالك" هذين؟.. أحمق، الرجل كان سيكمل تعارفه وقتها، لكنه بتسرعه وغضبه الذي اشتعل فجأة دون أن يدري له سببًا أوقفه بلهيب عينيه، لكن لا مشكلة، إن كان هو زوجها، فهناك مكان سيعمل على أن يجعله شاغرًا قريبًا، ثم يحتله بنفسه، وبكل تمكن وثقة.

******

الفضول قاتل حقا، لم يقتل فقط القطة، بل يقتل الأعصاب، يذيبها ويثير حفيظتها، يحرقها، ثم لا يطفئ تلك النيران، وعندما تكون هي محور فضوله.. تتأجج الشعلة بقوة، تصهر عقله معها، حتى تمام الاحتراق، ودون ارتواء أو انطفاء أبدا.

جلس خارج مكتبها في انتظار قصير، أتى اليوم بذقن غير حليقة أكثر من المعتاد، شعره مشعث نوعًا ما وغير مرتب كأنما مرر أصابعه فيه مائة مرة، تتدلى منه خصلة فوق جبينه، بقميص قرمزي وبنطال من الجينز

الأسود، أهو نوع من الاكتئاب؟ ربما، جلسته في خلال دقيقتين أو ثلاث يمكنه أن يعدها ثانية تلو أخرى.

فُتِح الباب أخيرًا وهي في وداع ذلك الصغير ذو الخصلات الذهبية الناعمة، يقضم بشقاوة قالبًا ضخمًا من الشيكولاتة، وقبلة أسفل وجنتها عندما انحنت تمنحها إياه، اشتعل من جديد، حتى الصغير ينال قبلة!! ابتسامتها الصافية أسرت عيناه، حينما التقت بنظراته النهمة نحوها عقدت حاجبيها ثم استدارت نحو الداخل مشيرة لمساعدتها، كان هو الأخير، ودومًا هو كذلك في مواعيد جلساته، نبهته السيدة فهب و اقفًا وبخطوات سريعة أصبح داخل مكتبها، توليه ظهرها مع بضعة أوراق، عندما التفتت إليه أخجلتها عيناه، بهما شيء غريب لا تدري ما هو! لكنها بقوة وبرود منعت حمرتها من الوصول إلى وجنتيها فلن تمنحه لذة انتصار يتمناها.

تأملها بجوع، كأنه لم يرها منذ سنين، وهي كانت أمام عينيه بالأمس فقط، لاحظ تلك البقعة، قطعة صغيرة من الشيكولاتة أسفل وجنتها بالقرب من شفتيها، تركتها قبلة ذاك الشيطان الذهبي المحظوظ، راودته نفسه على اقتراب، دون وعي مد سبابته يمسحها برفق، وأمام عينيها وضع إصبعه بين شفتيه يلعق الأثر ونظراته تغزوها، مع همسة مستمتعة:

"لذيذة، باموت في الشيكولاتة"

صوتها وصله بدهشة:

"شيكولاتة!! شيكولاتة إيه يا أستاذ أحمد؟"

رمش بعينيه بعدما أفاق من خيالاته، حقا!! الآن يعيش معها حلم يقظة؟ ما الذي تفعله به هذه المرأة؟ و اكتفى بلمسة من إصبعه؟ هل بدأت في ترويضه بالفعل وتحجيم اندفاعه؟ تتحكم في خياله تجاهها!! أمسكت بلجام أحلامه الجامحة نحوها؟ فلمسها بإصبعه!! حسنا سيعترف الآن.. لقد أصابه خبال يحمل اسمها.

لم يستسلم لأوامر عقله التي ظهرت فجأة كأنما نبت من العدم، وفكرة عابثة تمر بذهنه ليضعها قيد التنفيذ على الفور، مرر لسانه عند نقطة التقاء شفتيه ناحية اليمين في إشارة وقحة مجيبًا تساؤلها موجهًا عينيه إلى شفتيها وهزة نحوها من رأسه:

"شيكولاتة"

اتسعت عيناها في صدمة وهي تنظر إليه مع هتافها الحاد الزاجر:

"نعم!!"

تراجع مشيرًا بكفيه أمام وجهه في استسلام، ثم رفع إصبعه يشير نحو وجنته هو مجيبًا بعبث:

"مكان البوسة"

واتساع عينيها في ازدياد، لمح تلك النار التي اندلعت في مقلتيها فآثر السلامة مستطردًا بسرعة مشيرًا بإصبعه خلف ظهره:

"الولد الصغير اللي لسه خارج"

عقدت حاجبيها في تساؤل مندهش وهي تتحرك تجاه باب آخر داخل الغرفة، فتحته فظهر من خلفه دورة مياه صغيرة أنيقة بلون السماء، أغلقتها خلفها فرفع حاجبيه في سخرية، جلس على المقعد المواجه لمكتبها منتظرًا، تنهيدة حارة أطلقها صدره وهو يغمض عينيه وبقعة الشيكولاتة قرب شفتيها تتجسد داخل جفنيه المغلقين من جديد، حقا يا كازانوفا عصرك؟ بإصبعك؟ ابتسم بكسل وهو يتخيلها خلف الباب، تقف أمام المغسلة تتطلع في المرآة بحنق..

تزم شفتيها غضبًا، تلتقط منديلًا تنظف به وجنتها..

تلتفت لتلقي نظرة ساخطة نحو الباب المغلق كأنها موجهة له هو..

تتذكر إشارته قليلة التهذيب كما ستسميها.. ووجنتيها يصيبهما احمرار..

اتسعت ابتسامته مستمتعًا..

تفتح صنبور الماء البارد وتمسح وجهها..

تخفف احمراره، نفس عميق تهدئ به غضبها، خطوتان أو ثلاث..

تدير المزلاج.. وها هي ظهرت أمامه أخيرًا ببقايا حمرة خجل..

رائعة..

همسة انطلقت ساخنة في صدره مصاحبة لاتساع ابتسامته الماكرة بينما يتطلع إليها ويهب واقفًا في انتظارها..

تهربت بعينيها بعيدًا عن عينيه مع هتافه المرح:

"بريء المرة دي!!"

التفتت إليه من جديد وقلبها يهتف مندهشًا بشكل مفاجئ مع ابتسامته الشقية التي تزين شفتيه:

"إن لديه غمازة واحدة على وجنته اليسرى"

******

البعض منا يرضخ للقيود، يمنحها الحق في سلسلته، ويستسلم لها بهدوء تام دون أدنى مقاومة..

والبعض الآخر، يرفضها تماما، يمزقها، يحطمها، ويتمرد عليها بقوة وعنف لينتهي الأمر بتحرره الكامل منها..

وتأتي لحظات يعود القيد ثانية محاولًا أن يغلَّ يديك أو يغلَّ عنقك، يثبتك لأرض لم تردها يومًا وينزع عنك ريش حريتك الذي طرت به بعيدًا من قبل..

لكن من ذاق طعم الحرية، بقوتها وعنفوانها، بانطلاقها وجرأتها..

لن يستسلم لقيود تجذبه نحو ما يرفضه من جديد..

ليس ببساطة على الأقل..

تلك النظرة الغاضبة على وجه عمه عندما التقت الأعين لا تبشر بخير أبدًا، لقد أنهى جلسته مع قطته الشرسة ثم انطلق يقود سيارته لعدة ساعات لا يدري عددها يفكر بها، بابتسامتها التي نالها فجأة دون أن يعلم لها سببًا محددًا، بخجلها وحمرته الفاتنة، ببرودها المصطنع، ومشاغبتها، وحتى بألفاظها التي تتعمدها لتهينه، هو فقط يشعر معها بالمرح، الكثير والكثير منه، و حينما عاد للمنزل متأخرًا، ووجد العم يجالس والدته وشقيقه، نظراته تشي بغضب شديد، وحتى أمه تكاد تصرخ في وجهه علم أن الأمر جلل، بادره عمه بعد دخوله:

"كنت فين يا بيه؟"

تظاهر بالدهشة مغيظًا، ثم هتف بابتسامة باردة:

"إيه يا عمي طيب قولي إزيك الأول!!"

وقف العم بعنف، وصوته هذه المرة بنبرة ثائرة:

"وليك عين كمان! لا ليك شغلة ولا مشغلة وداير تتصرمح في الشوارع لنص الليل ومش عاوز حد يسألك كمان!!"

وجه "أحمد" عينيه مرة لوالدته وأخرى لشقيقه، لم يدر ما سر ذلك الصياح هذه المرة؟ انتزعه صراخ عمه في وجهه من شروده:

"رد ع السؤال يا بن أخويا، كنت صايع فين لحد دلوقتي؟"

ارتفع حاجباه في دهشة حقيقية وهو يردد:

"صايع!!"

اقترب العم بخطوات قوية، الهتاف الحاد الساخط مستمر والعينان قريبا ستتحولان لآلتي قتل:

"أيوة صايع، بتعمل إيه في دنيتك أصلًا عشان أقول عليك راجل مسئول؟"

زم شفتيه ونيران الغضب تظهر في زرقة مقلتيه بينما صورة العم تنطبع داخلهما وهو يشيح بذراعيه في وجهه بهياج، دمدم من بين أسنانه:

"كنت باعمل يا عمي، وكنت بتفتخر بابن أخوك البطل، لحد ما كله راح مني في لحظة"

عاد العم يصرخ:

"ولما راح، عملت إيه؟ هتفضل عايش كده؟"

علا صوته قليلا مع نبرة انكسار تتخلله، ووجع يغزو قلبه ويعتصره بعنف:

"لأ.. هارجعه"

ابتسامة هازئة زينت شفتي الرجل:

"ولحد ما ترجعه، هتفضل كده؟ عاطل؟ ولا أقولك، خليني أسميك حاجة تانية، حتة دوبلير بيشتغل في الضل"

اتسعت عيناه مع لمعة غاضبة مرت بهما وهو يلتفت لشقيقه بعنف، نفى "عمرو" الأمر بعينيه مع هزة رأس، زم هو شفتيه ثم عاد ينظر لعمه ببرود:

"والله أنا حر، أشتغل اللي أنا عاوزه، مادام مش باخد منك حاجة"

هذه المرة كان الصوت لأمه، بنبرة حزينة بها لمحة سخط:

"تشتغل دوبلير يا أحمد؟ دي آخرتها؟ طيب شركة أبوك وقلت خليك براحتك، سباقات وسفر وقلت خليه يعمل اللي بيحبه، إنما دوبلير؟ ليه؟ فهمني ليه؟"

أنين الانكسار في صوتها آلمه، التفت إليها وصوته يكتسب هدوءً لا يعكس البركان الثائر الذي يحرق خلايا مخه:

"عشان أعمل حاجة باحبها يا ماما، أنا.. أنا...."

لم يجد ما يكمل به حديثه، فكل الكلمات التي تعبر عن موقفه، تستدعي شفقةً، تعاطفًا، وحزنًا من أجله، وهو لا يريد، سيظل قويًا، صامدًا.. وأمام الجميع.

أمسكه عمه من ذراعه يجذبه بقوة، مع تحذير قوي بعينيه ولهجة شديدة معنفة:

"شوف يا أحمد، آخر كلام عندي، هاديك فرصة شهرين، يكون الكورس بتاعك خلص، أو قرب يخلص، يا ترجع لسباقاتك وتبقى بطل أقدر أفتخر بيه زي ما بتقول، يا تيجي تشتغل في شركة أبوك وتاخد بالك من مالك ومال أخوك ووالدتك"

لم يحاول جذب ذراعه، لكنه رد ببرود:

"ولو مارجعتش بطل، وما اشتغلتش في الشركة!!"

نفض العم يده بعنف، ثم رفع رأسه باعتداد وهو يمنحه الجواب:

"يبقى نصيبك من ميراث أبوك هيتمن، ويتحول لفلوس كاش، تاخدها تصرفها ع الصرمحة بتاعتك لحد ما تخلص وتجوع بعدها، ومالكش دعوة بالشركة بعد كده ولا بأسهمها ولا هيكون لك فيها نصيب"

شهقة خافتة خرجت من صدر والدته صاحبها انعقاد حاجبي "عمرو" ونظراته هو الجليدية، اقترب الصغير منهما محاولا رأب الصدع:

"إزاي يا عمي الكلام ده؟ ما ينفعش طبعًا، أحمد زي ابنك وهو عارف إنك أكيد بتعمل كده لمصلحته ومهتم بيه وخايف عليه، معلش إديله فرصة وكله هيبقى تمام إن شاء الله"

استدار إليه الرجل قائلًا بجمود:

"أنا قلت اللي عندي يا عمرو، ما تتأخرش الصبح في اجتماع مهم، تصبحوا على خير"

وغادر، ببساطة غادر، عنفه، عامله كطفل، هدده، قلل من شأنه ثم غادر، قبضتيه المضمومتين بعنف حتى كادت أعصابه تتمزق أسفل

جلده عبرتا عن مدى الغضب بداخله، اقتربت منه والدته بعينين عاتبتين، وهمس موجوع:

"كده يا أحمد؟ ومخبي علينا!!"

التفت إليها بعينيه المحمرتين، وبادلها بهمس من بين أسنانه:

"وأديكم عرفتم"

ثم خطا بسرعة نحو الدرج صاعدًا إلى غرفته، هياج، نيران، سعير، وهو يعيش في قلب الجحيم، جحيم أشعره بعجزه أكثر، لقد كُسر مفتاح تمرده، وكُسر هو نفسه، فكيف سيحلق بعيدًا الآن، لم يعد أمامه سوى الاستسلام والخنوع لسيطرة العم كما يرغب، والبكاء فقط على الحليب المسكوب.

******

رذاذ الماء لا يسمن ولا يغني من جوع، كأنه يصلى سعيرًا خاصا به، يتأجج من داخله، ينبع من شر ايينه، ويسير داخلها مع دمائه، يفكر، و أفكاره تتهشم واحدة تلو الأخرى، قبضته المضمومة بعنف أذاقت الجدار البارد أمامه ثلاث لكمات متتالية وبصلابة منع دمعا غادرًا من مغادرة جفنيه،

رفع وجهه نحو المرش، اختلطت تلك اللمعة بالمياه المنهمرة، ثم عادت من حيث أتت، لتحرق قلبه، وتعصره فتنطلق منه آهات الوجع.

دقائق وجفف نفسه، ارتدى سروال منامته وخرج من الحمام ليتفاجئ بشقيقه ممددًا فوق فراشه بانتظاره، منحه نظرة غاضبة وأمره:

"عاوز أنام يا عمرو، اطلع برا"

اعتدل "عمرو" في جلسته، صوته هادئ يحاول امتصاص غضب وربما ألم أخيه:

"ممكن نتكلم شوية!! مش هاطول عليك"

رمى بجسده فوق الفراش متطلعًا إلى السقف، صمته فهم منه الأخ إشارته بالمو افقة، فعاد يكمل:

"أحمد إنت عارف إن عمك كل غرضه مصلحتك، وغرضه كمان إنك...."

صمت لثوان، تنهدة حارة، استطراد بلمحة ضيق:

"غرضه كمان وجودك إنت جنبه، مهما حصل هتفضل إنت الكبير، ومهما أنا عملت هيفضل عاوزك معاه، مستحيل عمي يكون قصده فعلًا ينفذ تهديده النهاردة، بس اللي متأكد منه إنه بيحبك ونفسه يشوفك و اقف على رجليك زي الأول وأحسن"

ابتسامة ساخرة زينت شفتيه، إذًا فالأخ الصغير يتألم هو أيضا، مرحى يا عم، لقد منحت كل منا سببا لكره الآخر، لف وجهه نحوه، برنة ألم حاول إخفائها لكن رغمًا عنه ظهرت بقاياها في نبرته المتحشرجة:

"أنا عارف هو قصده إيه، وعارف إني مش المفروض أستمر في موضوع الدوبلير ده، بس اللي إنت ما تعرفوش، إن عمك مش بيهدد، عمك لو المدة اللي اتكرم بيها عليَّ انتهت وما رحتش الشركة هينفذ كلامه وبالحرف، وبصراحة أنا ما يهمنيش، خليني صايع زي ما هو قال"

شفتيه مزموتان بحنق، كثيرًا ما يشعر أنه الأكبر، وعلى عاتقه تقع مسئولية لم تكن له منذ البداية، استند إلى مرفقه مواجهًا لشقيقه، حاول إضفاء الهدوء على صوته:

"أحمد خليني صريح معاك، إنت بطل، أو.. كنت بطل، واللي حصل لك مش سهل، وكونك تلاقي نفسك بتتنازل عشان تفضل عايش حلمك وهوايتك وحبك لدرجة شغل زي ده.. ده بيدل أد إيه إنت بتحبه، بس دلوقتِ جه الوقت اللي لازم تشوف المسئولية اللي هي في الأصل بتاعتك، إنت راجل، وطول عمرك أد التحدي، بتحارب وتعافر وتسعى بكل قوتك وجهدك عشان توصل، ليه ما تعتبرش ده كمان تحدي ولازم تكسبه؟ إنت ممكن تشتغل في الشركة وده حتى مجال دراستك وفي نفس الوقت

تواصل العلاج بتاعك وبرده تتدرب شوية، ما حدش هيمنعك، وكدة هترضي كل الأطراف وتحافظ على حقك، وتحقق ذاتك وهدفك"

نهض و اقفًا بعدها ثم استطرد بلهجة حازمة:

"فكر في كلامي كويس، اللعبة دي هتخسر فيها إنت أكتر، إلعبها صح عشان تكسبها"

وبخطوات واسعة اتجه نحو باب الغرفة، فتحه، توقف ثانية ثم بنصف استدارة قال بجدية:

"إنت عارف إن مش أنا اللي قلت لعمك طبعا على موضوع الدوبلير ده، بس هو سهل يعرف أخبارك من الصبح لبليل، ده جمال الشاذلي"

ثم خرج، وعقب خروجه خرجت تنهيدة حارة طويلة من صدر الممدد فوق فراشه، عيناه لاتزالان معلقتان بالسقف، صغيره المدلل، أنبه للتو، وأمره أن يكون رجلًا.

استدار على جانبه الأيمن وعقله لا يتوقف عن التفكير، كيف يسعى أكثر؟ إنه بالفعل تحول لآلة من كثرة التدريبات، خمسة أيام من أصل سبعة أسبوعيًا، يتمرن، يبذل جهدًا ووقتًا، كيف يعود؟ وسؤال آخر.. هل سيعود؟

وقعت عيناه على هاتفه فوق الطاولة المجاورة لفراشه فمر شبح ابتسامة فوق شفتيه، مجرد ذكراها محت ألمه واستبدلته برغبة طفولية في مشاغبتها، آه يا عماه!! فقط لو تركت اليوم يكتمل بسلام! استعاد ما حدث بعد انتهاء جلسته، جلسته التي حرص فيها كل الحرص أن تكون هادئة، جدية، والتزم فيها بالعمل وفقط العمل.

كان قد عدل هندامه وخرج ليجلس في مكتبها منتظرًا كما طلبت منه، وفي خياله الابتسامة الصغيرة التي ارتسمت على شفتيها فجأة بعدما عادت من الحمام وغسلت وجهها، ابتسامتها ألجمت عيناه في لحظة وقيدتهما نحوها، ثم احمرار وجنتيها المفاجئ وهي تنظر إليه بدهشة، تمنى لو يدفع كل ما يملك ليعلم السبب..!

عاد من شروده على صوت خطواتها الواثقة، وارتفاع رنين هاتفها معلنًا عن وصول رسالة، انعقاد حاجبيها أسعده، تظاهر باللامبالاة وهي تلتقطه، ركضت بعيناها فوق حروفه وفي ثوان كانت تجري اتصالا برقم المرسل، رنين طويل، ثم انقطاع الخط ولا جواب، هل تظنه أحمق؟ هاتف آخر، ضبط لوقت الإرسال، وها هي الرسالة تصل في موعدها المحدد تمامًا، مع إثبات لحجة غيابه عن مسرح الجريمة الشنعاء.

منحته نظرة شك حانقة ثم ألقت الهاتف من يدها بغيظ فوق سطح مكتبها، تظاهر بانتفاضة لتصرفها صاحبها سؤال ماكر:

"خيريا دكتور، خبر وحش ولا إيه؟"

جلست خلف المكتب بهدوء مع إجابتها المستفزة:

"لا أبدا، واحد مراهق بيستظرف"

وكتم ضحكته بصعوبة، تتذكر كلماته، وترددها على مسامعه، وتشك بنسبة مائة بالمائة أنه هو، لكن.. لا دليل، رفع حاجبيه في دهشة مصطنعة أغاظتها أكثر:

"معقول! معاكسة!!"

أومأت برأسها إيجابًا في صمت، فعرض بكرم:

"إمممممم طيب لو مضايقك: إديني الرقم هأتصل بيه وأأدبه"

رفعت عيناها نحوه، بابتسامة سمجة أجابته:

"لا ما أعتقدش إنه هيرد، لسه متصلة حالا"

هزكتفيه بابتسامة شقية أظهرت غمازته مرة أخرى وغمغمة مشاكسة:

"نجرب!!"

أظهرت الرقم وأملته له، طلبه بسرعة وفتح مكبر الصوت، رنين، انتهاء، ولا جواب، ثم قولها:

"قلت لك"

تظاهر بالاهتمام، ثم كان سخيًا بدرجة أكبر، ومظهرًا شهامة عرَضَ من جديد:

"طيب، الجلسة اللي جاية هيكون عندك بيانات صاحب الرقم"

تطلعت إليه تحاول سبر أغواره، إنه يلعب، يلهو ويعبث كطفل، أحمق.. جاوبته:

"لا مفيش داعي، كل مرة من رقم مختلف، وأكيد مش هتلاقي له بيانات، وكمان أنا مش باهتم بلعب العيال ده"

غيظ انتشر بداخله، لكن ملامحه جامدة وصوته بارد:

"زي ما تحبي، بس عمومًا عرضي لسه قائم"

جمعت عدة أوراق من أمامها ومدت يدها بها إليه، تناولها منها مع توضيحها:

"دي شوية تمارين هتعملها في البيت، وضروري تلتزم بيها"

منحها موافقة بهزة رأس ثم رحل، أمسكت بهاتفها من جديد تقرأ الرسالة:

"يا ترى لون شعرك إيه؟ إنت عارفة إني حلمت بيكِ وكان لونه عسلي، كأن الشمس لمسته بحنان يوم ما اتولدتِ فخد من دفاها حتة صغننة قوي، بس أنا متأكد إن نارها جواكِ.. وقلب الشمس جوا قلبك.. هتوحشيني"

حتمًا ذلك الدور لا يليق به، وبحثه في كتب والده -عاشق الشعر- القديمة لن يفيد، هذا ليس هو، لكنه مستمتع بشدة بمشاغبتها، والآن خطوة أخرى في خطته، ياسمينة جميلة، بطاقة صغيرة وكلمات أنيقة، واحتضان أسفل مساحات سيارتها، عبر الشارع توقف أسفل مظلة إحدى المقاهي كمراهق أبله ينتظر إطلالتها، يعلم أنها ستلقي بياسمينته في أقرب سلة مهملات، لكنه لن يتوقف حتى تحتضنها قرب قلبها، وتتشمم عبيرها في هيام.

اتسعت ابتسامته وهو يلتقط هاتفه ثم يعود للاستلقاء فوق ظهره مستعيدًا ملامحها القططية التي لا تليق بنعومتها ورقتها.. أمسكت بالبطاقة المعلقة بزهرته وقرأت كلماته:

"الياسمينة دي شبهك، عنيدة، هادية ورزينة، بس على طول جبانة وخايفة، اقري في لغة الورد، لأنك في عيوني أوركيد يا عطر الملوك"..

عقدت حاجبيها وبالفعل توجهت لسلة القمامة القريبة وألقتها داخلها بحركة عنيفة أخرجت تنهيدة حسرة من صدره وهمسة ساخرة..

"خسارة".

حسنًا وللغرابة، هو يعشق الزهور، ويعلم لغتها جيدًا، ربما من كثرة علاقاته النسائية، ابتسم ساخرًا و"أوركيدته" الشقية الشرسة تحتل خياله من جديد، ما بك أيها السهم؟ أتريد احتلال مرتبة العشيق؟ أم وقعت بالفعل؟

برقم مختلف، وصلتها رسالته قبل نومها كما بالأمس تماما..

"هاحلم بيكِ أكيد، تصبحي على حب"

وصرخة ساخطة خرجت من بين شفتيها ملقيةً بالهاتف عبر الغرفة ليسقط فوق أريكة مقابلة، جذبت الغطاء فوق رأسها بعنف وهي تحاول النوم، وقهرًا يعود الوقح ليحتل تفكيرها من جديد.

(9)

مفاجأة

معناها الحسناء.. تحمل كل ألوان قوس المطر.. وعمرها طويل نسبيًا..

عاصرت الأزمان الغابرة، امتلأت بها الغابات، ونشرت عبقها في الحدائق الغناء..

كتب عنها الصينيون، هم الأوائل بالطبع كعادتهم، وحكيمهم الشهير "كونفوشيوس" أطلق عليها لقبا مبجلًا " زهرة عطر الملوك "..

رؤيتها في عالم الُحلم فسروها بوجود حاجة للحفاظ على الرومانسية.. الحفاظ على الحب..

ليست تقليدية، بل غريبة.. وجميلة في نفس الوقت، لها هالتها الخاصة من الجاذبية، تنوعها هائل، فهي تقتحم الصحاري، تتسلق قمم الجبال، وقرب النهر، ووسط استوائية الغابات المطيرة.

هكذا يراها إذن!! أغلقت حاسوبها المتنقل، اليوم عطلة وكم أراحها ذاك، لن تراه أو تجبر نفسها على الاستماع لمغازلته وتوريته، أرسل لها تحية

الصباح لتستيقظ عليها، مع تعبير "قبلة"، الآن يتخطى عذب الحديث، لتجاوزات الفعل، التجاهل هو الحل الأسلم، تجاهلي "منى" ارسمي لوح الثلج واخفي نفسك بداخله، أغلقي قلبك دون كل شيء، أغلقيه بأقفال صدئة محكمة غير قابلة للفتح أو الكسر.

أنبت نفسها من جديد على استجابتها لداعي الفضول الذي أمرها بالبحث عن معنى كلماته "لغة الزهور"، لا تنكر أن تشبيهه لها بالأوركيد أعجبها، ونقش سطرًا على صفحة غرور الأنثى بداخلها، لكنه فقط أحمق آخر، ولن ينال أكثر من نظرة توبيخ لو تمادى، تصرفاته الذكورية البحتة التي غلب عليها طابع المراهقين تغيظها بشدة، رغم أنها لا تمتلك دليلًا يثبت أنه ذلك الوقح.

في المرة السابقة انتبهت فجأة لطابع الحسن على وجنته، لا تدري ما الذي جذب عيناها نحوه بشكل غير متوقع!! وعندما هتف بمرح معلنًا برائته الكاذبة وجدت ابتسامة ترتسم على شفتيها عنوة، لا تنكر خفة ظله، لكن وقاحته ومحاولته اقتحام عزلتها تثير غضبها أكثر.

غادرت غرفتها تبحث عن صغيرها الذي جلس إلى جوار جده يشاهد أحد أفلام الرسوم المتحركة على شاشة التلفاز الكبيرة، وقفت تتأمله قليلًا، عينا والده الدخانيتان، خصلاته حالكة السواد، بشرته الفاتحة،

ونظراته التي لاتزال تذكر كيف كانت تزلزل أرجاء قلبها، تبًا لك "سامح" لمَ قهرت روحي بهذا الشكل؟ كنت صغيرتك، طفلتك البريئة المدللة التي علمتها معنى الحب حرفًا حرفًا، فإذا بك الآن تقتل قلبها الذي سكنته، تطعنه بغدر، وتتركه ينزف مغادرًا بلا عودة، ويشاركه النزف ثمرة الفؤاد "مالك"، اختلط بنظراتها بعض الحزن، الفتى كاليتيم ووالده على قيد الحياة.

توجهت نحوهما ببطء، انحنت تداعب شعر صغيرها وتطبع قبلة حانية على مقدمة رأسه، جلست إلى جواره تضمه إليها لتتابع معه فيلمه المفضل عن عالم السباقات و سيارته الحمراء الشهيرة.

******

اليوم طويل حقًا، طويل بشدة، تمر ثوانيه ببطء حارق، ودقائقه ممطوطة كساعاته التي أصبحت كدهر، متى يأتي يوم السبت؟.

كل ذلك لأنه لم يرها اليوم!! هذا غير معقول، هل أصبحت جزءً من وقته، أو ربما هي كل وقته، تستحوذ على عقله في وحدته، وعينيه عندما يتواجد معها، كل التحديات تضاءلت، تراجعت، تناساها، وبقيت هي تسيطر على تفكيره المريض بها.

نفض رأسه بعنف، حاول التركيز في الطريق بينما يقود سيارته لمقابلة عَلَقَته الخاصة "سهر" بناءً على موعد حددته هي، أمام منزلها وجدها بانتظاره، وعندما دلفت إلى السيارة بجواره وقرأ لغة جسدها؛ هي تهم باقتراب، وترغب في قبلة ربما على الوجنة هذه المرة، وجد قدمه تضغط دواسة الوقود بشكل مفاجئ فأنَّت إطارات سيارته بصرير مفزع وهي تنطلق بسرعة أخافتها وجعلتها تصيح فيه:

"أحمد في إيه؟ رعبتني"

منحها ابتسامة لزجة مجيبًا بسماجة:

"عادي يا سهر، عشان ما نتأخرش ع الحجز بتاع المطعم، أنت عارفة إنه ممكن يضيع"

وهناك، في ركن هادىء وعلى ضوء شموع متراقص ناعم منحها اعتذارًا ممتزجًا باختبار لم تلحظه الحمقاء:

"سهر أنا آسف على اللي عملته آخر مرة، معلش كنت متضايق وأكيد مش قصدي أعمل كده"

ابتسمت بدلال، ولمسة من يدها الناعمة لكفه المستكين فوق الطاولة، تطلع إليها بملل، و أتى ردها ليعلم أنه على حق:

"ولا يهمك يا أحمد، أنا عارفة إنك مستحيل تقصد توجعني، ومتأكدة إن لوكان مودك رايق، كانت بقت مختلفة"

نعم هوعلى حق، عقد حاجبيه في تظاهربدهشة:

"يعني أنت مش زعلانة إني بوستك أصلا بس المشكلة إني كنت قاسي شوية؟"

شعرت بالارتباك، دارته بضحكة، هو يفهمها بالتأكيد لكنه يرسم دورًا لا يليق به، خبير النساء يدعي جهله بما يدور داخلها، ويعيش دور البريء، أجابته بلامبالاة:

"مين قال كده؟ أكيد زعلانة عشان الاتنين"

ثم مالت تقترب عبر المائدة، عيناها تخبرانه أنها تفهمه، فتوقف عن اللهو، همست بفحيح:

"بس يهمني زعلك أكتر"

تراجعت في مقعدها ثانية، لم يعلق هو وقرر تجاهل الأمر، فكرت لثوان ثم ألقت بعرضها:

"أحمد إيه رأيك تبقى بطل فيلمي الجديد؟"

عقدة حاجبيه المندهشة هذه المرة حقيقية تمامًا، شعر بغضب يغزوه، حمقاء، هي حمقاء وبلهاء أيضا، زم شفتيه لثوان ثم أجاب بصرامة:

"سهر أنا مش ممثل، واللي كنت باعمله في الفيلم اللي خلص ده مجرد هواية كده، تسلية، لحد ما كورس العلاج بتاعي يخلص وأرجع التراك تاني، عرضك مرفوض"

شعرت بالغيظ، لكن أسلوب التحايل يبقى هو الأصلح:

"ليه بس؟ إيه المانع؟ الفيلم مخصوص عشانك، عن بطل زيك، وفيه سباقات، هتقدر تعمل مشاهده براحتك، وتستمتع بيه"

زوى ما بين حاجبيه، فيلم عن السباقات؟ هل كُتِب لأجله أم ماذا؟ فكر قليلًا، كلمات عمه يتردد صداها في أذنيه، ثم منحها قراره القاطع:

"مش هاكون البطل، هافضل الممثل البديل لمشاهد العربيات، واختاري أي بطل يعجبك"

عندما حاولت الاعتراض، رفع كفه مقررًا:

"ده آخر كلام عندي"

وامتزج بلهجته الحازمة نظرة محذرة، "لا تخوضي في الموضوع ثانية"، والتزمت هي بأمره، حسنا لن يختلف الموقف كثيرًا، سيأتي لموقع

التصوير، أكثر بكثير من الفيلم السابق، ستقابله، وستنال منه هذه المرة كما تتمنى .

******

بحلةٍ رياضية داكنة الألوان كما يفضل، وكوبٍ من الحليب البارد، بصحبة ابتسامة والدته الحنون التي ترافقه صباح نهاية كل أسبوع، وبعض المداعبات بينهما خرج من المنزل، وبدأ الركض، وصل للحديقة القريبة منه.

منذ الحادث لم يمارس رياضته الصباحية المفضلة، وهذه أول مرة، نصف ساعة قضاها يطوف حول الطرق الممهدة في المكان، عندما توقف إلى جوار شجرة ضخمة قرب بوابته كان يلهث بشدة، حقًا لياقته في تناقص، في السابق كان يركض لساعة متواصلة ودون تعب، خرج راكضًا مرة أخرى حتى منزله متحديًا أنفاسه المتقطعة وألم ظهره الذي بدأ ينخز أعصابه متجهًا نحو أطرافه .

استقبلته والدته بكوب من العصير الطازج، بادلها إياه بقبلة على وجنتها، ثم عاد للخارج ودار حول المنزل، حجرة خلفية بواجهة زجاجية، وقف ينظر إليها من الخارج لدقائق قبل أن يتوجه نحو بابها ويفتحه ببطء، صالة تدريباته الرياضية الخاصة، المكان مرتب ونظيف، والدته تعتني به

جيدًا لأجله، فهو سيعود حتمًا، تحسس أدواته بحنين وهو يتحرك بينها بهدوء، يشتاقها، نعم هذا هو التعبير الأدق، يشتاقها، سحب نفسا عميقًا وحبسه في صدره، أخرجه برفق ورغمًا عنه تصاعدت شرارات غضبه تحرقه.

مرارة الفقد، فَقَدَ كل شيء، نعم وببساطة ووضوح، كل شيء، تلفت حوله يود تحطيم المكان، هنا كان يقضي معظم وقته، يتمرن ويتمرن، يقوي جسده، يرفع من درجة احتماله للجهد والألم، حتى عاد للصفر من جديد، شعر بغضب أكبر من نفسه، أينوح الآن كالنساء؟

نفض الأفكار المثبطة عن رأسه، اقترب من ركن يواجه الحائط الزجاجي حيث عُلق "كيس ملاكمة" متدليًا من دعامة حديدية مثبتة في الأرض، من فوق طاولة قريبة التقط قفازيه، ارتداهما سريعًا وهو يضيق عينيه ناظرًا إلى الكيس أمامه، رفع قبضتيه في مستوى وجهه وانهال باللكمات فوق المسكين الذي تلقاها بثبات، لكمة خلف أخرى، يدور حوله، ينخفض ليتفادى خصما وهميا، يعود بلكمة من قبضته اليمنى، ينخفض، وأخرى بيسراه، ثم تعود قبضتيه لحماية وجهه من جديد.

لا يدري كم من الوقت مر عليه؟ لكنه عندما انتهى كان جسده يئن من الألم بالفعل، جلس مستندا للجدار يرمق الأفق بشرود، لهاثه يسكن،

أنفاسه تهدأ، وجحيم غضبه لا ينطفئ، خلع قفازيه وبإهمال ألقاهما أرضًا، خرج من الغرفة وأغلقها خلفه، ليقف أسفل الماء البارد عله يبرد معه السعير الذي يعيش فيه.

******

مزعج، هو كائنٌ مزعج، وضع الوسادة فوق رأسه بعنف محاولًا تجاهل رنين هاتفه بنغمة شقيقه الصغير، تبًا له، اليوم الجمعة، الناس ترتاح، وهو يستيقظ مبكرًا يومها ليمارس تمارينه المعتادة، ليأتي ذلك المشاغب ويقلقه، أجابه بغيظ:

"في إيه يا عمرو؟ عاوز إيه يا بني آدم أنت؟"

أتاه صوت شقيقه مرحًا:

"إيه يا لورد بس! يعني أخوك الصغير لما يتزنق يلجأ لمين؟ وبعدين كله هيبقى بتمنه"

لم يفهم شيئًا فصاح فيها ساخطًا:

"اخلص يا عمرو في إيه؟"

شعر بأخيه يكتم ضحكة، لو كان أمامه الآن لتملك من عنقه، أجابه بنبرة ماكرة:

"أنا في النادي، ومعايا باقي الشلة، والقعدة طرية وحلوة، و...."

لم يعطه فرصة ليكمل حديثه بل قاطعه بصراخ:

"نعم..! أنت مصحيني من النوم عشان تقولي القعدة طرية؟"

والآن هو يضحك، من بين ضحكاته أعطى المتميز غيظًا رده:

"يا بني عاوزك تيجي، عربيتي مش عارف مالها، تعالى قضي اليوم معانا وشوف يمكن الجو يعجبك، وروحني معاك"

أنهى المكالمة بحنق:

"عمرو ارجع في تاكسي، ولا خلي حد من شلتك البايظة يوصلك، سلام"

لاحقه بسرعة:

"يا أبو حميد إحنا كلنا جايين بعربيتي، يرضيك كده يعني؟ ما تصغرنيش قدامهم يا كبير"

زفر في انزعاج، ومنحه ما يرغب وهو ينهض من فراشة بعنف:

"طيب يا عمرو، أنا هاتنيل آجي"

ختم الصغير المكالمة بلفظ تحبب ومزاح:

"حبيب قلبي، مستنيينك، وأهو بالمرة تظبط الشلة وتعمل لهم فيلم رعب من بتوعك"

ارتسمت ابتسامة خافتة على شفتي "أحمد" رغمًا عنه، تذكر ما كان يفعله مع أخيه الأصغر منذ سنوات هو وأصدقائه، ارتدى ملابسه على عجالة، وضع منظاره الشمسي مرفوعًا فوق رأسه، ووقف ينتقي عطرًا مناسبا، المشاغب الصغير قال أن هناك نساء ينتظرن شهريارهن القادم بسيارته لإنقاذهن، إذًا، هذا هو الأنسب، بضع زخات لم يقتصد فيها، غمزة لنفسه في المرآة، أنزل المنظار فوق عينيه والتقط مفاتيحه وغادر.

استقبله شقيقه بترحاب، جذبه من يده يسير معه نحو مكان جلوس عصابته، كان يثرثر عن مدى روعة اليوم، وأنه سيقضي وقتا ممتعًا والكثير من الكلام الذي لم يستمع لحرف منه وهو يتوقف فجأة ناظرًا لطرف بعيد عنه بتدقيق.

أهذا هو؟ لا يعقل؟ نعم هو، وفي الثواني التالية كانت هي تقترب منه بابتسامة صافية، إنها هي..! أحاطها بعينيه، يتشبع بصورتها، يلتهم تفاصيلها، ودون وعي قادته قدماه نحوها، دونما اكتراث لمن يصاحبها، أو يصاحبه هو، عيناه التصقتا بملامحها، وبراءة وجهها المستريح بهدوء، تبعه شقيقه لا يفهم شيئًا، وقف خلفها دون أن تراه، إلى جانبه الصغير

ينظر إليه، ثم ينقل نظراته إليها، وإلى الرجل الجالس على منضدة مقابلة.

لمحه الرجل قبلها فنظر إليه بدهشة وهو يتذكر أين رآه؟ أما هي فاستدارت تحمل منشفة كبيرة بينما تخاطب الجالس أمامها:

" دلوقتِ زمان ما...."

توقفت الحروف في حلقها عندما التقت عيناها بعينيه، لمحت فيهما شوقًا أخافها، هل يفتقدها الآن؟ أم يرسم دوره الذي خطط له؟ انشقت شفتاه عن ابتسامة انعكست لامعة في زرقة مقلتيه وهو يتدارك شروده، هتف بمرح مصطنع:

"مش معقول..! دكتور منى شخصيًا!!"

هي غاضبة، نعم وبشدة، هل هذه مطاردة من نوع ما؟ عقدت حاجبيها في ضيق بينما ترد بخفوت:

"أهلا يا أستاذ أحمد"

وكزه شقيقه منبهًا، فالتفت ينظر إليه في غير فهم، غمزه بعينه ليقوم بتعارف بديلًا عن وقوفه صامتًا يتأملها، تنحنح ثم بابتسامة أشار إليه:

"أعرفك يا دكتور، عمرو، أخويا الصغير"

بعدها أومأ نحوها مخاطبًا "عمرو":

"دكتورمنى يا عمور، أشطردكتورة علاج طبيعي قابلتها"

أومأت إليه بابتسامة لم تستغرق ثانيتين فوق شفتيها مع صوت الصغير:

"تشرفنا يا دكتور، أحمد بيشكرفي حضرتك كتير"

اتسعت عينا "أحمد" محذرًا مع غمغمتها الخفيضة:

"ميرسي، أستاذ أحمد ملتزم في برنامجه ومهتم بيه كويس قوي"

كتم "عمرو" ضحكته، الآن تؤنب شقيقه الأكبر وهو لا يستطيع الرد، أشارت هي للجالس تقدمه بمضض:

"دكتورمصطفى سيف الدين، والدي"

نطقت كلمتها الأخيرة وهي ترمي "أحمد" بنظرة غضب تلقاها هو في صدمة.. لغضبها، ولذكرها أنه والدها، أكملت التعارف بهدوء:

"أستاذ أحمد الشاذلي يا بابا، حالة عندي"

عقد حاجبيه في استياء "حالة" ما هذا اللفظ!! توجه هو نحو الرجل الذي اعتدل شبه واقفًا ليصافحه بهدوء، يرمقه بتأن، يستكشف

نظراته التي تحيط بابنته، يلمح لهفة من نوع ما، بعض من شوق، وشيء آخرلم يعجبه، غمغم:

"إمممم، أحمد الشاذلي، الاسم ده مش غريب عليَّ، لحظة .. أنت السهم الأسود مش كده؟"

ابتسم له "أحمد" بلمحة تواضع لم تكن أبدًا من شيمه، تساءل وسرور يكتنفه:

"حضرتك متابع أخبارالسباقات؟"

ضحك الرجل بتباسط، ثم أجابه:

"لا يا سيدي مش أنا، ده مالك، عشقه السباقات والعربيات"

ارتفع لهيب الغضب داخله فجأة مع ذكر الاسم، هل "مالك" هذا هو زوجها إذن؟ وقبل أن يرد وجد الرجل ينظرخلفه هاتفًا:

"أهوموكا جه أهو، اتعرف عليه بقى، هيفرح جدا"

تردد الصدى في عقله كاتمًا ضحكة، "موكا" !! هل يدللونه أيضا؟ التفت ينظر خلفه بعد أن ألقى نظرة حانقة على الابتسامة الواسعة التي ارتسمت على شفتيها، حسنا هو وسيم، ضخم الجثة، هي بالنسبة إليه عصفورة رقيقة، يرتدي زي سباحة ويضع منشفة عريضة فوق كتفيه،

وجدها تتخطاه بخطوتين وتنحني جالسة على ركبتيها، تفتح ذراعيها في وضع احتضان ليندفع كائن ضئيل الحجم كان يسير مع الضخم إلى أحضانها، سمع الرجل يقول:

"مالك النهاردة ممتازيا دكتورة منى، بيتقدم حلو قوي في التمارين"

أحاطته بمنشفة قبل أن تقف لتحادثه:

"فعلًا يا كابتن؟ طيب حلو جدًا، يارب بنهاية الصيف نكون خلصنا التمارين كلها"

تحدثا قليلًا بعدما صافح المدرب والدها، ورحل، هو مسمر في مكانه، يسب نفسه، ويعنفها، يلعنها، هذا والدها! والآخر طفلها! هو طفلها، طفل!!.. ظلت الكلمة تتردد داخله حتى كاد يصرخ غاضبًا.. لكن أين والده؟ كان الصغير ينظر إليه وإلى شقيقه باستغراب، سمع صوت أخيه:

"أنت بقى اسمك موكا؟"

طارت عيناه للطفل الجميل الواقف إلى جوار أمه بعدما غير ملابسه، ينظر إليه بريبة، وإلى "عمرو" باهتمام، أجابه بصوته الطفولي ذو اللهجة الجادة الغريبة:

"اسمي مالك، ماما وجدو بس بينادوني موكا، مش حد تاني"

جلس "عمرو" على ركبتيه أمامه يحادثه بمرح:

"إمممممم طيب يا مالك، ممكن أنا و أنت نبقى أصحاب، ولما نتعرف كويس أناديك موكا؟"

فكر الصغير لثوان ثم مد يده لأخيه يصافحه مجيبًا:

"اتفقنا، أنت اسمك إيه بقى؟"

داعب "عمرو" خصلاته السوداء المبللة، أجابه بلهجة طفولية:

"أنا عمرو، وده أخويا أحمد"

ليكمل الجد تعارفه:

"ده السهم الأسود يا موكا"

ارتفعت عيناه نحوه بسرعة، نظراته البريئة المتلهفة تقابل الصدمة والسكون في عينيه، إنه طفلها؟ أين والده إذا كان هذا هو أبيها؟ لاحظ كيف ينظر الفتى إليه!

انحنى يجلس أمامه ليقاربه طولا، داعب وجنته وتساءل بلهجة ماكرة:

"بتحب العربيات يا مالك؟"

ابتسامة كبيرة مبهورة ارتسمت على شفتي "مالك" بينما ينظر إليه بعينين متسعتين ويهز رأسه بقوة مو افقًا، أمسك هو بها ضاحكا:

"طيب طيب بالراحة، إمممم ممكن أنا أناديك موكا؟"

فكر لثوان، ثم قايضه بخبث طفولي لذيذ:

"ممكن بشرط، لو ماما مو افقة، وتوريني عربيتك"

رفع عينيه نحوها بتساؤل مرح، زمت شفتيها حانقة، إنه يتسلل لطفلها، لمَ عرفته به أبي؟ تمتمت بغيظ:

"زي ما تحب يا مالك"

نظر إليها الفتى بحزن، هل تعنفه عندما تنطق اسمه كاملًا أم ماذا؟ تخطى الموقف وهو يقف ويحادثه:

"طيب اتفقنا، وعربيتي قريبة من هنا، مش بعيد لو تحب تشوفها"

كاد "مالك" يقفز فرحًا لولا أن سارعت هي:

"معلش آسفة يا أستاذ أحمد على إزعاج مالك، مش هينفع طبعا"

وهي ترمق صغيرها زاجرة، رفع حاجبيه ساخرًا، داعب خصلاته و انحنى يهمس في أذنه:

"بص إحنا نسمع كلام ماما، والمرة الجاية هتشوف العربية، بس مش عاوزينها تزعل مننا، أوك يا موكا؟"

هز رأسه موافقًا بابتسامة سعيدة، جلس "عمرو" أمامه ثانية ماطًا شفتيه متظاهرًا بالحنق، وبصوت مرح أعلن استياءه:

"على فكرة يا مالك أنا أخوه، يعني ممكن أقولك موكا برده، أنا كده زعلان"

داعبه الصغير بشغب :

"لا خلاص، مادام أخوه ممكن أصاحبك، ولما أصاحبك، تقولي موكا"

رفع حاجبًا في دهشة، ثم همس وهو ينهض واقفًا ثانية:

"عنيد"

أتاه صوت شقيقه في أذنه:

"زي مامته"

ابتسم، راودته رغبة في استفزاز الواقف إلى جواره، حول ابتسامته لـ " منى" التي تهتم بطفلها بينما تجاذب شقيقه أطراف الحديث مع والدها، هتف بصوت جاد:

"صحيح يا دكتور منى، هو لو واحد رجله مكسورة، ممكن يحتاج علاج طبيعي؟"

التفتت إليه لترى لمعة مرح مشاكسة في عينيه رغم صوته الهادئ الجاد، أخيه ينظر إليه بحذر دون فهم، أجابته بهدوء:

"على حسب الحالة ونوع الكسر، في كسور ممكن تحتاج علاج طبيعي"

منحها ابتسامة مشاغبة متسائلًا من جديد:

"يعني أكسرها إزاي عشان آجي آخد جلسات عندك؟"

كادت تفلت منها ضحكة، ما الذي يهذي به؟ ابتسمت بخفوت وهي تهز رأسها استسلامًا، ابتسامتها فجرت بركان غضب الأخ الأكبر، منح أخيه نظرة زاجرة حادة بادلها بعبث، همس لها وهو يمر إلى جوارها مغادرًا مع المغازل الصغير:

"ما احنا بنبتسم أهو، مش بأقول أنا ليَّ الوش الخشب وبس"

نظرت إليه بحدة فابتسم لها، لا يدري لمَ ابتسم! ولا تعلم هي لمَ استقرت عيناها عند وجنته اليسرى! أحنى رأسه مودعًا أبيها، و انحنى يطبع قبلة على وجنة الصغير وعيناه تحاصرانها، ثم جر أخاه الأحمق خلفه بسرعة.

داعبه "عمرو" بعدما ابتعدا لمسافة كافية:

"بسكوتة يا لورد، إيه ده؟"

رمقه بنظرة نارية محذرة، العبث يسري في دم هذه الأسرة، شاكسه برفعة حاجب وجملة أخرى وهو يقرص وجنته، كاد يلكمه عليها:

"إيه يا أبو حميد، بتغيري يابيضة؟"

والبريق هذه المرة قاتل، أزاح يده بعنف و أجاب ضاغطًا أسنانه بعنف:

"احترم نفسك يا عمرو، أنا غلطان إني جيت لك أصلًا، ابقي روح بمعرفتك أنت والشلة الصايعة بتاعتك"

لاحقه ضاحكًا:

"بجد غلطان؟ ما كنتش هتشوف اللي بالي بالك"

عقد حاجبيه في غيظ وغادر، بخطوات سريعة غاضبة ساخطة، والأخ يتابعه بدهشة، ورغم رحيله، ابتسمت شفتاه وهو يظن أن أخاه قد وقع في الحب، بل ويغاربشدة، والحبيبة لا تبالي به مقدارذرة.

(10)

مفاجأة أخرى

نعم يعلم أنه مجنون، متسرع، عصبي، ومثابر، يسعى بقوة وعنف دون توقف حتى نقطة الوصول، لكن هذه المرة الهدف يختلف، الهدف أصابه بالقلق على شقيقه الأكبر.

تابع رحيله غاضبًا بعينيه، الأفكار تتصارع داخل عقله، أيعقل أنه وقع في الحب بالفعل؟ ومع من!! طبيبته!! الزوجة و.. الأم؟ تبًا، ما الحل الآن؟ ولكن أين زوجها؟ إذا كان والدها بصحبتها فأين الأب؟ لن يترك أخيه يغرق في رمال الحب المتحركة، لا هو لن يغرق فقط، بل سيتسبب في كارثة، تهدده وتهدد حياتها هي أيضا.

هي تبدو مختلفة بالتأكيد، ومع حديث "أحمد" عنها وعن طريقتها في رفض مغازلته وتقربه منها وبعنف فمن الواضح أنها تجذب انتباهه بشدة، لكنها متزوجة يا أحمق، كيف يتصرف؟.

نبتت الفكرة في رأسه فجأة فوضعها موضع التنفيذ على الفور، تجاهل أصدقائه وبخطوات سريعة مهتمة توجه نحو منطقة حمامات السباحة، بحث بعينيه عن المدرب الذي لمحه مع "مالك" حتى اقتنصه، وفي ثوان كان يقف معه متبادلًا حديثًا شديد الأهمية يخص الصغيرو.. أمه، وكان ما عرفه رغم سطحيته سيشكل فارقًا كبيرًا بالتأكيد.

******

النيران تزداد، مصادرها تتنوع، لا تكتفي بإحراقه، بل تقتله حيًا يتلظى ببطء، يشوى بعذابات جديدة لم يختبرها من قبل.

الآن تأكد..

هي زوجة، هي أم، ولطفل جميل وذكي..

ما الذي يجذبه إليها؟ يشعر بجنون يحرق خلايا مخه، هذا كثير للغاية، منذ غادر تاركًا أخاه خلفه وهو يفكر بها، ثلاث ساعات استهلك خلالها وقود سيارته كاملًا ثم عاد لمنزله.

توجه من فوره إلى غرفته بعد تحية مقتضبة باهتة ألقاها على والدته المستغربة، بعد دخوله من بابها وفور إغلاقه خلفه تخلص من ملابسه التي يختنق بها ووقف أسفل الماء من جديد..

النيران لا تبرد، لا تنطفئ، لا تهدأ..

النيران تشتعل، تُحرِق، تُهلِك..

كاد يصرخ لكنه حبس صراخه بقوة وهو يعض على قبضته المضمومة بعنف، ماذا لو سمعته والدته!! وجد نفسه يلكم الجدار عدة مرات لم يحصِها ثم هتف بكلمة غاضبة دون أن يفهم حتى ما يقصده منها:

"ليه؟!"

البركان يتفجر أكثر فعاد يوجه قبضته للجدار البارد من جديد ويكرر:

"ليه؟ ليه؟!"

أغلق الماء، أنفاسه تعلو كأنه كان في سباقٍ للعدو، جفف جسده ولف المنشفة العريضة حول خصره، أمام المرآة تطلع لوجهه، خصلاته المبللة تلتصق بجبينه، عيناه محمرتان يكاد يرى شرارات ما بعد الحريق داخل حدقتيه، استند لطرفي المغسلة أمامه وخاطب نفسه بلا وعي:

"فيها إيه؟!"

بدا وكأنه حتى لا يفهم ماذا يقول! أو عن ماذا يتساءل! وسؤال أخير حرره عقله فجأة دون استيعاب:

"هو فين؟"

انقبضت أصابعه من جديد، خرج من الحمام وارتدى ما وقع في يده من ملابس ثم دخل إلى الفراش، تطلع للسقف، وجهها يرتسم هناك، بابتسامة خافتة صغيرة منحتها لشقيقه الصغير، بابتسامة واسعة حنون كانت لأجل صغيرها، وبنظرة حادة تختصه بها.

انقلب على بطنه وحمل الوسادة ليدفن رأسه تحتها، يود التخلص من غضبه، لكنه حتى لا يعلم له سببًا ليفعل، اعتدل ثانية، أمسك بهاتفه، موعد الرسالة الجديدة، نظر إليه بتدقيق، تتصارع بداخله مشاعر ثائرة، حائرة، قاتلة.

لا.. لا يستطيع، هي زوجة بكل تأكيد، وأم كما رأى بعينيه، ماذا تريد منها؟ أي تحدٍ هذا؟ هذه قذارة، هذا خطأ، حقارة، زوجة يا غبي!! ألقى بالهاتف من يده بعنف ليرتطم بالحائط ويسقط أرضًا محطمًا لقطع صغيرة، أعاد الوسادة فوق رأسه وقرر النوم.. لو استطاع.

ساعة أخرى، وطرقات خافتة، صوت خطوات بطيئة وهمس:

"أحمد أنت نايم؟"

ليته ما ذهب، هذا الصغير الأحمق هو السبب، أجابه بصوت خافت يشبه الزئير:

"لا بس هانام"

بتردد وعقدة حاجبين:

"ممكن نتكلم شوية؟"

ضغط الوسادة فوق رأسه أكثر:

"لا يا عمرو، قلت لك هانام"

يشعر به، بقلقه، بغضبه، بشعور جديد يدغدغ قلبه ولا يملك تسميته باسمه، هو الأدرى بأخيه الأكبر والذي يعتبره كتوأمه، صمت، رحل في هدوء، وأرجأ الحديث للغد.

******

عيناها معلقتان به، تنتظر رنين، حروف تحملها رسالة يومية اعتادتها، الوقت يمر، تأخر، وحنق يتزايد بداخلها، ماذا الآن؟ تنتظرين رسائله؟ ما بك "منى"؟.

ويعود السؤال الذي يؤرقها؟ لمَ تأخر؟ ألن يرسل اليوم؟ أهو.. هو؟!

زفرت في غيظ، لمَ تنشغل به من الأساس؟ هذا أمر غير مقبول بالمرة، ولمَ هي مصرة على ربط تلك الرسائل والورود التي تلقتها خلال آخر يومين به

هو؟ استدارت نحو الجهة الأخرى، تعلقت عيناها بالصغير النائم إلى جوارها، وعادت الذكرى..

كان يعامله برقة شديدة، اجتذبه لصفه، وأصبح الآن هو بطل ابنها، لم يكف عن الحديث عنه طول طريق عودتهم للمنزل وحتى وضعته بالفراش وراح في النوم.

"السهم الأسود" قوي ورائع أمي، سريع، يسافر كثيرًا، يفوز ببطولات، أمي.. لون عينيه غريب! يشبه السماء، لماذا؟.. أمي! هل تعتقدين أنه يمكن أن يتركني أقود سيارته؟ أنا أحفظ شكلها، سوداء وعلى جانبيها سهمين أسودين يحيط بكل منهما إطارًا ذهبيًا يحددهما، أمي! سيارته جميلة للغاية، أمي...! وأخرسته بصراخ أحزنه .

ثم صالحته بقبلة ووعد برحلة ممتعة قريبًا، لأين لا تعلم! لكنها لا تستطيع أن تتركه حزينًا متضايقًا، يكفي عدم تواجد أبيه حوله، فلن تقسو هي الأخرى.

تقلبت من جديد، هاتفها على طاولة مجاورة للفراش، لايزال صامتًا، لا صوت، لا ضوء، لا اهتزاز، أغلقت عينيها تستدعي النوم، وتسب نفسها على أفكارها الغبية.

******

أرق حتى طلوعِ الشمس، جنون يسيطر على السهم، شعره مبعثر، نظراته حارقة، وبمنامته كان في المطبخ يلتقط زجاجة عصير من المبرد، فتحها يتجرعها بسرعة مع التفاتة صاحبتها شهقة الخادمة الصغيرة المفزوعة والتي شعرت أنها تقف أمام لص اقتحم المنزل، نظر إليها في غيظ هاتفًا بحدة:

"في إيه يا مجنونة أنتِ!! شُفتِ عفريت؟"

تلعثمت، أشارت بيدها مجيبة بخوف:

"لا يا بيه العفو، بس حضرتك مش بعادة تصحى بدري كده وكمان يعني.. يعني..."

صرخ فيها مفرغًا قليلًا من شحنات هياجه:

"يعني إيه ما تنطقي!!"

وقبل أن تجيب جذبتها يد والدته من أمامه، نظرات الدهشة الأقرب لصدمة تعلو ملامحها مع أمرها الحازم:

"روحي أنتِ يا نعمة دلوقتِ"

لم تحرك عيناها بعيدًا عنه، اقتربت لتقف قبالته، عدلت قميصه غير المهندم، ورفعت أصابعها تساوي خصلات شعره المشعثة، استسلم للمساتها الحانية وهو يشعر بضعف يكتنفه، همست له بعتاب:

"مالك؟ مخبي عني إيه تاني؟"

ازدرد لعابه، كأن شوكة تخز حلقه، وضع زجاجة العصير على سطح المطبخ خلفه وتحرك خارجًا بجواب مقتضب قاطع:

"مافيش حاجة"

قبل أن تناديه اصطدم بأخيه الذي تطلع إليه في دهشة، هو يفهم، صراع يخوضه الآن، يحرقه بالتأكيد، أمسك بمرفقه يجذبه قبل أن يبتعد:

"عاوزك"

استدار إليه بنظرة غاضبة قابلت نظراته المتفهمة، صمت لثوان وكان الحديث الدائر بين العيون هو سيد الموقف، الأم لا تفهم، وهما يفهمان، التفت لوالدته بابتسامة مرحة:

"فطار حلو بقى ياكرملة و ابعتيهولنا في الجنينة مع نعمة"

ثم جذب شقيقه خلفه وتحرك خارجًا من المنزل، منقاد بشدة، صامت كقبر، حائر كتائه في الصحراء، جلس أمام "عمرو".. العيون لاتزال قيد الحديث، والشفاه مضمومة في وجوم، ثم أتت الجملة التي بدأت الزلزال:

"بيتهيألي أنت لازم تبعد دلوقتِ"

أكان الوصف "زلزال" كافيا؟ ربما نعم و ربما.. لا، لأن الرد كان جذبة من ياقة قميصه، ولهيب أنفاس حار، ونظرات كطلقات الرصاص تصاحب همسة كسكين حاد:

"بتحلم"

زم "عمرو" شفتيه، أمسك بقبضة شقيقه بقوة، ثم جذبها بقسوة ودفعها يبعدها في عنف، وسؤاله الصارم التالي أشعر الأكبر بالتيه:

"أنت عاوز منها إيه؟"

تنهيدة حارة، بل مشتعلة بلهيب يسكن صدره منذ الأمس، وجواب أكثر استعارًا:

"مش عارف"

حائرٌ هو، ضائع، وحالةُ اختلال التوازن التي يتعرض لها تفقده عقله، بجدية أتاه صوت "عمرو" في تقرير كأنه لا يعلمه:

"متجوزة و مخلفة يا أحمد!"

تهدلت أكتافه مع جو ابه اليائس:

"عارف"

وغضب ينتقل للأخ الأصغر، مع سؤال: إلى متى؟ قرر الخوض معه حتى النهاية، عله يفهم ما يفكر به، ويرحمه من جنونه:

"تفتكر هي من النوع ده؟"

رفع عينيه إليه بتساؤل، مال نحوه، ضيق عينيه وأضاف لمحة لؤم على حديثه:

"متجوزة، و أنت مش عاوز تبعد، يعني عاوز تقرب، تقرب لحد فين؟ وهي من النوع اللي ممكن يقرب منك في الحالة دي؟"

بنفي قاطع كان رده :

"لا مستحيل"

عاجله بسؤال آخر:

"يبقى آخرة اللي بتعمله ده إيه؟ هتوصل معاها لفين مادام الطريق مسدود؟"

ويعود فيجيب بحيرة:

"مش عارف، مش عارف ياعمرو، ومش عارف أنا عاوز إيه بالظبط؟"

يسترخي في مقعده مجددًا ليمنحه الخلاص:

"يبقى لازم تبعد"

ونظرة تشبه المشانق كانت تلتف حول عنق الصغير بغضب أعمى، تبعها الهتاف الر افض:

"مستحيل"

هز "عمرو" رأسه في استسلام بائس والأسئلة تحتقن في ذهنه، أخيه يتصرف بغر ابة، حتى بعد تأكده من وجود زوج، بل وطفل أيضا لايزال يسعى خلفها!! لقد جن حتمًا، وتخطى كل الحدود المسموحة وغير المسموحة، لذلك صاح فيه ساخطًا:

"هتوصل لفين يا أحمد من ده كله؟ عاوز منها إيه؟ رد عليَّ"

بادله الصياح الغاضب بهياج وهو ينتصب و اقفًا أمامه:

"قلت لك مش عارف، مش عارف، ارحمني بقى"

ثم هز رأسه في حيرة، أو ربما جنون، أصبح معتوهًا مع هتاف آخر خرج من أعماق قلبه دون أن يدري لكنه مس قلب الجالس أمامه:

"مش عارف، ومش فاهم، صغيرة، شكلها صغير، متجوزة، وعندها ولد مش أقل من ست سنين، على طول حزينة، خايفة، بتعاملني بعنف ورفض، وعلى الرغم من كده حاسس... حاسس إني..."

بادره "عمرو" بسرعة وهو يعتدل في مقعده متطلعًا إليه:

"إنك إيه؟"

رفع عينيه إليه بحيرة وجوابه بضياع:

"إني زي الفراشة، بتقرب من نار عارفة إنها هتحرقها، بس مش قادرة تقاوم القرب ده"

نعم، هو يحب، إن لم يكن يعشق، رباه أخي منذ متى؟ مجرد أيام تخطت السبع! ولمَ هي بالذات؟ حياة معقدة غريبة، وكما قلتَ بنفسك: تُعامِلك بعنفٍ دائم، ترفضك، ربما هي تخشاك، ربما هي فقط لا تريد! أو ربما لديها جرح لم يندمل بعد، صوته كان هامسًا وهو يلقي بطوق ظن أنه نجاة لشقيقه بينما هو على حافة الهلاك:

"مطلقة"

النظرة التي وصلته منحته بالفعل شعور المنقذ الجبار، ألهذه الدرجة "أحمد" أنت غارق في حبها ودون أن تدري!! أم أنك فقط ترفض الاعتراف، تنكر، وتستنكر! لم يستطع الاستمرار في أفكاره نحو أخيه، فالمهتاج أمامه جذبه إليه من قميصه صارخًا في وجهه:

"بتقول إيه؟"

لم يحاول تخليص نفسه من قبضته، بل أكد همسته السابقة بجدية:

"بأقولك مطلقة"

وهو لم يحرره، يضغط فكيه حتى كاد يطحن أسنانه، وفحيح غاضب ملتهب:

"عرفت منين؟"

أجاب ببساطة:

"من مدرب السباحة بتاع مالك، رحت له بعد أنت ما مشيت إمبارح، وعرفت بطريقتي إن باباه مش موجود، مطلقة وهو مسافر، ما حضرش معاه التمرين ولا مرة"

ظل يحدق فيه لثوان أخرى، بهدوء ما قبل العاصفة، بسكون ما قبل الثورة التي انطلقت على شكل لكمة قاسية دفعت الصغير إلى بركة

السباحة خلفه ليسقط فيها بعنف، ارتفع بسرعة فوق السطح ينظر للمجنون الو اقف يصرخ فيه:

"عارف وسايبني أتحرق قدامك من الصبح، لأ.. من إمبارح وقت ما جيت لي وقلت لك عاوز أتخمد، وبتسأل وكلام مالوش أي ستين لازمة، أنت بتستهبل يا حيوان؟!"

وما قابله هو قهقهة مستفزة كادت تدفعه للقفز في الماء خلفه وإغر اقه بالفعل، هزرأسه والتفت يغادر، صاح به شقيقه بينما يخرج من البركة:

"اسأل نفسك بس كنت بتتحرق ليه؟ مع إن كده الموضوع ما اتحلش برده لسه معقد"

استدار إليه وعيناه تجوبان الأرض حوله باحثًا عن شيء ما يقذفه به، لتعلو ضحكات الصغير ثانية ثم يهرب من أمامه نحو البيت، كاد يرتطم بالفتاة وهي تحمل صينية الإفطار لكنه تفاداها بصعوبة مع تحديق والدته المذهول، لقد جُن ولداها حتما.

******

"آسف.. وحشتيني"

في الصباح أتت الرسالة، ونبض قلبها دون سبب تعلمه، وألقت الهاتف بعيدًا في غضب..

غضب من نفسها وتفكيرها المنشغل به أكثر من حنقها منه هو..

لا "منى"، لا.. ليس ثانية، لن ينبض القلب ثانية، لن يفعل أبدًا، صدقيني لن تنالي إلا الجرح، الغدر، خيانة جديدة تذبحك هذه المرة، ستموتين، سيتوقف عن الخفقان، من هو؟ ولمَ هي؟.

جذبت خصلة من شعرها بقوة كأنما تجبر نفسها على إفاقة من غيبوبة مسكرة تدفعها نحو هاوية لا نجاة منها أبدًا، صرخت بغيظ، وعيناها تسقطان على الهاتف من جديد و...

علام الأسف بالضبط؟

ألأنه لم يرسل بالأمس؟ أم ماذا؟...

عضت شفتيها بقوة آلمتها، وهي تهتف متشبثة بآخر لمحة قوة: "مستحيل".

قامت من مجلسها بتصميم، الأمر سيتوقف، وهو سيبتعد، سواء كان المرسل هو ذاك الوقح أو غيره، لكن.. لا يمكن أن يكون غيره، تماسكي، أسبوع آخر وينتهي الأمر، أسبوع فقط.

تذكري "منى" هو نسخة أخرى من قبطانك المخادع، الذي انتهك براءة قلبك ثم طعنه بسكين ثالم وغادر، الذي يَتَّمَ طفله ولم يكترث، هو نسخة منه "منى"، يشبهه في كل شيء، حتى وسامته الموجعة للعين، يشبهه في جرأته ووقاحته، يشبهه في غرامه بالنساء، سمعته تسبقه أيتها الطبيبة العبقرية، توقفي عن التفكير فيه، توقفي.

******

الأحمق الصغير على حق، لايزال الأمر معقدًا، ولايزال هو غاضبًا مغتاظًا ساخطًا وبشدة، والأسئلة تنخر عقله، تذيبه وتصهره، وبعد أين أصبح لماذا وكيف وهل؟

لماذا طلقها أو طلبت هي الطلاق؟

كيف طلقها ذلك الغبي؟ من يمكنه أن يفعل ذلك وهي زوجته؟ كيف واتته الجرأة أو القدرة حتى؟

هل تألمت؟ هل خانها؟ أوجعها؟ هل يمكن أن يتقرب هو منها؟

ولكن لمَ؟ ما الذي تسعى للوصول إليه معها؟ أجب عن السؤال، ألا زلت تعتقد أنها تحدٍ تتوق للفوز به؟ كان يجلس في انتظار جلسته، أرسل لها في

الصباح باعتذار، وكلمة لا يدري أيقصدها فعليا أم هي لمجرد استكمال خطة رسمها بحماقة؟.

استقبلته بهدوء، تبتعد بعينيها عن لقاء عينيه، تتحرك بآلية، ودهشة تغمرها لمظهره غير المنظم كما اعتادت، ثم مفاجأة لهما معا، عندما صدح صوته بسؤال فضولي أبله يحرقه منذ عرف:

"غريبة إني ما شفتش بابا مالك معاكم!! يا ترى مسافرولا شغل؟"

رمته بنظرة ساخطة، وحذرته:

"أستاذ أحمد كفاية تدخل في اللي ما يخصكش لو سمحت"

هو يحترق داخله، وهي فقط تبعده، ولا تفهم شيئًا، وكيف تفهم إذا كان هو نفسه لا يدري ما به؟ ولمَ يطاردها؟ ولمَ يريد أن يعرف أكثر؟ ولهذا كله لم يتوقف:

"بجد مستغرب، هو مش تدخل، بس مالك ولد جميل قوي، ذكي، إزاي باباه مش متابع معاه تمارينه؟ وكمان.... إزاي سمح لك تشتغلي وتحتكي برجالة غيره بالشكل ده؟"

سؤاله الأخيروضح غيظه فيه بعد تردد لثانيتين، تطلعت إليه باستنكار، وبحدة ردت:

"أفندم!! ده شغل يا أستاذ أحمد"

ودون أن يعي ما يقول همس بعزم:

"لو أنت مراتي؛ مش هاخلي حد تاني يشوفك حتى!"

ودون أن تعلم نبض قلبها بعنف، لكنها رفضت نبضاته، تخطتها، تجاهلتها ولأول مرة تتخلى عن جديتها، سخرت من حديثه:

"كويس إني مش مراتك لأن شغلي أهم حاجة في حياتي"

أخجلتها عيناه، لمَ ينظر إليها هكذا؟ يشملها بل ويحتويها بنظرات دافئة، متسائلة، تحمل لمحة دهشة وربما حيرة.

تبًا!! وتبًا مرة أخرى! هو يريد أن يعلم، وهي لن تتحدث بالطبع، هي حتى لم تخبره بأمر طلاقها، تتمسك بصفة "زوجة" تحمي نفسها بها منه، لا يا حلوتي، أنا أعلم أنك حرة، وأن الطريق أمامي إليك، إلى قلبك.. مفتوح .

ولكن ماذا أريد حقا؟ لحظة... أنا أعلم! أريدكِ كلكِ، كل شيء، نظرات عينيكِ، ابتسامتكِ، دقات قلبكِ، عقلكِ الذي يحبسك خلف قضبان الماضي، أفكاركِ، روحكِ، و... نظرة أخرى تفحص بها جسدها الذي لا يلمح منه شيء انتهت مستقرة عند شفتيها المكتنزتين ولونهما الوردي

الطبيعي ليفور دمه فجأة، أشاح بوجهه بعيدًا، لقد جُن، حسنا تأكد الآن!

علم ما يريد إنما لمَ يريده؟ فلا يعلم.. وما المقابل الذي يمكنه منحه للحصول عليه؟ لا يدري.. أنهى الجلسة بحيرة أكبروغادر، لكنه لم يبتعد، ليس الآن، ترك زهرته الجديدة في مكانها المعتاد، وعبر الشارع يختبيء أسفل مظلته ، يرمق سيارتها، وينتظر، ثم يتحسر ساخرًا وهي تودعها بقسوة داخل سلة القمامة.

بينما تقود سيارتها عائدة لمنزلها حيث الدفء والصغير الذي تشتاقه كانت تسبه في سرها، وما خرج منها وقتها "بلا أخلاق".. يظنها متزوجة.. يعلم أنها أم، ورغم ذلك لا يزال يطاردها ويغازلها ويزيد في وقاحته معها، نعم.. بكل تأكيد هو صاحب الرسائل والورود.

أما هو، فابتسامة استمتاع ارتسمت على شفتيه ببلاهة طوال الطريق، وهو يقرر المضي قدمًا في خطته التي رسمها، وحتى النهاية.

******

أسبوع طويل هو، أطول الأيام التي مرت عليه، ما عدا تلك الثوان التي يقضيها بصحبتها في جلساته، ثوان!! لا هي أقل من ذلك بالتأكيد، فالوقت يمر بسرعة الضوء، وطوال الأسبوع لم يقتصد في وقاحته معها،

لكنه يشعر بها مختلفة، أصبحت أرق ربما، تخرج من مكان آخر في جسده غير عقله، ولا يمكنه تحديده بالضبط! ينظر إليها فيخجلها، يرمي بكلمات عن الزوج الغائب، يسأل باهتمام عن الصغير، يبعث له بهدية لترفضها بعنف فيعاندها ويعطيها له بنفسه يوم الجمعة في النادي، وكم كانت فرحته بها؟ سيارة جميلة قريبة الشبه بسيارته، حديث مع والدها وبعض الود، هو يسعى، يسعى وبشدة للقرب، لا يهتم بنهايته، بقدر ما يهتم بحدوثه.

وطواله أيضا يحارب أفكاره، يصارعها، لمحة الحزن التي لا تترك عيناها أبدا، يبدو عليها الخوف منه في لحظات، تهربها من نظراته، جفافها الذي ازداد وبقوة، حدتها في التعامل معه، لكنه فقط لا يهتم، أهي مجروحة؟ هل خانها؟ تزوج عليها؟ لماذا تم الطلاق؟ و"أحمد" أهي بحاجة لجرح جديد منك؟ لكن من قال أنني سأسبب لها جرحًا؟ لن أفعل، أنا أريدها، فقط أريدها، ولن أتوقف حتى أنالها.

ويعود عقله فيسبه، كيف تريدها؟ وكيف ستنالها؟ من تظنها؟ هي ليست كالأخريات اللواتي عرفتهن سابقا، ليست كأنثى العنكبوت التي تحاصرك، تحوم حولك في كل مكان وتسعى هي إليك، هي تجبرك أنت على السعي، اللهاث خلفها، وصدقني عندما أخبرك، بل وأعدك أنك لن تنالها مهما

فعلت، ويعود فيغضب، يكسر شيئًا، يتشاجر مع أخيه المتفهم، يدور بسيارته بلا هدف، لينتهي به المطاف في محاولات جديدة داخل الدائرة التي حبس نفسه في قلبها وجعلها هي مركزها وهو فقط يدور في فلكها.

طبيبه.. عاد.. ويالها من عودة لا يتمناها!

يوم السبت، توجه نحو المشفى، سيقابله ويطلب منه أن يكمل برنامج علاجه معها، سيقنعه بأي طريقة، ولن يتوقف حتى يفعل ويوافق، وسيترك له هو مهمة إقناعها، خطا داخل المكان، هناك حركة غير طبيعية، بسمات، ابتهاج، فرحة ما، وإحداهن منحته حبة شيكولاتة وابتسامة إعجاب لم يهتم لها، ما استوقفه وجعله يتلصص كسارق هو اسمها الذي تردد بين اثنتين من الممرضات، حوار قصير عن رجل شهير وثري، طفله الصغير كان معها وأتم برنامجه، تحسن غير مسبوق، تبرع هائل منه للمشفى ومنحة نال الجميع نفحة منها، ثم دعاء ختمت به حديثها:

"ربنا يعوضها خير، دكتورة منى تستاهل السعادة كلها"

يعوضها؟ عن ماذا بالضبط؟ ولم ينتظر، الفضول نهش أحشاءه، انتظر لبعض الوقت حتى أنهت المرأة جلسة النميمة الدائرة بينها وبين الأخرى ثم ناداها، بضع كلمات، ابتسامته التي أذابتها، وعَطيَّة مادية سخية

وبخبث تسريب خبر أنه يسعى لارتباط رسمي وفقط يسأل عنها.. ثم علم.. وياليته ما علم.

زوجها الأرعن، الأبله، الأحمق، المجنون بكل تأكيد، خانها وتزوج عليها وفي النهاية تركها لانهيارها، طلقها ورحل ومن يومها لم يعد، لم يعلم تفاصيل كثيرة فقط ما يمكن أن يصل لممرضة تتناقل القيل والقال مع صديقاتها، وفترة مكثتها في المشفى مصابة بانهيار عصبي، وما أغاظه أكثر جملتها:

"كان ما شاء الله ما يتخيرش عن حضرتك، حلو وقيمة، كان قبطان وبيجي لها هنا بالبدلة يجنن بنات المستشفى كلهم، اللي حصلهم أكيد عين ما بترحمش، ربنا يعوضها ويسعدها"

قبطان!! وكاد يهتف "ياحلاوة"، وسيم ومعشوق للنساء!! مثله تماما كما أخبرته المرأة، لهذا هي تعامله بحدة وفظاظة، تتهرب منه، ترفضه وتبعده، فهو في عينيها نسخة أخرى ممن كسرها وأوجع قلبها.

شعر بغضب جديد وكأنما كتب على كل ما يتعلق بها أن يغضبه ويفجر سخطه وغيظه، خطا بسرعة متجهًا لطبيبه، طرقات خافتة ومع إذن الدخول فتح الباب وأغلقه خلفه، ليبادره "علي":

"أحمد، أنا عارف إنك زعلان مني، بس أعمل إيه في أميرة ومامتها!! مش بأقدر أقف قدامهم ما أنت عارف"

منحه مشروع ابتسامة، ولم يهتم بما قال، فقط رد بما يهمه في هذه اللحظة:

"حمدالله ع السلامة يا دكتور علي، ولا يهمك، أنا جاي لك النهاردة أصلا عشان أقولك عاوز أكمل مع دكتور منى"

و اتساع عينيه أنبأه برفض، سارع يستطرد ليمنعه:

"من فضلك يا دكتور علي، بجد محتاج أكمل معاها، لأسباب كتير"

تراجع "علي" في مقعده يتطلع إليه باهتمام، يبدو مختلفًا، به شيء ما لا يعلم ما هو لكنه واضح لعينيه اللتين تعرفان ابنه الروحي، وأتى رده مفاجئا:

"أنت حتى ما سألتش على أميرة!!"

شعر بالارتباك، الطبيب يدور حول الأمر، لكنه لم يأبه، مادام يريد، فسيفعل المستحيل حتى يحصل على ما أراده، بهدوء ونبرة تخبره بعلمه أنه فقط يماطل:

"أميرة بخير، لسه مكلمها إمبارح وقالت لي إنكم في الطيارة وعلى وصول، أنا باكلمك في موضوع تاني دلوقتِ، قلت إيه ؟"

ولأنه مثله يكره المماطلة فسأل مباشرة:

"ليه؟"

وكأنه كان متأهبًا لمثل هذا السؤال:

"مرتاح في الشغل معاها و... في مشروع ارتباط"

صدمة ارتسمت على وجه الطبيب، بالفعل صدمة، "أحمد" السهم الحر يربط نفسه بامرأة!! واحدة فقط!! لا يصدق، سأله باهتمام مخفيًا دهشته:

"بتحبها ؟"

ودون تورية أو كذب أجاب:

"مش عارف، بس مشدود لها، بافكر فيها كتير قوي"

وسبرٌ لأغواره بسؤال جديد:

"وده كفاية إنك ترتبط بيها؟ بمنى بالذات!"

رفع عينيه إليه يبادله الدهشة، ماذا يقصد؟ وحوله لصوت مسموع:

"مالها منى بالذات؟"

أمال رأسه يمينًا بتنهيدة:

"مطلقة وأم"

صمت لثوان، أهذه مشكلة من نوع ما؟ ومنحه ما يريحه:

"عارف، ومش فارق معايا"

ارتفع حاجبا الطبيب في ذهول، لكنه حاول إفاقته من غيبوبة ما لا يعلم سببها بالضبط:

"عارف ومش فارق!! ووالدتك عرفت إنك عاوز ترتبط بمطلقة عندها طفل؟ أو خليني أسألك بجد، أنت فعلا عاوز ترتبط بيها؟ جواز يعني؟ ولا بتلعب يا أحمد وبتتسلى، هتجرحها تاني؟ تكسرها تاني؟ وتسيبها في النهاية وتدور على صيد جديد!!"

أوجعه قلبه عندما أتى ذكر جرحها، ألهذه الدرجة كانت تحبه؟ متعلقة به؟ وجد نفسه يقول بجدية عله يشفي غليله:

"مش عاوز أجرحها، بس عاوز أعرف، احكي لي، حضرتك أكيد تعرفها كويس وتعرف الحكاية، من فضلك يا دكتور علي، عرفني"

تنهيدة أخرى من عمق صدره، هو يبدو غريبًا بالفعل، مهتمًا، وبه تغيير ما لا يدري كنهه، لكنه موجود، باختصار أخبره:

"منى اتجوزت سامح وهي بتدرس في الكلية، كنت أستاذها وقتها وصديق والدها دكتور مصطفى، اتعلقت بيه قوي وكنا فاكرينه هو كمان بيحبها، بعد جوازهم بفترة بسيطة حملت في مالك، وبعد ما اتولد بدأت معاملة سامح تتغير، متباعد، بارد، بيسافر كتير، لحد ما اكتشفنا إنه... متجوز عليها، جواز عرفي"

وصمت ليتابع رد الفعل، مع بداية حديثه ضيق، فضيق أكثر، ثم دهشة تمتزج باستغراب وفي النهاية صدمة وهتاف غاضب:

"اتجوز عليها عرفي؟!"

مط "علي" شفتيه، ثم أكمل بهدوء:

"أنت فيك كتير من سامح يا أحمد، كتير قوي، الوسامة، الاندفاع، الوقاحة اللي مش هتقدر تنكرها، وعلاقاته النسائية، أنت كل حاجة منى بتكرهها في الراجل لأن جرحها كان من واحد شبهك، زيك بالظبط "

بعنف صاح:

" ماتقولش شبهي أو زيي يا دكتور علي، مش شبهي، أنا مش خاين، و..."

صمت لثوان تتابعت على وجهه مشاعر شتى آخرها ألم مع صوته الخافت:

"ومش ممكن أجرحها"

للحظة شعر بصدق حروفه، كأنها نبعت من قلبه وترجمها لسانه على الفور ودون أن يشعر ناطقها نفسه، نهض من خلف مكتبه وجلس أمامه على المقعد المقابل، ربت على ركبته بأبوية، ثم تساءل بتردد:

"بجد يا أحمد عاوز تتجوزها؟"

رفع عينيه إليه، هناك حيرة، خوف، قلق، وصمت.. صمتٌ طال حتى ربت على ركبته مرة أخرى مستطردًا بحنان:

"الجواب باين في عينيك، بس شكلك أنت لسه مش فاهمه"

وبالفعل لم يفهم، وقبل أن يتساءل أكمل الرجل:

"هاديك فرصة شهر بس، فاهمني شهر واحد، أسمع بعده عن خطوبة أو جواز، لو فضلت رافضاك لأني عارف ومتأكد إنها هترفض، لو ما قدرتش توصل لقلبها، هابعدك عن طريقها، ماشي يا أحمد! اتفقنا؟ منى زي بنتي، وأنت عارف معزتك عندي، بس صدقني لو جرحتها حسابك هيكون معايا أنا"

تطلع إليه بدهشة، هو لا يريد الأذى..

هو يريدها هي، فقط يريدها حد الجنون..

حد الهوس..

حد شغف يفكك خلايا مخه خلية خلية ويجمعها ثانية بلا رابط حتى أصابه العته..

وللآن لا يدري لمَ؟

إذاً: الوصول إليك "مناي" يستلزم مفتاح قلبك، قفلًا صدئًا مهترئًا أغلقتِه بعنف حوله ومنعتِه أن يشعر، لكن حلوتي.. سأوقظه من جديد، وسأسكنه أنا، ولا يهمني السبب .

******

هي تريد الصراخ فحسب، تحطيم شيء، وربما تكسيره على رأسه..

أسبوعٍ طويل مر، احتملته بصعوبة لأنه الأخير، رسائله، زهوره، نظراته، وقاحته، تدخله واهتمامه بطفلها المهووس به، ولامبالاته بتلك الرسائل، نعم هي منه، منه هو مهما أنكر أو تجاهل.

أستاذها عاد، وببساطة أخبرها أنه سيستعيد الحالات التي تخصه وحولها إليها بعد شهر آخر، لقد سافر لفترة طويلة، وجدوله مرتبك،

يحتاج فترة لتنظيم وقته ثم يستردهم ثانية، وعندما حاولت مناقشته أن يأخذ واحدة أو اثنتين، رفض متعللًا بضغط العمل، ولم تستطع الإحتجاج، ثلاث حالات من ضمنها هو، سيستمر في العمل معها لشهر آخر بعدما ظننت أنها انتهت وتخلصت منه إلى الأبد.

خرجت من مكتبه تشعر بنار تحرقها، الآن ستصرخ في أول وجه يقابلها، ولسوء حظه أو ربما حسن حظها هي كان هو، منحها ابتسامة رقيقة لا تدري لمَ أزالت غضبها فجأة!! مع مبادرة بحديث:

"دكتور علي رجع!"

أومأت برأسها إيجابًا في صمت، ثم أخبرته:

"الحالات بتاعته هتفضل معايا فترة على ما يستقر وينظم جدوله"

همس والمكر يمتزج بابتسامته بينما يبتعد عنها مغادرًا المكان:

"محظوظين"

رفعت عينيها تتابع ذهابه في صمت، قلبها يخبرها أن هناك شيء ما قد تغير، وعقلها يكبلها صارخًا فيها بعنف: لا تفعلي، وعندما حاولت الصراخ في كَمَد، اكتشفت أنها تقف بممر المشفى، تحركت نحو مكتبها، وجحيم

آخر يضطرم بداخلها، يلهب عقلها، و يقنعها أن القلب عاد يخفق من جديد، وللمرة الثانية .. لمن لا يستحق.

(11)

أوراق مكشوفة

اتخاذ القرار سهل، تنفيذه صعب، والوصول بتفكيره لتلك النقطة التي يدور حولها دون فهم مستحيل، الإدراك يعجز في تلك اللحظة عن التعاطي مع الموقف الذي زرع نفسه داخله عنوة، هو يريدها، وباقي الأسئلة، الأسباب والمسببات لا تهم، تتلاشى فقط وتنتهي عندما تحتل صورتها خياله.

رقتها، عذوبتها، نعومتها، عنفوانها وشراستها، قطيطة صغيرة، أو نمرة مفترسة، يحب استفزازها حد الإدمان، ويطمع في ابتسامة تخصه وحده، تحمل أي شيء إلا الاستهزاء والسخرية أوالكره.

مبررات خوفها جلية كالشمس الآن، ذلك الخوف الذي أصبح هدفه التالي هو تفتيته، بعثرته، و غرس الأمان مكانه، لا تهم الدو افع، لا يكترث لدواعٍ، ولا يبحث عن أعذار أو مسوغات.. من يهتم!! هو لا يفعل فلمَ لا يعيش اللحظة وفقط؟!.

ليله يمتلئ بها، أحلامه، تأملاته، همساته، وفكره، ونهاره يقضيه في انتظار وقت اللقاء، والده الروحي منحه مدة محددة للفوز بقلبها وإعلان زواج يتبعه، وماذا إذن؟ فليتزوجها.. ما المشكلة!! هو يريدها له وحده، وإن كانت رغبته تلك لا تحقيق لها سوى ذلك فلن يتوانى ليصل لمبتغاه، وبعد أن يصل!! لا يبالي.. ليفكر وقتها.

قَبَع في مكانه بتربص منتظرًا جلسته، الأخيرة خلال اليوم كما اعتاد، وها هو من سبقه يغادر ليأتي هو، حان الوقت صغيرتي الشرسة لبعض اللعب، وهذه المرة ستعلمين أنني أعلم الكثير، وأنني أسعى إليك ورغمًا عنك سأصل.. تبعها لغرفة التمارين، تعالى صوت رنين هاتفه بأغنية شهيرة لمطرب أشهر، توقفت بانتباه للحظة ثم استدارت إليه مؤنبة بجدية:

"أستاذ أحمد من فضلك اقفل الموبايل وقت الجلسة عشان نركز في الشغل"

همسه وازى خطوتين نحوها، متلهفتين، بطيئتين، وعيناه تعلقتا بنظرتها الصارمة:

"معلش يا دكتور، هاقفله أكيد"

توقف هو، والرنين يتصاعد دون توقُف، عقدة حاجبيها بدأت في الظهور، تجمع بين الدهشة والغضب، همسه يعلو من جديد بصخب رغم انخفاض صوته:

"أصل الكلام ده بيمسني قوي، باحب أسمعه، إيه رأيك في كلامه لحبيبته؟"

العقدة أصبحت أوضح، لم تستمع بل أجابت على الفور:

"أستاذ أحمد كام مرة قلنا وقت الجلسة نشتغل صح عشان النتيجة تكون مرضية!!"

واستدرات، توحي برفض، وإنهاء الحوار التافه، لكنه أصر:

"سامعة بيقولها إيه؟ ما عندوش مانع تجرحه أو توجع قلبه بس هي ترتاح وتسلم قلبها ليه بيفهمها إنه مش هو سبب الجرح القديم، ومش عاوز حتى يقولها إنها ظلمته"

توقفت، توليه ظهرها، تنصت بهدوء، وتدري قصده جيدًا رغم شك ملأ قلبها وعقلها..

خلص تارك.. طفي نارك

من اللي شفته قبل مني

سيب لي جرح ونار في قلبي

مش هاقول إنك ظالمني

حتى لو ضيعت عمري

بس ياريت ترتاح كفاية.. بس

وسيب قلبك معايا

ده اللي جرحك من البداية.. مش أنا

تكررت الكلمات موحية، موجعة، والأحمق بين جنبيها ينبض بقوة، هو يعلم إذًا أنها حرة، ليست زوجة، يلاعبها الآن بأوراق مكشوفة، ويطلب منها تسليم قلبها له، كيف جرؤ؟.

استدارت تواجهه من جديد بسؤال حازم:

"و إيه اللي يجبره على كده؟ ليه يوجع نفسه؟ يشوف غيرها"

شملتها عيناه بنظرة دافئة ارتج لها كيانها، جو ابه صاحبه تنهيدة حارة:

"مش بإيده"

وخطوة أخرى نحوها:

"هي بس لو تديه فرصة!! تعرف إنه مش زي ماضيها اللي جرحها! إنه عاوز يداوي الجرح ده!! مش هتندم"

ابتسامة طفيفة ساخرة ارتفع بها جانب شفتيها الأيمن ومرارة رغمًا عنها تخللت نبراتها:

"و إيه يضمن؟ مش يمكن هو مجرد نسخة من ماضيها؟!"

هز كتفيه ببراءة ظاهرة، ومنحها رده بعمق:

"هتعرف منين لو ما خاضتش التجربة وإدت قلبها فرصة؟"

نبرتها احتوت ألمًا هز أركان قلبه رغمًا عنه:

"هي شايفاه كده زي ما هو واضح، هو كمان شبهه بس بيعاند ويكابر، هيوصل لإيه؟ عاوز إيه؟ ولو سلمت قلبها زي ما بيقول.. هيكتفي؟ ولا مرحلة وهتعدي ويدور على غيرها؟"

ألهذه الدرجة عشقته؟ لم تستطع نسيانه؟ وتراه في كل رجل؟ وترى غدره في كل لحظة!! كاد بركان الغضب يفجر عقله ويدفعه للصياح في وجهها "توقفي عن التفكير فيه، لا تشبهيني به، لست مثله أبدًا.. ولأن أؤذيك ما حييت".. تمسك بحبال الصبر واعتصم بها محاولًا التسلل لقلبها لا

اقتحامه، غرفة غرفة، نبضة نبضة، حتى يتملك زمامه تمامًا ويرضخ له في النهاية، فتصبح هي له، همس بصوت من عمق روحه مطمئنًا:

"لو بطلت تفكر في ماضيها شوية.. يمكن تشوف في الحاضر والمستقبل شعاع نور.. يبقى في أمل، تحييه وتحي قلبها المجروح"

كادت تلين، للحظة نبضها تعالى، هتف بها راجيًا متشبثًا بفرصة لاحت في أفق أوجاعها، لكنها أخرسته بحزم قاطع، "صمتًا، لم أنل منك سوى آلام وندوب لاتزال آثارها في عمقك أنت أيها المازوشي المريض" نعم، قلبها الصغير الذي يحتاج للحب يرغب في تعذيب وإيذاء نفسه فقط، وبحماقة كالسابق، زمت شفتيها ليعلم أن لحظات الحديث الحلو قد ولَّت وستعود لصرامتها من جديد، علا صوتها قليلًا بحسم:

"مش كل كلام الأغاني ينفع للحياة يا أستاذ أحمد، من فضلك يا ريت نبتدي الجلسة لأن ضاع منها عشر دقايق من غير فايدة"

قرر الاكتفاء لهذه اللحظة، يكفي أنها علمت، هو يعرف كل شيء، ويريد الوصول إليها، وسيصل شاءت أم أبت.

******

وليلتها لم يكتفِ باحتلال أفكارها، بل صادر أحلامها و اقتنص منها دقائق ثمينة لم ترها من حقه أبدًا، فيه شيءٌ قد تغير، لا تعلم ما هو لكنه يقلقها، كانت تفضل وقاحته ولديها السلاح الرادع المناسب لها تمامًا، لكن رقته، تفهمه الغريب، محاولته المستميتة لاستيطان قلبها ودك حصون شيدتها على مدى عامين مليئين بالوجع!!

كل ذلك يخيفها، يرعبها، يثير هلعًا طاغيا بين جنبيها، لأن أحمقها الصغير يدق، يتسارع نبضه، وتكاد ابتسامة أكثر حمقًا تزين شفتيها عندما يغازلها بمداراة وتورية، ويبعث لها برسائله المسائية والصباحية تذكرها به كأنه حاضر معها، وزهوره بألوانها و أنواعها المختلفة، لتجري هي في كل مرة تبحث عن معناها وما يقصده منها حتى وإن أودعتها سلة القمامة في النهاية دومًا.

تبًّا له، أكثر من أسبوعين بقليل واحتل جزءً أكبر بكثير مما يستحق من عقلها، أو لتكن أكثر صراحةً وو اقعيةً أمام نفسها.. من كيانها الجائع للحب رغم القشرة الصلبة التي غلفتها به منذ زمن تحميه بها من الغدر وأمثال خيانة تعرضت لها سابقًا.

تنهدت بقوة بينما تهز رأسها بعنف، تحاول طرد شبحه الذي يحوم حولها، غادرت صومعة وحدتها متجهة نحو غرفة المعيشة حيث يجالس والدها

صغيرها، حشرت نفسها بينهما في طفولية وهي تهتف بمرحٍ غالبه شيءٌ من توتر:

"حبايبي بيعملوا إيه؟"

ظهر ذلك الكيان الأسود الصغير أمام عينيها فجأة فأجفلها مع صيحة طفلها:

"بلعب بعربية السهم الأسود، ماما شفتيه النهاردة؟ سأل عليَّ؟"

أبعدت يده الصغيرة التي حملت السيارة مقابل وجهها برفق وأجابته برقة متلاهية بجهاز تحكم التلفاز تحاول درء صورته بعيدًا عن خيالها:

"أيوة يا موكا وبيسلم عليك"

بالفعل هو يهتم بالصغير، ويسأل عنه في كل مرة، ولم تكن لتكذب نافيةً ذلك رغم كرهها له، لكنها خرجت من غرفتها لتزيح فكرها بعيدًا عنه فإذا بابنها يحشر اسمه في أول جملة ينطق بها.. ربت والدها على كتفها بحب وهمس لها بلهجة موحية:

"مهوربيه قوي"

رمته بنظرة جانبية تدرك قصده، والدها أخذ مكان الأم في موضوع زواجها، ويسعى جاهدًا لمحو خانة "مطلقة" من هويتها لتعود تابعة لرجلٍ

ما من جديد، كما يبدو أنه هو الآخر معجب بالسهم أزرق العينين، لكنه مسكين.. لا يعلم عن سمعته الكازانوفية مع النساء، ذلك الطير الحر الذي لن يستطيع ولو للحظة أن يدخل القفص الذهبي بقدميه، محمولًا أو ميتًا ربما، لكن بكامل وعيه وقواه العقلية!!.. مستحيل، نهرت نفسها.. "أتفكرين به زوجًا الآن؟ ماذا "منى" هل فقدتِ عقلك؟".

ابتسمت ببرود، شعثت خصلات صغيرها الفحمية بمرح مصطنع قبل أن تجيب بنبرة جامدة:

"طبيعي يا بابا، موكا بيعشق العربيات وده بطل سباقات مشهور"

بنفس اللهجة رد والدها:

"بس أحمد كمان بيحب موكا وبيعامله بطريقة يمكن ما شفتهاش قبل كده من أي حد، هو مش متجوز.. صح؟"

عقدت حاجبيها غضبًا، كبتت انفعالًا صارخًا كاد يفضح دواخلها، وغمغمت بشيءٍ من لامبالاة أجادت إظهارها:

"في خانة الحالة الاجتماعية في ملفه مكتوب أعزب"

ابتسم والدها بتفهم، إن كانت هي تفهمه بمقدار ذرة، فهو يدرك خلجاتها أطنانًا، هو يشك في شيءٍ ما والآن تأكد، البطل الأحمق كلما اجتمع معها

أمامه لم ترَ عيناه غيرها، لا تحط نظراته إلا فوقها، وبصعوبة أثناء حديثه معه يسلخها بعيدًا عنها من باب احترامه فقط، ويوم رآه لأول مرة.. ابتسم بخفوت مستعيدًا نظراته النارية والتي بدت قاتلة في تلك اللحظة حتى أنها أربكته هو شخصيًا.

هو يُكِّن لها بداخله شعورًا ما، وهي ترفضه كما يعرف ابنته، والآخر لحوح فيما يبدو، لكنه يتفهم، صغيرته مجروحة، خائفة، وهذا السهم لا يحمل ضمادًا أو شيئًا يطهر به جرحها، بل يلف حوله متغاضيًا عن نزفه، محاولًا اقتحام حصونها المبنية بصلابة يعلم وجودها بداخلها.

أحمق لو فكر أنه يمكن أن ينالها بهذه الطريقة، هي لا تحب الطرق الملتوية، وأغلقت باب قلبها منذ زمن، و الفتى يطرقه دون جواب، وربما سيظل كثيرًا دونما الوصول لنتيجة ما، ما يهمه أن تكون فقط سعيدة، راضية، هانئة وآمنة، ويعلم علم اليقين أن ذلك لن يحدث إلا لو طاب جرحها و انفتح قلبها من جديد، لكن الطريق لذلك شاق و وعر وليس من السهل الوصول لبدايته حتى فكيف بوسيم متلاعب يشبه زوجها الغادر!!.

ربتَّ على رأسها مطيبًا مع تنهيدة شعرت بها تقتلها، والدها قلق عليها بشدة، هي لم تعد صغيرة كما أنها إكتفت من الأفكار ليوم واحد، تجاهلت

تصريح والدها الموحي الأخيرونهضت و اقفة بابتسامة حانية، طبعت قبلة تبجل بها رأسه الذي لا يتوقف للحظة عن السعي الحثيث خلف سعادتها وهمست بمحبة ودفء:

"تصبح على خيريا حبيبي"

وقسرًا حملت طفلها الذي اعترض بشقاوة فشاكسته لثوان قبل أن تتجه عائدة لغرفتها محاولة الخلود للنوم والابتعاد عن الأفكار الدامية التي تخزعقلها دون توقف.

ما إن استسلم جفنيه للنعاس وتعانقا بهدوء حتى قبلت جبينه هو الآخر واستدارت محاولة جمع شتات نفسها والغياب عن الوعي، لكن وآه من حرف الاستدراك اللعين ذاك.. وصلتها رسالته بهدوء عاصف ولا تدري كيف يجتمعان!!.. يرسل معها جزءً منه لعالم أحلامها بإصرار:

جواكِ حيرة بدون سبب..

جو ايا زحمة أسئلة..

أنا و أنتِ إيه؟!

جو انا شيء م الصعب جدًا نفهمه

تصنيفنا إيه ضمن اللى غاويين يحلموا..

بنحب بعض؟!

اتنين صحاب؟!

شايفك أمل؟!

شايفك سراب؟!

معرفش فعلا أى شئ

كل اللى عارفه إنى لامح

جوا تفاصيلك طريق ...   "محمد إبراهيم"

يناجيها بحيرة ينعكس صداها عليها، إكتشفت أن أسلم طريق تخطو فيه.. هو الهرب، ضعفها الآن يعني ألمًا جديدًا، وجعًا ينهش ما تبقى منها دون هوادة، و انكسارًا يلوح في الأفق يهدد هشاشة جدار الحماية الذي بنته حول نفسها، لكن كيف الخلاص؟.

أغمضت عينيها وغطَّت في سباتها على أمل ألا تلقاه هناك في عالم الأحلام الذي لا يخلو من كو ابيس الماضي دائمًا و أبدًا.

******

وكما بثها شيءٌ من حيرته في رسالة مقتبسة كعادته، تلبسته حيرةٌ أكبر بعدما ضغط زر الإرسال، ما الذي يفعله؟ بل ما الذي يريد قوله لها بالضبط؟.

نعم هو لا يفهم شيئًا، عقله السابح دومًا في ملكوتها لا ينبهه لحدوث أمرٍ غريب، فقط يفكر بها ويحلق في سمائها دون اكتراث لغيرها، وقلبه الذي يتخطى جنون السرعة الذي اعتاده هو في حضورها لا يبالي بذلك، فقط ينبض وينبض بعنفوان لم يحدث من قبل، حاول البحث عن مسميات فلم يجد، لذلك توقف وقرر المضي قدمًا رغم كل العقبات والمو انع.

مر من مهلته يومان، كأن الوقت يسابق الريح، بل يسابق البرق ويتسرب من بين أصابعه، ماذا لو تجرأ أكثر؟ ماذا لو صرح بوجوده؟ أخبرها أنه هو صاحب الرسائل والورود؟ نعم هي متأكدة بنسبة مكتملة، وجريمته في نظرها لا تحتاج لأدلة أو براهين، فقد حكمت و انتهى الأمر، تعلم أنه هو فقط.. لكنها لا تمسك شيئًا عليه، فماذا لو اقتحمها هذه المرأة بجرأة!! وخاض اللعبة بأوراق مكشوفة كليًا كما كشفها هي!!.

كان مستلقيًا في فراشه، وصورة التقطها لها بهاتفه من بعيد تزين الفراغ أمام عينيه، ابتسم بشغف، لو علمت بفعلته لربما ذبحته ومثلت بجثته ثم مزقتها ووزعتها على أركان الكرة الأرضية، مد أنامله يتحسس وجهها عبر

الشاشة الكبيرة، شكر الأجهزة الحديثة وميزة التقريب القوية التي مكنته من التقاط ملامحها بتفاصيلها التي تفتنه بوضوح وجودة عالية.

فكر بخبث: ترى ماذا لو قبَّل صورتها، هل ستقفز خارجها لتصفعه مثلًا!! اتسعت ابتسامته الشغوف وهو يقرب الهاتف من شفتيه طابعًا قبلة خاطفة فوق وجهها، ضيق عينيه ينظر إليها في انتظارٍ لرد فعلٍ ما، ومع السكون والصمت ابتسم مجددًا وهنأ نفسه على جنونه الذي يسير نحوه بخطىً واثقة، لقد فقد عقله تمامًا وهي لا تفعل شيئًا سوى تحجيمه وإبعاده عنها.

أخرجه من شروده طرقات شقيقه على باب غرفته، من غيره يثير زوابع المرح في المكان!! لم يرد والآخر فتح الباب ودخل بشقاوته المعتادة، هلل مرحبًا بسماجة:

"عمرو باشا عندي في أوضتي، خير، حصل إيه في الدنيا!!"

رفع "عمرو" حاجبًا واحدًا وتظاهر بالغرور، رفع ياقة قميصه بابتسامة جذابة مع رده بطريقته العابثة:

"حصل فيها كل خير، أنا جاي بس أطمن ع الكبير وأقولك على خبر هيفرحك"

نظر إليه بفضول فمال نحوه مستطردًا بسعادة جلية على ملامحه:

"أميرة جاية الأسبوع الجاي"

انتفض جالسًا في فراشه وابتسامة واسعة تخط نفسها فوق شفتيه، تساءل بجدية خوفًا من مقلب ما يلهو به الصغير:

"بتتكلم جد يا عمرو؟ عرفت منين واشمعنى أنت اللي تعرف؟"

قهقه أخيه مغيظًا ثم رد بخبث:

"باسم كلمني ما أنت عارف إننا أصحاب، بيقول هييجي يقعد أسبوعين ويسافروا تاني، وهتشوف دارين يا عم"

شرد للحظة في الصغيرة ابنة أخته التي أرسلت له صورتها قبل أيام، فاتنة كأمها، بريئة ومنمنمة وناعمة للغاية، أفاق من شروده على تربيتة خافتة من "عمرو" فوق كتفه قبل أن يتوجه للخارج:

"جهز نفسك بقى لأن أنت عارف أميرة، هتيجي تعمل احتلال ويمكن تلغي جلساتك عشان تعرف تقضي وقت معاها"

ألقى جملته بمكر وخرج مسرعًا وإلا تلقى ضربة ما أو شيئًا يلقي به "أحمد" نحوه، زم هو شفتيه حانقًا، ذلك الصغير الطائش سيتسبب في مقتله ذات يوم مادام يشاكسه عنها هي.. عاد ينزلق في فراشه، يبتسم من

جديد، يلقي نظرة أخرى على صورتها في هاتفه بعدما جذبه من أسفل وسادته عندما دسه هناك مخفيًا إياها عن عيون أخيه ثم أغمض عينيه بسعادة.

يشعر بنفسه خفيفًا للغاية، يحلق بعيدًا فوق غمامة ناعمة، وتطوف حوله طيور الشوق محملة بنبضات قلبه، ود لو أرسلها إليها، أصبح شاعريًا بطريقة لو علم بها سابقًا لوصفها بالمقرفة، لكنها فقط تفعل به الأعاجيب، وتغير فيه بنظرة منها كما لا يمكن لإعصارٍ أن يفعل، ألقى بأمنية صغيرة وهو يضم وسادته إلى صدره "ليتكِ تأتين إليَّ في حلمي اليوم طبيبتي".

******

يوم جديد مليء بالقرارات، هي قررت الهروب والابتعاد والتغاضي عن كل ما يقوله أو يفعله، وهو قرر أن يخبرها عن هويته وبطريقة مبتكرة كلفته شيئًا غاليًا عنده للغاية لكنه لا يهتم.

منذ الصباح وشعور الخفة لايزال يلازمه، يرفعه عن الأرض، ويطير به عاليًا، وعندما حان وقت الجلسة، تبعها بسرعة، عمل بجد، أنهاها باهتمام وقبل الرحيل لم يخلو الأمر من مزاح:

"مش صدفة غريبة إن يبقى اسمك منى؟"

رفعت عينيها نحوه بدهشة، بماذا يهذي الآن؟ اتسعت ابتسامته مكملًا دون انتظارلحديثها:

"و أنا أحمد!!"

انعقد حاجبيها دون فهم، إلام يلمح هذه المرة؟ مال فوق المكتب الذي تجلس خلفه وهتف بمرح مقلدًا:

"أحماااااااد.... مناااااااااا"

وقهقه مستمرًا بمرحه، صوت ضحكته خلخل ذرات الهواء من حولها، نعم ذكر ذلك من قبل لكن دون وضوح، والآن يلقي بنكتة، ويربط مصيرهما عبر ثقافة الأغاني والأفلام، وابتسامة أخرى كادت تشق شفتيها، بالكاد منعتها وزجرته:

"الجلسة انتهت يا أستاذ أحمد، تقدرتتفضل عشان أنا كمان هامشي"

رفع حاجبيه مشاكسًا ثم استسلم لرغبتها وغادر، وهذه المرة كانت زهرته هي "التيوليب" ورسالة تحثها بقوة للبحث عن معناها.

******

هل يصرح بحبها؟ هل لعبة القلوب لديه هينة لهذه الدرجة؟ رغم وقاحته السابقة، جرأته، إلا أنه كان صريحًا، قليل أدبٍ معتاد، أما أن يُدخِل الحب في المعادلة..؟ فهذا كذب لا تطيقه.

عندما غادرت بعد رحيله، وجدت الزهرة الشهيرة مستقرة في مكانها اليومي، وهذه المرة لا تحتاج لبحث، هي تعلم بالضبط ما تعنيه، وقبل أن تفيق لما تفعل، كانت تتشممها بابتسامة، وتغير مصيرها إلى المقعد المجاور لها في سيارتها، وهو من بعيد يكاد يقفز مبتهجًا مصرحًا بفوزه ولو لمرة واحدة، أو ربما هي فقط الأولى وبعدها سينفرط العقد وتكون له.

بعد عودته لمنزله وهو يبتسم ببلاهة كعادته طوال الطريق، يدندن أحيانًا بانشراح، يضحك دون سبب كمجنون، خلا بنفسه داخل غرفته عقب رقصة مرحة مع والدته والتي علت ضحكاتها في المكان وقلبها ينبض فرحًا بصغيرها الذي يصرخ وجهه بالسعادة.

جذب إليه ذلك النموذج الدقيق لسيارته، نسخة مصغرة منها بلونها الأسود اللامع وسهميها الذهبيين، إطاراتها بل وميكنتها الداخلية، نموذج صغير يساوي ثروة، بدأ في تفكيكه بمهارة اعتادها، وضع أجزاؤه في عدة مظاريف ورقية صغيرة، وجمعها في علبة كرتونية إلى جوار فراشه.

من الغد سيهديها إياه، رغم قيمته لديه ولا يقصد ثمنه الباهظ، هو فقط ما تبقى من أيام مجده الذي زال ولم يعد بعد، بطولاته التي جذبت إليه أنظار الرعاة وكان هذا النموذج بداية مشروع أكبر توقف بعد الطعنة التي أقعدته عاجزًا عن السباق.

لكن الآن ليس وقت رثاء النفس وذكريات الماضي الأليم، الآن هو وقت يهديها فيه جزءً حقيقيًا منه، وعند انتهاء القطع ستعلم من هو بشكل و اقعي، ويتخطى مرحلة اللعب للمجاهرة برغبته أن تكون له، وسيكون هناك وقتها فقط ليرى ملامح وجهها عندما تتأكد من هويته مبتسمًا بانتصاريتوق إليه.

في اليوم التالي ترك أولى القطع بمظروفها الصغير وورقة أطاحت ببقايا تعقلها:

"ده جزء من حاجة تهمني قوي، لما تجمعيهم كلهم هتعرفي أنا مين"

ملحوظة:

"لازم تحتفظي بيه مش ترميه.. لأن النهاية مش هتكمل إلا بيهم كلهم".

(12)

جيسي

نظرية النسبية.. تلك النظرية العبقرية للعالم الشهير "ألبرت أينشتين".. لو لم يشرحها الرجل لابتكرها "أحمد" بنفسه، لا يدري ما يحدث للوقت حقًا!! أسبوع كامل مر، تجمع لدى طبيبته خمس قطع من ثمان هي محصلة نموذجه الغالي، الوقت يحلق بسرعة لا يكاد يشعر بها لحد مثير للجنون والغضب والسخط.

عندما تتوق لأمر ما، تنتظره، تتمناه، تستعجله، يمر الوقت ببطء شديد يكاد يقتلك، وعندما تستمتع بأمر آخر، يثير بين جوانحك شيئًا لم تمر به من قبل، تنطلق الثوان تتسابق بجنون، تتلاحق أنفاسك تتابعها بشغف قاتل، تتمنى فقط لو يطول الوقت أكثر حتى تكتفي، هذا لو ظننت أنه يمكن أن يحدث اكتفاء بالفعل!!.

أخته الصغيرة ستصل اليوم بعد قليل، وهو في طريقه بنفسه لميناء القاهرة الجوي ليستقبلها ويقلها عائدًا لمنزل والديها واللذَين أصرا أن تقيم تلك الفترة معهما، الاستقبال كان حافلًا، قبلات وحضن دافئ،

وصغيرة رقيقة ناعمة للغاية حملها بين كفيه بتردد، وما إن استقرت بينهما حتى انتفض قلبه، يا إلهي كم تمنى مثلها!!.

نظرت إليه فابتسم لها لتبادله الابتسامة برقة أسرت روحه، رُغمًا عنه تذكر كلمات ذلك الطبيب السخيف، الممل الجبان لديه طفل وأسرة ويتهمه هو بانعدام المسئولية، حسنًا، يمكنه أن يحصل على صغيرة جميلة كهذه في يوم ما، ليس الأمر مخيفًا أو صعبًا، ولديه الأم المناسبة لها، حسناء رقيقة، حنون، ويريدها كما لو أن الحياة ستنتهي بعدها، هل يوجد ما هو أفضل من ذلك؟.

بعدها حيا زوجها الذي يصغره بعام واحد، وشقيقته الصغرى التي صاحبتهم في أجازتهم هذه المرة، في الطريق للمنزل ترددت ضحكاته تعلو بمرح، وبين كل فينة وأخرى كانت عيناه ترميان بنظرة للرضيعة المستقرة في أحضان عمتها التي رفضت تركها لأمها، تزاحمت بعقله أفكار كثيرة وكلها تصب نحوها، لم يستطع إلغاء الجلسة، موعد وصول طائرة "أميرة" كان قبلها بثلاث ساعات، عاند وأصر، سيستقبلها ويوصلها لمنزلها ثم يطير حيث طبيبته المتمردة.

وبالفعل، ها هو الآن في طريقه إليها، بابتسامته المعتادة، طيلة الخمسة أيام الفائتة رضخت لرغبته، احتفظت بالقطع، بدأت تتلفت حولها كل

مرة كأنها تستشعر وجوده يراقبها، ينهل من ملامحها بحرية تقيدها نظراتها الصارمة إليه خلال وقت جلساته، دلف للمكان بخطوات رشيقة واسعة، لا يدري لمَ يشعر بسعادة غريبة تجعله خفيفًا كريشة تحملها النسمات حيث الغيوم، منذ احتفظت بزهرته وهو لا يكاد يصدق نفسه أنها بدأت تلين، لقد اقترب.

بعدما حمل "دارين" الصغيرة اليوم، كان القرار في أعماقه متخذٌ بالفعل، سيتزوجها، نعم سيفعل، وستكون هي أم طفلته التي يتمناها، بشعرها العسلي محرك لهفته منذ تخيله في حلمه، وبعينيه الزرقاوين، وشفتيها الناعمتين ونظراتها الحادة، ستكون صغيرته المدللة، وسيغار عليها بجنون، ولن يزوجها من آخر، بل ستبقى بجواره للأبد.

ضبط أفكاره مرة أخرى تتجه نحو الدرك الأسفل من الخبال، كل ما يتعلق بها يسحب جزءً من عقله، يحتفظ به لأجلها، إن اقتربت عاد إليه، وإن ابتعدت هرب منه، وهو قليل الحيلة و فقط.. ابتسم ساخرًا من نفسه بينما ترفع عيناها نحوه لتضبط ابتسامته تلك، عقدت حاجبيها في شيءٍ من غضب انتبه له فغير معالمها بسرعة لتصبح ألطف محييًا برقة غريبة عليه:

"إزيك يا دكتور؟"

زفرت حانقة كعادتها، يثير غيظها بشدة ورغم ذلك لا تستطيع الهروب من عينيه اللتين تطاردانها في أحلامها، وذكره على لسان طفلها كل حين كأنه لا يرى غيره بطلًا، نهضت و اقفة بلامبالاة ترد تحيته وتتجه بحسم نحو غرفة العمل:

"الحمد لله يا أستاذ أحمد، اتفضل"

تبعها في صمت، عمل بجدٍ واهتمام كأنه يريد إرضائها، وهي تشجعه وتثني على ما يقوم به بمهنية وعملية جافة أثارت حنقه، لكنه في نفس الوقت يكاد يحملها ويدوربها في المكان فرِحًا، وصوله للقراروإحكام السيطرة على ما يريد حتى لو لم يعلم ما السبب أراح عقله وقلبه، وضع الهدف نصب عينيه، حدده بدقة، و انطلق بخفة وسرعة سهم ناويًا الاستقرارفي قلبها مباشرة بعد اختراق متاريسه وتحطيم كل الحواجز والحصون وبرُغم إرادتها.

******

الإرهاق يغزو كل عصب في جسدها، وحتى روحها تشعربها متعبة، عقلها أنهكه التفكير وقلة النوم، مطاردته لها في أحلامها باتت أمرًا مزعجًا بشدة، وما يزعجها أكثر أنها في عالم الأحلام لا تبدو غاضبة منه أبدًا، بل سعيدة، عاشقة ربما.. في كل مرة يتأكد حدسها أنه صاحب الزهور

واللعبة الأخيرة، بعض القطع خمنت أنها لنموذج سيارة صغيرة، لم يأت الهيكل الخارجي بعد أو الإطارات، لكنها بالتأكيد له، لا يمكنها تخمين رد فعلها بعدما تتأكد!! هي لن تكون له أبدًا، لن تكرر الخطأ أو تقع فيه مرتين، هي ليست حمقاء غبية كي تترك قلبها يقودها في كل مرة، وفي النهاية يعود مطعونًا نازفًا بجرح لا يندمل إلا بصعوبة ولا يبرأ أثره طوال حياتها.

عشر أيام أخرى مرت من شهر مقيدة هي خلاله بمريضها المغازل، عندما عادت لمنزلها بعد يوم عمل شاق ختامه وقحها جالب الغيظ والحنق لنفسها كانت منهكة حقًا، دلفت إليه بهدوء، لمحها طفلها فانطلق نحوها، انحنت تضمه إليها مقبلة بحب، داعبت شعره ثم جذبها هو للداخل، حيث والدها وجلست شاردة، لقد عادت بآخر زهرة وصلتها، صرح بالحب، لكنها لا تثق به مطلقًا فكيف تثق بتصريح صامت في رسالة مغلفة بلغة لا تراه يجيدها بل يتصنعها ليصل إليها.

عينا والدها تابعت ملامحها بابتسامة حانية، يكاد يشعر بحيرتها لكنه يترك لها الأمر، هو يعلم بما تفكر ويتفهم بشدة، لا يهتم إلا لأمرها، ولأمر سعادتها ويثق في قراراتها لأقصى درجة، لذا هو صامت، متابع باهتمام حنون وفي نيته التدخل فقط وقت الحاجة.

علا رنين هاتفها بنغمة معينة رسمت بسمة عابثة على شفتيها فانقلبت ملامحها كأنها تحولت لطفلة صغيرة، هتفت بينما تنهض بسرعة تحادث والدها:

"آآآخ، وصال.. ربنا يستريا بابا، مش عارفة هتعمل فيّ إيه؟!"

ضحك الأب بخفوت وهي تتوجه بخطوات سريعة نحو حقيبتها، التقطت الهاتف وردت بسرعة:

"سولي حبيبتي"

أتاها الصوت الغاضب:

"حبيبتك مين بقى يا منى؟ والله إنتِ بتهرجي، فين وعدك يا دكتورة؟ قلتِ لها قبلها بأسبوع هاكون عندك وأساعدك وآدي فاضل بس خمس أيام ع الفرح و أنتِ حتى ما عبرتنيش باتصال تقولي لي هتعملي إيه!!"

تنهدت بصبر تخاطبها:

"معلش يا وصال أنا عارفة إني اتأخرت عليكِ، بس مواعيدي والحالات، مش سهل يا سولي، سامحيني بقى، و أنا على بعد بكرة بإذن الله ..... "

قاطعتها الصرخة الغاضبة تعترض:

"بعد بكرة، منى والله لو ما كنت قدامي بكرة لا أنتِ بنت خالي ولا أعرفك، ومفيش كلام تاني هاقوله، تصبحي على خير"

وأغلقت الخط، الرنين المتقطع جعل ذهول "منى" يتحول لضحكة مغتاظة وهي تحدث نفسها بسخط من دلال ابنة عمتها:

"إيه المجنونة دي؟ أروح لها بكرة إزاي؟"

في اليوم التالي أنهت جلساتها وبلغت مرضاها بالاعتذار، ورد فعله كان خارج حدود المعقول، صياح غاضب ألجمها لثانية:

"إيه أجازة؟ ليه يا دكتور؟"

رفعت بعده حاجبيها دهشة، مطت شفتيها لتجيب بلامبالاة:

"ظرف خاص يا أستاذ أحمد، سفر.. أي أسئلة تانية؟"

زمجر بخشونة كأنه يمتلكها بالفعل:

"ما قلتيش من بدري ليه؟ وبعدين سفر فين وهتغيبي قد إيه؟"

تراجعت بدهشة أكبر، ارتسمت تلك النظرة الصارمة في عينيها وجوابها كان بدعوى الصمت والتزام الحدود:

"في إيه يا أستاذ يا أحمد؟ ياريت تاخد بالك من طريقتك و حدودك اللي المفروض تقف عندها"

شعر بغضب أكبر، كاد يمسك بها يضمها إليه بعنف ويهزها بقسوة فقط ليخبر كل نقطة دم في جسدها أنها ملكه منذ اتخذ القرار، تماسك بصعوبة وحاول صياغة جواب مقنع خرج على الرغم منه بنبرة ساخطة:

"أنا عارف حدودي يا دكتور، بس المفروض تنبهيني قبلها بفترة، ده شغل، مش فجأة تلغي خمس أيام من جلساتي!!"

شبكت أصابعها أمامها على المكتب وابتسامة لزجة تمخضت عنها شفتيها:

"معلش يا فندم، ظرف طارئ"

وهكذا خرج بائسًا حزينًا، سيحرم من رؤيتها أسبوعًا كاملًا، أيام سفرها ويومي إجازته وهي كعادتها لا تأبه له، بل وترفض أن تخبره إلى أين هي ذاهبة؟ ربما تعلم أنه حتمًا سيتبعها حينها، تذكرت بعدما خرجت من شرودها قطعة اليوم التي التقطتها وألقتها في حقيبتها دون أن تفتحها، بلهفة أمسكت بها و دخلت غرفتها، رمت بنفسها فوق الفراش وهي تفتش في الحقيبة بعدما فتحتها بسرعة لتجد ما أصابها بالجنون..!

أربع إطارات متصلة بدعامة لسيارة صغيرة.

******

يشعر بحماس طفولي شديد وهو يقود سيارته متوجهًا نحو منزل أخته التي قاسمته غذاءه ولعبه بل وأخيه الأكبر، نالت من الدلال ما لم يصل هو إلى ربعه لكنها رغم ذلك مدللته هو أيضًا، تصغره بعام واحد بداخله أعوام، لم يرَ طفلتها سوى في صورة صغيرة لا تكاد تظهر ملامحها الفاتنة بالتأكيد كأمها.

صف سيارته خارج المنزل الأنيق، نال تحية من الحارس ردها بابتسامته المرحة وحركة من يده، توجه بخطوات واسعة نحو مدخل البيت لكنه لمحها تجلس على أرجوحة كانت هدية من أخيه، وحيدة.!!.

شعر بالدهشة وفكر أنه وقت مناسب ليستقبلها كما ينبغي، استقبالًا حافلًا يليق بهما معًا، تسلل خلفها بهدوء، وما إن وقف ورائها مباشرة حتى مد كفيه الكبيرتين وأغمض عينيها وفمها بهما هاتفًا بصوت خشن النبرات ولهجة حاول جعلها مرعبة:

"وقعتِ في إيدي ومش هارحمك"

انتفضت الجالسة أسفل يديه، حاولت إزاحتهما بسرعة لكنه تشبث بها وهي تقاوم حتى كادت تصرخ فتركها بمرح هاتفًا بتسلية:

"ميرااااااا"

هبت واقفة تلتف إليه بينما تصرخ بغضب مشتعل:

"Who the hell are you?"

تراجع للخلف بذهول وهو يتطلع إلى الحورية الواقفة أمامه، فاغرًا فمه كمعتوه أو كطفل أمام أكبر طبق من الحلوى وقعت عليه عيناه، بشرة ناصعة لا تشوبها شائبة، خصلات فاحمة بلون الليل الذي يغلف المكان، لامعة بضوء القمر الفضي، عينيان تبرقان بهياج ساحر، هتف لنفسه بانبهار:

"دي طلعت لي من أنهي رواية دي؟"

ظلت تهذي كثيرًا بالانجليزية، هو يفهم ما تقول لكنه فقط غير قادر على التعبير، احمرار وجنتيها الغاضبتين أحكم أسر عينيه حتى وصله صراخ صاخب باسمه وكتلة أخرى سوداء الشعر تتعلق بعنقه:

"موووووري.. جيت إمتى؟"

ارتد للوراء خطوة نتيجة اندفاعها نحوه، أحاطها بذراعيه وعقله مسافر نحو الساحرة التي تنظر إلى المتعلقة به والذهول يملأ عينيها ممتزجًا بغيظ كاد يطلق منه ضحكة، تراجعت الفتاة بعيدًا عنه وهتفت بمرح محبب:

"وحشتني"

ابتسم لها بشرود قبل أن يجيب بسؤال:

"مين دي؟"

عقدت حاجبيها في حنق لقلة اهتمامه بظهورها قبل أن تلتفت إلى حيث يشير، عادت تبتسم وتجيب بشقاوة:

"دي جيسي"

أخفض رأسه ينظر إليها مندهشًا، قبل أن تتضاعف دهشته عندما وصله الصوت الناعم متسائلًا بنبرة باردة ولهجة مصرية:

"مين ده يا ميرا؟"

ضحكت "أميرة" قبل أن تشاغبه وتشد خصلة من شعره تأوه لها ثم منحها نظرة غاضبة طفولية، أجابتها بحب:

"ده عمرو، أخويا"

عقد حاجبيه وهو مستمر في التطلع إليها بتساؤل منحته جوابه أخيرًا:

"جيسي أخت باسم يا عمرو، أنت ما شفتهاش عشان ما حضرتش الفرح، كانت في كاليفورنيا أيامها وما قدرتش تيجي"

همس بتساؤل وعيناه متعلقتان بالساحرة الحانقة:

"جيسي؟!!"

أوضحت باختصار:

"ياسمين.. بنقولها جيسي زي أصحابها هناك"

عاد يهمس في أذنها بعبث:

"ولما تحب تردح بتردح بالانجليزي!!؟"

عقدت حاجبيها ليكون دورها هي في التساؤل:

"أفندم؟؟ تردح!!"

التفت أخيرًا ينظر إليها بعدما ذهبت الأخرى، غادرتهما مسرعة وهي تزفر بحنق من ذاك الرجل الذي اقتحم خلوتها، بل تجرأ ولمسها وتشبث بها دون أن يعلم من هي!! وفوق كل ذلك لم يحرك عينيه بعيدًا عنها طوال وقوفه، أما هو فتابع انصرافها للحظات قبل أن يرد بشقاوة:

"أيوة بتردح، إيه نسيتي لغة بلدك بعد ما رحتِ بلاد الفرنجة يا ميرا!!"

لكمته في كتفه بقوة فأصدر آهة عالية قبل أن يجذب شعرها هو الآخر ويتشاكسان كطفلين صغيرين، قاطع اللعب المرح وصول الأخ الأكبر وعلى وجهه علامات تشي بانفجار عند أول بادرة، خمن "عمرو" السبب في حين نادته الصغيرة غير عابئة باشتعاله:

"مودي تعالى شوف الأستاذ عمرو بيغلط في جيسي وبيشد شعري"

توجه نحوهما بصمت ثم هتف فيهما بملل:

"مش هتعقلوا إنتو الاتنين بقى، أميرة أنتِ بقيتِ أم.. إكبري يا ماما.. أنا داخل لدارين"

تابعت رحيله في ذهول، هذا ليس أخيها الذي يدللها على الدوام حتى وإن كانت مخطئة، استدارت لـ"عمرو" وجذبته من يده تجلس بجواره على الأرجوحة متسائلة بجدية:

"عمرو فهمني أحمد ماله؟ حاساه مش طبيعي من ساعة ما جيت، بيضحك بس في حاجة في ضحكته ناقصة، مش هو أبدًا، وبعدين حتى من يومها ما شفتش ولا واحدة من بتوعه اللي كان بيغيرهم زي الشر ابات"

تعالت ضحكته المرحة ليتلقى لكمة أخرى قبل أن يهتف:

"أيوة كده إظهري على حقيقتك، شر ابات إيه يابنتي؟"

تجاهلت تجاهله هولحديثها، جذبته من ياقة قميصه تعيد سؤالها بحزم:

"عمرووو.. أحمد ماله؟"

تنهد وهو يخلص قميصه من يدها الصغيرة، فخمنت:

"من وقت الحادثة؟"

وجدها فرصة فاقتنصها:

"طبيعي يا ميرا.. الموضوع مش بسيط، ودي كانت حياته"

شعرت بالحزن لخاطر أخيها وقبل أن تشرد في حاله أكثر سألها هو:

"مين جيسي دي بقى بالظبط؟ عرفت إنها أخت جوزك، بس مالها كده شكلها مجنونة!!"

ردت بابتسامة واسعة:

"ياسمين دي زي العسل، بس أوقات بتبقى جد قوي فتخاف تتكلم معاها، هي أصغر من باسم بسنتين بس وأكبر مني عشان كده لما بالاقيها قلبت كده باسكت"

عقد حاجبيه وهمس بحذر:

"أكبر منك بأد إيه؟"

ببساطة كان جوابها دون أن تلمح ذلك الغضب الذي ارتسم على ملامحه:

"أربع سنين"

هي أكبر منه هو أيضا، لهذا كانت تنظر إليه كطفل عابث و قبل أن يسترسل في أفكاره أكثر أكملت هي دون اهتمام:

"جيسي تعتبر عالمة صغننة، عاوزة توصل لناسا يا موري و أنا متأكدة إنها هتقدر"

ضم قبضتيه في غضب أكبر، حاول تفسيره فلم يستطع، لكنها فقط وببساطة استحوذت على كليته بتعويذة ألقتها عليه فور أن وقعت أنظاره على صفحة وجهها المضيئ كقمر مكتمل وسط ليلة دهماء هي خصلاتها الثائرة الطويلة.

******

تكاد تشعر بالإنهاك يأكل ما تبقى منها، أربعة أيام، طويلة كدهر ظلت تطوف خلالها مع ابنة عمتها قبل زفافها، تستكمل شراء ما ينقصها، تهتم بشعرها، تعتني ببشرتها، تختار ثوب الزفاف المتأخر فقط انتظارًا لوجودها الهام، تحمل أغراضًا، تقود السيارة، حتى كادت تصرخ بجنون،

وأتى اليوم الموعود، لتطل هي فيه كأميرة من عالم الأساطير، رقيقة.. راقية.. أنيقة وبسيطة.

تتحرك كفراشة بين المدعوين، تتطلع للعروس الفاتنة كأم تحوطها بعنايتها واهتمامها، وأميرها ضئيل الحجم بدا وسيمًا يشبه رجلًا ناضجًا ببنطاله الأسود وقميصه ناصع البياض ورابطة العنق اللامعة كعريس صغير يتبع أمه أحيانًا وأحيانٌ أخرى يلازم جده.

لفتت انتباه الجميع بروحها التي تشع من وجهها، ببساطتها وابتسامتها الجذابة وزينتها غير الملحوظة زادتها طبيعية وفتنة، أما هو فقد التصقت نظراته بها تتبعها في كل خطوة وتهتم حتى بطرفة عينيها، توجه نحو أخيه في النهاية سائلًا عنها، والجميل في الأمر أنها ابنة خال العروس ووالدها في المكان.

لم تهمه صعوبات قد تواجه موافقتها على القرب منه أو حتى مجتمع عقيم ينظر إليها بنقص، بل بجدية وثقة خطا نحو ما أراد وبشكل مباشر كان مؤثرًا وربما فعالًا للغاية، في اليوم التالي مساءً ومع تأخير سفرها لتكون مع صديقتها كانت تعلن موافقتها على خطبته.

(13)

هروب

قالت:

لأن الخوف يجمعنا.. يفرقنا

يمزقنا.. يساومنا ويحرق في مضاجعنا الأمان

وأراك كهفًا صامتا لا نبض فيه.. ولا كيان

وأرى عيون الناس سجنًا.. واسعًا

أبوابها كالمارد الجبار

يصفعنا.. ويشرب دمعنا

ماذا تقول عن الرحيل؟!

"فاروق جويدة"

لم تكن أبدًا عشوائية في قراراتها، متسرعة أو غير ناضجة، هي تعلم جيدًا ما قامت به، ولو تكرر الأمر لاختارت نفس الخيار، هي تثق بعقلها على

الدوام، بمنطقيته وثبوته وقدرته الفذة على حل المعضلات محققًا الهروب الكامل والنظيف، صغيرها الخافق مندفع ومتهور، لا يجيد الحكم على الآخرين أو الاختيار الصحيح وقت اللزوم وخلفه كل ضياع ومن ورائه كل ألم.

تلمست الحلقة الذهبية المحيطة ببنصرها الأيمن، تديرها دون وعي، تطوف حولها بأناملها، لقد عادت للمنزل منذ ساعات قليلة وغدًا ستستأنف عملها، تخشى رد فعله لكنه لا يملك أي حق في أن يكون له رد فعل من الأساس.. فلمَ تخشاه إذًا!!.

الطبيبة الماهرة لن تسلم قلبها من جديد، لن تدخل نفس الجحر مرة أخرى وتتعرض للدغة ثانية، وبهذا تصبح حمقاء، تكون غبية لو فعلت.. وهي لم توصف بالغباء من قبل.

طرقه الملتوية، وقاحته، جرأته، وسامته كلها تشبه صاحب الطعنة، وإن كان الأول لم يكتفِ بها، والثاني يلاعبها بأحجياته فستعلمهما هي الدرس الحقيقي في الحياة.

هل تكون طامعة إن أملت في حياة هادئة آمنة مستقرة؟ مع رجل ربما لم يعدها بعشق ينسيها اسمها لكنه سيمنحها أمانًا فقدته قبلًا؟ راحةً واطمئنانًا ألا ينزف القلب من جديد، يمحي الخوف ويخلق الاستقرار!!..

قلبها الأحمق يمسك بخناقها حتى هذه اللحظة، يشكوها لنفسها، يرجو نبضة تحييه، لكنها تعلم بآلامه التى عانى منها سابقًا، ولن تزيد منها، لن تسلمه لنسخة أخرى من حامل السكين، نسخة تلعب معزوفة حالمة على أوتار أنثى في حالة احتياج، حالة تَوْق لحب يدفئ قلبها، لهفة لرجل تكون هي أنثاه الوحيدة التي تشعره بالاكتفاء وتحجب قلبه وكيانه كله عن غيرها، حنين لأمان في كنفه دون خيانة أو غدر متوقع.. يا إلهي كم يشبهه؟ وكم تخافه؟ وكم تريد الهروب والرحيل للأبد!! وقد فعلت.

خمسة أيام أخرى مرت، أطالت مدة مكوثها في عروس البحر المتوسط، وها هي تعود مخطوبةَ طبيبٍ ماهر، زميلَ مهنة، رجلًا عاقلًا حنونًا ورقيقًا، رجلَ أفعال حقيقية لا أقوال أو ألغاز تثير جنونها وحيرتها وشكوكها، يوم سفرها حصلت على القطعة الأخيرة من لعبته، وتيقنت أنه هو، نعم كانت تظن حد التأكد، لكن الحقيقة التامة تختلف، ورد الفعل تجاهها يختلف، الصدمة لم تكن كاملة إنما أذرعها امتدت بداخلها تزعزع أمانها.

عندما وضعت القطع أمامها على الفراش تنظر إليها بترقب كان قلبها يهتف مهللًا أنه يقر بالحب، بينما عقلها يصرخ فيه يأمره بالتوقف عن التصرف كالأطفال البلهاء.. ببطء وحيرة و أيدٍ مرتعشة حاولت تجميعها، أخطأت مرة ومرتان وثلاث، في النهاية حصلت على نموذج أنيق ومتكامل

لسيارته، يوازي حجم كفها تقريبًا، بلون أسود لامع وسهمين يحملان بصمته، خمنت أنه يساوي الكثير بدقته تلك، لكن يبدو أنه لا يهتم.. ألقته من يدها كأنه عقرب سام، وظلت تتطلع إليه من بُعد في وجل.

إن كان يريدها فعلًا فلم يدور حولها؟ يغازلها وفقط؟ يشاغبها بعبث؟ لمَ لا يختصر المسافات ويعبر بوضوح عن رغبته وإن كانت سترفضها وغالبًا ما ستفعل؟.

استلقت في فراشها تحدق في سقف الغرفة، ارتسمت أمام عينيها صورة خاطبها.. الطبيب المرموق ذو الملامح الهادئة والابتسامة الباعثة على الراحة والطمأنينة، جراح المخ والأعصاب المتمرس والخبير، "صاحب الأصابع المرنة" كما يمازحونه.. خاطبها منذ ثلاثة أيام وشقيق زوج ابنة عمتها "رامز أبو المجد".

ليلة الحفل كانت تشعر أنها مراقبة، هناك الكثير من الأعين تتابعها تعلم ذلك، لكنها تمر بشيء آخر غريب، علمت أنها على حق عندما التقت بنظراته تبعتها بسمته التي أجبرت شفتيها على الافتراق بابتسامة رسمية محيية رغمًا عنها، بسمة أشعرتها بالهدوء فجأة، عينين حانيتين وجلسة واثقة أنيقة تدل على رقي صاحبها، وقبل أن تصعد العروس لغرفتها

بالفندق ألقت إليها بخبث خبرًا صغيرًا عن السؤال الملهوف الذي تلقاه زوجها من أخيه.. عنها هي.

ثم كانت المفاجأة الحاسمة عندما أتاها اتصال صديقتها في ظهر اليوم التالي تخبرها باختصار أنه لم يهنأ له بال ولم يترك العروسين في حالهما حتى حدد مع والدتها موعدًا للقاء وفكرة مختصرة لدى الأب عن وجوده، شعرت بالتيه.. ما هذا الجنون؟ هل يتقدم لخطبتها بهذه السرعة؟ ما الذي يعرفه عنها أو تعرفه عنه؟ وكيف ستجالسه؟ اكتنفها الكثير من الخجل، كذلك الغرابة.. كأنها عذراء تتلقى أول عرض زواج في حياتها، ورغم الإستياء الذي تشكل بداخلها للطريقة وكاد ينعكس على الرجل نفسه إلا أن بابًا مواربًا داخل ثنايا عقلها منعها من رفض اللقاء.

مر الوقت سريعًا، ثم انتهى بها معه في شرفة المنزل لحديث منفرد يتضمن معرفة يريدها وترغبها، ظل ينظر إليها حينها بابتسامته الهادئة دون صوت مما أشعرها بالخجل أكثر، بعدها عرفها بنفسه وحدثها عنه، أخبرها عن عمله، طموحاته وخطبته السابقة والتي لم تدم طويلًا، بواقعية أعلمها أنه لن يدعي سقوطه في الغرام من أول نظرة لكن فيها شيءٌ يجذبه ولأنه اعتاد المباشرة فلم يجد سوى طرق الباب والدخول إلى المنزل عبره بوضوح.

لم تتحدث عن نفسها فربما هو يعلم كل ما تريد قوله، سألته عن نظرة المجتمع له عندما يتزوج لأول مرة من مطلقة؟ كيف يراها؟ وكيف يرى طفلها؟ هل سيكون كوالده أم ستندم هي في يوم ما لو وافقت؟ وسؤالها الأخير فاجأها قبل أن يفاجئه" هل يطالبها بحب لا تملكه؟" وجوابه منحها راحة وحرية اتخاذ القرار "هو لا يملك حبًا ليمنحه مقابل ما يطلبه، هو اختارها لأنها مناسبة، وتجذبه كأنثى ولا شيء آخر" .. فمنحته الموافقة.

خطبة ليست بالطويلة أو القصيرة، يتعرفان فيها على بعضهما البعض دون ضغوط، وفاز عقلها هذه المرة في المنافسة حامية الوطيس بينه وبين القلب.

******

يتألم لأجلها، يعلم أن بقلبها نبضة خالفت أوامرها وعصتها، تمردت على رغبتها بدفنه حيًا ودقت باسم آخر، لكنها تعاند وترفض بعنف، تقلب الأمور مائة وثمانين درجة وتهرب بعيدًا تنأى به عن ألم تخشاه قد يتجدد، يتركها تقرر، تمر بالتجربة وتخوضها كاملة حتى ترى الصورة بوضوح في النهاية، وربما وجدت سعادتها بالفعل مع اختيار العقل الذي مالت إليه.

ليلتها تحدث معها كصديق أكثر منه أب، خاطب روحها وعقلها وقلبها، حاول أن يخلق بينهم سلامًا ما لكنهم اتفقوا على الاختلاف وفاز العقل في النهاية بالقرار فلقد ساندته بكل قوتها حتى لو ماتت روحها في الطريق وتوقف خافقها عن النبض.

لم تكن صغيرته صاحبة قرارات خاطئة، ربما فقط عندما أحبت زوجها السابق وغدر بها في النهاية، ونتيجة ذاك الغدر النابع حسب تفكيرها من قرارها.. تحجيم القلب والتقليل من شأنه وردعه عن محاولة التدخل أو إفساد الأمور.

يومها ضمها لصدره بحنو، خاطب عقلها عله يقتنع:

"منى.. أنتِ متأكدة من قرارك؟ مش هتيجي في يوم تندمي لو ما حصلش حب بينك وبين رامز؟ إن حياتك تكون جافة وعبارة عن روتين بيتكرر كل يوم!!"

تشنج جسدها للحظة بين ذراعيه، لكنها همست بضعف:

"الروتين ممكن أعيشه لكن الغدر من جديد ممكن يقتلني، رامز حد كويس يا بابا، مافيش غبار عليه ويعتبر من العيلة، ع الأقل كان صادق معايا وواضح من أول لحظة"

ربت على شعرها متسائلًا بألم:

"والحب يا منى؟"

ابتسمت ساخرة، ما هذا أبي؟ أنت بالذات تعلم ما جنيته منه سابقًا.. جاوبته بهدوء حد البرود:

"بييجي بالعشرة يا بابا ما تخافش عليَّ، أو الأهم منه.. المودة والرحمة.. متأكدة إن اختياري المرة دي صح جدًا"

كاد يصارحها بما تراه عيناه في كل مرة تجتمع مع السهم في مكان واحد، محاصرته لها بنظراته وهروبها الدائم، لكنه صمت.. هو أخطأ في طريقته وهي تهرب، وكل منهما راشد بما يكفي ليتحمل نتيجة اختياره وقراره.

******

حَرامٌ عليكِ..

حَرامٌ عليكِ..

أخذْتِ ألوفَ العصافيرمنّي

ولونَ السماءْ..

وصادرْتِ من رئتيَّ الهواءْ

أريدُكِ..

أن تمنحيني قليلاً من الوقتِ،

كَيْ أتذكّرباقي النساءْ..

"نزارقباني"

عصبيته ازدادت لحد مريع، الكل يخشى الاقتراب منه، يتحاشون المرور من أمامه، لكن الحمقاء الفاتنة صاحبة الشِباك و الرغبة في الصيد تحاول جذبه دون كلل، لا يدري كيف بدأ العمل في الفيلم الجديد بهذه السرعة!! أقل من شهر وها هو مطلوب لتصوير أول مشاهده بصحبتها، طبيبته تأخرت بشدة، وبدلًا من الأسبوع طال الوقت ليصبح عشرة أيام بينما هو يتقلب فوق جمر الانتظار بلا أمل.

في اليوم الذي منحها فيه القطعة الأخيرة و انتوى مصارحتها وطلب زواجها كانت هي تعتزم الرحيل، ولم يكن ليتمم طلبه بهذه الطريقة، يكاد يشعر بامتلاكها، بقلبها، حتى بابتساماتها الخائنة والتي ترى النور فوق شفتيها رغمًا عنها.. لذلك أراده مميزًا، كيف أو لمَ؟ لا يدري ولا يبالي.. هو يريدها وكفى بتلك الرغبة حياة.

منذ أيام تفاجأ باتصال من مساعدتها بخبر تأجيل جديد، كل ما فعله بعدها كان قذف هاتفه ثانية نحو الحائط ليسقط حطامًا.. لمرة أخرى.. حينها تطلع إليه وشتم بصوت عال، لو رآها أمامه لخنقها، لا يدري أيشتاقها؟ أم فقط لا يريدها أن تغيب عن ناظريه ودون سبب محدد!! حيرته تثير به لوثة وهوس يدفعانه للركض في الطرقات صارخًا باسمها ومناديًا عليها ترأف بحاله وتمنحه نفسها برضا.

انتزعه من عالم شروده تلك الأصابع ذات الأظافر الطويلة الملونة تتلمس كتفه وتسير فوقه بنعومة، دون إرادة انتفض في مكانه رافعًا رأسه نحو صاحبتها، ما إن وقعت عيناه عليها حتى هتف بداخله "ألن ينتهي هذا الأمر أبدًا!! ألا تشعرين بالملل يا امرأة؟".. منحته بسمة مغوية وبصوت ناعم تساءلت باهتمام:

"مالك يا أحمد، سرحان في إيه؟ إوعى يكون في حد غيري؟"

لم يستطع مبادلتها الابتسام حتى، أمسك بكفها يبعدها عن كتفه، ورد بصوت خفيض مقتضب ربما يخرسها:

"مش سرحان ولا حاجة يا سهر، مستني المشهد بتاعي عشان أمشي"

تظاهرت بدهشة أثارت الملل في نفسه أكثر وتعالى صوتها معاتبًا بنبرة مغتاظة:

"تمشي!! أحمد إحنا ما اتقبلناش من أسبوعين تقريبا.. وحشتني وعاوزة نقضي اليوم سوا"

لم يبذل جهدًا لإخفاء الضجر في صوته بينما يجيب:

"معلش بقى، جلساتي مش هاقدر أأجلها زي ما أنتِ عارفة"

كاذب هو فطبيبته لم تعد بعد، لكنه يريد الفرار وفقط.. أمسكت بكفه وقلبته ترسم بداخله دوائر بطرف سبابتها هامسة بدلال:

"طيب نتقابل بعد الجلسة!! نتعشى سوا"

شعر بقشعريرة باردة تحمل رفضًا تسري في جسده دفعته لسحب يده منها دون لياقة تبعها نهوضه متجاهلًا:

"بينادوني عشان المشهد.. See you"

وبوثبات سريعة كان يهرب من أمامها وهي تزفر بسخط وتتوعده في داخلها، لم يتحمل لمستها فوق كتفه، عندما أمسكت بيده لم يستطع منع نفسه من سحبها بسرعة كأن صاعقة تحمل صورة "منى" ضربت عقله وأخبرته أنه ليس من حقه ذلك أبدًا، لم تترك بداخله مساحة لأخرى، ولا حتى تركت لعقله الحق في التفكير بغيرها، أو عيناه بالنظر إلا لها، أصبح الامتلاك متبادل والصكوك موقعة منذ اتخذ القرار.

عندما انتهى مشهده باقتدار كالمعتاد غادر كالبرق، شعوره بالملل يثير أعصابه بشدة، كأن الساعة التي اعتاد أن يقضيها بصحبتها تخلق طعمًا ليومه حتى موعد اللقاء التالي، تمنحه نكهة أدمنها هو فأصبح غير قادرٍ على الفراق ولو لأيام معدودة، تلون أوقاته بسعادة لم يشعر بها إلا حين أتى الغياب الخارج عن سيطرته ذاك.

وجد نفسه أمام النادي فجأة، ربما عقله استعاد ذكرى لقاءه بها وبصغيرها هنا لأول مرة فاستجاب الجسد واتجه حيث يتشمم بقايا رائحتها في الهواء وهناك لمحه، يجلس إلى جوار صديق، يتحدثان باهتمام، كاد يفقد عقله.. هل عادت؟ وإن كانت!! فلمَ لم يتصل به أحد ليستأنف جلسات علاجه معها؟.

دون وعي توجه نحوه بخطوات سريعة وقلبه يتقافز بين ضلوعه، رآه الرجل فابتسم بهدوء وشعر هو بشيءٍ ما يتخلل تلك الابتسامة لم يعجبه على الإطلاق.. هناك بعض من قلق وتردد وقليل من انتظار لأمرٍ ما، بادله ابتسامته ومد يده مصافحًا بود:

"دكتور مصطفى إزي حضرتك.. رجعتوا إمتى من السفر؟"

اندهش الرجل، هل كان يعلم بوجوده معها؟ هل يراقبها أو يتتبع أخبارها مثلًا؟ لم يعلق بل رد تحيته بأبوية:

"الحمد لله يا أحمد.. أنت عامل إيه؟ يادوب وصلنا النهاردة الصبح"

تردد للحظة قبل أن يسأل:

"أصل ما حدش كلمني من العيادة عشان نكمل الجلسات"

اتسعت ابتسامة "مصطفى" ثم أجاب بهدوء:

"منى هترجع بكرة العيادة النهاردة راحة.. أكيد هيكلموك"

ثم علا ملامحه توجس.. تردد.. وألقى بالخبر بأقصى قدر استطاع استحضاره من اللامبالاة:

"معلش ع التأخير في السفر، اضطرينا نمد أجازتنا خمس أيام كمان عشان خطوبة منى"

للحظة تصلب جسده وتجمد الهواء من حوله، توقفت الكرة الأرضية عن الدوران بل وحتى النجوم والسحب امتنعت عن السير، ماذا قال؟ خطبة من تلك التي يتحدث عنها؟ "مناه" هو؟ لرجل آخر غيره؟ وقبل أن تبدأ الثورة ويفور البركان كان الرجل يجذبه من يده كطفل صغير، يدفعه نحو مقعد مقابل ويجلس أمامه دون أن يلاحظ رحيل الصديق.. وصله استطرادته كأنها من عمق سحيق، شفاهه تتحرك والصوت بعيد للغاية وهو على وشك ارتكاب جريمة قتل أو تحطيم المكان:

"الموضوع كان مفاجئ وما قدرناش نأجله، العريس مستعجل بقى وكده"

هل يضع المزيد من البنزين بجوار نار مشتعلة بلهيب يبلغ عنان السماء؟ لابد أنه فقد عقله كما ابنته تمامًا، لا يدري ما الذي تفعله كلماته بالجالس أمامه دون تعقيب للآن!! بجمود وسكون كأنه جثة اجتثت منها روحها بقسوة وعنف، همسه خرج ضعيفًا متشبثًا بغضب استدعاه من حنايا قلب سقط ذبيحًا للتو:

"منى اتخطبت؟"

منحه الرجل سببًا لم يسأل عنه عله يفهم، يحارب لأجلها، حتى لو حاربها هي:

"أيوة، شافها في فرح بنت أختي، هو أخو العريس، دكتور رامز إنسان محترم، راجل مباشر، لما شاف إنها زوجة مناسبة اتقدم لها فورًا، و أقصر طريق بين نقطتين هو الخط المستقيم، عشان كده طلب مقابلة رسمية كأنه فاهم منى كويس، عمر اللف والدوران ما بينفع معاها، هي كمان حست إنه مناسب وهيقدر يعوضها وتكمل معاه حياتها بأمان"

رفع عينيه التعستين نحوه، هل يرميه بهذا الكلام؟ هل يرى ما بداخله ويشعر به؟ إذًا لمَ لم تره هي؟ تقدره؟ تهتم له؟ عاد يهمس بضياع:

"يعوضها؟"

تردد للحظة ثم تساءل بخوف:

"بتحبه؟"

تطلع إليه والدها بشفقة، أجاب بهدوء ربما يفيق ذلك المعتوه من غيبوبة الصدمة ويشعل الحرب لأجل عينيها كما يأمل، ينتزعها من بقايا الماضي الذي جعلها تسلم لحاضر ومستقبل ميت ستعيش فيه كآلة بلا روح حتى وإن وثق في الخاطب:

"هو زوج مناسب هتعيش معاه في أمان، الحب هييجي بالعشرة والود والاحترام المتبادل بينهم وكمان لما ربنا يرزقهم بأولاد علاقتهم هتبقى أقوى وأعمق خصوصًا إنه مهتم جدًا بمالك"

"أولاد!!".. وأباهم غيره؟ وطفلته هو؟ التي تمناها منها هي!! عاد يرفع عينيه والغضب يشعل نارًا غير قابلة للانطفاء في مقلتيه هامسًا من بين أسنانه:

"عشرة وأولاد؟"

وتمتم لنفسه:

"جبانة!!"

ودع الرجل وغادر بلا هدف، عاد لمنزله متأخرًا، لم يفلح وجود شقيقه من إخراجه من صدمته، ولم تنفعه الصغيرة الناعمة التي تمنى مثلها لتطفئ قليلًا من كمدٍ يغزو كيانه، حتى أمه ونظراتها القلقة نحوه وعدم فهمها لحالة الذهول الصامت والغاضب التي يمر بها، لقد اتصلوا به منذ ساعتين، غدًا اللقاء، غدًا سيقتلها حتمًا، غدًا ستخلع حلقة ذلك الرجل من حول إصبعها فهي حتى أطراف خصلاتها التي لا يعرف لونها وأظافرها الصغيرة كما أصابعها ملكه هو، ولن يسمح لغيره أن يلمس قيد أنملة منها، غدًا سيريها.

******

أطوف بعمري على كل بيت

أبيع الليالي بسعر زهيد

لقد عشت أشدو الهوى للحيارى

و بين ضلوعي يئن الحنين

وقد أستكين لقهر الحياة

ولكن حبك لا يستكين

يقولون عني كثيرًا كثيرًا

وأنتِ الحقيقة لو تعلمين

"فاروق جويدة"

التوتر صديقها منذ بدأ المرضى بالتوافد على المكان، تعلم في قرارة نفسها أن قرارها سيغضبه لو علم به.. المدلل.. البطل.. الدون جوان.. لابد وأن يحصل على ما يريد، يصل للهدف، يحقق ما يصبو إليه، وهي كانت آخر أهدافه حتى قطعت الطريق أمامه برجل آخر لا تعلم أتظلمه باختيارها أم تمنح نفسها أملًا في حياة هادئة وإن كانت مملة حتى تنتهي وتعانق الموت!.

ظلت تمني نفسها ألا ينظر لأصابعها، لا تريد الخوض في الأمر معه، ستصده فقط كما اعتادت وتنتهي الجلسة على خير، مجرد أيام معدودة تقارب الأسبوعين أو أقل ويعود لأستاذها بعيدًا عنها لتستقر هي بأمان، اقترب الوقت وقبل موعد دخوله علا رنين هاتفها برسالة، فتحتها لتجدها من "رامز" يمازحها بهدوءه المعتاد حتى عبر الرسائل:

"وحشتيني.. لو معاكِ راجل في الجلسة دلوقتِ اطرديه فورًا، مستني بالليل أسمع صوتك"

ابتسمت، منذ عادت وهو يهتم بها أكثر، يراسلها، يحادثها، خلال أسبوع اكتشفت الكثير من الأمور المشتركة بينهما وكم أراحها ذلك.

شعرت بوجود غريب اخترق حاجز الفراغ من حولها، عطره القوي تخلل أنفها بعنف كأنه يعلمها بوجوده، رفعت عينيها نحو باب الغرفة وشفتيها لاتزالان تحملان بقايا ابتسامة رسمها هناك خاطبها المهتم قبل أن تذبل ببطء.

أخافتها عيناه، انعقاد حاجبيه، جذوة مشتعلة منتزعة من قلب الجحيم تتراقص هناك، كأن لونهما تحول للسواد، شفتيه مزمومتان بقسوة وقبضتيه يضمهما خلف ظهره لأنه ربما يقاوم رغبة جامحة في القبض على عنقها حتى تموت بين ذراعيه، خطوة أخرى كان بالداخل، والتفاتة أغلق بها الباب ثم استدارة تالية ليواجهها.

تبًا هل يعلم؟ لمَ يطالعها هكذا؟ ليس من حقه.. ليس من حقه أبدًا، من حقها هي الاختيار، الفرار، الخوف، الاختباء بعيدًا في كنف رجل لا تخشى على نفسها من نزواته وتقلباته وجنونه، نهضت بهدوء متناسية ملامحه النارية، توجهت نحو غرفة التدريبات قائلة بلهجة حازمة خرجت رغمًا عنها مهزوزة بعض الشيء:

"اتفضل يا أستاذ أحمد"

قبل أن تصل للباب الآخر كان هو خلفها مباشرة، بعنفٍ أمسك بيدها اليمنى ليرفعها مقابل عينيه ويديرها بكليتها نحوه غير آبه لإنزعاجها أو

إستيائها أو حتى صفعة ثانية، تشددت أسنانه عندما لمح لمعة الذهب تحيط ببنصرها، تتحداه أنها أصبحت لغيره، وتزيد في التحدي أن يحاول تغيير الأمر أو معاندة قدرهي من اختارته، قبل أن تصرخ في وجهه مُعنِفة همس بجنون:

"اتخطبتِ؟!"

حاولت جذب يدها، لم تفلح، بل اشتدت قبضته بقسوة حول معصمها، لم تنطق فقط رفعت كفها الأخرى تحاول صفعه لكنه أمسك بها في لحظة قبل أن تمس وجنته، مال نحوها فانتفضت في خوف، زمجر بعنف:

"مش كل مرة يا منى.. المرة اللي فاتت سكت، المرة دي هيكون في عقاب، عقاب هاختاره بنفسي و أنفذه فورًا"

وحط بعينيه فوق شفتيها المرتجفتين في إشارة واضحة لعقوبته، فهمت مقصده فانتقلت الرجفة لجسدها كله.. تفهمت جنونه وغضبه، هي لن ترضخ له أبدًا، جذبت يديها من بين أصابعه مجددًا تدفعه بعيدًا عنها إلا أنه لم يتركها بل تمسك بها أكثر، كادت تصرخ لكن المكان..! عيادتها والعاملين بالخارج، هل يريد التسبب في فضيحة ما؟! صاحت فيه بخفوت زاجرولهجة جمعت بها أقصى ما أمكنها من صرامة وحسم:

"أستاذ أحمد سيب إيدي من فضلك، اللي بتعمله ده ما يصحش"

لمعت عيناه ببريق مخيف ثم سخر منها بغضب ونبرة شبه زاعقة:

"هه!! ما يصحش؟ ما يصحش؟ أمال إيه اللي يصح؟ إنك ترفضيني وتروحي تتخطبي لواحد ممل تكملي حياتك معاه بمنتهى الملل بعد ما عرفتِ أنا مين؟ بعد ما قلت لك أنا عاوز إيه؟ بتهربي مني؟ ولا من قلبك اللي بيناديني؟!"

مال إليها، تواجهها أنفاسه المحترقة والحارقة مع استطرادة محتارة ساخطة:

"فين خوفك دلوقتِ؟ كنت مش عاوزة تحبي أو تتجوزي؟ فجأة بين يوم وليلة اتخطبتِ؟ ولحد غيري؟ بتحلمي يا منى لو فاكرة إني ممكن أتنازل عنك بالبساطة دي!!"

محاولاتها لا تساوي ربع الجهد المبذول فيها، يتمسك بها كأنه لو تركها فستتلاشى من أمامه كما حدث في حلمه، زفرت بغضب حار، نيرانها تشتعل في مقابل نيرانه، حاولت إنهاء الموقف:

"أنت قلت لي أنت عاوز إيه؟ مش فاكرة الحقيقة، وأنا ما باهربش، دي حاجة تخصني، وأتجوز أو لا، أخاف أو ما أخافش برده حاجة ما لكش

دخل بيها، لما حسيت بالأمان و افقت ودي حاجة عمرك ما هتقدر توفرها لي، ودلوقتِ لو سمحت ولآخر مرة سيب إيديا"

ضم قبضتيه فوق معصميها أكثر يبغي إيلامها كما يتألم هو وينتفض قلبه في صدره كطير ذبيح ينازع آخر أنفاس الحياة، انحنى مقتربًا أكثر فتباعدت هي بقلق، يبدو فاقدًا للرشد وتخشى أن يقوم بعملٍ متهور:

"عاوزك أنتِ يا منى.. أنت منايا أنا ومستحيل تكوني ملك حد تاني.. فاهماني؟! خوفك وقلقك أنا كفيل بيهم، مش من حقك تحكمي عليَّ من بعيد وتقرري وتنفذي الحكم لوحدك"

كان دورها هي لتسخر منه:

"هه.. فعلا؟ مش من حقي؟! والدليل إيه؟ رسايل مراهقين؟ ورد مش لايق حتى عليك؟ ولا لعبتك الصغننة والبازل اللي كنت بتخليني ألعب بيه؟"

تراجع خطوة، نعم هذه هي دلائله، سعيه الحثيث خلف قلبها المغلق والمحتجز بأصفادِ غدرٍ لم يكن سببًا فيه، لم تعطه فرصة للرد بل أكملت بحزم تخلله شيء من ألم أوخز قلبه:

"أستاذ أحمد من فضلك، أنا مش بتاعة ألعاب، ولا عندي استعداد أكون مجرد رقم في ليستة حياتك، من حقي أتجوز الانسان اللي أختاره،

ومن حقي أعيش حياتي بالطريقة اللي ترضيني، وبالنسبة ليك فمش من حقك تمسكني بالشكل ده، أو تحاسبني على اختياري، حضرتك مجرد حالة عندي وكلها أيام وترجع تكمل الكورس مع دكتور علي وكل واحد يروح في طريقه، ووقتها أكيد هتلاقي لعبة تانية تتسلى بيها أو تحدي جديد تحاول تفوز بيه"

لعبة؟ أهذا ما أشعرها به؟ تبًّا لها وله.. سيكون الجحيم لو تركها تصبح لغيره، إن كان قلبها ليس هو الطريق الصحيح، فسيعلنها حربًا ولن يتراجع حتى النصر، يخوضها بشرف أو بدون.. عاد يقترب خطوته لتبتعد هي ثانيةً بتوتر، همس بلهجة نبعت من عمق روحه التي تهفو إليها في كل حين كأنها لن تحيا بدونها للحظة:

"أنتِ مش تحدي، أنتِ سباق حياتي، وقلبك ليَّ يا منى وغصب عنك، أنا عارف إنك بتحبيني بس بتحاربي مشاعرك.. خوفك من الماضي ومن تكراره.. من زوج شايفاه يشبهني.. بس أنا مش زيه ومستحيل أكون خاين ومستحيل أجرحك"

جذبت نفسها منه بعنف ولايزال يرفض إفلاتها، لم تهتم لصوتها الذي علا بعض الشيء بغضب:

"أنت فاكر نفسك مين؟ واحد فلاتي بيجري ورا كل واحدة شوية وعايش حياته بالطول والعرض، لما واحدة استعصت عليه قرر يغير طريقته ويعيش دور الحبيب اللي بالمناسبة مش لايق عليك، من فضلك سيبني وكفاية قوي لحد كده"

وكأنها نزعت فتيل غضبه فصرخ في مقابلها:

"بطلي كدب وخوف بقى، الكلام اللي بتقوليه ده بتحاولي تقنعيني أنا بيه ولا تقنعي قلبك؟ أنا متأكد إنك بتحبيني، حتى ابنك بيحبني... و أنا كمان بحبك"

تجمدت وتجمد هو في المقابل، ما الذي قاله للتو؟ هل قال "أحبك"؟ هل نطقها؟ رباه لقد اعترف بحبها.. اعترف به بسرعة وحسم ودون تفكير كأنه ولد ليحياه فقط، كأنه أول الحياة وآخر الوجود.. كأن الحروف والمشاعر ودقات القلب والأنفاس تجمعت في حروف لفظها على حين غرة ودون ترتيب مسبق.

كم كان أحمقًا لا يدري ما به؟ والملخص حرفين "حب".. يشعر به لأول مرة، بمذاقه الفريد الذي لم يمر به من قبل، يحبو في متاهته ودهاليزه التي لم يرها أبدًا أو يعبر طرقاتها، لهذا لم يدرك!! ولهذا الآن خرجت الكلمة نابعة من قلبه دون وعي حاملة خلاصةَ مشاعر تولدت داخله

عنوة وبلا فهم.. بعفوية وتلقائية تدل فقط على ما يعانيه في غيابها وما يعنيه له قربها!.

نبضات قلبه تعالت فجأة.. غباؤه فاق الحد هذه المرة، وهي تنظر إليه بعدم تصديق، أتراها لا تبتلع ما قاله؟ هل ملامح الصدمة على وجهه هو الآخر تعطيها فكرة محدودة عما يشعر به الآن؟ هو يحب..!! لكنه لن يجبن من جديد ولن يتراجع، سيخوض الحرب حتى النهاية وسينتصر وستكون هي الغنيمة حتى لو حاربها شخصيًا.

تجمدها أمامه منحه الفرصة ليفلت إحدى يديها، يتمسك باليمنى، يرفعها أمام عينيه ثانية وهي تحدق فيه بذهول، يلمع الهياج بين جفنيه مرة أخرى مع وقوع نظراته فوق حلقتها بينما يمد أصابعه لينتزعها ثم يضعها داخل كفها ويغلقها عليها بإحكام، ينحني نحوها هامسًا بلهجة حازمة آمرة:

"الدبلة دي ترجعيها له في أسرع وقت.. بدل ما أرجعها أنا بطريقتي واللي عمرها ما هتعجبك، ولو شفتك معاه يا منى.. حتى لو لحظة!. صدقيني ما أضمنش رد فعلي هيكون إزاي!! أنتِ ليَّ أنا وبس"

وترك يدها، وابتعد، منحها نظرة عاشقة لم يخجل من الاعتراف بها، وهمسة خافتة أسقطت قلبها الخائن صريع عينيه الناظرتين إليها بتَوْقٍ امتزج بلهفة:

"بحبك"

ثم التفت مغادرًا، أمام الباب عاد ينظر إليها، ابتسامته بغمازته المنفردة أسرت عيناها، همسه تسلل لقلبها بحنو مُسكِر ونبرته تقطر سعادة أو ربما ارتياح:

"مش مهم جلسة النهاردة، أنا كده حاسس إني أحسن بكتير.. أشوفك يوم السبت"

ورحل.. بهدوء وسكون.. وترك بداخلها إعصارًا يضربها من أقصى اليمين حتى أقصى اليسار، ترك بصمة كوشم لا يمحى على جبين قلبها، داخل روحها، وذكرى نبرة عاشقة وهمسة دافئة حملتها نسمات الهواء إلى أذنيها برقة لم تتخيلها من مجنون مثله.

رفعت يدها أمام وجهها وفتحت قبضتها المغلقة بقوة، تنظر لحلقة "رامز" المستقرة داخلها بصمت دون أن تدري ما الذي ينبغي فعله؟! وكيف الهروب من قلب غادِر خانها وباع في لحظة إحساس الأمان المصطنع الذي

اختفت خلفه لأيام مضت، ثم هلل فرحًا لمجرد لفظه لكلمة قد تكون كاذبة كما لفظها زوجها من قبل!!.

(14)

العودة

لحظة ضعف تنتاب كل أنثى عندما تمر بآذانها تلك الكلمة السحرية بأحرفها القليلة، ضعف أو ثمالة، تفقد السيطرة، تحدق بذهول، وقلبها الغبي السفيه يطرب لها ويهلل كأنه عاد على قيد الحياة للتو بعد غيبوبة داخل جسد يتحرك بآلية لا روح فيها.

وهي لم تكن لتختلف، ظلت عيناها معلقتان بحلقتها داخل كفها المفتوحة أمام ناظريها، تتأملها بصمت، فيهما نظرة لا معنى لها أو هدف، حالة من الجمود تمسكت بعقلها الواعي فتركته لتغوص في عالم اللاوعي تنأى بنفسها عن المعجزة التي حدثت منذ ثوان.

ألقى بكلمته للمرة الأولى بعنف ودون ترتيب، وفي الثانية همس بها عاشقًا تائقًا للقرب، الأولى جمدتهما معًا، والثانية أحكمت القيود حول قلبها الصغير المتلهف للنبض من جديد، وبين رهبة الأولى وعمق التالية ضاعت هي وفقدت بضع أنفاس كان صدرها يشتاقها بشدة.

تأوهت بصمت تنعي بريق أمل انطفأ في حياة هادئة، دفعها هو داخل معمعة صراع، أخبرها أنه سيحاربها هي لينالها في النهاية، وبدلًا من خوض معركة تنتهي بعدها الحرب بانتصارها، ستتعدد المعارك وتصبح كأنها ملحمة عالمية جديدة، فقط بين قلبين.. أحدهما يريدها والآخر يخونها بصلف.

أغلقت قبضتها من جديد بإحكام وتحركت ببطء تبغي شيئًا من دعم، جلست على المقعد المقابل لمكتبها وزفرة حارة تحرق صدرها تنفستها بعمق وقوة، ملمس حلقتها الناعم بين أصابعها أصبح كالحديد المصهور، ملتهب بشدة، حارق للغاية، ومؤلم كوجع يتمخض من عذاب لا طاقة لها بتحمله أو مجابهته.

حتى عقلها الأخرق قرر للحظات أن يسكن، يقبع في ركن ير اقب من بعيد، ويتركها تواجه موجاته العاتية وحيدة مرتبكة خائفة، وأمامها نسيت كيف تسبح، وفقد قانون الطفو مصداقيته.

على وشك الغرق، أو ربما هي غرقت بالفعل، لكنها فقط تجادل، تحارب أشباحها الخاصة، أشباح تحوم حول رأسها لماضٍ لم يكن سارًا، ونهايته لم تكن سعيدة كحكايا الأطفال ختامها وعاشا في سعادة وهناء إلى الأبد.

تنهدت ثانية، العقل يعود للعمل ببطء، تدور تروسه برفق بعد عطلٍ تقنيٍ دام لدقائق، الأفكار تنطلق متحررة من أسرها خلف ذلك الجدار الواهي الذي بناه وقحها فقط بأربعة أحرف هامسة ونبرة دافئة أشعلت بداخلها النيران، المنطق بدأ ينير الطريق والقلب يهتف ساخطًا معترضًا.

والذكرى تضربها بعنف، عنف يوازي أنفاسه المستعرة التي لفحت بشرة وجهها لدى إمساكه أو للدقة تشبثه بها كأنها آخر نبضة في حياة قلبه البائس الصغير، فعليًا كانت بين ذراعيه، ربما لم يضمها لكن الوضع أكثر من كافٍ، يؤنبها، يصرخ في وجهها، يهددها، وفي النهاية يصدح بحبها ويجاهر بمعصية قلبه الغِر على ملأٍ منها.

ملامحه حين النطق بحكم العشق محفورة داخل ذهنها، كصورة فوتوغرافية شديدة الدقة عالية الجودة، ذهول.. وجوم.. وانتهى بفهم تبعه ارتياح، هل تصدقه؟ ربما.. لقد بدا متفاجئًا للغاية، كأنه كان يبحث عن معنىً لعالمٍ جديدٍ يغوص فيه أو سببًا يعلل به انجذابه إليها حتى وجده بغتة ودون سابق إنذار، إنه الحب.

ابتسامة طفيفة ارتسمت على ثغرها، اتسعت أكثر، ثم تحولت لضحكة هيستيرية، كازانوفا، معشوق النساء، الذي يمتلك حرملكًا خاصًا دون حدود، الساحر الوسيم صاحب العينين اللتين تحملان لون السماء بلا

أدنى تغيير بنظراتهما الوقحة المقتحمة..! يحب ولا يفهم أو يدري، وفي أول خطوة يعبرها عتبات عالم الغرام تعثرها هي دون غيرها، سخرية هذه أم مأساة!!.

تحسست معصمها بألم، كتف يديها بقسوة ليمنعها من صفعة انتوتها بقوة وعناد، توعد بقبلة أرجفت روحها، زعق بجبنها وهروبها، ثم أرهبها وأثار رعبها الكامن بكلمة خرجت منه بعفوية مطلقة مست شغافها، لا لم تفعل.. كانت أشبه برصاصة اخترقت ضلوعها ثم استقرت بقلبها فتوقف فجأة عن النبض، وتبادلت الأحداق نظرات الصدمة، استغل هو جمودها لينتزع حلقتها ويعيد على أذنيها تهديداته و إنذاره بالملكية.

بعدها نطقها بهمس، بعشق، بتأثير يشبه سطوة الخمر، لكنه يسكر على قيد الوعي، لم ترف بجفنيها، لم تبتعد بنظراتها، التحمت العيون في سجن همسة خافتة ومنعتها قضبان الهوى من الفراق، وبينما هي تقاتل لتلتقط بضع أنفاس زائغة هربت من رئتيها كان هو يتنهد بارتياح، يبتسم، ويودع، ثم يغادر تاركًا إياها وسط عاصفة لم تهدأ بعد.

تداخلت مشاعرها وتضاربت بعنف أزعجها وآلم عقلها، وصغيرها الغرير في دنيا الغرام رغم سابق تجربة لايزال يخرج لسانه لها هاتفًا: "لقد فزت، واعترف بالحب يا حمقاء".. وتنهره هي متعلقة ببقايا صلابة مدعاة: "ومنذ

متى كانت "أحبك" هي المقياس أيها المخدوع القديم؟.. أفق لحالك قليلًا فقد قيلت لك من قبل وكانت محض كذبة"..

وانزوى المسكين خائبًا بعدما قتلت أمله في المهد ونقلته إلى اللحد.. أليس إكرام الميت دفنه؟ وها هو صريع أمام جبن ينهشها دون هوادة وخوف لم تستطع درئه مهما حاولت، فما كان منها إلا أن أعادت فتح قبر أحلامها القديم وحفرت حفرة في أحد أركانه، ثم دفنت حلمًا آخر تعلم أنه لن يتحقق وعلى شاهده خطت بحزن "فقيد الأمنيات".

طرقات خافتة بعيدة انتبهت لها بصعوبة بعدما امتزجت بنداءٍ قلق يحمل صوت مساعدتها، رفعت رأسها تنظر نحو باب الغرفة بجمود، حركت شفتيها في محاولة للنطق فخرجت الحروف متلعثمة خافتة وربما غير مفهومة:

"ادخلي يا مايسة أنا كويسة"

دخلت المرأة بتردد، تتأملها في قلق.. تساءلت: "هل وصلها صوت المشادة، أو ربما صدى صرخته بحبها؟".. و افضيحتاه.. تنعي بها وقارًا أهدره ذلك الأرعن، خاطبتها باهتمام:

"متأكدة إنك كويسة يا دكتورة؟ الأستاذ أحمد دخل وخرج على طول هو ما أخدش الجلسة؟"

منحتها انشقاقة خفيفة من شفتيها تقصد بها ابتسامة فظهرت ذابلة:

"أيوة لغاها ما تقلقيش، أنا هامشي دلوقتِ بقى وأشوفك بكرة إن شاء الله"

نهضت تترنح، أو ربما الأرض من تتحرك بطيش فتركت محورها وهربت، أو قد يكون عقلها المسكين هو من يطفو دون ثقل يذكر فشعر بدوار يغزوه، جلست خلف مكتبها ترتب أوراقها بعد خروج السيدة، فتحت الدرج العلوي تلتقط منه لعبته الصغيرة الأنيقة، تطلعت إليها كأنها تجري معها تحقيقًا حول صاحبها، لقد أحضرتها اليوم كي تعيدها إليه، فإذا به يفجر الموقف وبدلًا من الاتجاه نحو الغرب، كان شرقيًا وجذبها معه.

وضعتها أمامها، إلى جوارها الحلقة التي تربطها برجل لا تريد إيذاءه أبدًا، تنقل عينيها بينهما بصمت، وتتساءل بحيرة عن الخطوة القادمة وقد ألقى بها المجنون داخل دوامة تكاد تفقدها عقلها، أعادت السيارة إلى أعماق الظلام داخل المكتب الخشبي الأنيق واحتفظت بحلقتها داخل حقيبة يدها، نهرها عقلها أن أعيديها لإصبعك وصرخ القلب معاندًا: "اصمت يا أنت".

******

الاعتذارصعب على البعض، واصطناعه كحجة يفقد الآخر إحساسه به، لكنه لم يقوَ على الابتعاد أكثر، اللقاءات العائلية رسمية للغاية، وهو يريد حديثًا وديًا بدعوى التعبيرعن أسفه.

في ركن الحديقة الهادئ، أمام طاولة تحمل كوبًا من القهوة، وبين يديها كتابًا علميا بالانجليزية كما هو واضح من عنوانه، خصلاتها الحالكة تشاكسها بمجون نسمات الهواء، وتخالفها بعناد بشرتها العاجية.

تردد للحظات، هل ما يفعله صحيح؟ ولمَ شعر بها مختلفة عن نزواته السابقة؟ هل ينتهج طريق شقيقه في تحدي الصعاب والفوز بالسباقات؟ تنهد ببطء، زفر الهواء المحتبس في صدره بعمق وثقل، خطوة أمام وأخرى خلف، بعد دقيقة كاملة وقف أمامها، هذه المرة تنحنح بهدوء محاولًا عدم كسر حاجز الصمت بقوة، نادى برفق ولهجة لينة:

"آنسة ياسمين!"

رفعت عينيها تنظر إليه من خلف منظارها الطبي الأنيق، لمح بعض الدهشة هناك للحظة لكنها تلاشت على الفور تبعتها ابتسامة رسمية وترحيب محايد:

"أهلا يا أستاذ عمرو، أميرة جوا مع رينا، وباسم مش موجود"

ارتبك داخله بشدة لكنه ارتدى ثوب الحسم والهدوء والمباشرة:

"الحقيقة أنا جاي مخصوص عشانك"

نظرت بتساؤل أجابه سريعًا:

"عاوز أعتذر عن الموقف البايخ اللي حصل أول ما اتقابلنا، كنت فاكرك أميرة و أنا هزاري معاها زي ما بيقولوا هزار بو ابين"

كرنين أجراس ناعمة انطلقت منها ضحكة خافتة رفرف لها بأهدابه في غير استيعاب، أشارت بعدها بيدها في شيءٍ من مرح:

"It's Ok ما حصلش حاجة"

تقدم خطوة أخرى مبعثها جرأة اكتسبها من الضحكة التي لاتزال ترن في أذنيه بلطف:

"يعني مش زعلانة؟!"

ابتسمت برقة:

"No"

استند للمقعد المقابل لها و انحنى قليلًا بجرأة أكبر:

"طيب بمناسبة الصلح ده تسمحي لي أعزمك على عشا مبكر ونتكلم شوية"

فكرت لثوان ثم تساءلت بلؤم:

"نتكلم في إيه؟"

مط شفتيه ورفع حاجبيه مع هزة كتف بمعنى "لا شيء محدد".. كانت تلمح إعجابه بها في عينيه.. أما هي فقد قضت بعض الوقت مع زوجة أخيها تلقي بتساؤلات حوله دون لفت انتباه، تعلم أنه يصغرها بسنوات ثلاث، لكن هذا لا يمنع صداقة من النشوء بينهما حتى تعود لعملها وتسافر من هنا، كما أنه يعجبها أيضا، وسيم، مرح، وعيناه تحملان من القوة كمًا موازيًا للشقاوة والعبث وبعض الوقاحة غير المرفوضة، نهضت و اقفة بهدوء ومنحته ابتسامة أخرى أسرت نظر اته:

"أوك.. ثو اني هاجيب شنطتي"

طوال ساعتين ظل يدور بالسيارة، يتحدث معها في ابتهاج، يداعبها على طريقته وتضحك بطريقتها التي خلبت لبه تمامًا، ابتاعا بضع شطائر تحمل نكهة الوطن تناولاها مستندين لسور أحد الكباري الشهيرة، وتلاها كوبين من الشاي المصري الأصيل قرب أحد المقاهي الشعبية، لم تشعر بالافتقاد والحنين سوى في هاته الدقائق التي قضتها معه، وذكريات لم

تكن منذ زمن بعيد تشاكس خيالها، وتسحبها نحو الماضي الذي هربت منه هنا، في النهاية لاحظ هو ذبول ابتسامتها فشرد في ملامحها قليلًا قبل أن يحاول اجتذابها من دوامة الذكرى:

"هاي.. رحتِ فين؟"

رفعت إليه عينيها، طويل هو للغاية حتى أن رأسها توازي كتفه تقريبًا فاضطرت للتراجع خطوة لتنظر إليه بارتياح، ابتسمت محاولة التخلص من الشرود:

"أبدًا، بقى لي كتير قوي ما قضيتش وقت لطيف حسيت فيه بطعم وريحة بلدي بالشكل ده"

بادلها البسمة بأوسع منها، همس لها برفق مرح:

"إحنا في خدمة معاليكِ.. وحشتك؟"

تأملته لثوان محتفظة بابتسامتها قبل أن تخفت تمامًا، ثم ردت بحزن:

"أكيد.. بس مكاني الصح مش فيها"

تنهد، أو ربما هي زفرة حارة تحمل رائحة قسوة، صديقه عانى الاغتراب لأسباب مشابهة وإن اختلف الهدف، لذا هو يدرك:

"وقدرتِ تحققي ذاتك برا منها؟"

هزت كتفيها:

"باسعى"

ابتسم ثانية:

"لأني عندي خلفيه نوعًا ما عن طموحك، مش هاقولك ليه مش بتسعي هنا!!"

وضحك بخفوت والتقت النظرات فشردت وتاه هو، سألها ببطء:

"ليه بينادوكِ جيسي؟"

والجواب أكثر هدوءً وبساطة:

"لأنهم هناك بينطقوا اسمي جاسمين"

همس بتأمل وتبجيل:

"بس ياسمين أحلى بكتير"

توترت للحظة، خفضت عينيها بعيدًا عن نظراته المتفحصة، واستدارت تنظر للنيل أسفل أضواء أعمدة الإنارة الصفراء، احترم هو صمتها واكتفى بتأملها، بداخله شيء ما يولد، وهو لا يمانع من ذاك الميلاد أبدًا، وصله همسها الهادئ هذه المرة:

"ممكن نروح؟"

ابتسم باحتواء:

"أكيد"

وأمام باب المنزل مع دعوة منها للقاء أخته اكتفى بإشارة واضحة أرجفتها:

"مرة تانية.. كنت جاي عشانك أنتِ بس النهاردة"

ازدردت لعابها، وبَّخها عقلها مغتاظًا لاستجابة غير محببة أو مرغوبة لصوته الخافت والعمق الذي ينبض به في كل حرف، فاكتفت بهزة من رأسها تحييه وكلمة شاكرة على الأمسية الدافئة، ثم اندفعت تغادر السيارة تتابعها عيناه بينما تعلوهما نظرة لا يسهل تفسيرها.

******

يا وردتي

ونجمتي

وتاج رأسي

ربما أكون

مشاغبًا . . أو فوضويَ الفكر

أو مجنون

إن كنت مجنونًا . . وهذا ممكن

فأنت يا سيدتي

مسؤولة عن ذلك الجنون

"نزار قباني"

"الحب".. المعضلة الكبرى، المسألة الهندسية التي لا تحتاج لمعطيات، هي تحدث فقط، دون مقدمات، دون فهم، وعليك فقط انتظار النتيجة، والبعض يسعى إليها جاهدًا.

"الحب".. النتيجة، الحل، وأساس المشكلة، تنين ينفث اللهب، يشعل بداخله الجحيم، ويصليه لظى الشوق بدون إدراك، يحرك الشغف كما تحرك النسمات أوراق الخريف، برقة ورفق، أو يشعله نارًا فيتحرر من عقاله وينطلق بجنون.

"الحب".. الفاعل والمفعول، السبب والمسبب، ورد الفعل المضاد في الاتجاه والمساو في القوة، نظرية لم يسبق له أن اختبرها، وبحر لم يتعلم السباحة فيه، لا شطآن له ولا أطواق نجاة، لا تعبره سفن ولا تسكنه

جزر، هو فقط وجد للغرق في أعماقه وبكل حبورو امتنان، ترمي بنفسك بين أمواجه، ولا حرج.. فيا أهل الهوى هل الغرق في بحار الغرام انتحار!!.

وهل حبه لها.. "مناه" التي حيرت عقله حتى استنار فجأة بدافع خطبة اتخذتها مهربًا منه، هي تعلم وهو يعلم؟ هل هذا الحب جريمة يعاقب عليها القانون؟ ترى ما العقوبة المفروضة؟ مؤبد مع الشغل في رحابة عسل عينيها؟ إعدام بين ذراعيها؟ أم جنة يقطنها إلى جوارها؟.

هو يحبها ولا مناص، أبواب الفرار مقفلة، ونو افذ الاستنكار أغلقت..

"والاعتراف بالحب.. فضيلة في شريعة العاشقين"

وها هو يعترف، بل ويصرخ، ثم يهمس، وخافقه يدق، وينادي باسمها، يرجوها القرب، ويجابه تحدٍ وضعته حجر عثرة في طريقه، والتحدي هذه المرة من نوعٍ جديد، فالفوز فيه حياة وخسارته موت، وهو لم يعتد الخسارة، "مناه" له مهما عاندت، أو تباعدت، خافت، هربت أو رفضت، ستكون له وإلا فليمت أفضل.

دار بسيارته كثيرًا، يفكر، يبتسم، يستعيد صورتها، ارتجافة نبرتها، جبنها وتراجعها، صراعها، دفء ملمسها ونعومة بشرتها، يعلم أنه آلمها، لكن ألمه كان أكبر، وأمام وجع القلب تهون أوجاع الجسد، تمنى للحظة جنون تشبه هوسه بها أن يتركها تصفعه حتى ينفذ عقابه، شتم نفسه على

غبائه، فكل لمسة تمناها منها كان الثمن صفعة، لكنه عاد يبتسم ببلاهته المعتادة هامسًا لنفسه بدهشة مضحكة:

"بحبها.. أنا فعلًا بحبها!!"

نعم يا مبتدئ.. هذا هو الحب، فماذا تنتظر؟ وماذا ستفعل؟ انتابه وجوم مفاجئ.. ماذا لو لم تصدقه؟ همسته خرجت من عمق قلبه، تحمل قطعة من روحه، تذوب أمامها وتصرخ بعشق لم يكن ليتخيله حتى في أسوأ كوابيسه.. بلى فعالم الغرام بالنسبة لكازانوفا السهم الحر كابوس، أضحى حلمًا يتمنى الغرق فيه دون نجاة فقط لأنها هي محبوبته.

يود لو يعود إليها الآن، يطلب منها التفهم، القرب، يرجوها أن تترفق برجل يحبو مغادرًا المهد لتوه، تتريث وتنتظر عله يخرج من تلك المتاهة إلى النور بعد قليل، وحين تتألق مصابيح الفهم تبدد دُجْنة كان يحلق فيها دون استيعاب، وقتها ستحصل على عاشقها الذي تتمناه ويتخيل أن يكونه هو الآخر.

أمام مدخل المنزل الحديدي الضخم توقف بالسيارة، لم يضغط النفير منبهًا الحارس، ولم يحاول الدخول، ظل غائبًا في ملكوت لم يظن أنه قد يتيه فيه يومًا، ومن نافذته لمحه الشقيق الأصغر، عقد الحاجبين وتساءل بقلق عن أخيه وماذا يفعل بوقوفه هكذا؟ دون تردد هبط

للأسفل وتوجه نحوه، أخرجه من عباءة الشرود التي تغطيه بأكمله بطرقة خافتة خشي أن تزعجه فوق الزجاج البعيد عنه، رفع إليه عينيه في غفلة عن الو اقع من حوله فأشارله أن يفتح الباب، استجاب لإشارته فانضم إليه "عمرو" بتساؤل مهتم:

"مالك يا أحمد أنت و اقف كده ليه؟"

ابتسم بخفوت وهمسة لاتزال تطفو فوق غمامة الدهشة تخرج من بين شفتيه:

"بحبها"

لم يكن تساؤلًا، إنما كان تقريرًا نهائيًا، لا ينم عن فهم، بل فقط يعبر عما يصول ويجول بداخله الآن، رفع أخيه حاجبيه في استغراب، ثم صمت، بعدها ابتسم بتفهم، ثم ضحك بخفوت وتنهد بارتياح، وصاحب تنهيدته كلمة واحدة:

"أخيرًا"

تلقى بعدها نظرة تمازج فيها الاستغراب بالتساؤل فأوضح:

"كان واضح قوي يا لورد بس أنت ما كنتش واخد بالك"

اتسعت ابتسامته وشرد مرة أخرى بينما يعدل بداخله "بل لم أكن أفهم"، سأله "عمرو":

"وناوي على إيه؟ برده لسه الطريق طويل!!"

عقد حاجبيه في استياء، كأن هذا الصغير يصر على إخراجه من حالة نشوة الغرام التي يحياها، التفت إليه نصف التفاتة ونظرة تحمل من الغيظ الكثير:

"عمرو، لم الدور"

ضحك بخفوت، وترك هذه النقطة للتالية:

"طيب قلت لها؟"

ابتسم بهيام غريب:

"أيوة"

وسؤال جديد بترقب واهتمام:

"ورد فعلها؟"

أجاب باستدارة كاملة هذه المرة وشيء من ضيق يتخلل نبراته:

"ما استنيتش أشوفه، كنت محتاج أديها وقت تفكر في مشاعري وأنا كمان أحاول أفهمها.. بس عمومًا هي اتجمدت"

والمحقق لايزال مستمرًا مع ابتسامة متفهمة:

"طيب ناوي على إيه بالظبط؟"

بحسم وسرعة وبريق عينين:

"هاتجوزها، وأخلف منها بنتي"

ورد الفعل المنطقي ارتفاع حاجبين مندهشين ثم قهقهة مرحة تلتها قبضة الأكبر بوكزة في كتف الأصغر وحنق يرتسم على ملامحه:

"إشمعنى بنتك؟"

ولم يتلق رد، فعاد لتحقيقه:

"طلبت منها الجواز؟"

وكأنما أفاق على واقع لم يستوعبه بعد، لقد أخبرها بحب، ولم يكن صريحًا ومباشرًا بما يكفي ليذكر الخطوة التالية، هي تعشق الخطوط المستقيمة، وهو ذكر زجزاجي النشأة، فتصرف بحكم العادة، رفع هاتفه قائلًا بغضب:

"لا.. أنا غبي.. هاكلمها"

أمسك أخيه بكفه سريعًا يمنعه وضحكاته تعلو من جديد:

"اصبر بس تكلم مين؟ هتطلب منها الجواز في التليفون؟ ينفع كده يعني؟"

تردد، ارتبك، وتعرق جبينه مع همسه المشتعل:

"أصلها اتخطبت"

جاوبه الصمت، فعند الصدمة نفقد القدرة على التعبير بشكل تلقائي، ثم بعدها ينهمر السيل:

"إيه؟! اتخطبت؟ أنت بتهزر؟ وعاوز تتجوزها إزاي؟ ومادام اتخطبت أكيد مش بتبادلك أي مشاعر.. يعني ...."

قاطع سيله وأخرسه بكفه مع إيضاح:

"أنا فهمتها إنها ليَّ أنا وبس، وخلعت دبلتها وقلت لها ترجعها للراجل التاني ده، أنا متأكد إنها بتحبني بس جبانة، خايفة من الحب، مستحيل تكون لحد تاني.. على جثتي يا عمرو"

وجملته الأخيرة كانت بتصميم وعناد، بإصرار على تخطي الصعاب مهما بلغت مشقتها، ومهما طال الوقت، هي "مناه" هو وأمنياته، أنثى أحلامه

الوحيدة، وصاحبة النبض الذي يطرق ضلوعه في كل لحظة، بل و أفكاره وخيالاته المهووسة بها.

******

طوفان ابتلعها حتى النخاع فتاهت فيه، هاتفها المغلق والمثير للقلق، تأخرها غير المعتاد، وعودة شاردة في عالم لم يخلق بعد، جلست هي الأخرى في سيارتها تستعيد ما حدث ربما للمرة المائة، تفند، تحلل، تعاند وترفض، تخاف وتجبن، والقلب في حالة نشوة بينما العقل يزجر ويغضب ويمنطق، في النهاية لم تجد بدًا من الصعود لمنزلها، تحركت ببطء شديد غافلة عما حولها وعندما فتحت بابه ودلفت للداخل وجدت والدها في انتظار مرتبك وسؤال وجل:

"إيه يا منى كنتِ فين كل ده؟ اتأخرتِ كده ليه؟"

أشارت بيدها دون داع مجيبة بابتسامة طفيفة:

"أبدًا يا بابا، كنت باتمشى بالعربية شوية.. خير محتاج حاجة؟ مالِك كويس؟"

ولمح الأب الإصبع الخالي من حلقته، ارتجافة جفنيها المتوترة، نبرتها الشاردة، فعرف أن الغضنفر قد تحرك وبقوة، وزأر مطالبًا بقلبها، كاد يبتسم لولا أن تذكر:

"مالك كويس ما تقلقيش، بس في حد مستنيكِ"

لمعت عيناها بتساؤل وقلق يتسلل إليها، هل تجرأ و أتى إلى منزلها؟! أهو مجنون إلى هذه الدرجة؟! قبل أن تحصل على إجابة أتاها الصوت العميق يداعب أذنيها بنبرة لطيفة هادئة:

"أنا يا منى.. من غير ما تسألي"

ربما هي صدمة، أو ذهول، تجمد وخوف ممتزج به، حالة من الشلل الجسدي والعقلي بينما ترفع عيناها المشدوهتين نحو المتحدث عقب اختراق صوته لأذنيها.

يقف أمامها بوسامته المعهودة، أو ربما صار أكثر جاذبية وخشونة، شعره استطال قليلًا فمنحه مظهرًا غجريًا متوحشًا زادته لحيته النامية قوة، ببزته الرسمية التي طالما بدا فيها أكثر لفتًا للأنظار، ثم ابتسامة تحمل شيئًا من خجل و بعض لهفة ترتسم على شفتيه، و في نهاية الصورة صغيرها.

مدللها.. يتعلق بساقه كأنما يضمن وجوده معه لو اختفى ثانية، وعلى وجهه أمارات فرحة حُرِمت من رؤيتها طويلًا، تحركت الأحداق من أعلى لأسفل بترتيب تنتقل من الكبير إلى الصغير، واكتفت بالصمت.

(15)

وبدأ السباق

أيظن أني لعبة بيديه؟

أنا لا أفكر في الرجوع إليه

اليوم عاد كأن شيئًا لم يكن

وبراءة الأطفال في عينيه

ليقول لي: أني رفيقة دربه

وبأنني الحب الوحيد لديه

"نزار قباني"

الرجل.. كائن يتكون من خمسة بالمائة اهتمام.. عشرون بالمائة جسد وعضلات ترضي نظرته إلى نفسه.. وخمسة وسبعون بالمائة غرور ذكوري بحت.. وغروره يصور له أنه يمكنه أن يرتكب الحماقات، يقوم بأخطاء، يقتل ويكذب ويخون، ثم يعود راسمًا ملامح الندم ويبتسم بحب فتركع أنثاه تحت قدميه من جديد.

هكذا رحل.. وهكذا عاد.. كسر القلب.. خانه، أوجعه، ملَّك أخرى من نفسه، والآن يظهر بعد غياب أو الأصح هروب، عامين لم تعلم له طريقًا، ولم يرَ فيهما طفله الذي يعتبره بطله ويسأل عنه كل ليلة فتحكي هي أقاصيص مغامراته ليسافر الصغير معها في أحلامه، ثم فقط وببساطة يعود كأنه كان هنا بالأمس وذهب ليبتاع الحلوى وعاد محملًا بفتوحات النصر.

والآن وبصلف، كبرياء وغرور رجل، يقف أمامها بابتسامة، ويرسم نظرة اللهفة والشوق في عينيه، وفي الخلفية ينثر فتات إحساسٍ بالذنب لعلها ترأف بحاله وتبتسم فتعود الطيور للتحليق والأسماك للغوص في أعماق المحيط وتتحول النسور لبلابل مغردة، فقط لأنه عاد وظهر.

تصلبت أمامه، بصدمة، ببرود، وغضب.. ليس لأنها تفتقد حضوره الذي لطالما نبض له قلبها، وليس لأنه خان، وليس لأنه يريد منها العودة لماضٍ محته فلم يبقَ منه سوى أثر واحد .. صغيرها، لا.. بل لأنه اختار هذا الوقت وعاد بتبجح يطالب بها هو الآخر.

المجنون اعترف لها بحبه قبل ساعات، وهي رسميًا لرجل آخر بخطبة، ثم يظهر فحلها المستأسد طالبًا العفو والصفح، ومطالبًا بها معه من جديد،

انزاحت كل المشاعر، حتى الهدوء الذي حاولت اصطناعه وبقيت نيران غضبها تنهش قلبها وتشتعل بين جفنيها.

بعد انسحاب والدها من الغرفة مصطحبًا الصغير المتعلق بعنق والده، اقترب منها، وقف أمامها بتردد، فهذه.. التي ينظر إليها، وعيناه تبحثان فيها، في عينيها عن زوجته وحبيبته القديمة.. لا يعرفها، تبدو جامدة، وغاضبة، ومخيفة، همس لها بنبرته التي تخرج بعمق قاتل يعرف تأثيره على النساء جيدًا:

"قلتِ إيه؟"

ابتسمت ببرود امتزجت به سخرية، وضحكة لا معنى لها انطلقت من بين شفتيها:

"لأ"

وتراجعت خطوة، نطقتها بحزم قاطع تنفي مجرد قبول الفكرة، فاقتربها هو يتمم حديثه:

"منى أنا عارف إني غلطت..."

قاطعته بعنف لم يخبره معها من قبل:

"ما فيش داعي لكلام كتير، الموضوع منتهي ومش هيتفتح تاني"

تطلع إليها بصمت لثوان، يسبر أغوارها، يحاول الفهم، يحصر نقاط الاختلاف بين التي كانت تذوب عشقًا بين يديه وبين تلك الجامدة الو اقفة أمامه، عاد يصر:

"عشان خاطر مالك، إدينا فرصة تانية مع بعض"

حقير، هتفت بها داخلها، يلعب بورقة يضمن أنها رابحة.. طفلها الصغير المشتاق لأبيه، لمح ترددًا يطرأ على ملامحها فتشجع أكثر:

"طول الفترة اللي فاتت أنا ما كنتش في مصر، من مينا لمينا، ما قدرتش أكون في مكان أنتِ فيه وعارف إني مش هاشوفك، باتعذب في بعدك وعذابي مضاعف بسبب اللي عملته فيكِ، أنتِ ما كنتيش تستاهلي مني حاجة زي دي، بس ..."

و اقترب أكثر، هي صامتة، متصلبة، ووجهها لا يحمل انفعالًا معينًا:

"نزوة يا منى، غلطة.. كلنا بنغلط و أنا عرفت غلطي وحسيت قد إيه كان كبير ومؤلم في بعادك، أنا راجع وباطلب منك تسامحيني، نفتح صفحة جديدة، و ابننا يتربى بيننا، وأوعدك إني مستحيل أجرحك أو أأذيكِ تاني"

وتراجعت، لم تنفعل لكن ردت بحدة أكبر:

"لأ"

بانت الصدمة على وجهه، ها هو غروره يبدأ في الظهور، لن تستطيع إخفاءه كثيرًا يا زوجي السابق، لا يصدق أنها ترفض، علامات عدم التصديق تخط ملامحه بحرفية مهرة وهو يحدق في وجهها بصمت، ازدرد لعابه وغضب ما يبرق في مقلتيه، سحب نفسًا عميقا يبرد به أعماقه التي وصلت لدرجة الغليان:

"طيب.. ناخد فرصة تعرفيني فيها من جديد!! مش هاقولك نرجع بس تاخدي وقتك تتأكدي فيه إني المرة دي مش ها..."

وتلعثم فابتسمت بسخرية تكمل جملته:

"تخونني؟!!"

نظر إليها بجمود ثم رد بصلابة مصطنعة:

"أيًا كان!! إدينا فرصة من بعيد، أثبت لك فيها إني جدير بيكِ وبوجودي في حياتك أنتِ و ابني"

احتفظت بصمتها، تتأمل ملامحه التي كانت تذوب في غرامها من قبل، لم تجد ردًا، هي لا تريده، لكن صغيرها يفعل.. ترى هل تغير بالفعل؟ هل يمكنها أن تثق به من جديد؟ ولو فعلت؟ هل... لكن أمام عينيها تغيرت الصورة فجأة فاهتز كيانها بعنف، احتل الفراغ بينهما عينان زرقاوان

وقحتان تنظران إليها بجرأة.. وحب، وهمسة خافتة تسللت لأذنيها من بئر الذكريات تحمل نبرته الدافئة حينها و ابتسامته الواضحة المرتاحة:

"بحبك"

والآخر الو اقف أمامها اعتبر صمتها علامة رضى ورحل على أمل، بعدها وفي عالم الأحلام لم يزرها سواه، صاحب الهمسة التي لا تصدقها إلى الآن يعيدها مرارًا وتكرارًا على مسامعها حتى ذابت بين يديه.

******

كثيراتٌ صديقاتي..

كثيراتٌ علاقاتي

وبين يديَّ –حين أريد- آلاف الخيارات

ولكن ما يحيرني

لماذا أنت بالذاتِ؟

أحبكِ أنتِ بالذاتِ؟

"نزار قباني"

عندما يحب الرجل تتغير خريطة العالم، تتبدل المجرات، تثور البراكين وتبدأ العواصف والأعاصير في الهبوب، تحطم الأخضر واليابس وتبني عالمًا جديدًا بنكهة عاشق، وإن كان ذاك العاشق قد تذوق كل أنواع الحلوى، ومد يده في طبق مزيج الفواكه بالكريمة حتى أنهاه عن آخره فإن عشقه يدمر الأكوان ويشعلها جحيمًا مستعرًا يصلاه ليل نهار.

وهو أصبح عاشقًا بدرجة امتياز، لا يفهم، لم يجرب، ولايزال يحبو، لم يتعلم الوقوف بعد لكنه على استعداد لاختطافها وحبسها في دفء أحضانه عنوة ودون إرادتها لو اقتضى الأمر.

كل ما يهمه أن تكون له مهما عاندت أو تمردت أو هربت، دون أن يبحث عن أسباب.. لمَ هي بالذات من عانده كيانه وخالفته روحه ودق قلبه باسمها؟ كعادته مؤخرًا يستلقي في فراشه، يتأمل صورتها على هاتفه، يبتسم لها، يهمس، يضحك، ويلثمها برقة، ويعود فينظر ويعشق، ثم يذوب ويغادرلعالم اللاوعي معها هي.

طرقات خافتة انتزعته من حالة الهيام التي يغوص فيها فاعتدل مسرعًا يخفي الهاتف أسفل وسادته، أطلت والدته برأسها، تحمل شفتيها ابتسامة قلقة، منحها ابتسامة مرحة بينما يستوي جالسًا هاتفًا بسعادة واضحة:

"كرملة.. تعالي وحشتيني"

دخلت بسرعة وقابلها هو في منتصف المسافة، انحنى يقبل وجنتها ثم وبجنونه المعتاد حملها ودار بها في بهجة أبهجت قلبها، وكزته في كتفه تزجره بتصنع:

"أحمد.. إعقل بقى، مش معقول مخلفة اتنين مجانين"

قهقه بشقاوة وهو ينزلها أرضًا، جذبته من يده وجلست على الفراش ودفعته ليجلس أمامها، شعر أنه على وشك مقابلة تحقيق كلي وشامل، فابتسم لها، بادرته هي فجأة:

"بتحب يا أحمد؟"

تراجع في دهشة، هل الأمر واضح إلى هذه الدرجة؟! بلل شفتيه بلسانه وهو ينظر إليها في استفهام قابلته بتفرس جاد في ملامحه كأنها تعلمه أنها تفهمه تمامًا، تنهد باستسلام، هز رأسه وتساءل ببطء:

"هو الموضوع باين عليَّ قوي كده؟"

لانت ملامحها فجأة وهللت كطفلة مرحة:

"يعني بتحب؟ كلمني عنها بسرعة.. عرفتها إمتى وإزاي وفين؟ وهتعرفني عليها إمتى؟ وهتتقدم لها إمتى؟ وهتعيشوا فين بعد الجواز؟ ...."

قاطعها بلمسة طفيفة من سبابته لشفتيها ضاحكًا بعبث:

"كرملة بالراحة يا حبيبتي"

ترجته بطفولية رقيقة:

"طيب قول لي عشان خاطري"

ابتسم وشرد، و"مناه" هي عنوان شروده الحالي على الدوام، أجابها بتساؤل دون أن يشبع فضولها مما أغضبها:

"طيب قولي لي عرفتِ إزاي الأول؟"

زوت ما بين حاجبيها وهزت كتفيها بتفاخر كتحرٍ وقع على حل اللغز الغامض:

"بالعقل يا قلب مامتك.. من يومين كنت داخل مش طايق نفسك ولا شايف حد حواليك، رجعت النهاردة والابتسامة والسرحان كأنك في دنيا تانية، ومن فترة رقصت معايا والدنيا ما كانتش سايعاك من الفرحة، كل الجنون ده أكيد وراه واحدة، ومعناه إن ده دق"

نطقت كلمتها وهي تربت برفق فوق موضع قلبه، عاد يبتسم ويستعيد ملامحها، صدمتها بعد اعترافه الذي صدمه هو الآخر، واستسلامها عندما خلع حلقتها كأنها تخبره أنها له وله الحق في فعل ما يشاء معها،

يأمرها، يعشقها، ويتزوجها.. وسيفعل، ظلت والدته تتأمله حال شروده بابتسامة حنون دون أن تقاطع خيالاته لكنه همس بلهجة تحمل بعض الضيق الخفي:

"هاقولك كل حاجة يا أمي، بس مش دلوقتِ، لسه قدامي شوية ووقت ما أوصل هتعرفي كل حاجة عنها وعن مشاعري ناحيتها"

كادت تعترض فبادرها:

"أتأكد من مشاعرها الأول ع الأقل"

وهذه المرة اندهشت بشدة، صغيرها الوسيم معشوق النساء لايزال قلقًا بشأن من ملكت قلبه، يالها من مهزلة..!! شعرت بالقلق من جديد، ثم تمنت أن يجد راحته أخيرًا، وتوسمت أن تكون تلك المحبوبة الغامضة هي أول الخيط في المستقبل الذي تتمناه لابنها.

******

هنا الرجل يشتاق، وعندما يشتاق يموت ببطء حتى يبطل مفعول الشوق، ولن يبطله سوى رؤيتها، اليوم الخميس، يوم طويل ممل، بدأه بأحد مشاهده في الفيلم الجديد، والتخلص من العلقة "سهر" التي فاجأته بما لم يخطر بباله مطلقًا.. لقد عرضت عليه الزواج.. ربما ليس

بطريقة واضحة أو مباشرة لكنه فهم حديثها والصدمة سببت الشلل للسانه وتفكيره، واعتبرتها هي فترة يقرر فيها، سبَّها في سره، لم يعد لديه القدرة على تحملها بالفعل، لقد زاد الأمر عن حده ولابد من إيقافه وإنهائه.

ثم أخيرًا أتى الجمعة، ولقاء متعمد بعنوان صدفة، وورقة ضغط رابحة تتمثل في صغير لذيذ كأمه، تأملها جالسة وحدها، والدها لم يأتِ معها اليوم، هتف بداخله "رائع" وتحرك نحوها، عيناه مسلطتان عليها لا تحيدان بعيدًا قيد أنملة، وقف بالقرب على بعد خطوة واحدة وهمس بشوق واضح يحمل لها رسائله عليها ترأف به وعيناه تلاحقان أصابعها تبحث عن حلقة تربطها بغيره:

"وحشتيني"

لم يجدها، فرقص قلبه بين ضلوعه، لقد خلعتها لأجله.. رفعت عينيها نحوه بدهشة، عندما التقت بعينيه ورأت فيهما الكثير شعرت بالرعب، لا.. لا ينقصني أنت.. وهو رأى هذا الرعب فعقد حاجبيه في تساؤل قلق.

ابتعدت بنظراتها خلفه فالتفت، رأى الصغير يقبل جريًا فانحنى يفتح ذراعيه له، رمى بنفسه بينهما ضاحكًا فحمله عاليًا يقبله بمرح ويدغدغه بذقنه الخشنة، انحنى يجلس القرفصاء يبادله حديثًا طفوليًا وهي تنظر،

صامتة، تلقت همسته فتخللت حواسها، أذابت درعًا ظنته و اقيًا فإذا بها تتيه من سبعة أحرف في همسة مشتاقة.

يحادث هو الصغير ويلقي نحوها بين كل فينة وأخرى بنظرة، شاردة، تبدو ضائعة وقلقة، انقبض قلبه، هل ترفضه؟ أم هناك أمر آخر يقلقها؟ وأثناء غفلته عن الكون إلا هي تحرك "مالك" من بين يديه منطلقًا بركض إلى ما خلفه، ناداه بسرعة بينما يلتفت ليجده يلقي بنفسه من جديد بين ذراعي رجل طويل، وسيم للغاية ويشبه الصغير بطريقة مرعبة، عاد قلبه ينقبض بقوة، عقد حاجبيه ومنحها نظرة متسائلة غضت الطرف عنها، فعاد ينظر للمتعانقين، نهض الرجل و اقفًا يقترب منهما، حيا الجالسة بحبور ودون حواجز:

"إزيك يا منى؟"

ينطق اسمها هكذا؟ من أنت يا هذا؟ رفع الغريب عينيه نحوه وحرك رأسه كأنه يقول "بل من أنت؟" تبًّا.. هل له أن يخمن.. التشابه، التعلق والقرب والحميمية التي يخاطبها بها؟ هل هذا ما كان ينقصه؟ بدأت أنفاسه تثقل كأنه يأخذها بصعوبة، سيتم التعارف الآن والويل لو كان هو!! ابتسم له الرجل مصافحًا:

"سامح الزيني، والد مالك"

اللعنة.. إنه هو، تطلع لكفه الممدودة كأنها ثعبان مميت، لا يريد أن يفقد أعصابه الآن، "تعقل قليلًا واصبر، ستغضبها وربما تحزنها، اهدأ"، هكذا خاطب نفسه وهو يمد يده يتقبل المصافحة، وعقله يستعيد صورة أصابعها الرقيقة العارية من الذهب، إذًا فهذا هو السبب وليس هو، عرف نفسه بخفوت دون أن يجد صفة، كاد ينطق أنه خاطبها لكنه ليس كذلك وهي وبما يراه على ملامحها الآن لن تصمت:

"أحمد الشاذلي، باتابع مع دكتور منى"

احتفظ"سامح" بابتسامته، وبلهجة لها مغزى لم يعجبه التفت لها بينما يسأله كأنه يملك كل الحقوق:

"ويا ترى تعرف موكا منين؟"

شعر بغليان دمه، وهل تعرفه أنت؟ قبل أن يثور بجواب لن يعجبه بالتأكيد كان الرد منها بحزم:

"أستاذ أحمد بطل سباقات، ومالك بيعشق العربيات واتعرفوا بالصدفة.. من يومها بقوا أصحاب"

وكأنها تحرقه بتلك الكلمة "بطل سباقات".. هل تتفاخر به؟ تطلع إليها في شيء من غيظ، ماذا الآن؟ تستخدم حضوره لتثير غيرة زوجها السابق؟ سيقتلها إن كانت تفعل؟

ما الذي أتى به؟ لمَ عاد والآن قبل أن يمتلكها؟ هل تكالبت عليه كل الأسباب لتمنعه من نيلها؟ عند هذه النقطة من تفكيره ثار غضبه فتحول داخله لأشلاء منثورة كقنبلة انفجرت في وجه أحدهم فأضاعت ملامحه وبعثرته في كل مكان، قرر الهجوم ولتكن العاقبة ما تكون:

"حمد الله ع السلامة يا قبطان، اللي أعرفه إنك غايب من سنتين، هتعرف منين أصحاب ابنك أو اهتماماته وهو اياته!!"

نظر إليه الرجل بدهشة ساخرة وهي تعنفه بعينيها تأمره بالصمت فجابهها بتحدٍ "أنتِ لي أنا".. خفضت ناظريها، وبدا الخجل على ملامحها، رباه كم بدت شهية!! قطع حبل الخيال الذي تاه فيه نبرة العائد الهازئة:

"ياه، واضح إنك تعرف حاجات كتير قوي عني وعن مراتي و ابني"

التفت إليه بنظرة نارية لو أمكنه لقتله بها:

"مراتك؟ أنت مش فاكر إنكم مطلقين ولا إيه؟"

هبت هي واقفة، يبدوان كطفلين متناحرين على لعبة وهي أبدًا لن تكون، هتفت بحدة:

"أستاذ أحمد، كابتن سامح.. ياريت نراعي المكان اللي إحنا فيه"

وتحركت نحو الصغير تجذبه:

"يلا يا مالك عشان نروح"

شعر "أحمد" بالعجز، يريد أن يستبقيها، ويريد أن يلكم الواقف أمامه يمحو ملامحه الباردة ويشكلها من جديد، ويريد الذهاب خلفها ثم قاطع كل أفكاره من لديه حق ملكية ما كأنه يعانده:

"منى ياريت نتغدى سوا أنا وأنت ومالك، موكا وحش بابا قوي"

ماذا يفعل؟ يتحين فرصة البقاء معها؟ بدعوة مبطنة والسبب "مالك"؟ ضغط أسنانه بعنف واتخذ القرار، سينقض عليه ويشبعه لكمًا حتى ينهي حياته لكنها أنقذته:

"معلش مش هينفع، تقدر تاخد مالك بس ياريت ترجعه البيت بدري عشان المدرسة الصبح"

وأمام رفضها، والحدة الظاهرة في عينيها كأنها تمنعهما معًا من مجرد التفكير في الاقتراب منها، لم يجد بدًا من الاستسلام والحرائق تشتعل

بداخله من جديد، واليأس يتسلل إلى نفسه بسرعة وحزم، فالسباق الذي إعتقد أنه على وشك الفوز به ظهر على مضماره منافس جديد لا يقل عنه قوة بل ويمتلك ما ليس له.. طفلها الصغير.

******

غاضبة هي بشدة، حانقة مغتاظة وعلى وشك الصراخ لكنها تكبته بعنف، عندما يأتي اليوم ستؤنبه بعنف، تضع الحدود وتنهي الأمر، بالأمس بديا كطفلين يتشاجران وهي محور الشجار، يتنافسان عليها ويرميان بالكلمات المسمومة أحدهما تجاه الآخر، وهي تكاد تجن، تريد الهرب لكنها محاصرة من كل الزوايا.

ودت لو لم تأتِ للعمل اليوم، فذهنها غير صاف بالمرة، فركت عينيها بإرهاق وقررت المغادرة والاعتذار للحالات بالخارج، هاتفت مساعدتها وأبلغتها بالأمر، هو لم يظهر بعد لأن موعده لايزال عليه بعض الوقت، رن هاتفها الداخلي ثانية فردت عليه، أبلغتها السيدة:

"أيوة يا دكتورة، خلاص تمام، بس في واحد مصمم يقابل حضرتك وبيقول مالوش علاقة بالجلسات، حاجة شخصية"

عقدت حاجبيها في استغراب، ترى من يكون؟ هل يمكن..؟ شعرت بالغضب من جديد، لو كان "سامح" ستصرخ في وجهه حتمًا، سمحت له

بالدخول واعتدلت في جلستها، فتح الباب وأطل منه آخروجه توقعت أن تراه هنا والآن.. أتاها صوته بابتسامة:

"ها إيه رأيك في المفاجأة دي؟"

شعرت بالحيرة، وطوق الحصار يزداد في خناقه حول عنقها، نهضت مرحبة:

"مفاجأة حلوة طبعا، أهلا يا رامز اتفضل"

دخل بهدوء إلى الغرفة وهو يملأ عينيه بصورتها، حسنا لقد افتقدها يعترف، وأتى لرؤيتها متحججًا بعمل ما، وقف أمام المكتب ينظر إليها، يتأملها وفي لمحة خاطفة عاد بعينيه نحو يدها اليمنى، عقد حاجبيه يتطلع نحوها في غير فهم، وبدأ الاستياء يتسلل لملامحه، لمحت تتابع المشاعر على وجهه واتجاه نظراته، رفعت يدها تنظر إليها في تساؤل، لتجد أصابعها الخالية من حلقته.

(16)

مضمار قلبها

أشكوكِ للسماء..

كيف استطعتِ كيف

أن تختصري

جميعَ ما في الأرضِ

من نساء..

"نزار قباني"

لم يسبق لها أن جربت غضبه، ولِمَ قد يغضب عليها قبل مرحلة الفهم؟ هذه المرة، أعلمها بكل شيء، أخبرها أنها له، ولا بديل عن ذلك مهما حاولت، بالأمس يعود والد طفلها متبجحًا مطاردًا لأنثاه هو، وهكذا وضع نفسه على قائمة أولوياته، فسيسحقه إن فكر بالاقتراب منها، واليوم وبعد أن وصل بسيارته أسفل مبناها تهاتفه مساعدتها باعتذار عن

الجلسة، لابد أنها تمزح، سيصعد إليها، ويضع في رأسها كثير التفكير، والجميل الذي يعشقه أن لا مهرب لها منه.

على وشك الترجل من سيارته لتخرج هي بصحبة رجل.. رجل!! لا يعلم من هو، ولا يستريح لقربها منه، سارت إلى جواره، دخلت إلى سيارة ليست لها، هي له إذًا!! وتحرك بها.. أهذا هو سبب الاعتذار؟ سيقتلها، حتمًا سيفعل.

دون وعي أو إدراك تبعها، هذه المرأة جنت بالفعل، من هذا؟ أتريد قتله؟ إيقاف قلبه؟ قبل أن يشرد في كم الأفكار الدموية التي شطح بها عقله نحوها توقفا أمام أحد المقاهي، فتح لها باب السيارة، حسنًا ياله من "جنتلمان" كما يقولون!! وتحركا إلى الداخل، غابا عن أنظاره لدقيقة أو يزيد قبل أن يلمحهما جالسان إلى جوار الواجهة الزجاجية الضخمة في تآلف لم يعجبه.

وحان وقت الانتظار الذي في نهايته ستتم جريمته وينهي حياتها بين ذراعيه، لقد فقدت عقلها حتمًا، والحل الوحيد لعلاج جنونها هو زواجه منها، وسيفعل، لن يتركها على هذه الحال.. أليس هذا رائعًا؟!..

بعينين تلتهبان بحمم بركانية ثائرة، و أنفاس هادرة حارة متشنجة، قبع في سيارته، ينظر وينتظر، وود لو استطاع أن يستمع، الصبر.. قليل فقط من الصبر وسينهي الأمر لصالحه ورغمًا عنها.

******

متوترة بشدة، لم تعتد أن تكون في موقف ضعف، موقف المخطئ الذي يجب عليه الاعتذار، تحاكَم وتعاقَب وتطلب العفو، لكنها اكتفت بحق، وحان وقت وضع النقاط على الحروف وتشكيل جملة ذات معنًى مفهوم.

جلست أمامه بعد الوضع المشين الذي وضعها به وسيمها الوقح، لا حلقة لخاطبها الرسمي في إصبعها، وهو أتى.. رأى.. وشعر بالغضب يصاحبه استياء وعتاب، لذلك لم تجد بُدًا من إنهاء الحكاية قبل أن تبدأ.. جلسة مصارحة تنهي بعدها الأمر واعتذار تتمنى أن يتقبله.

قصت عليه بتردد، واستمع هو بسخط، ولِمَ توقعت أن يختلف عن الآخرين؟ أليس ذكرًا طبيعيًا، ومن وجهة نظره الذكورية البحتة فقد آذت كبرياءه اللعين!! وختمت حديثها بألم عليه:

"رامز.. أنا بجد آسفة، حاسة إني مضغوطة وعارفة إني غلطت في قراري من البداية ودخلتك في صراع ما لكش ذنب تتوجد جواه.. والسبب جبني!"

وعادت تجلس في سكون، في النهاية وبعد صمت طال لأكثر من عشر دقائق بدأ الحديث بهدوء لا يفضي لشيء من جنون تعتقد أنه يشتعل بداخله الآن:

"اختياري ليكِ مش هاقولك كان عاطفي قد ماكان بعقلي مع مشاعر الإحترام والإعجاب ناحيتك، أنتِ حد كويس وتستاهلي أنك تتحبي، والأهم تحبي وتعيشي سعيدة، أنا عارف كويس إنك اخترتيني بنفس الطريقة، فكرتِ بعقلك واخترتِ بيه، وماكانش عندي مانع لأن أكيد العشرة هتخلينا نقرب من بعض وتحط جوا قلوبنا يمكن حاجة أكبر من الحب.. الاحتواء اللي بادور عليه، و أنتِ كمان محتاجاه، لكن الصراع اللي أنتِ فيه واضح قوي وموضح إن جواكِ مشاعر نفسك تعيشيها صح، مش هيبقى سهل تهملي قلبك وتحكمي عقلك وتمشي وراه"

لمعة دامعة وُلِدت في عينيها، فزم شفتيه برفق، مد يده بمنديل ورقي تناولته منه ثم أكمل:

"بلاش دموع، بلاش نتكلم عن المشاعر حتى، خلينا نحسبها صح، بالعقل تاني، دلوقتِ أنتِ محتارة بين ساكن قلبك القديم اللي هو بنفسه خرج منه وبأقسى طريقة ممكنة لكن ندم ورجع وعنده استعداد يبني بيته جواه من تاني وبين الساكن الجديد...."

والمقاطعة أتت منها حادة غاضبة وطفولية:

"هو مش ساكن"

ابتسم بتفهم كأنه يخاطب طفلة صغيرة بالفعل، رد بهدوء:

"أوك مش ساكن، إنما فتح الباب وبيتسلل لجوا و أنتِ مش واخدة بالك منه، بس فجأة هتلاقيه واخد المكان تمليك مش إيجار"

و أتت محاولة ثانية لمقاطعته لكنه حجمها بإشارة واستطرد:

"اسمعيني للآخر، ليه ما تديش كل واحد منهم فرصة يثبت حبه ليكِ، واللي يستحقها بجد هو اللي يفوز بقلبك، وما تخليش أبدًا أبدًا ابنك يكون في الطريق، مجرد وسيلة يستخدمها طليقك عشان يضغط عليكِ، ابنك عمره ما هيكون سعيد وأمه تعيسة، وعمره ما هيحس إنه في أسرة سوية لو مامته بتتعذب كل يوم وبتضغط على نفسها، وبعد ما يكبر هيتعب أكتر لما يعرف إنك عملتِ كده عشانه، هيفضل حاسس بالذنب، أنتِ قلتِ لي أنه بيحب بطل السباقات ده!! دي حاجة كويسة، يعني النقطة دي مش في صالح باباه بس، سيبيهم هما الاتنين يحاولوا يوصلوا لقلبك، واللي هيصبر للنهاية ويتعب بجد هو اللي يستحقك، مع إني كنت أتمنى يكون أنا"

ختم حديثه ببسمة خافتة احتوت شيئًا من حزن خفي، صمتت تمامًا، حديث العقل، الرجل الهادئ المطمئن، والمزيد من الحيرة المثيرة للجنون، ولم تجد بدًا من الاعتراف بهزة رأس مستسلمة و ابتسامة بدون معنى:

"أنا إتأكدت إني إخترت صح يوم ما فكرت فيك"

لاحق حديثها سريعًا:

"بس قلبك له القرار النهائي، وتأكدي إن وقت ماتحتاجيني هتلاقيني.. كأخ وصديق"

ومد يده مطالبًا:

"ممكن دبلتي؟!"

تطلعت في عينيه لا تدري هل تتخذ القرار الصحيح أم تعود لحماقات القلب من جديد!! تتخطى عقلها وتسلم الزمام للمشاعر، تلك المشاعر التي خانتها قبلًا وحطمت خافقها الأبله الذي يريد النبض والعودة للحياة..!

أخرجتها من حقيبتها ومنحتها له بابتسامة اعتذار تقبله بمنحها طمأنينة و تفهم، هكذا انتهى الأمر بسلام معه لكنها عندما فارقته عائدة لعيادتها حيث تركت سيارتها رافضة عرضه المخلص بإيصالها لم تكن تعلم أن الجحيم ينتظرها بالخارج، وأن شراراته ستحرقها حية حتى تنتهي حياتها.

بخطوات شاردة فتحت باب المقهى وخرجت، فقط بعد ثلاث أو أربع توقفت ذاهلة تتطلع لتنينها الخارق يقترب منها واللهيب يتراقص في سماء عينيه، لوهلة ظنت أنه سينفث لهبه في وجهها بالفعل ويحرقها، ومن

خلفها ظهر "رامز" ولاحظ تسمرها الغريب، اقترب ومع اقترابه ازداد اشتعال النيران داخل صدر السهم، وقف إلى جوارها وناداها برفق:

"منى!!"

لم تجب، توجه بعينيه نحو اتجاه نظراتها ليجد كتلة من الغضب والجنون تتحرك نحوهما ببطء قاتل، حافظ على وقفته وسأل:

"مين ده؟!"

أجابت بصوت لا يكاد يسمع:

"أحمد"

قيمه بنظراته المهتمة في خطواته الحثيثة والعنيدة:

"إمممممم.. شكله مجنون.. أنا جنبك ما تقلقيش"

وابتسم وارتفعت وتيرة قلقها للذروة، لكنها التفتت تمنحه بسمة امتنان وعينين شاكرتين، ووصل الثائر حينها وازداد لهيب اشتعاله حينما لمح افتراقة شفتيها للغريب وبود.. وقف أمامها وبلهجة ثلجية تحدث بغضب لم تعلم كيف بدا واضحًا رغم برودة صوته:

"إزيك يا دكتور منى!!"

ثم حول عينيه للو اقف إلى جوارها بهجوم:

"مش تعرفينا.. معجب جديد؟!"

ونالها صدمة، وازت ضيقًا امتلأ به صدر "رامز" الذي هب للدفاع عنها أمام هذا الأرعن:

"دكتوررامز.. خطيب دكتورة منى.. مين حضرتك؟"

بحزم كانت لهجته، لتزداد فجوة الذهول التي ابتلعتها من إدعائه رغم فسخ الخطبة، والآخريحترق، يزأر، وسينقض ينهش الفريسة بعد ثوان:

"معلوماتي إن الدكتورة مش مخطوبة"

ببرود جاف وحازم:

"صحح معلوماتك.. خطيبها و اقف قدامك"

ظهرت النيران المشتعلة في مقلتيه واضحة، وتقدم خطوة قبل أن تتراجعها هي كان معصمها الأيمن بين أصابعه يضغطه بعنف:

"فين دبلتك يا دكتور؟!"

وحان وقت إفاقتها قبل أن ينطق "رامز"، نزعت يدها منه بعنف وكادت تصرخ لكنها زعقت تهدرفي وجهه كلبؤة شرسة أثارأحدهم غضبها وبشدة:

"كفاية بقى!! أنت فاكر نفسك مين؟ وإزاي تسمح لنفسك تمشي ورايا لحد هنا؟!"

ودون كلمة زائدة التفتت للمصاحب لها بحزم صاحب نظرة باردة نحو المستعر أمامها:

"ممكن نمشي لو سمحت يا رامز!!"

رفع حاجبًا وابتسم بإعجاب، تحرك خطوة للخلف يفسح لها طريقًا وانحنى برأسه مشيرًا بيده لها أن تتقدمه، تحركت هي بعنفوان وجمود، تحاول تهدئة قلبها الذي يرقص بين ضلوعها، قلقًا وغضبًا وسعادة بغيرته.

أما الآخر فقد تجمد لثوان، يتابع خطواتها التي تتحرك بها مبتعدة، يكاد يشعل الكون ويحرقه ثم يحرقها معه، أو يجري عليها، يحملها ويصرخ في وجهها، وفي النهاية قد يخطفها ويجبرها على الاعتراف بحبه، بعدها يقبلها حتى تنقطع أنفاسها ثم يتزوجها.. ولو أرغمها على القبول، وعندها كان "رامز" يعتذر:

"آسف إني قلت كده، لكن شفت بيبص لنا إزاي والغضب باين على وشه، فقلت أعمل اختبار صغير لمشاعره، بس واضح فعلًا إنه بيغير وبجنون"

ابتسمت ولم ترد، قلبها ينتفض بين ضلوعها في خوف، ولولا بقايا تماسك لارتجفت ركبتيها وسقطت أرضًا، انتزعها من أفكارها جذبة قوية ليدها واصطدام بصدر عريض وكتف حاذَى عينيها المتسعتين بذعر، زعيق مخيف، وأسنان تعلم أنها على وشك التحطم:

"أنتِ بتعملي فيَّ كده ليه؟"

رفعت أنظارها لأعلى وحاولت جذب يدها، الآخر يقف مبتسمًا مستمتعًا بعرض لجنون العشق تمنى لو خاضه هو الآخر، وصله صوته الغاضب من جديد:

"منى أنا بحبك!! أنتِ عارفة إن أنتِ أول واحدة أقولها الكلمة دي.. علاقات كتير ودون جوان زي ما بتقولي، بتاع ستات وفلاتي، بس الحروف دي ما طلعتش إلا ليكِ!!"

لايزال العرض ممتعًا وهي تشعر بصدمةٍ من جديد، جريء، صريح، ووقح، يمسك بها ويقربها من جسده الذي يشتعل بحرارة تكاد تحرقها هي الأخرى، ومع صمتها واتساع عينيها مد كفه يمسك بيدها الأخرى، ويتعمق بعينيه داخل عينيها، يهمس بمشاعر تموج في قلبه حتى كادت تفجره:

"بحبك يا منى، والله العظيم بحبك"

وتحكم التملك بنبرته حتى كاد يتقاطر من حروفه:

"ومستحيل تكوني لحد تاني غيري!!"

بجمودها ظهرت الدهشة في عينيها تنظر إليه فابتسم بعناد والتملك يزداد:

"أيوة مستحيل"

لم تستطع التحرك أو حتى تحرير نفسها، وغرق هو في حيرة تملكت من نظراتها، ونسي تمامًا المزعوم أنه خاطبها، ففي كل ثانية يشعر بعمق ما ينمو بداخله، ويزداد تمكنه من قلبه، أما قلبها هي فقررت أن تأخذ فيه العزاء، ارتفعت نبضاته حد الجنون، غزته سعادة، أثاره قلق وخوف، وأوجعه تردد وارتباك، منحها نظرة عاشقة يتقنها ويخصها بها ثم تركها ورحل، وهي تتابع طيفه حتى اختفى لتفيق على همسة "رامز" الذي نسيته هي الأخرى:

"مجنون"

التفتت إليه في صمت شارد، واجهها بابتسامة:

"ومافيش أجمل من جنون العشق"

لم ترد فضحك مستطردًا يداعبها:

"المنافسة حامية قوي.. بس أعتقد أنا عارف الكفة مايلة ناحية مين!!"

وهذه المرة اكتنفها الخجل ولم تجد ردًا مناسبًا، قلبها في صراع مع عقلها، جسدها يرتجف، وروحها تكاد تفارقه بينما أنوثتها ترقص فوق رُفات الماضي الأليم وتتغنى بعشق ناري نالته.

******

وتخلى الغضب عنه، واليأس بدأ يقترب، حزن تملك منه ببطء وسرى في شر ايينه يذبحه، بل ويقتل روحه الوليدة على عرش الحب، تركها ورحل.. أحمق، غبي، ولا يفهم شيئًا!! كيف فعل ذلك؟ هذا ليس بعمل صحيح، كان لابد له من حملها على كتفه كإنسان كهف بدائي والتحرك بها على أقرب مكتب مأذون شرعي، وهناك ينزلها، يكبلها ويقبلها، ثم يقبلها، ويستمر في تقبيلها حتى ترضخ، وتهمس بنعم.. سأتزوجك، وحينها يعقد عليها، ويطير بها نحو الغيوم ولا عودة للأرض أبدًا، لكنه بعته وبلاهة عجيبة.. ألقى بكلماته الجوفاء وغادر.

رنين هاتفه أفزعه بحق، التفت ينظر إليه في غضب أكبر، وعندما طالع اسم المتصل ارتجف قلبه و انتابه قلق، رد، وو افق على اللقاء، وعندما جلس أمام طبيبه بادره الرجل:

"أحمد.. منى كلمتني وقالت لي إنها هترجع لي حالتك من بكرة"

اشتعلت نيرانه، هبت أعاصيره وثارت براكينه، أهكذا تظن أنها ستهرب؟

أكمل "علي" بحزم:

"اللي عرفته إنها قطعت عليك كل الطرق و اتخطبت"

زم شفتيه بهياج مكتوم، طحن أسنانه حتى كاد يفتتها، والاستطراد في كل مرة يذبحه:

"أنا و افقت"

وأخيرًا نطق المشتعل، صرخ بحدة:

"إيه!! و افقت؟"

جاوبه "علي" بعينيه بصرامة، فسحب نفسًا أحرق صدره أكثر وورد بعنف:

"منى بتهرب يا دكتورعلي، و أنا لو سيبتها تهرب مستحيل هاوصل لحاجة، إنت كده برده بتسمح لها تدفن نفسها لمجرد إنها جبانة"

و افقه طبيبه بداخله، لكنه لا يستطيع فرضه عليها أكثر:

"الموضوع مش بإيدي يا أحمد، وعمومًا أنت الشهر المهلة اللي كان قدامك قرب ينتهي، غير إنها مسافرة الأسبوع الجاي"

هب و اقفًا باندفاع:

"مسافرة!!.. فين؟"

لم يجبه، ولن يفعل.. فقط أوضح:

"هتسافر بالنيابة عني مؤتمر طبي، أنا مش هاقدر أسيب حالاتي في الوقت الحالي، وهي اتطوعت ومش هالاقي أحسن منها يسد غيابي، خلي فترة السفر دي وقت هي تفكر فيه وتعيد حساباتها و أنت كمان تشوف هتقدر توصل لقلبها ولا لا"

انحنى يستند بكفيه فوق المكتب، سأله بجمود يماثل سعيرًا تتقافز شراراته في مقلتيه:

"فين يا دكتور علي؟"

ظل ينظر إليه ببرود، دون رد، دون انفعال معين على ملامحه، لقد أضاع فرصته معها أو على وشك تضييعها ولابد أن يفيق من هلوسته ويتخذ الإجراء السليم، استقام هو و اقفًا وخرج بخطوات سريعة تشبه الركض، داخله تتفجر حمم اليأس ممتزجة بجذوة من قلب هاوية الجحيم.

******

غريب ما يحدث له، لا يكرهه لكن يخشاه، والاختيار صعب، والفارق كبير، هي فقط أحكام القلب، وما نحن إلا خاضعين ملزمين بالتنفيذ.

يجلس على أريكة بغرفة نومه، وهاتفه بين أصابعه، يطالع صورة "سيلفي" التقطها بمرح لهما معًا، هي تنظر للكاميرا، وهو ينظر إليها، وداخل عينيه رأى ما لم يستطع فهمه أو تحليله، لكنه يخافه وبشدة.

لقد سافرت منذ يومين، وهو للآن لم يتحدث مع أي كائن كان بخصوصها أو بخصوص ما يشعر به نحوها، لقد اكتفى بمصارحتها هي، أن قلبه يدق لها، وتنتابه أحاسيس غريبة في جوارها، لكنها غضبت، احتدت، ورفضت ثم هربت.. لتخبره أنه يصغرها ولا يمكن لهما اللقاء ثانية، استعاد غضبها حينها والذي أجج غضبه هو الآخر:

"عمرو أنت بتقول إيه؟"

ابتسم باستسلام يعلن أنه لا يملك من الأمر شيئًا وهذا قهرًا ما حدث:

"باقولك اللي باحسه يا ياسمين"

شعرت بضعف يغزوها، هذا غير منطقي، غير عادل، وغير قابل للحدوث، ابتعدت تغادره عائدة إلى داخل منزل أخيها، تعاند بهتاف حاد قبل الاختفاء:

"اللي بتحسه ده غلط، أنا مكاني مش هنا، وأكبر منك في السن، وطموحي مستحيل أقدر أكمله معاك، أكيد هتقف في طريقه"

والتفتت تهرب لكنه لحق بها، وقف أمامها وبحزم أمسك بمرفقها ليمنعها من الهرب ويجبرها على النظر إلى وجهه، وحينها أسر عينيها داخل سجن نظراته:

"مش غلط، دي الحاجة الوحيدة اللي متأكد إنها صح، وبعدين طموحك أنا مستحيل أقف في طريقه، كل حاجة ولها حل، وبالنسبة للسن ما كنتش أعتقد إنك بتفكري بالشكل الشرقي التقليدي ده فيه!!"

تجمدت، لم تحاول التخلص من قبضته أو حبس نظراتها بعينيه، هزت رأسها في تيه:

"ده مش شرقي، ده الطبيعي"

وبدأ غضبها ينهض من كبوته:

"الطبيعي إن أي راجل في أي علاقة يكون أكبر من البنت، عشان يحتويها، بعقله وبشخصيته، إنت يا عمرو حد لطيف وذكي ودمك خفيف، بس مش ليَّ، لحد تاني واحدة ممكن نقول 17 أو 18 سنة، إنما أنا لا"

وكلامها آلمه، قاسية، نظر إليها بغضب ورحل، لم يستطع تحمل سياط أحرفها، كأنها تخبره "أنت مجرد طفل لا أهتم لشأنه إلا لو كنت سأشتري

له بعض الحلوى"، بعدها سافرت، دون وداعه، دون أن يراها، فقط وصله منها رسالة قصيرة تنهي شيئًا لم يبدأ بينهما بعد:

"عمرو أنا آسفة على الكلام اللي قلته، بس دي النهاية الطبيعية للموقف اللي لقينا نفسنا فيه من غير ما ناخد بالنا، سامحني"

والآن قلبه يئن وهو يسكن من ألمه بافتعال الحنق، والغيظ، لكنه فقط.. يشتاق.

(17)

أعترف

سئمت الحقيقة..

نحب ونشتاق مثل الصغار

ويصحو مع الحب ضوء النهار

ويجعلنا الحب ظلا خفيفًا

وتنبض فينا عروق الحياة

وننسى مع القرب لون الخريف

ويبلغ درب الهوى.. منتهاه

ويوما نرى الحب أطلال عمر

وتصرخ فينا.. بقايا دماه

"فاروق جويدة"

الاعتراف سيد الأدلة.. الجريمة قد حدثت، الجاني معروف، والضحية تعلن التسليم وتمنحه النصر، لكنها فقط تحتفظ لنفسها بنتيجة المعركة.. أو حتى الحرب، لايزال الجبن يدير الموقف، والخوف يساعده، والهروب هو الحل.

عندما تحب الأنثى.. تتغير خريطتها الشخصية، وتولد من جديد، تتبدل أولوياتها، تتحول مساراتها، وتصبح أكبر معطاءة عرفها التاريخ، تعطي الدفء، الحب، الاحتواء، وجزءً من روحها لا يتملكه سوى مالك القلب، لكن.. عند تحكم الخوف، ورفض الحب.. تتباطأ تلك النبضات، حتى تذوي في النهاية وتذوي معها صاحبة الخافق الضعيف.

طوال الطريق لمنزلها، صامتة، شاردة، وتعترف بداخلها بأكثر الأمور قسوة.. هي تحب، اللعنة والجحيم.. هي تحب، ومن؟ الوقح الوسيم صاحب العلاقات، لم يعد الإنكار مفيدًا، أو الهرب نافيًا لو اقع حدث رغمًا عن إرادتها، لذلك لابد من الاعتراف بوجود الألم.. وكطبيبة متمرسة.. البحث عن علاج، المسكنات غير مجدية والحل الوحيد.. البتر.

والخطوب صديقات، أو ربما عائلة.. تعشقن التعاون، وتجتمعن على الدوام فوق رأسها، لأنها عندما عادت للمنزل وجدته هناك، لا خلاص من الجحيم، سوى بإلقاء نفسها في زمهرير مضاد، وفي كلتا الحالتين موت..

قد تموت قهرًا، وحمقًا.. وقد تموت عشقًا.. والضمان يساوي صفر، إذًا لا منح في هذه الحالة.

استقبلته ببرود، المتملق الوصولي يستغل صغيرها، يطارد، يتذلل بطريقته الخاصة، ويبغي القرب من جديد، لكنه يحلم، والحلم أسلوب حياة عند البعض.. وبالذات عندما لا يتوافق الواقع الحالي والقادم مع الأهواء..

صغيرها يتقافز مرحًا وسعادة.. "لقد أتى بابا.. بوعد لنزهة لا تنسى يوم غد" والدعوة تشملها، والرد رفض قاطع، والنتيجة غضب المنتفخ بعشق يظنه لايزال يعشش بداخلها، لكنه المسكين لا يعلم.. أن القلب لم يعد بحوزتها بالفعل.. والثمن جنون الوقح:

"ليه يا منى لأ؟ ده هيبقى يوم ظريف نقضيه سوا مع ابننا وأهو يفرح بوجودنا معاه.. أنا وأنتِ"

تنهدت تزفر بضيق.. البعض لا يفهمون الرفض دون صيغة وضوح وربما مبالغة:

"سامح..! انسى إن يكون في أنا وأنت تاني.. دي قصة وانتهت.. حدوتة وآخرها ما كانش لا تبات ولا نبات، كان آخرها غدر وجرح، وهروب، ودلوقتِ جاي تقول نرجع.. هه!"

والآن تسخر، حسنًا..! هذه قدرة جديدة..

ترى أاكتسبتها بسبب الألم، تدفعه؟ تتغاضى عنه؟ تداريه وتخبئه داخل صدرها والغطاء هازيء؟ أم أن الموقف يخرج السخرية من الحجر؟ والآن هو يزفر، وزفرته حارة تعلن غضب:

"أنت لسه بتشوفي الدوبلير؟"

عقدت الحاجبين في تساؤل؟ عمن يتحدث؟ أو بالأصح يهذي؟ استطرد في شماتة رأتها رغم محاولته إخفائها:

"أحمد الشاذلي.. البطل... السابق"

الآن هو يغوص في منطقة خطرة، وعند الأنثى عندما يُهاجَم المعشوق.. تتلبسها ساحرات الشر منذ بدء الخليقة، وتنتحل صفة أقسى وحوش البرية.. حتى وإن لم تعترف بعشق، حاجب ساخر، ونبرة هازئة تداري شراسة:

"لسه بطل يا كابتن، دي حالة عارضة.. ده أولًا.. ثانيًا مش من حقك تدور وراه وتعمل فيها مخبر سري.. ثالثًا وده الأهم.. الأستاذ أحمد حالة عندي.. يعني طبيعي أشوفه وطبيعي أنت ما يكونش لك أي دخل أو حتى تسأل عن الموضوع.. متفقين؟"

وثار، هاج وماج، لكن ببرود يشبه قلبه:

"يعني إيه يا منى؟ بتحبيه؟ وهو طبعًا بيحبك.. كان واضح قوي.. هتجيبي لابنك جوزأم؟"

وتارة أخرى يحشر ابنها في الأمر بعنف، ويحشرها هي في زاوية دفاعية.. وستدافع، تنكر، وتندهش بل وتذهل.. وتعلن غضب:

"حب..!!"

و اقتربت خطوة شعر فيها بحرارة النيران داخل عسل عينيها:

"أنا ما بقيتش عارفة يعني إيه حب!! قلبي لما بيدق باخاف و أترعب وأهرب!!"

وخطوة أخرى يضطرم فيها اللهب أكثر:

"و أنت السبب!!"

وعادت تبتعد، تستدير، لا تريد أن ترى، أو حتى تسمع صوته و أنفاسه، قلبها يئن يرجوها الوصال، ترك الماضي، تغطية جرح لم يكن وقحها صاحبه والبدء من جديد، لكن ذاك الأمس يفتأ يظهر أمام عينيها، يمنعها ، يكبلها، ويحبسها دون أمل في حرية، ويبرهن لها قبل أي آخر، أنها أضعف من مواجهة ألم جديد محتمل لكنه غير مثبت بالدليل:

"أنا ما بقيتش عارفة قلبي المفروض يكون مع مين؟ عقلي صح.! ولا..."

وأكملت داخلها:

"ولا الخاين بين ضلوعي اللي بيدق له هو!!"

وتلتفت ثانية ترتدي ثوب الحزم تداري ارتباك وتوتر، ليس خوفًا منه، لكنه ضعف يسيطر على خلاياها، فالاعتراف لم يكن سهلًا أبدًا.. رغم سيرها في نفس طريق الهروب:

"أنا مستحيل أخلي قلبي يسيرني تاني يا سامح.. لأنه دايما بيختار غلط"

هو صامت، هي قلقة، لكنها لم تعد تهتم:

"تقدر تاخد مالك بكرة تفسحه زي ما وعدته.. بس أنا خرجني من حساباتك نهائي"

وهنا سينطق، وسيخيفها أكثر، من قال أنه فارس؟.. فالنذل أحيانًا هو الرابح ولو لثوان:

"مش أنا اعترفت لك بغلطي، وكان عندي استعداد أثبت لك ندمي لآخر يوم في عمري، بس مادام أنتِ لغيتِ قلبك؛ يبقى عمري ما هاقدر أوصلك، ع الأقل اختاري صح، وابني هيفضل ابني، مش هيربيه غيري"

وكما أراد، دق قلبها بعنف، واتسعت عيناها ذعرًا، هل يهددها بأخذ صغيرها منها إن أصبحت لغيره؟! توجست، وارتبكت أحرفها تحاول البقاء في وضع الثبات:

"يعني إيه يا سامح؟ قصدك إيه؟"

صمت لثوان قدرها بثلاثين ربما، يضيق الخناق حولها أكثر ويستعذب رعبها الواضح في عينيها:

" يعني ع الأقل يبقى يقضي معايا الويك إند، مش مجرد فسحة كل فترة أو زيارة منك"

وتبًّا هي لن تتنفس الصعداء أمامه لينال النصر وتصبح كلمته هو الأخيرة:

"اتفقنا، أنا مستحيل أحرم ابني من باباه.. مهما حصل هيفضل محتاج وجوده في حياته"

ابتسم بسماجة، هي تؤكد أنه مجرد "والد طفلها" لا أكثر ولا أقل.. وكأنه يبغي العودة لسلاسل الزواج من جديد لأنه عاشق.. هو فقط راغب.. وأمام العناد تشتعل الرغبة لكن لكل مشكلة حل، ولكل رفض تعويض.

******

أيا امرأةً تمسك القلب بين يديها

سألتك بالله لا تتركيني

لا تتركيني

فماذا أكون أنا إذا لم تكوني..!

أحبك جداً

وجداً وجداً

وأرفض من نار حبك أن أستقيلا

وهل يستطيع المتيم بالعشق أن يستقيلا..!

وما همني

إن خرجت من الحب حيًا

وما همني

إن خرجت قتيلًا

"نزار قباني"

نشوة الانتصار دومًا شهية، مسكرة، أما مرارة الهزيمة، فمذاقها كالعلقم، خاصة عند تذوقه للمرة الأولى، يذبح الروح بسكين ثالم، ويترك النزف

حتى تمام الموت، يراقب بتلذذ ولا نعي أو شاهد قبر يكتب عليه قتيل العشق، والغنيمة فرت من قيد الغرام بدعوى خوف.

غضب أعمى، يأس ضرير، رعب من فراقٍ بعد لقاءٍ لم يكتمل حتى.. وعودة للمنزل يصاحبها إعصار، سمعت والدته دخوله العاصف بسيارته إلى الممر، انغلاق بابها العنيف، ولم يأتِ، انتظرت و انتظرت لكنه لم يظهر وأصابها القلق، فتحت الباب تلقي نظرة ولمحت الضوء المنبعث من صالة ألعابه الرياضية، وصلها أصوات حركة هناك، بعضها مدوٍ فتفجر قلقها أكثر.

صعدت سريعًا نحو الشارد في غرفته، وهتفت فيه بنوع من الذعر تطلب منه الاطمئنان على شقيقه، تبعها بقلق، توجه إلى أخيه وخلال الخطوات القصيرة التي توصله إليه.. كان الآخر يقلب المكان رأسًا على عقب، يخلع قفازي الملاكمة ويلقي بهما أرضًا بعدما أنهكه اللكم، ويبدأ في بعثرة وتكسير ما يقبل الكسر.. مثل قلبه المبتديء في مدرسة العشق، في النهاية استلقى على الأرض، يلهث بعنف، دمه لايزال يغلي، واليأس يتملك منه أكثر.

دلف "عمرو" للمكان بسرعة وارتباك، يبحث عن أخيه ويتفحص الزوايا بعينيه، الغرفة أصبحت كمقلب قمامة لا صالة ألعاب، في النهاية وجده

بأحد الأركان، مستلقٍ على ظهره، ذراعاه مفرودتان إلى جانبيه، وصدره يعلو ويهبط بقوة، انكفأ إلى جواره يهزه في ذعر:

"أحمد..! أحمد..! رد عليَّ أنت كويس؟"

و افترق الجفنان عن نظرة مرعبة، نظرة جثة عادت للحياة فجأة، أدار رأسه ببطء نحو أخيه، تطلع إليه دون حديث، نهض جالسًا يثني ركبتيه أمام صدره ويفرق بين ساقيه مستندًا فوقهما بمرفقيه ووجهه يعانق الأرض بينهما، همسة ميتة باردة خرجت من صدره:

"هتسافر"

ورفع عينيه نحوه:

"مش بتبطل هروب، مش عارف ده خوف.. ولا رفض حقيقي!!"

تنهد "عمرو" بنوع من الارتياح.. جلس إلى جواره وظهره للجدار، وبيأس خالط نبرته وامتزج بشروده نحو البعيد:

"مش شاطرين غير في الهروب"

ثم نظر إليه بحسم:

"سافروراها و إقطع الشك باليقين"

جملته السابقة أيقظت خلايا عقل الأخ الأكبر، نظر إليه يسبر أغواره، وكأن تحطيم المكان أخرج الكبت بداخله، فأصحبت نفسه أهدأ وزاوية نظره أوسع.. استنار فجأة وقرر السؤال:

"مالك يا عمرو؟"

التفت إليه وعاد يزفر بحرارة:

"ما فيش، المهم هتعمل إيه؟"

ظل يتفحصه، حسنًا لا مفر من الاقتحام المباشر:

"ياسمين؟!"

اعتدل في جلسته يطالعه بدهشة.. بالطبع من يفهمه أكثر!!.. صمت لثوان ولم يكن بعدها بدًا من رد يطفئ ظمأ المتعطش إلى جواره بهزة كتف مستسلمة:

"أيوة"

زم "أحمد" شفتيه بين أسنانه، شقيقه الصغير يظن أنه و اقع في الحب ربما..! ومن هو لينصح بينما لايزال يتعلم الأبجدية الأولى؟ لكن لأنه يعلم أكثر عنهن، عن ذلك الشيء المثير للجنون الذي ينهش الأحشاء ويحرق القلب، فسيوضح له:

"عمرو.. أنت شايف إن ياسمين مناسبة ليك؟ أو حبيتها بجد؟"

و انتقل الغضب إليه، هب و اقفًا يزرع المكان بخطو اته:

"و أنت بقى شايفها مش مناسبة؟ ولا عارف كويس يعني إيه حب وبتظبط لي الترمومتربتاعي بما إنك خبير..؟!"

نهض خلفه، وضع يده على كتفه فأزاحها بعنف، زفر بغيظ وصاح فيه بحزم:

"عمرو إعقل شوية.. أنا باتكلم معاك بالمنطق، ياسمين أكبر منك في السن، واحدة عندها طموح معين عاوزة تحققه، ومش هنا.. وما أعتقدش إنها ممكن تضمك كجزء من طموحها ده"

امتلأت عيناه بالنار، تأججت بعنف واضح وبادله صياحًا بصياح:

"ومنى بقى هي اللي مناسبة ليك؟ مطلقة وعندها طفل؟ ولا أنت ليك الحق تخاطروتغامروتعمل اللي أنت عاوزه؟ و أنا أفضل ماشي على الخط المستقيم المرسوم لي بعد هروبك من الدايرة؟ "

وتسارعت أنفاسه أكثردون أن يعطي شقيقه الفرصة:

"طول عمري باعمل اللي أنتم عاوزينه، إدرس تجارة يا عمرو عشان الشغل.. حاضر، إشتغل مع عمك في الشركة وراعي فلوس العيلة..

حاضر، والدور المرة دي .. ما تحبش ما تختارش، مش مناسب.. و أنا عليَّ السمع والطاعة.. وحاضر"

ثم صمت، والصمت موجع في حالة اللوم، يلومه ربما على مستقبل لم يختره بنفسه، تصاعد بداخله رنين اليأس أكثر، وتضاعف الحزن:

"يااه..!! للدرجة دي يا عمرو شايل جواك بسببي وساكت؟"

ثم التالي إحساس بالذنب، هو لم يقصد؟ هو فقط غاضب، وحين الغضب تستعر النيران ولا تنطفئ إلا وقت الندم.. زفر بضيق أكبر:

"مش قصدي يا أحمد.. أنت ما لكش ذنب.."

صمت لثوان وأردف بعد تنهيدة أخرى:

"أنا ما عرفتش أغلط، ما كانش متاح ليَّ الغلط، إني أتعلم من أخطائي، إني أخوض التجارب و أفشل أو أنجح.. من البداية والطريق مرسوم، وكل اللي المفروض أعمله إني أمشي فيه"

ورفع عينيه إليه.. بهما من الألم الكثير.. ومن الحزن أكثر:

"ولما جيت أحب، برده لقيت إن الخروج عن الدايرة مش مسموح"

ثم عم الصمت، ينوء صدر الصغير بثقل تعددت مصادره، والأكبر مستاء وبشدة:

"طيب ممكن نتكلم زي اتنين صحاب!.. من غير ذكر ماضي أو دوا ير، سيبك من الشغل والكلام ده لأني عارف ومتأكد إنك بتحب شغلك وبتلاقي نفسك فيه، خلينا نتكلم عن ياسمين"

نظر إليه شقيقه بترقب فأكمل:

"بص..! مش هاقولك أنت ما اخترتش صح، أو إنها مش مناسبة، بس هاديك تشبيه بسيط يفهمك أنت وياسمين إزاي..."

وصمت ثانية ليجد التشجيع في عيني "عمرو" وبعض الفضول:

"عارف لما تبقى ماشي في طريق، وتشوف ضوء ساطع، شديد وقوي، أول كام ثانية بتغمض عينيك.. بتبقى مش عارف تبص له، بعدين تبتدي تفتحها شوية شوية، تضيقهم وتحاول تبص وتقرب، وكل ما بتقرب عينيك بتتعود على الضوء، وفي كل لحظة تقدر تفتحها أكتر، لحد ما توصل قربه وتكون عينيك مفتوحة على آخرها"

مال نحوه بتربيتة متفهمة على كتفه:

"ياسمين هي الضوء ده، مبهر جدا من بعيد، لكن مع الوقت، مع زيادة القرب، هيفقد إبهاره، وتتعود عينيك إنها تشوفه على حقيقته"

عاد يتراجع، يتنهد، وينظر للصامت دون اعتراض:

"أنت مبهور بيها يا عمرو، جميلة، ذكية، مثقفة، ولمحة الشراسة اللي فيها جذبتك، هي طلعت فاهمة الموقف أكتر، وده في الغالب اللي خلاها تعجل بسفرها"

فتح فمه يعترض وربما يصرخ:

"بس...."

أسكته شقيقه:

"ما بسش، فكر في كلامي قبل ما تعترض عليه، الوقت اللي ده هيدق فيه بجد..."

وهو يشير لقلبه ويربت على موضعه بحنو:

"مش هتشوف من الدنيا غيرها، كل حاجة هتتلغي، تنتهي، تقف، إلا إحساسك بيها، إلا إنك تبقى مجنونها، وجنونك هيخليك تتصرف بغباء، لو حتى هتخطفها غصب عنها"

أنهى جملته وكاد يضحك ساخرًا، حكيم الغرام ينصح بما لا يستطيع هو نفسه تنفيذه، لم يدع نفسه لاستطرادة داخلية تهدم قلبه أكثر:

"هي قررت تبعد، قرارها ده لصالحكم صدقني، أنت طبعا مش هتسافر تروح لها ع الأقل دلوقتِ، فخلي فترة البعد دي تقييم واختبار لمشاعرك،

لو لقيتها لسه موجودة..! بتكبر.. بتوحشك؟ عاوز تصرخ بحبها؟ يبقى الموجود جواك حقيقة.. لو حصل فتور، نسيان، تلاهي.. يبقى قلبك لسه فاضي يا عمور"

فكر قليلًا، ثم مازحه بيأس يظلل رأسيهما بغمامته:

"والله وبقيت فيلسوف يا لورد.. الحب يصنع المعجزات"

وابتسم الاثنان، ابتسامة كسيرة، لكنها لاتزال بسمة تسعى لميلاد، عاد الصغيريتساءل بفضول:

"يعني أنت بتحس في بعد منى بإيه؟"

شرد عندها، رباه..! كم يتمنى لوكانت قربه يشرح لها احتراقه الداخلي:

"قربها ناروبعدها جحيم، عينيا مش بتشوف غيرها.. كل صورة.. كل وش بقى وشها، هي الداء والدوا، هي اللي قلبي بين إيديها في نعيم، وخوفه من هروبها وفراقها بيقتله في كل لحظة، هي جريمة معترف بيها، وعلى استعداد لأي عقاب مقابل وجودها في حضني، هي اللي عاوزها أم بنتي اللي باحلم بيها من يوم ما شفت دارين، هي اللي عاوزأكون ليها الكون بكل ما فيه وتكون هي العالم بتاعي"

وابتسامة عاشقة علت شفتيه، نظرة حالمة كأنه يطالعها أمامه:

"هي اللي لحد دلوقتِ مش عارف يعني إيه حب..!! بس كل حاجة فيَّ بتصرخ بحبها، وبتحلم بقربها"

وسخرية مازحة من الو اقف إلى جواره مقلدًا عازف كمان:

"تيرارارارارارارا"

ضحك الأكبر ووكزه في كتفه، فدفعه "عمرو" ليقابل دفعته بأخرى، و انقلبت الليلة الحزينة إلى شيء من مرح ينسيان به الألم، لكن ليت المرح يبقى للأبد..! في الخارج، ولأنها تبعت صغيرها قلقًا، استمعت هي لكل حرف، قلبها يصرخ، وغضب يخترق حصونها المنيعة التي طالما كانت مصدر حماية لابنها، واحسرتاه.. أحدهما يحب مطلقة وأم.. والآخر متعلق بأخرى تكبره، والاثنان قلبيهما في عذاب، دون أن تعلم هي، ودون أن تملك مساعدة.

******

رحل المغرور، وحان الوقت لانفراد، تسطر فيه الحقائق وتصفها متجاورة علها تخرج بنتيجة ترضيها.. أو تريحها على الأقل، أرسلت صغيرها لفراشه، دثرته وقصت عليه إحدى حكايا "سندباد".. والأب كان ينتظر، فطفلته تخرج عن الطوق، تعاند، وتتصرف من تلقاء نفسها وهذا يغضبه حتى وإن دل على استسلامها لقلبها، نقر الباب بهدوء وفتحه،

ابتسمت له فأشار لها لتتبعه، في غرفة المعيشة أجلسها أمامه وقرر إخضاعها لتحقيق بنكهة "هولمز" حيث الاستنتاج لا يخضع لقواعد أو يتبع علامات:

"فين دبلتك يا منى؟"

وكما يرى.. علا ملامحها توتر، وصاحب حروفها تلعثم، وألقت بنظرة نحو بنصرها الخالي:

"رامزجه النهاردة و...."

عينيه كمجهر مسلط عليها، ونظراتها تهرب لكنها تحاول إكمال الجملة:

"فسخنا الخطوبة"

تظاهر بدهشة تحمل سخرية، حاجب مرفوع والتواء زاوية واحدة من شفتيه وبريق غاضب في مقلتيه، بحزم تساءل:

"من غير ما أعرف؟ من غير أسباب؟"

ومال نحوها يضيق الخناق:

"ده بالإضافة أنك قلعتِ الدبلة من كم يوم.. مش النهاردة بس"

أدارت وجهها بعيدًا، حمقاء، غبية، ماذا ستقول لوالدها عن عشق مجنون وعاشق أكثر جنونًا؟ وهروب حاولته لكنها لم تكمل المسير فيه.. فقد تصدى هو لها، وسلَّم القلب له دون رجعة.. ترقرقت دمعة بين جفنيها، هي تشعر بالرعب.. روحها ممزقة بين ما يصرخ القلب احتياجًا إليه.. وما يحثها عقلها عليه هلعًا من قرارٍ لا تحمد عقباه، أمسك بذقنها ونظر في عينيها، هو يفهم.. لا يريد أن يضغط عليها أكثر، فقط ينشد المعرفة برغبتها هي، همس لها بقلق:

"في إيه يا منى؟ رامز جرحك بحاجة؟ قلت لك من الأول العقل قراره مش دايمًا صح"

مسحت الدمعة التي غادرت جفنها عنوة وهتفت بسرعة:

"لا.. لا.. أبدًا يا بابا.. رامز تفهم الموقف وعرف إن مش هينفع نكمل"

أكمل تساؤله بعينيه فأكلمت هي بجواب ونبرة ذبيحة:

"أنا بحب"

فتح فاهه دهشة.. لم يتوقع منها أن تصرح بها ببساطة، لكنها وكعادتها.. خالفت توقعاته، ابتسم بحنان، ربت على وجنتها الرطبة:

"ودي حاجة تزعل!!"

ارتمت فوق صدره تتوق لدفئه واحتوائه:

"تزعلني أنا.. لأن قلبي غبي، كل مرة بيختار غلط غصب عني، وفي الآخر ينجرح"

رفع رأسها يغوص في نظراتها بعمق، وسأل بكلمة رغم أنه يعلم الجواب:

"مين؟"

تلعثمت، لقد خاضت في مستنقع الصراحة لمسافة أكبر من اللازم، وهنا ستغرق حتمًا، لكنه فاجأها باستطرادة تحمل لهجة تقرير:

"أحمد الشاذلي..!!"

ابتعدت عن صدره تناظره بشيء من ذعر فعاد يبتسم يطمئنها:

"هو بيحبك.. ده واضح عليه، المدهش والغريب إنك تعترفي ببساطة أنك بتحبيه!!"

سلمت واستسلمت.. وأذعنت في يأس بهزة رأس مستكينة ونظرة ضائعة أوجعت قلبه عليها، منحها الخلاص منهيًا الأمر علها تجد راحتها، وربما قلبها الذي مات:

"منى أنتِ هتسافري في خلال أيام، الفترة دي اعتبريها أجازة من كل حاجة، فرغي عقلك من كل الأفكار السلبية، قيمي مشاعرك، سيبيها تاخد

كنترول شوية، اتكلمي مع قلبك وخدي رأيه، راجعيه وحاولي تعملي صلح بينه وبين عقلك لأن الحرب مش في مصلحة روحك التايهة دي أبدًا.. خليه يعلنها صريحة وما تخافيش من نطقها.. واصبري وفكري.. فكري أكتر، لما ترجعي.. قرري، وتأكدي إني هاساندك في قرارك لو حسيت إنه الأنسب لك، واللي فيه سعادتك"

أنهى كلماته ونهض، طبع قبلة حانية على جبينها ثم غادرها إلى غرفته، تصارع مشاعر تصر على إقتحام عزلة قلبها، و أفكار تحمل همسه، نظراته، غيرته، ونيرانه تسيطر على عقلها، حيث لا فكاك من فخ عشق نصبه لها السهم الوقح.. دون ضريبة.. هي "منى" نفسها.

******

لو أن الطبيعة حكمت بحقيقة.. الماء يطفئ النار.. فما الذي يحدث له؟ يقف منذ نصف ساعة أسفل المرش، الماء بارد ورغم ذلك يكاد يشتعل بحريق غير قابل للإخماد، كلما مرت بذهنه، داعبت خياله، أغضبت الذكر الكائن بداخله وحطمت غروره تعالت ألسنة اللهب وزادت في إحراقه حتى النهاية.

ولا مفر، جفف نفسه وارتدى سروال منامته، خرج بهدوء لا يعكس العاصفة التي تجنح بجموح بين جنبيه، التقط سترته، وبينما يهم

بارتدائها وصلته الطرقة الخافتة، هذه أمه بالتأكيد، لقد عاد من الخارج هاربًا بعدما حذره شقيقه أن "كريمة" ستقتله حتمًا بعدما ترى ما فعله بغرفة التدريب، فتحت الباب برفق وأطلت منه بابتسامة لا تصل لعينيها:

"صاحي يا أحمد..! عاوزة أتكلم معاك شوية"

أومأ لها و اقترب، اقتربت هي الأخرى وأغلقت الباب خلفها، جلست أمامه على فراشه، مدت يدها تداعب وجنته، ذقنه الخشنة والتي تركها تستطيل عن المعتاد في إهمال، ابتسمت له ثانية، تنظر إليه بعمق، تتفحصه وهو صامت ينتظر، فاجأته:

"كلمني عن حبيبتك"

وبالطبع رد الفعل المنطقي، تلجلج، توتر.. هو غير مستعد لإخبارها عنها الآن، هو في حالة حرب والنتيجة لم تحسم بعد، فكيف يقول لها أن حبيبته كانت لآخر قبله وترك معها بقايا ذكرى لا تمحى، لكن قلبه اختارها هي؟.. ارتبك لا يجد ردًا وهي تنتظر وفقط:

"أقولك عنها إيه يا أمي؟"

ردت بحزم:

"كل حاجة"

تنهد، كل شيء!! أنَّى له ذلك؟ عاد يسحب دفقة من الهواء ببطء ثم يزفرها محاولًا البحث عن كلمات تصف حاله وحبيبته:

"عادي يا كرملة.. هي الدكتورة بتاعتي"

ربتت على وجنته ثانية كأنها تطيب خاطره:

"إوصفها لي"

برقت عيناه بلمعة خاطفة أنبأتها عن قلبه، يا الله هو يعشقها بالفعل..! همس لها برقة كأنه يرسم لوحة لأجمل امرأة:

"مش هاتكلم عن جمالها، بس تقدري تقولي إني مش شايف أجمل منها في الدنيا، ابتسامتها اللي ما شفتهاش مرتين على بعض بتخلي الشمس تنور يومي، عينيها بلون العسل في ضوء النهار، صافية، وشرسة، صوتها حلم نفسي أصحى عليه كل يوم بكلمة حبيبي..."

وتاه قليلًا، شرد في ملامحها التي تجسدت أمامه:

"مش عارف يا أمي، بس هي فوق الوصف، ما فيش كلام يقدر يقولك أنا باشوفها إزاي..!"

سألته بحنان كأنها تتأكد وفقط:

"بتحبها قوي يا أحمد؟"

منحها نظرة مندهشة، ثم أدار عينيه، يفكر بها ويحلق بخياله إليها:

"في الأول كانت تحدي صعب، قريب من المستحيل، بس..."

أكملت له تخبره أنها تفهمه:

"رفضت تنضم لقايمة جواري ابن الشاذلي"

ابتسم وغمغم بعشق انغمست فيه حروفه حد الغرق:

"قررت تبقى شهرزاد.. وإن الألف ليلة وليلة مش كفاية.. ولا حتى العمر كله..!"

ولاتزال تتمم له ما بقلبه:

"ومن غير حكايات كمان.. سلمت يا شهريار..! بتحبها"

اتسعت ابتسامته ينهي حديثه:

"كلمة حب مالهاش تعريف عندي غير إني بابدأ و أنتهي عندها.. أحمد قبلها ومن غيرها حاجة.. وبيها ومعاها حاجة تانية مختلفة بكتير"

عادت تسأل بحنو:

"وكان مالك النهاردة؟"

أجابها بصراحة:

"رافضة حبي وبتهرب مني"

لم تظهر عليها دهشة فهي تعلم، منحته أملًا صغيرًا:

"تحب أتكلم معاها؟!"

رفع عينيه إليها بسرعة، أهي جادة؟ ولكن.. هي لا تعلم عنها شيئًا.. لا تعلم بوجود طفلها وزواجها السابق، هل حينها ستوافق؟ وتستمر في مساندته.. تدعمه وتحاول تقريبها منه؟ همس لها بضعف آلمها:

"ماما.. منى مطلقة و... وعندها طفل"

حاولت تصنع الذهول، الصدمة ربما، وحاولت الصراخ، لكن صغيرها العاشق أمامها أوهن عزيمتها وأضعف قلبها:

"وما لقيتش غيرها عشان تحبها يا أحمد؟"

أجابها بيأس:

"القلب مش بيختار، ده حكم قدر واجب التنفيذ"

سألته بعقلانية رغم الغليان الذي تستعر فيه:

"وده قدرك؟ ده اختيار قلبك؟"

نكس رأسه، والآن أمه تلومه؟ أهذا ما ينقصه؟ هل قلبه سيحتمل ضغط آخر يفجر حمولته من العذاب والوجع الذي لم يكن يعلم أن تذوق الحب يعنيه..!! ولو كان لديه خبر؛ لألقى بنفسه في غياهب الجحيم أو هاجر لأقصى المجرة هربًا منه.. أمسكت بذقنه ترفع وجهه إليها:

"أحمد أنا مش بالومك ولا باحكم على اختيارك.. المهم تكون متأكد إنه صح، وأول حاجة.. وآخر حاجة تهمني في الدنيا؛ هي سعادتك أنت وأخوك"

عاد يبتسم في حزن مغموس بأمل.. تعلم أنها ترفضه، تخافه، تهرب منه، من سمعته في عالم النساء حيث هو الحاكم وهن الغواني، طمأنته:

"مش كل حاجة في حياتنا ينفع فيها التحدي والمطاردة والحرب، مش هتقدر تكسب قلبها بدراعك وصراعك معاها، في حاجات أو خليني أوضح.. كل حاجة.. بنحتاج فيها مساعدة، اللي قدَّر إن الحب ده يسكن جوانا.. هو اللي بإيده قلب اللي اختارناه، قرب منه يا أحمد.. إدعيه، إطلب وما تنكسفش، وصدقني هو مش هيردك، و أنا ليَّ زيارة للدكتورة بتاعتك، نتكلم مع بعض، اتنين ستات بقى.."

أنهت حديثها و ابتسمت، بلسمًا رطبًا طيبت به جرح قلبه مع تربيتة حنون وقبلة على الرأس ثم ضمة ورحلت، و انغمس هو في التفكير.. محتار،

قلق، وأجبن من الاعتقاد في مجرد محاولة.. أتراه يقبله؟ بعد كل ذاك البعد؟ بعد كل الغزوات والشهوات التي حُفَت بها حياته؟ بعد رسائل ورسائل ولهو ونسيان منه؟ تردد، ثم تردد وخاف.. لكن قلبه في كل لحظة كان يغرق في شيء من السكينة والاطمئنان.

دقائق مرت.. ساعات أو حتى دهر، أفاق على صوت الودود يدعوه بأذان الفجر، "حي على الفلاح".. نعم الفلاح، الربح، النصر الدائم.. في كنفه هو، دفعة أخيرة، وجد نفسه يتوضأ، يقف بين يديه، يبكي زمنًا فات أضاعه في غمرة لاهية.. ويطمح في زمنٍ آت بالقرب منه، ود لو تغير، يدعو بأن يتغير، واكتشف أن عليه بدء التغيير من داخل نفسه قبل أن يتواكل على خالقه مطالبًا به.

وما لم ينتبه إليه، أنه في وسط معمعة روحه الوجلة، لم يدعُ بأن يجمع الله بينهما.. بل دعا أن يقربه الله منه، وفي لذة الإحساس بالإياب نسي ألمًا خنق قلبه حتى أوقف النبض، تذكر.. في أشد لحظاته ضعفًا من قبل وعد بالتغيير لكنه لم يتمكن من الحفاظ على وعده، والآن يعد نفسه من جديد، ثم يعود فيتمنى الوفاء بالوعد.

هو لم يتقرب منه وقت انكساره، مرضه، ووقوعه من عليائه كبطل، والآن "مناه" هي السبب.. كم تغير فيه..! تخرج الأفضل وتتعامل مع الأسوأ..

دمعة خائنة هربت من بين جفنيه، تعاتب قلبه الغافل، وترطبه بذكر الرحمن.. مهما ابتعد، إلتهى، نسي وتغرب عن ذاته، شعر بالعنفوان والقوة.. لايزال الاحتياج إليه هو ما جُبل عليه بنو البشر.

(18)

دعيني.. أحبك

قليل من المواقف تتطلب إجراءات احترازية، ردود فعل استثنائية، أداء احترافي مميز بانفراد، والبداية.. هي الهجمات المرتدة.. لا فرصة لالتقاط الأنفاس، لا حلول وسطية، لا رادع، لا موانع، إلا بعد الوصول لمرمى الخصم.. التسديد ثم تسجيل الهدف.

والخصم هنا.. هو الحبيبة اللدود.. المعشوقة الآبقة.. الساعية للهروب، وهي ليست بخصم هين ليتهاون معها، بل هي شرسة، عنيدة، وقوية، تصد هجماته ببسالة وعنفوان دائم، وتقطع طريق الوصول عليه باستمرار؛ فتضيع التسديدات هباءً.

قبل قليل تفاجأ باتصال طبيبه "علي" يخبره أن استكمال برنامجه عاد ليكون معه، وثارت ثائرة شياطينه كلها، لقد فقدت "مناه" رشدها وعليه أن يعيدها لطريق الصواب، ردوده كانت عصبية على الرجل، وفي النهاية كاد يصرخ برفض لولا أن تماسك وأخرجه بأكثر نبرة هادئة استطاع افتعالها.. وأعلن العصيان كما قلبه المتيم بها.

وها هو..! ينتظر في استقبال عيادتها بتحفز، ربما مع أول لمحة لها أمام عينيه سينقض عليها ويخنقها، أنثاه تتدلل، تجبن، وواجب الطرف الخشن في هذه الحالة.. أن يدلل، ويمنح الأمان، هذا ما تستحقه، وهذا هو ما سيفعله.. ولو رغمًا عن كل ذرة في كيانها ذا الرأس الصلب.

يعلم أنها لا تنتظره، لكنه سيقابلها على أية حال، أخبرتها مساعدتها عن وجوده، و انتفض قلبها رهبة، ما الذي أتى به؟ لقد انتهى الأمر.. إن كان سينعتها بالجبن فهي تقبل ذلك النعت شريطة أن يغادر حياتها بلا رجعة، في النهاية استسلمت.. فلتقطع آخر شعرة، وتنهي القصيدة قبل أن تبدأ، ثم تعيد إليه نموذج سيارته الصغير، لعبته التي أثار جنونها بها، ليأتي بعدها مصرحًا بحب لا طاقة لها لاحتماله أو حتى التواجد قرب مجاله.

دلف للمكان ببطء، خطوات قاسية كأنه يريد تحطيم الأرض بها أسفل قدميه، نظرات ثاقبة شعرت كأنها حبال غليظة تلتف حول عنقها، حقًا..! يبدو أنه يريد قتلها، هذا أمر طريف، تبادل المشاعر هنا و اقعي للغاية لأنها تشتهي إسالة دمه بغضب يتملك منها، كيف جرؤ على التسلل إلى قلبها؟ التمكن من روحها؟ أو بالأحرى كيف استطاع امتلاك ذراتها؟ لكن.. وعلى الرغم من ذلك كله، فالقصة منتهية، بتتمة لا تشبه عالم

الروايات والأفلام.. حيث الفستان الأبيض، والقبلة، ثم نزول كلمة النهاية.

بينما هي شاردة في أقصوصة صغيرة عزلتها عن واقع امتلأ بحضور العاشق الذي استباح مسوغات الجنون في سبيل الوصول لمعشوقة عنيدة، تأملها هو.. تبدو مرهقة، متعبة، والسواد أسفل عينيها أقلقه، ما بها؟ هز رأسه يخرج منها تعاطفه وحنان ليس في وقته، الآن معركة هامة، إما أن ينتصر فيها فيحصل على غنيمته، أو يخسر فيقترب من هزيمته في الحرب كلها.

اقترب أكثر، والحاجز بينهما مكتب معدني بسطح زجاجي لامع ليس بضخم لهذه الدرجة، انحنى يستند فوقه بمرفقيه، يقترب بأنفاسه منها، وهي لم تجبن، ظلت صامدة، لم تتراجع، أو حتى تزجره، وفي صراع محدود دار التحدي بين أعينهما، في النهاية ابتسم بخبث ماكر:

"شكلك مرهق، إيه ما نمتيش طول الليل من التفكير فيَّ..!"

احتفظت بعينيها تتحديانه، وغرق هو أكثر لكنه حافظ على اتزانه أمام الاتهام الغريب الذي رآه هناك، كأنه أجرم في حقها، أو ربما حق قلبها.. أن أحبها، واعترف لها بعشق..! لم ترد ولم ترمش حتى، بعد ثوان، أخفضت

ناظريها إلى أحد الأدراج، تفتحه وتلتقط منه نموذج سيارته، وضعته أمام يديه في إشارة واضحة.. تقطع أي صلة يظن أنها نشأت بينهما.

نظر إليه دون فهم، أو.. هو فهم، لكنه لن يصرح، هو غاضب الآن، وغضبه ليس في صالحها، همس لها من بين أسنانه متخليًا عن مرح حاول اصطناعه:

"إيه ده؟"

لمعت سخرية بين جفنيها، فازدادت وتيرة غضبه:

"ده البازل بتاعك.. إيه نسيته؟"

تأملها ثانية، دون أن يطرف لها جفن، ودون أن ينخفض معدل ازدهار السخط داخله، بحدة خفية استشعرتها في أحرفه:

"أنا عاوزك تاخديه"

أزاحته نحوه، تقربه من يديه أكثر في توضيح لقرارها النهائي، زاد في اقترابه لتتوجس هي، تراجعت رغمًا عنها، تخشى جنونه وتهور ردود أفعاله، سألها بلهجة باردة:

"رجّعتِ ملفي لدكتورعلي ليه؟"

ازدردت لعابها، يركز عينيه نحوها، حولها، يحيطها بنظراته كأنها شبكة صيد، وهي قد وقعت في فخها دون رجوع، لونهما غريب، شديد الزرقة بصفاء السماء في يوم صحو ولدرجة فاتنة، أمام صمتها وتحديقها فيه شعر بالدهشة، حاولت التماسك قليلًا:

"ده الطبيعي، أنا قلت لك إني هارجعه للطبيب المختص، وأنت حالته من البداية وده مكانك الأصلي، أنا كنت مجرد بديل لحد رجوعه، تقدر تكمل الكورس معاه، وربنا يوفقك"

ابتسم ساخرًا، حان وقت الحل الجذري، هجمة مفاجئة، وجذبة، ثم لقاء شفاه حار يتبعه اعتراف، دار حول المكتب، فنهضت واقفة تبتعد، تتوتر، وتشعر بأنثى تحاول إثبات قانون الطفو، بخروجها إلى السطح رغمًا عنها، رد فعلها أخبره أنه على طريق صحيح فزاد في اقترابه، هربت تدور بعيدًا فلاحقها بإقرار:

"خايفة مني..!"

ردت بحدة غاضبة:

"من جنونك وتهورك اللي ما لهمش حدود يقفوا عندها"

اقترب أكثر، خطوته توازي خطوتها، هو يدنو، هي تتباعد، والمحك أصبح ينتظر عود الثقاب، الاشتعال، النار، واللهيب الذي تنتهي بعده الحكاية بما لا يرضيها هي، همس بحرارة كادت تذيب دفاعاتها الواهية:

"جنون إني أحبك؟"

هزت رأسها نافية في يأس:

"جنون إنك تدخل حياتي، تحاول تحيي ميت دبحته خيانة ونزف لحد آخر نقطة حياة"

و اقترب، و ابتعدت، وهمس:

"وجبن إنك تمنعيني المحاولة.. مش عدل"

كأنهما يدوران حول بعضهما، لقاء في صراع.. قتال، وكل طرف يختبر الخصم قبل لحظة الهجوم الفعلي، ردت بألم تردد صداه في روحه:

"أنا جبانة وراضية، من فضلك اخرج.. كفاية كده"

الآن تحولت عيناه لغضب بعد الرجاء الحار:

"و أنا مش راضي، مش هارضى إلا بامتلاكك يا منايا.. حتى لو حاربت الدنيا كلها"

رفعت عينيها إليه في ضعف زلزل أعماقه، هي تشرد، تتوه، "بماذا ناداها؟".. كادت تستكين إليه؛ لكن ذكرى ماضٍ ليس بالبعيد، وطفل صغير يتساءل عن غائب عاد بعد زمن كأنه دهر، عاد برغبة جديدة في عقد احتكار أشعلت شياطينها وحولت داخلها لبيئة خصبة للشر:

"خد العربية يا أستاذ أحمد واتفضل، برنامج حضرتك مع دكتور علي، أنا وأنت ما ننفعش لبعض، وأنا مستحيل أفكر في واحد زيك أبدًا"

تلقي الكلمة كصفعة، حدق إليها بغضب، والنبرة علت وانتشر بها السخط:

"واحد زيي؟!"

تراجعت في خوف، اسودت عيناه بنار ستحرقها لكن لا مجال للتراجع الآن، حان وقت البتر والعلاج القاصم لآلامها:

"أيوة زيك.. كل حياته تحديات، ولازم يكسبها لأنه مش بيحب الخسارة مهما كانت هتأثر على غيره، واحد عنده مبدأ واحد بيحركه؛ الغاية تبرر الوسيلة.. والغاية في حالتنا هي أنا.. والوسيلة إدعاء حب.. بس أحب أقولك، إن الوسيلة دي مفعولها مالوش رد فعل عندي، لأني محصنة ضده.. أخدت الطُعم، والفيروس في دمي، جربت قبل كده، والمناعة دلوقتي مدى الحياة"

سيقتلها، الآن لا حب، لا محاولات عاشق يتذوق نكهة الغرام للمرة الأولى، لا اقتراب رقيق، بل هجوم مرتد كما قرر منذ البداية، بخطوات ثلاث كان أمامها بشكل فاجأها:

"ولو طلبت منك تتجوزيني؟!"

تراجعت بصدمة، لن تضعف، تبًا.. لن تضعف، هذا أيضًا ثمن خاضت معاركه من قبل ودفعت المقابل بما يكفي:

"كنت في نفس المكان ده برده قبل كده، وعندي نفس المناعة"

حدق في وجهها بغير تصديق:

"هو عمل فيكِ إيه؟!"

ثم فكر للحظة طالت حتى كاد يموت فيها قهرًا، أما هي فتجمدت مكانها دون حراك بعد جملته التي أشعلت ذكرى آلامها.. أكمل بلهجة شعرت بها ممزقة:

"ولا للدرجة دي كنتِ بتحبيه؟"

جف حلقها.. أنت أحمق يا من سقطت في بئر هواه العميق دون قرار، تحب من؟ أنا أحبك أنت.. لكنها تجربة لن أدفع ثمنها مما تبقى مني، فلو تشابهت النهايات هذه المرة، ستكون النتيجة فتات أنثى تبعثره أخف

نسمات الهواء ولا سبيل بعدها لجمع شتاته، سيقصم الروح، يطعن القلب في مقتل لا نجاة بعده، ويغلغل السم في جسد يضمه القبر بعدها.

أولته ظهرها وليفهم ما يريد، مع حركتها تسلل اليأس مجددًا بداخله، ربما هي ليست جبانة في كل الأحوال، بل لايزال آخر يمتلك جزءً من قلبها يطغى به على جرح تسبب فيه ويحتاج فقط لضمادة بسيطة؛ يقع في غياهب النسيان بعدها.

انتفضت بعنف إثر انغلاق الباب بقوة بعد خروجه الصامت، ارتجفت شفتاها، خانتها دمعة تكتب بها شهادة وفاة قبل ميلاد تمنته لكنها تخشى خروج الوحش من محبسه فتكون ضحيته من جديد، ودون أمل في نجاة هذه المرة.

******

"في قوانين جنون عالم الهوى حيث البدائية واللاقانون..

كل شيء مباح..

وبعد أن كان متاح..

ينتقل لخانة الضرورات.. التي تبيح كل المحظورات"

والمحظورات تبدأ باستغلال صغير، محاولة أخيرة، بعدها ستتضح نتيجة الحرب، كما أخبرته والدته ستذهب للقائها، وشجع هو بدفعة بسيطة، تاركًا الأمر بين يديها.. لا يفل الحديد إلا الحديد.. صحيح..! وأمه فولاذية مثلها تمامًا، خطة بسيطة، ومدح قليل في حق ولدها، وبخبث، معلومة هامة لابد وأن يصل إليها على الفور.

والدهشة ملأتها عند دخول السيدة الوقور صاحبة الابتسامة المشعة بحنان دافئ، تجلس أمامها، تحادثها، تخبرها أنها ليست هنا للعلاج، بل بخصوص مريض آخر.. مريض سقط صريع الغرام، ودواؤه بين أصابع المرتجفة أمامها.. تتأملها بعيني أم تنظر لمعشوقة صغيرها لأول مرة، هي تشعر أنها أسفل عدسة مجهر، في وضع لم ترده، ولن تحسد عليه.

تطمئنها، تخبرها عن قلبه، عن هوىً تملك منه، عن أنثى حركت ذلك الكامن فثار كبركان ولأول مرة، تملكته حتى الثمالة، وأدمنها حد مرحلة اللارجوع، في البداية غمرتها دهشة، ثم احتواها ذهول، ثم حزن.. فيأس، وقررت إجراء العملية من جديد، ناولتها صورة صغيرة من فوق مكتبها هامسة:

"ده ابني"

تطلعت إليها، الفتاة يحتال الحزن على ملامحها بطريقة غريبة، يدعي امتلاكها، أو ربما هو يفعل، وهي فقط تستسلم دون أدنى بذل في محاولة للمقاومة، والآن تحاول أن تضع العراقيل في الطريق، تظنها لا تعلم.. وهكذا ستقطع الطريق، وتمنع الصياد عن خروجه في رحلة القنص..
نظرت إلى الصورة برقة ثم رفعت عينيها إليها:

"ربنا يخليهولك.. أحمد بيحبه قوي"

ارتبكت، تنظر إليها في شيء من صدمة، أهي تعلم؟ ولا تمانع..!! ابتسمت المرأة في تفهم:

"مستغربة إني عارفة؟! أحمد مش بيخبي عني أي حاجة، أنا عودته على كده، ولأن سعادته أهم حاجة عندي، ولأني دايما باسيبه يختار ويتحمل نتيجة اختياراته.. جيت لك، في حاجة ولادي ما يعرفوهاش عني..."

ترددت للحظة، بللت شفتيها بلسانها قبل أن تكمل كمن يفشي السر الأخطر:

"أنا كنت مطلقة لما اتجوزت محسن الله يرحمه"

استغراب، دهشة، وصمت كلل الموقف، أكملت هي بحنين لحبيب رحل عن دنياها:

"محسن كان بيحبني بجنون، زي أحمد ما بيحبك، أحمد نسخة طبق الأصل من باباه، حتى ملامحه قريبة منه، بس طموحه، اندفاعه، تهوره وجنونه وإصراره وعناده هما الأقوى، وقتها اتحدى كل الناس اللي وقفت في طريق جوازنا زي ما هو طبيعي بيحصل في كل موقف مشابه في مجتمعنا، هو رفض، عاند وقرر ونفذ.. و أنا..."

شردت بعيناها نحو البعيد بابتسامة عاشقة:

"أنا كنت مسحورة بيه وبقوته، بعشقه اللي نساني اللي حصل لي في جوازي الأول ورفض جوزي للأطفال، عشان أتفاجيء في النهاية إني زوجة تانية لراجل عنده بيت وأولاد.. سحره فضل معايا لحد آخر لحظة في عمره، ولسه تحت تأثيره لحد دلوقتِ.. لأني حبيته أكتر مما كنت أتخيل، ولأنه داوى جراحي وزرع في قلبي الأمل بحبه"

تأملتها في صمتها لثوان.. أردفت برفق:

"تعرفي إنه رفض حد يعرف بموضوع جوازي قبله من الولاد.. يعني أحمد ما يعرفش، بس واضح إنه ماشي في خط سير باباه، ولما حب.. عنده استعداد يهد الدنيا عشان حبه"

قالتها وابتسمت، تطمئنها، تعلمها أن سعادة طفلها العنيد ولو ثمنها الدنيا فهي لا تمانع، ومادامت فرحة قلبه معها.. فهي ستكون الأكثر بهجة

وهي تطلب يدها له، وانقبض قلبها، توترت، وجبنت من جديد، منذ متى كان العقد الرسمي ضمانة يعتمد عليها..! يتملكها بعد توقيع يجاور اسمه، ثم يتسلل الملل إليه رويدًا رويدًا حتى التشبع التام.. فيفقد الضمان صلاحيته، وتنتهي مدته المقررة.

ونافذة البصر أمامها تفهم تمامًا ما تمر به، مرحلة عاصرتها سابقًا.. لكن صغيرها بقوة والده، وعلى قدر التحدي، أعادت على مسامعها كلمات والدها بعدما علمت بسفرها من ابنها، فترة اختبار للمشاعر، وتحكيم العقل برشد.. بعدها القرار النهائي، ودعتها وفي طريقها للانصراف التفتت تسألها بابتسامة حنون وإدعاء لامبالاة:

"أنت قلتِ أنتِ مسافرة فين؟"

أجابت بشرود دون وعي لمخاطر جوابها:

"مؤتمر طبي في البحرين"

أومأت بصمت، وغادرت تاركة المسكينة خلفها تتأرجح بين أحبال السعادة تخشى التعلق بها فتنفصم عقدتها لتسقط لفم الموت هذه المرة، وأحبال الجبن الذي يجذبها نحو قاعه أكثر.

******

فأبحث عنك على كل ضوء

وعمر الحيارى ظلام سحيق

لأنك مني و أني إليك

كما يعرف الزهر طعم الرحيق

و أبحث عنك كثيرا.. كثيرا

فأنت الضياع و أنت الطريق!!

"فاروق جويدة"

في مشاهد متوازية، ودعت هي والدها وصغيرها ورحلت حيث تدفن أفكارها في العمل وفقط، وسافر هو بصحبة فريقه، قبلها بيومين حادثه صديقه "حسن" يخبره عن سفر، وسباق عالمي سيقام هناك على مضمار "حلبة البحرين الدولية".. فلمَ لا تترك همومك ودوامات أفكارك لتصحبنا..؟ هو رفض، ففي نيته؛ السفر وجهته كانت تعتمد على ما ستخبره به والدته بعد عودتها من لقاء طبيبته.

والصدفة، كما القدر.. تجمع بينهما ولا مهرب..!

أسبوع مر، يتتبع أخبارها، ينتبه لها، ويعلم مكانها، مؤتمرها الطبي اشتمل على برنامج سياحي للمشاركين فيه، ولحظه.. اختاروا منطقة إقامته.. في الغد ستأتي هي.. ويتحرك هو.

هناك علم أيضًا بوجود صغيرته "دارين" وأمها ووالدها للمشاركة في ذاك الحدث كذلك.. وبالتالي من ضمن القادمين للاستمتاع بالسياحة في منطقة "الصخير" وكان هذا خبرًا يكمل روعة يومه، وصلوا جميعًا، استقروا بنفس الفندق.. وربما لو كان آخر لتبعها فمن يهتم..!.

اللمحة الأولى عندما رأته كانت بين ذراعيه أخرى، يراقصها، يحتويها بحنان، ويبتسم لها بعينين يملؤهما الاهتمام و.. الحب، كاذب أنت كما غيرك، خائن لقلب لم تعلن صاحبته لك التسليم بعد، لكن لا مانع لديك من تزجية الوقت بأخرى.

كانت تقبع في الركن، على طاولة وحيدة تتناول عشاءها دون شهية حقيقية، ودلف الصياد للمكان بمفاجأة لم ترها قادمة ولم تدر بخلدها، هل يطاردها حتى في سفرها خارج البلاد..؟ ثم قبل أن تزداد الأسئلة، وتهب نحوه بإعصار تقتلعه من المكان بغضب رأتها، جميلة، صغيرة، تتعلق بذراعه وابتسامتها ترنو إليه في كل لحظة، ظلت تراقبهما لدقائق

قبل أن يدعوها الأحمق للرقص، وهناك احتضنها و دار بينهما حديث يمتلئ بالبسمات.

"أحمد.. أنت تعرف اللي قاعدة على الترابيزة اللي هناك دي؟ ما تبصش استنى لما نتحرك وشوفها"

سألته "أميرة" فجأة فكاد يستدير بسرعة، ربما هي.. ومن غيرها سيكون!! بصبر انتظر لثوان دارا خلالها لتلتقي عيناه بحبيبته، تبدو غاضبة، حزينة ووحيدة، انتفض قلبه وحاول التحرك نحوها لولا تمسك أخته به واستدارتها هي بوجهها بعيدًا عنه ترفض حتى لقاء النظرات.

أجاب بابتسامة مترددة:

"أيوة أعرفها"

شاغبته بمكر:

"إمممممممم.. وفي إيه بينكم بقى؟"

عقد حاجبيه ومنحها نظرة متسائلة:

"ليه بتسألي السؤال ده؟"

هزت كتفيها بشقاوة، مطت شفتيها وردت بخبث طفولي لذيذ:

"شكلها هتموت من الغيرة..!"

رفع عينيه إلى "منى" مرة أخرى.. لا تنظر إليه حتى، سألها دون يبعد نظراته عن الساكنة في هدوء على بعد:

"غيرة إيه يا أميرة..! دي مش بتبص حتى..!"

عادت تهزكتفيها مجيبة بفهم يفوق سنوات عمرها:

"نظراتها من الأول يا أحمد كانت واضحة، ودي حاجة ما تفهمهاش إلا ست زيها"

قبل أن يرد، يسخر أو حتى يمازح تحركت طبيبته، تتجه نحو المخرج بخطوات سريعة تشبه الهروب.. ها هي تمارس هوايتها المفضلة.. الفرار من حيز يحتويه معها، قبل أن تخرج رمته بنظرة، نظرة كادت تقتله، نظرة جمعت بين العتاب، التكذيب.. والاحتقار.

******

دعيني أقاوم شوقي إليك

وأهرب منك ولو في الخيال

لأني أحبك وهما طويلا

وحلم بعيني بعيد المنال

دعيني أراك هداية عمري

وإن كنت في العمر بعض الضلال

"فاروق جويدة"

لن تحتمل أكثر.. الألم ينتشر هذه المرة بسرعة أكبر كما النيران فوق محفزاتها، الكاذب، الحقير، كل سباب العالم لن يكفي لوصفه أو تطهير قلبها من إثم عشقه، تبًا له، لعنات الجحيم كلها عليه، الدموع تغشي الطريق أمامها، استقلت المصعد حيث غرفتها، حيث الألم يظهر، الجرح ينفتح، ويعود النزف، خطواتها تتمنى لو سابقت بها الريح وعادت للوطن، تلقي بكل شيء وكل شخص وكل وجع وراء ظهرها.

مدت يدها تفتح باب غرفتها عاقدة العزم على الرحيل في الصباح، لتتفاجأ بيد رجولية تقتحم المشهد أمام أنظارها، تمسك بكفها، وتحرك المفتاح، ثم أخرى تحرك المقبض وتدفع الباب وهي إلى الداخل، التفتت في ذعر تكاد تصرخ لتجده خلفها يتأملها باشتياق واضح حتى لعينيها المكذبتين، صرخت بانفعال تود خنقه، قتله، انتزاع قلبه من مكانه وتعذيبه حتى الموت:

"أنت اتجننت..! إيه اللي عملته ده؟"

اقترابه السريع بانقضاضة أفزعها فتراجعت للخلف، ولايزال يقترب وهي تتحرك مبتعدة حتى لم يعد هناك من مجال، احتجزها بين جسده والجدار خلفها، شعرت بالهلع، لم يلمسها، فقط وضع ذراعيه مستندًا بهما إلى الحائط حولها وانحنى يهمس بصرامة:

"كنتِ بتبصي لي تحت كده ليه؟"

تريد دفعه بعيدًا، تريد الصراخ، لكنها لن تضع يديها فوق صدره، لذلك لم يكن من مفر سوى المواجهة، ولتكن أخيرة، حاسمة ونهائية:

"وهما بيبصوا للكدابين إزاي؟"

تراجع لمسافة قصيرة يرفع حاجبيه متظاهرًا بدهشة:

"كدابين...!!"

أكدت ما قالت بعينيها دون حديث، فانحنى ثانية، تراجعت برأسها لكنه عاند باقتراب أكبر:

"دي غيرة بقى؟"

حركت شفتيها بطريقة هازئة، تهزأ منه.. ومنها.. ومن قلبها الذي جن جنون نبضاته لقربه هذا:

"في أحلامك.. و اتفضل اطلع برا، أنت اتخطيت كل الحدود"

لم يقاوم نزعته الوقحة برد أشعل وجنتيها خجلًا وغضبًا:

"في أحلامي؛ حاجات أهم من الغيرة"

ونظرة دلالية احتوتها بالكامل، هتفت تحاول الخروج من موقفها:

"ممكن تطلع برا..!"

تأملها بعينيه لثوان دون أن يبتعد، رباه.. كم هي جميلة حين الخوف، حين الغضب، حين القلق، حين الخجل، في كل الأحايين تسرق أنفاسه، ود لو ضمها إليه الآن يشبع جموح شوق يفتك بخلاياه لكنه لن يفعل، قطعًا لن يفعل..! أو ربما.. سيفعل، عاد يقترب أكثر، ينحنى نحو أذنيها، وهذه المرة شعرت بدفء أنفاسه قرب وجنتها حين همس:

"خليني أحبك، سيبي لي قلبك، حرريه من العبودية والأسر، الخوف والماضي أقوى منك ليه بالشكل ده؟"

ونظر في عمق عينيها يخاطب روحها بظلام يأس يحلل لنفسه التسلل لقلبه:

"مستحيل تكوني لغيري يا منى.. إلا لو أنا ميت"

اتسعت عيناها، وماذا عمن كانت بين ذراعيه منذ لحظات؟ وماذا قال..! موت؟ ابتعد برأسه ينظر في عينيها، بين جفنيه.. قلق، اضطراب، غضب، حزن، حب، تملك، أخفضت رأسها فوجد أصابعه لا إراديًا تتجه نحو ذقنها ترفع وجهها إليه، مدت يدها تبعدها لكنه ابتعد وحده، فقط كان يبحث عن لقاء بين المقل، يبثها عبره رسائل قلبه، ويستقبل منها مخاوفها ليمحوها واحدًا تلو الآخر.

يقول لها دون حديث أن أمانها معه، لن يجرحها أو يؤذيها، يؤكد لها أنه مغرم بها حدًا لم يصل إليه من قبل حبيب وقع في هوى حبيبه، يحكي لها بعينيه قصة طويلة عن عشق يملأ قلبه، وعن خوف يملأ قلبها.. عن أسطورة سيطر فيها الخوف على الحب ومحاه ثم امتلك القلب، حتى ضاعت أسباب الحياة، ظل ينظر إليها في صمت، هي لا تقترب، لا تصدق، ولايزال ذلك الرعب الغريب يملأ عينيها.

شعر بيأس يتسلل لصدره، ابتعد عنها فجأة فتنفست براحة، تأملها ثانية ثم منحها كلامه النهائي الحازم، يخبرها ألا كلام بعده:

"منى.. آخر كلام هاقوله لك، قبل ما ممكن تكوني زوجة لواحد تاني غيري.. أنا هاموت"

ومنحها نظرة وداع ممتزجة بألم، هي تشعر بالدهشة، تتساءل عن الأخرى، وهو فقط يريدها ويجابه ويحاصر دون دفاع، دون توضيح، خفض عينيه وتحرك خارجًا من المكان، تابعته حتى رحل تمامًا ثم انهارت تجلس أرضًا، ودموعها تنساب في صمت.

******

ليل طويل بصحبة الألم، أما من نهاية له؟ لقد امتلأت، أصابتها تخمة الوجع وتود تخديره، تسكينه، تخفيف أعراضه مادام العلاج القاطع بعيد المنال، لكن حتى المسكنات الفعالة غير متاحة.

نهضت من فراشها بترنح، سترحل اليوم، كم تحبه..! لكن الطرق المتوازية لا يجمع بينها نقطة لقاء، لذلك ستسير في طريقها دون نظر إلى الوراء، تستعيد ذكريات الألم المتجددة، وتعذب روحها بها لتكبح جماح الشوق، تنسى حبيبًا اغتصب قلبها رغمًا عنها ورغمًا عن درس صعب نالته من الحياة.. من قال أن كل الدروس المستفادة تترك علامة وتصنع فارقًا..؟.

رنين هاتفها أخرجها من دوامة العشق والأنين.. من موجة رثاء الذات التي غاصت فيها، والصوت الذي وصلها لم تعرفه، سأل عن هويتها فجاوبت ليأتيها تساؤل آخر أوقف قلبها:

"أنا حسن، زميل أحمد في الفريق.. دكتور هو ممكن أحمد يدخل السباق عادي؟ خلص البرنامج؟ أنا آسف إني اتصلت بحضرتك فجأة، بس أنا عرفت بوجودك من أحمد وقلت أطمن"

ماذا؟ ما هذا الهراء؟ أي هذيان ذاك..! ردت بارتباك متلعثم:

"مش فاهمة حضرتك..! سباق إيه؟"

وأوضح لها، سباق أصعب بكثير من سباقاته المعتادة، دورات بطول الحلبة، عدد كبير، سرعة غير محدودة، ومدة لم تعلم زمنها، انهار قلبها بداخلها صارخًا.. اللعنة عليه.. اللعنة عليه.. لقد ذكر الموت ولم يتحدث عن الانتحار.. المجنون.. هتفت تلاحقه بحديثها:

"لا.. لا.. من فضلك إمنعه، ما ينفعش أبدًا، البرنامج بتاعه مش مكتمل وحتى بعد كده لازم تدريبات كتير قبل المشاركة الفعلية، إمنعه أرجوك"

وصلها صوته المرتعب:

"إزاي؟ ده دخل خلاص مكان زميلنا.. يعني إيه أمنعه..!"

عادت تهذي بصوت صارخ في انهيار:

"باقولك إمنعه، ده مجنون"

لكن جملته التالية بنبرة ملتاعة أوقفت كل وظائفها الحيوية، أظلمت الكون أمام ناظريها، وحبست الهواء عن رئتيها حتى وصلت لحافة الموت:

"السباق بدأ..!"

(19)

أنتِ.. ملْكِي

"البعيد عن العين.. بعيد عن القلب"

مقولة لطالما ترددت حوله، لم ينتبه لها في مرة، هي لا تهمه أو تعنيه في شيء، لكن تطبيقها على أرض الو اقع يختلف، وحوله وكل ما يتعلق به يتغير، إن كان ابتعادها بجسدها سببًا لخروجها من الصورة، انشغال القلب، نسيان أو حتى تناسي لكنه أمر قابل للنجاح..! فربما هي لم تسكن الفؤاد أبدًا، ربما انطفاء ذاك الوهج المبهر.. نزع من أفكاره وجوده من الأساس.

وربما كما قال ذاك المبتدئ في دنيا العشاق، هو مجرد انبهار، وهي تستحق نيله بالتأكيد، لكن هذه الحالة تختلف عن تلك، أن تكون منبهرًا بضوء الشمس، في مقابل أن ترتدي منظارًا داكنًا يحجب عنك أشعتها، فتعتاد السير فيها، ويمكنك النظر إليها.. هناك فرق.

إذًا؛ بمعادلة بسيطة، تضمنت جمع وطرح مع قسمة خرج منها بنتيجة واحدة، أن الشعلة الحقيقية بداخله لم تقابل محفز الاشتعال بعد، لذا فهي في أمان، ساكنة، تنتظر شرارة ما في وقت ما طال انتظاره أو قصر.

منذ سافرت لم تحادثه في مرة، لم تهتم لصداقة إعتقد أنها جمعت بينهما ولو لمدة مؤقتة، قد يكون اعترافه لها قبل رحيلها هو المانع، لكنه مانع تسبب في بناء حاجز ما داخل نفسه، حجبها بضحكتها، نظرتها الشاردة، ذكريات وجودها من حوله.. عنه وعن قلبه الذي ظنها امتلكته.

والآن بهتت الصورة، الألوان فقدت رونقها و انتعاشها، وخفت السطوع، يود لو ثبت على موقفه، لكن ما باليد حيلة، المثل ينطبق عليه بكل حرف فيه، ولا سبيل للعودة بالزمن وتصحيح خطأ يظن أنه ربما وقع في فخه وأحكمه حولها هي رغم هروبها منه.

نبذ أفكاره، أو قد تكون هي من نبذته، لقد سئم تلك الحسابات التي يجريها من يومها، أخماسه وأسداسه لم تعطِ قيمة الثلاثين، بل تخطت حاجز المنطق وهو بالفعل مَل.. رفع سماعة هاتفه الداخلي ليطلب مساعدته، لكنها سبقته بطرقة عالية نوعًا على بابه، أذن لها بالدخول وهاله ما رأى من توتر فوق ملامحها، نهض و اقفًا بسرعة وسأل قبل تتحدث هي:

"مالك يا نانسي في إيه؟"

ازدردت لعابها بصعوبة، ألقت الكلمات دون ترابط يشي بارتباك وقلق:

"معلش يا أستاذ عمرو، مضطرة أمشي دلوقتِ، ظرف طارئ"

تحرك ليقترب منها وسأل من جديد بحزم أكبر:

"حصل إيه؟ متوترة ليه كده؟"

هزت رأسها:

"أختي الصغيرة.. رجلها انكسرت وأصحابها نقلوها المستشفى، لازم أروح لها"

رفع حاجبيه، ثم التقط مفاتيحه وأشار لها أن تتقدمه:

"طيب تعالي هاوصلك.. إن شاء الله خير"

حاولت الاعتراض وأصم هو أذنيه كعادته، ربما كان يركض نحو قدره، أو يهرول هو إليه.. وربما يجذبه بقربه.. لكنه فقط يبقى.. قدر.

******

وضرورة أخرى أباحت محظورًا، ربما ضرورتين، لكن المحظور قد تكون نهايته مميتة، هو لا يمانع، هو يشتاق، يشتاق للسهم الذي تناساه مع

الوقت، يفتقد روحه التي تنتشي فقط بعبور خط النهاية، وتستلذ بمجون السرعة وتخطي المنافسين، يحن لأيام البطولة، والمغامرة، القوة والفوز، ماضٍ قريب بعيد، أُنتزِع من بين يديه عنوة وغادره هو مجبرًا.

زيه الخاص، خوذته، سيارة ليست له لكنه سيدها وهي طوع أمره مهما عاندت، لذة متفردة على وشك البدء، وأصوات لطالما عشقها، محركات، عجلات تحتك بالأرض الصلبة، رائحة احتراق الوقود، كلها تفاصيل صغيرة، دقيقة، ربما هو فقط من يشعر بها أو يأبه لها، لكنها محركه الخاص ووقود قوته التي هو على وشك استردادها.

نقطة البداية عند خطة.. خطة مزدوجة، أحد الطرفين له فيه شريك، والآخر استأثر به لنفسه، قد يكون مخبولًا لمجازفة كتلك، لكنه الشوق الذي يمزق خلاياه، يحرق أعصابه عند كل لقاء بحلبات السباق على اختلاف أنواعها، واختبار صغير لحمقائه الهاربة العنيدة، يعلم أنه لن يعبر خط النهاية كفائز، قدرة جسده على الصمود حتى تلك المرحلة غير ممكنة، لكنه سيحاول، يبذل الجهد، يحارب، ويصنع مجده الخاص ولو دون اكتمال، دون الوصول للنهاية.

و صديقه الوفي "حسن".. نعم سيخدعه قليلًا، لكن لا مفر من ذلك، له دور هام عليه تنفيذه، وهو سينطلق، لن يتوقف حتى فقدان السيطرة

التام، ليس كما أخبره بعد أربع دورات، وخلال مدة انطلاقه سيتفوق، وعد نفسه بذلك، ودعا في سره بهمسة.. "يارب".. على الآخر إجراء مكالمة قصيرة، يثير فيها رعبها، يختبر رد فعلها، هل ستخاف..! تنهار..! تهرع إليه..! تهتف بحبه..؟!! تواجهه بجنونه فيواجهها بعشق لا مهرب لها منه هذه المرة..! أم ستكتفي بتحذير، وخط مغلق ثم إسدال ستار على حكاية من رسمه الخاص!!.

أدار محركه، انتشى بصوته العنيف القوي، سرت النشوة في عروقه بسرعة، تنفس بعمق، عمق بطيء، يعب الهواء بتلذذ، وابتسامة تحمل لمحة النصر قبل البدء ترسم شفتيه وتلهب صدره تدفعه نحو بريق انتصار يطمح إليه.. ثم في لحظات متتابعة سريعة، انطلقت السيارات، وها هو علم الإشارة ينخفض ويرتفع أمام ناظريه لتتحرك قدمه تضغط دواسة الوقود ويندفع به الوحش المعدني نحو عالمه الخاص جدًا.. عالمه الذي ولد بداخله، ويتمنى الموت فيه.

الآن.. والآن فقط عاد للحياة، نعم يعشق "مناه".. لكن هذا، هنا، ما يحدث.. كله مختلف، إحساسه مختلف، حتى نبضات قلبه مختلفة، شغف امتلكه منذ الصبا، وبعد بحث دقيق عن أحرف أو كلمات تشبه

ذلك الانفعال الناري بداخله؛ لم يجد.. فبحق الله.. لقد عاد للحياة، كيف يصف هذا إذًا؟

الأمر صعب، لكنه ممتع بدرجة تخطت المتعة في مصادرها الأصلية، ممتع لروح تقاسي معاناة الخنوع لو اقع لم يكن لها يد فيه، روح شرسة عنيفة متمردة حُبِست في قفص المرض والضعف دون سابق إنذار ودون أدنى قدرة على احتمال، روح بُعثِت من جديد بعدما انتزعها اليأس من جسده وتركه خاملًا بدونها.

دورة، ثانية وعاشرة، ورغمًا عنه بدأ الضعف يزحف بانتصار فوق أشلاء روحه التي تبعثرت من جديد، صديقه يناديه دون توقف، يطالبه بالعودة، يخبره عن جنونه وفقدانه لعقله، لكنه وكلهم لا يعلمون أن ما هو فيه الآن هو فقط الحياة، حياة نبضت بها خلاياه للمرة الأولى منذ أكثر من أربعة أشهر توقفت فيها عن الشعور، واكتفت فقط بالاستكانة لليأس في صمت.

"أحمد"

همسة ناعمة، ناعمة جدًا، وخائفة.. بل مرتعبة جدًا جدًا، صوتها، رقتها، دفئها، انطلقت تخترق نشوته الحالية بنشوة جديدة، رباه.. هي هنا.. لقد أتت، ولأجله فقط.

******

صغيرة الحجم كدمية، سمراء بدرجة جذابة، خصلات بلون ونكهة الكراميل، بنية أو ربما ذهبية؛ تثير حيرة الناظرين، وعيون زيتونية واسعة بريئة تشبه طفلة، ترقد ممددة، بوجه يمتلئ بالذنب المضحك، وقدم مجبرة، مع بقايا ملامح ألم.

هذه لمحة أولى سريعة، والتالية رسمت على شفتيه ابتسامة، في الطريق أخبرته مساعدته أن أختها الصغرى المتهورة تعشق كرة القدم، وتطور معها الأمر للعبها، وها هي النتيجة، قدم ملتوية احتاجت لجبيرة وراحة طويلة وملل تعلم أن جنونها معه سيكون الأعنف.

اندفعت نحوها شقيقتها تطمئن، تلوم وتؤنب، ثم تعود بعد ظهور دمعات لامعة بمقلتي الدمية اللامعتين لتضم وتواسي وتحنو، وقف يراقب بصمت، يبتسم برقة، حتى نظرت إليه بتساؤل.

لوح بكفه و ابتسامته تتسع واهتمت الكبرى بإتمام تعارف بسيط، أومأت برأسها هي بخجل من وضعها أمامه، اقترب هو بهدوء:

"بتحبي الكورة؟"

لمعت عيناها حماسًا بشكل مفاجئ، تهز رأسها بنعم وترد بحيوية:

"طبعًا.. هو في حد مش بيحبها..!"

دنا أكثر يسحب مقعدًا جلس فوقه بالقرب من فراشها، يبدأ حوارًا:

"وزملكاوية بقى ولا أهلاوية؟"

بنفس الحماس والبريق الطفولي:

"زملكاوية أكيد.. هو ده سؤال!!"

رفع أحد حاجبيه بطريقة ساخرة أغضبتها، مطت شفتيها بفهم مكملة:

"و أنت طبعًا أهلاوي..!"

تقولها كخبر وليست كاستفهام، لتعود ابتسامته، وهنا تدخلت "نانسي" معنفة:

"منة أنتِ زودتيها.. بابا هيزعل منك جدًا"

عادت تمط شفتيها ببراءة وملامح آثمة تغزوها:

"طيب أعمل إيه؟ ما هو أنا كلمتك أهو، ما اتصلتش بيه ولا حتى بيلي.. قلت أكلمك أنتِ عشان تقولي لهم"

أنبتها بعينيها، فنكست رأسها تهرب بعيدًا عن نظراتها، تأملها هو وبسمة كبيرة ترتسم بداخله، تختلف عن شقيقتها النارية، طفلة لذيذة، تربو

لمرتبة شقية مزعجة، عنيدة، كم تمنى لو لديه أختًا صغرى مدللة تشبهها، التقت بنظراته الغريبة نحوها فعقدت حاجبيها وأدارت وجهها، ليرفع هو حاجبه ساخرًا من جديد، تابع حديثهما بنصف أذن، وعقله يرحل حيث أخيه الذي أخبره بخطته المجنونة، حاول منعه، لكن الوقوف أمام طوفان جنون عاشق.. هو المحال، عاشق وزع قلبه بين هدف حياته وذاك سابقًا كان الأوحد، وبين هدفه الجديد، الذي شارك الأول اهتماماته، انتبه فجأة.. ترى من هذا ال"بيلي" الذي ذكرت اسمه؟.

******

جنون..!

ما يجري هو جنون بالمعنى الحرفي للكلمة، قبل ساعات هددها بملكية لا تنتهي إلا بموته، والآن يحاول تمزيق الصك الأبدي بانتحار، هو يعلم يقينًا أنه لن يستطيع.. يعرف بالمدى الذي وصل إليه، فماذا إن كان ما يقوم به أكثر صعوبة ويتطلب جهدًا أكبر ووقتًا أطول..! إذًا هو يهددها..! ليس بضعيف ليقدم على أمر كهذا.. أهي خطة ما للإيقاع بها وانتزاع اعترافها؟ ستذهب الآن ثم تجده واقفًا بانتظارها، منتشيًا بانتصاره.. فقدومها هلعًا من خطر يحدق به هو أكبر اعتراف يمكن أن يناله.. صحيح..!

وصلت للعنوان الذي منحها إياه صديقه، وجدت الصديق باستقبالها ولا تدري كيف عرفها..! فكرة الخطة المدبرة تزداد تعمقًا في عقلها، هرولت معه حيث يمكنها مخاطبته، في منطقة الصيانة وبعد تصريح موجود باسمها.. وهذا أغرب، تناولت "ميكروفون" متصل بسماعات وضعته فوق رأسها، ترددت، ابتلعت ريقها بصعوبة، فتحت شفتيها تناديه لكن الحروف تعثرت على طرفيهما، ثم دفعة بسيطة تمثلت في رجاء متوتر وصلت لأذنيها:

"أرجوكِ كلميه، أحمد مش هيستحمل كل ده، كده عشر دورات، أنا خايف عليه"

رفعت عينيها إليه، صرخت بقلبها "أحمق" بينما تهمس شفتاها باسمه، وبعد الهمسة سكون تام، لم يرد، أو ربما لا يصدق، أو ما يثير جنونها أنه يعاقب.. يعاقب بفراق قبل أن يبدأ اللقاء، همست بغضب:

"أنت مجنون..!!!"

تبًا.. وكأنها لا تعرف، وكأنه غير موقن من ذاك الاتهام.. هو واقع، لكنها فقط لا تتفهمه، لا تتقبله، والآن تصرخ، تصيح، تغضب أكثر، وتهتم لأمره.. لكن كل هذا لا يهمه، هي له، سيحصل على اعترافها الآن رغم

ضعف يتربص به.. همسته أتت حازمة، خافتة، قاطعة، سؤال ينهي الأمر، والنتيجة لن تكون سوى جواب صريح ربما لا يمكنها منحه إياه:

"بتحبيني؟"

سكت دهرًا.. ونطق كفرًا؛ أهذا ما تفتق عنه ذهنك يا عبقري؟ لمَ لا تعود ثم نتناقش، كادت تصرخ ثانية، تعنفه، تتهمه بالأنانية، باللعب بقذارة، بالضغط على بقايا تماسك هشة تدعي صمودها.. مع طول صمتها اكتنفه الغضب، لقد كان واهمًا.. هي لن تجبن الآن وحياته على المحك، هي فقط ترفض، وهو ببساطة خدع نفسه ومضى للنهاية مصدقًا كذبته.

سكنت وصمت، أشار لها الصديق على سيارته بينما تمر بهما كصاروخ يسير على الأرض، عندها تثاقلت أطرافه أكثر، انتشر الخدر بطول عموده الفقري، والعرق أغرق جبينه وسال نحو عينيه، تعالت أنفاسه لتقطعها بعنف أحرفها المعدودة:

"بحبك"

نعم قليلة، دامعة، خائفة، قلقة، ترجوه الرجوع، هي تحبه واعترفت، ذهوله زاد من تشنج جسده، فاندفعت السيارة تتحرك فوق المضمار كلعبة ألقى بها طفل مشاغب، وتعالى مع قرب غيابه عن الوعي صراخها المذعور:

"أحمد..!! في إيه؟ رد عليَّ.."

ولم تنل ردًا، تناديه دون جدوى لوقت لم تعلم مداه، لكن "حسن" نبهها لاستعادته السيطرة في النهاية، اقترب من منطقة الصيانة، وهناك تبادل مع زميله الأماكن بعدما رمقه بنظرة ساخطة لم يلحظها، اقترب من مكان وقوفها ببطء، يتخطى المحيطين به كأنه مُسَيَّر إليها، كأنها تميمة حظه الذي منحه ابتسامته أخيرًا.

وقف أمامها بعد خطوات مترنحة، ينظر نحوها لثوان من خلف زجاج خوذته، خلعها ومنحها مباشرة النظرة، يتأملها بنهم عاشق، وتتأمله بلوم حبيبة تخاف على حبيبها.. همس بتساؤل قلق وكأن حياته حتى النهاية تعتمد على جوابه القصير:

"هتتجوزيني؟"

ضمت شفتيها بين أسنانها، تستمتع بنظراته القلقة قبل أن تمنحه جواب الشفاء بهزة رأس موافقة وهمسها باتهام لم تتوقف عن ترديده:

"أنت مجنون"

لمعت عيناه بردها، و اقترب خطوة أخرى يرد اتهامها:

"جنوني أنتِ"

ولم يزد حرفًا تاليًا.. سقط أرضًا غائبًا عن وعيه.. وآخر ما تعلق بسمعه نداؤها باسمه قبل يصطدم جسده بصلابة الأرض في قسوة.

******

السباب يريح قليلًا، ظلت تسبه طوال الليل، سهرت إلى جواره بادعاء طبيبته، هو نائم، جسده مرهق بشدة، وهي فقط تود لو خنقته، المتهور الأرعن وصل بطاقته للدرجة القصوى فحدث بعدها الانهيار، والآن عاد للخلف كثيرًا في برنامجه العلاجي، لذا فهي غاضبة و أيضًا بشدة.

نظرت إلى ملامحه الساكنة، لا تشي ببراءة أبدًا حتى أثناء نومه، بل تكاد تنطق بالوقاحة، لمحة المكر الذكوري التي تجذبها رغمًا عنها، والشفاه المضمومة بشكل خبيث مطلق، مدت يدها تريد تلمس وجهه، أمامه بمقدار ضئيل توقفت، ترددت ثم تراجعت و ابتعدت بعينيها في خجل.

هذا غريب، هو لا يراها فلمَ تخجل منه؟ تنهدت بصوت مسموع وسبته ثانية ثم أغمضت عينيها تسرق مقدارًا من النوم قبل أن يفيق هو ويسلب ما تبقى من عقلها.. ذاك المجنون.

قبلها استيقظ هو عند الشروق، وكانت أجمل لحظة، لقد فتح عينيه ليراها.. هذا حلم تحقق، أو ربما هو لا يزال يحلم، تطلع حوله، هو بمشفى، ممدد في فراش المرض مجددًا.. كم يكره ذلك، عاد بناظريه إليها، نائمة

بملائكية.. ملامحها الرقيقة تبدو متعبة، ووضع رأسها غير مريح.. هذا بالتأكيد حلم، فهي لن تسهر إلى جواره، قرر اتخاذ خطوة لتمييز الخيال الذي امتزج بواقعه، قرص نفسه فتأوه بخفوت، إذًا هو واقع يا أبله.. وكاد يضحك ساخرًا.

لقد نجحت الخطة، تحدى خوفها منه وهروبها الدائم.. وراهن على خوفها عليه، ثم ربح الرهان، وياله من مكسب..! التوت شفتاه بابتسامة لعوب، حاول النهوض من الفراش متسائلا بفضول.. جميلته النائمة..

"ماذا لو أيقظها بقبلة؟"..

ارتكن لمرفقيه ولم يستطع التحرك أكثر، اللعنة.. ليس الآن، تحامل على نفسه أكثر ورفع جسده بقوة أكبر، هاجمه حينها ألم شديد فكتم تأوهه خوفًا من استيقاظها، إن لم يقترب ويخوض لذة تجربة التذوق، فليكتفي بمتعة النظر.. وهي حقًا متعة خاصة للغاية.

استراح في فراشه، مرت ساعة كاملة عيناه فيها لم تحيدا عن وجهها الساكن في رقة، لكنها عندما تفرق جفنيها أخيرًا والتقت بنظراته انتفضت جالسة باعتدال وتوتر، احمرت وجنتاها بسرعة وحادت هي بعينيها، ضحك بمرح شديد رسم الغضب على ملامحها، ابتلع ضحكته ولم يغازل بل تساءل بجدية:

"هو إيه اللي حصل لي؟"

هزت كتفيها ببديهية:

"جسمك ما استحملش المجهود و أنت ضغطت عليه بزيادة، رجعتنا لورا كتير بسبب تهورك ده"

لمعت عيناه بخبث عاشق، واكتسبت نبرته وقاحة أصبحت تميزها في الهواء:

"ما استحملش؟ طيب إزاي؟ ده أنا حتى عريس جديد قريب، في أمل يا دكتور؟"

عاد الاحمرار لوجنتيها بنظرة مؤنبة فغمرها بضمة دافئة من نظراته، وتحدث بهمس هذه المرة:

"أنا ما ينفعش أعيش من غيرك يا منى.. تهور، جنون، المهم تبقي ليَّ"

ازداد خجلها، وذاك الجريء لا يرحم، قررت تغيير نمط الحوار، ومواجهته بما تظن:

"أنت دخلت السباق اختبار لرد فعلي صح؟ خطة عشان تخليني أعترف"

مط شفتيه ببراءة مفتعلة:

"تعترفي بإيه؟"

وكأن سؤاله تأكيد لأفكارها، أصابها انفعال غاضب:

"أعترف إني بـ..."

وتراجعت بعد وضع التحفز، تستحي من جديد، وتأخذ من الصمت مسلكًا آمنًا، لكنه لن يتركها تفعل بالتأكيد:

"عاوز أسمعها تاني"

رفعت عينيها إليه فابتسم بترجي جعلها تعاند أكثر:

"في أحلامك"

ولَيَّة الشفاه الماكرة تعود بجوابه الأكثر جرأة عن سابقه:

"ما قلت لك بلاش أحلامي، ولو إنها قربت تبقى و اقع"

وأغمض عينيه بتلذذ لأفكاره غير القابلة للذكر مما جعلها تتطلع إليه في عدم تصديق، تهمس من بين أسنانها تحاول كبح الخجل المسيطر عليها كأنثى تتلقى لأول مرة عبارات الغزل:

"وقح"

فتح عينيه فجأة وضحك بلؤم:

"عارف"

وهكذا انتهى الأمر، دون أن تحصل على جواب شاف، لكن فقط قلبها الأحمق يرقص طربًا، بينما هي تشعر أنها تولد من جديد، ظل ينظر إليها في شرودها، يود لو قفز داخل عقلها، يمسح ذكريات الألم القديمة وملامحها التي ظهرت على وجهها متمثلة في خوف، كأن ثقتها المكسورة أثمن من أن تمنحها لأحدهم، تخشى تكرار التجربة، أقسم بداخله أن يغير كل ذلك، أن يكون هو الأوحد، المتمكن من خلاياها، من عقلها وروحها وقلبها وجسدها، من كيانها كله بذراته، من كل شيء.. تعهد على نفسه بمنحها عشقًا لم تتخيل وجوده سوى في أساطير الخيال القديمة، أن يمحو ذكرى الألم.. ويزرع نفسه مكانها.

فتح الباب فجأة لتندفع منه "أميرة" بقلق واضح وهتاف خائف:

"أحمد..! حبيبي حصل إيه؟"

وارتمت فوق صدره باكية، الأخرى تر اقب بذهول مكبوت وغضب يتفجر بداخلها، وهو يضم الصغيرة ويربت بحنان فوق كتفها بهمس:

"أنا كويس يا ميرا ما تقلقيش"

وحانت منه نظرة نحوها لتتفجر بداخله هو سعادة، هي تغار كما أخبرته أخته، يشعر بها تكاد تنقض على عنقه الآن تمزقه ثم تخبره أنه خائن ككل فصيلة تحمل الكروموسوم "Y".. ابتسم معرفًا بسرعة رغم استمتاعه بنظراتها النارية:

"أميرة يا منى، بنت دكتور علي وأختي"

حركت وجهها بتساؤل أجابته "أميرة" هذه المرة:

"أخته في الرضاعة"

وابتسمت تمد يدها تصافح، وتتم تعارف بسيط، الآن وضحت الصورة، والأحمق تركها للظنون تتآكلها حتى أوشكت على ارتكاب جريمة تزهق بها روحه، نظرت إليه لتلمح لمعة انتصار في عينيه، يبدو أنه سعيد لأنها غارت، حسنا.. سأوريك..! كيف ومتى لا أعلم، لكنني سأفعل.

غادرت الأخت، وجاء زملاء، رحلوا وبقيت هي، تهتم به وتعتني بأمره، قرب نهاية اليوم جذب يدها يقربها منه فكادت تسقط فوق الفراش، سحبتها تتراجع للخلف لكنه هتف بمكر:

"إيه بس استني، باشوف دبلة الدكتور"

انتزعتها من بين أصابعه بقوة، وأدارت وجهها في خجل.. ربما يغضب لكنه يستحق:

"مش موجودة.. الخطوبة انتهت يوم ما قابلتنا في الكوفي شوب"

اعتدل بطريقة مفاجئة أصدرت منه تأوهًا خافتًا جذب انتباهها بالتفاتة واهتمام قلق:

"مالك في إيه؟"

زم شفتيه متألمًا، ضغط أسنانه وتحدث من بينها بغضب واضح:

"وكل ده سايباني أتعذب..!"

هزت كتفيها تخبره في وضوح صريح بعناد:

"مين قال إني كنت هاو افق أتجوزك أصلًا؟ الموضوع مالوش علاقة بيك، يخصني أنا وبس"

تطلع إليها في دهشة مصطنعة، وضع كفه فوق صدره عند موضع قلبه:

"أووووتش"

رفعت حاجبيها تغيظه، فأردف يعاندها هو الآخر:

"غصب عنك أنتِ ليَّ مهما حاولتِ"

ابتسمت هي بتسليم، وعانقت الأرض بنظراتها تعترف بو اقع لا فكاك منه:

"عارفة"

ونبض قلبه بعنف، يا إلهي الآن يلعن المرض أكثر، فقط يود لو يفقز خارج فراشه ويضمها إليه، يحتويها بالقرب من قلبه النابض لها بجنون الآن، ويسمعها ماذا تفعل هي به..!

"منى.. أنا عاوز أرجع مصر بكرة"

فاجأها بالجملة، فنظرت إليه في تساؤل، أجابه بسرعة وحزم:

"عاوز أقول.. قبلت زواجها"

لم تفهم فزاد:

"عاوز مأذون يا منايا"

هتفت تحدق فيه كأنه مجنون بالفعل:

"مأذون..!!"

ابتسم يشاكسها:

"أيوة.. مش عارفاه؟ بيبقى معاه دفتر كبير كده وبيجوز الناس"

ضحكت بشدة وضحكتها حلقت بقلبه نحو السماء:

"أنت مجنون..!!"

تأملها لثوان في صمت، أجاب بلهجة عاشقة:

"بيكِ يامنى.. بيكِ وبس"

ذهول، صدمة واتهام بالجنون من جديد، لكنه العنيد، تسلل إليها بهمسه، وجابهها بعناد أكبر، ثم محاولات إقناع، نظرات عاشقة جريئة، فرضوخ وتمرير للأمر، وربما رغبة في القرب.. لقد ضاع من الوقت الكثير، وأخيرًا ستكون له.

******

"أنت بتستهبل يا أحمد.. هي غلطتي من الأول إن و افقتك على حاجة زي دي"

وفي النهاية حظى بانفراد بصديقه المجنون لأنه لن يفضحه أمامها رغم ثقته في ذكائها الواضح، لكن يبدو أن الحب كما يقولون.. أعمى ويصنع المعجزات، المعادلة بسيطة.. هي تغاضت عن الأمر، لأنها تحب.. لكن صديقه المجنون تمادى كثيرًا، ولابد من تأنيبه بشدة.

جاوبه الصديق بتنهيدة حارة تبعها رد يوضح به موقفه:

"حسن.. أنت عارف إن دي حياتي، يمكن قلت لك مش هازود، بس وقتها ما حسيتش بنفسي وما قدرتش غير إني أكمل"

سخر منه يكذبه:

"بجد...!! وأنا المفروض أصدقك؟ أنا متأكد إنك كنت ناوي من الأول تكمل، أنا غلطان إني سمحت إنك تعرض حياتك للخطر، بس غلطة مش هتتكرر"

عاد يزفر بحنق:

"خلاص يا حسن ما أنا كويس أهو، والخطة نجحت، وعاوزين نتكلم في المفيد"

بعد تطلع متسائل حانق وساخط دون حديث أجاب سريعًا:

"عاوز أرجع مصر بكرة"

اتساع عيني صديقه أنبأه أن جنونه قد زاد عن الحد فلاحقه يكمل دون منحه فرصة للاعتراض:

"عاوز أكتب كتابي عليها يا حسن، مش هاطمن إلا وهي ملكي بجد، خايف تهرب تاني"

سأله بحنق:

"وترجع إزاي يا عبقري بحالتك دي؟"

رد بحزم:

"طيارة خاصة"

وخطة بسيطة، خطوات أبسط، ومكالمة هامة مع الشقيق الأصغر انتهت بترتيبات عالية السرية، تختصر الوقت، وتمنحه ملكية تراود أحلامه حتى أصبحت محض هوس، لكنه من جنة يتمناها معها، وطمع يصل حد جشع لعشق بينهما لن ينضب أبدًا.

(20)

وأصبحت زوجته

رجل يحمل دفترًا كبيرًا، عناق كفين أسفل منديل..

"زوجتك ابنتي" .. و.. "قبلت زواجها"..

توقيعه يجاور توقيعها، و اقترن الاسمان بميثاق غليظ، والمفاجأة هو بفراش المرض.. وهي هائمة بدنيا جنونه، تحلق فيها بسعادة يخالطها خوف من مجهول قد يأتي في الغد، فيذيب شمع الجناحين.. لأنها اقتربت للغاية من شمس حبه، وفي النهاية تمسي إيكاروس آخر فتحترق وتسقط حتى النهاية المميتة بحق.. هذه المرة.

لكنه، وبزرقة السماء التي تحتوي الشمس، القمر، الكون والمجرات بأكملها بين جفنيه، يمنحها الأمان، ويعد بإخلاص، وعشق لن ينتهي إلا بنهاية نبض القلب، لا يقتصد في تأملها بالكامل بطريقته الجريئة جدًا، يعلمها أنها خاصته الآن، أن كل نظرة، لمسة، وما ينتويه بعدها، هو ملك

خالص له، ولن تملك حق الاعتراض.. فالصك مختوم وممهور بتوقيع العاشقين.

ووالدها الذي سايره بطريقة غريبة، تنظر إليه بدهشة فيقابل عينيها بحنان و ابتسامة غامضة تشق شفتيه، والدته الأدرى بابنها تتبع خطو اته هي الأخرى، وأخيه الأصغر ذلل له كل العقبات، وسار على درب الجنون حتى وصلا للوطن في اليوم التالي، تذهب هي إلى منزلها في مفاجأة للأب والابن، ويبيت هو في المشفى حتى يسترد عافيته، أما عمه الغريب، الحازم ذو النظرات الصارمة، تفحصها لمرة واحدة ثم هنأه.. وهمس لها بكلمة اقشعر لها بدنها رغم فرضية المدح فيها.." لقد أحسن الاختيار لأول مرة".. لم تفهم، لكنها ابتسمت له بارتباك وصمتت، العم على علم بخبايا الماضي، فلمَ عساه يعارض إن كان الابن يسير في حذاء أبيه..!

وبعد نهاية المعمعة، رحيل الكل ما عدا الوالد الذي شد على يديه يهمس له بكلمات لم تتبينها، لكنه على الأرجح يوصيه بها، اتجه نحو الباب مغادرًا، ازداد توترها فجأة.. سيتركوها وحدها معه، رغم أنه بالمشفى، أن لا خوف هنالك، لن يتصرف بحمق ورعونة كعادته، لكنها أسرعت الخطى خلف الأب وهو ير اقبها بتلذذ تهرب منه ثانيةً، والتواء شفتيه بابتسامة عابثة ماكرة يحث قلبها على الركض خلف نبضاته دون أدنى لحاق بها.

توقفت بالخارج و أبيها يلتفت إليها بابتسامته المطمئنة ولمحة الغموض التي لا تفهمها للآن، بادلته إياها في ارتباك، وسألت بخفوت حائر:

"و افقت بسرعة قوي، لدرجة كتب كتاب في المستشفى..!!"

اقترب منها، رفع كفه اليمنى يحيط بها وجنتها اليسرى، يداعب أعلاها بإبهامه فاستكانت للمسته، جاوبها بهدوء وتفهم العالم ببواطن الأمور:

"اللمعة اللي في عينيكِ دي؛ عندي بالدنيا، تخليني أو افق على أي حاجة عشان أشوفها على طول موجودة"

تطلعت إليه بحيرة أكبر، أردف يشرح لها ببساطة بعد أن طبع قبلة على جبينها:

"لمعة رجوعك للحياة يا منى، عينك فيها حيوية ما شفتهاش من أيام فرحتك بتحقيق حلمك ودخولك كلية العلاج الطبيعي"

ابتسمت وتحولت تلك اللمعة لدمعة امتنان، مسحها بطرف أنامله ويكمل همسه الحنون:

"لأ.. من دلوقتِ ورايح.. سعادة وبس، حتى دموع الفرح ما تسمحيش إنها تهزم جفونك"

رمت بنفسها فوق صدره، تستمد منه دفئه وحنانه أكثر، ربت على كتفها برفق ثم أبعدها عنه، يبتسم، ويرق قلبه أكثر.. وينهي الحواربكلمة:

"عيشي"

وتربيتة أخرى فرحيل، راقبت خطواته المبتعدة ثم استدارت تتطلع لباب الغرفة المغلق، قلبها يخفق بقوة، يكاد يقفز خارج صدرها، يعاندها بشماتة.. "لقد فزت".. والانتصار هنا، ليس معناه هزيمة عقلها، بل هزيمة أشباح الجبن التي طالما سيطرت على حياتها، وأولجت خناجرالألم في صدرها كل حين، تحركت تذهب إليه، تشعر بخجل شديد، يملأها ترقب لما تظن أنه يدوربذهنه، وتعض شفتيها تكبح حمرة وجنتيها.. لكن لا أمل.

دلفت للغرفة بهدوء لا يعكس تلك الثورة النارية في أوردتها، ابتسم لها دون تعبير واضح، اقتربت، تعلقت عيناها بعينيه، سلبها سيطرتها على الأمور، وأضحت الأميرة المغرورة أسيرة فارسها الهمام، جلست على مقعد مجاورلفراشه، تختلق حوارًا لا داعي له:

"عامل إيه دلوقتِ؟ ما كانش المفروض تسافربحالتك دي..!"

هزكتفيه بلا معنى، لكن رده ألجمها كعادته:

"أي حاجة في الدنيا مقابلها أنتِ.. أرخص بكتير من إني أهتم بيها.. حتى أنا"

خفضت نظراتها تهرب من اقتحام عينيه لروحها، مال في جلسته يقترب منها، مد يده يرفع ذقنها، استسلمت لأصابعه، بينما يأسرها من جديد بين جفنيه، هز رأسه باستغراب لم تفهمه، وضحكة مبتورة تخرج من بين شفتيه صاحبت غمغمة:

"مش مصدق..!!"

أسرته وجنتيها بحمرة أسرعت بوتيرة دقات قلبه حتى تخطت حاجز الجنون، اعتدل ينزل قدميه من فوق الفراش، هي مسلوبة الإرادة أمام تأمله لها، وهو غائب في متاهة العسل السائل في مقلتيها، تحامل على نفسه ليقف، جذبها إليه برفق، تقف في مواجهته دون حديث، اكتفيا بلغة لا حروف لها ولا كلمات، لغة صامتة تعبر المسام وتخترق حواجز التواصل الطبيعية بين البشر، لغة تنبض بعشق، لا تحتاج أبجدية لتصرح به.

وجدته يمد أصابعه بتمهل نحو أطراف حجابها المحكمة أسفل ذقنها، ابتعدت خطوة تمنعه وقبل أن تنطق بحرف ضم شفتيه بقوة صاحبت لمسة سبابته فوق شفتيها وهزة رأسه النافية، مع همسة آمرة حازمة:

"لأ.. ما تتكلميش"

حاولت فتح فمها من جديد فضغط بسبابته بقوة أكبر يكبح حروفها وعينيه تكتسبان لمعة صارمة:

"ششششselect"

ارتبكت أكثر لكنها استجابت لطلبه، هي زوجته الآن.. فما السبب الذي يمكنها منحه إياه للرفض؟ ولأنها لا تدري غرضه بالضبط..! اكتفت بالصمت والاستسلام لحركات أنامله، تحتك بنعومة ذقنها في لمسات خاطفة، تسري لها رجفة في جسدها كله.

الآن فك وشاحها المحكم حول رأسها، أزاحه ببطء يكشف عن خصلاتها العسلية المعقوصة بربطة ذهبية تنسجم معه بفتنة، تنهد براحة كأنه راهن نفسه على شيء ما.. وربح الرهان، حرك أصابعه وفك الرباط، انساب شعرها بنعومة فوق ظهرها، شعرت به يحبس أنفاسه، يمد يده ببطء شديد، يتخلله بأنامله ويسري فيه بسلاسة، جذب منه خصلة قربها من أنفه، تشممها بعمق وعاد يحبس العبق داخل صدره، يغلق عينيه على حلم تجسد بين يديه، وللآن لا يكاد يصدق.

بينما يغرق هو في عبيرها كانت هي تكاد تسقط أرضًا، يديها متيبستين إلى جوارها، يتملك من وجهها بيد والأخرى تمسد خصلاتها، تغمض عينيها

تخشى نظرة عينيه، وهو مستمتع بجبنها وهروبها المعتاد، ابتسم بلؤم، ثم انحنى يهمس بجرأة قرب أذنها:

"عينيكِ..! أعتبرها دعوة؟"

شهقت تبتعد عنه لكن أنَّى له والسماح لها!! هبطت كفه سريعًا تتملك من خصرها تقربها منه، وهذه المرة ألصقها به، ولم تجد بدًا من ضم قبضتيها ودفعه في صدره تهمس باسمه في ضعف أنثى؛ تتعرض لغزو من عنفوان رجل.. هو عاشقها، وبالطبع لم يتزحزح قيد أنملة، بل بدا منتشيًا بخجلها، مستمتعًا بطرد فكرة الهروب من رأسها العنيد، رفعت وجهها تحاول الرفض، الحديث، لكن سبابته ذهبت هناك ثانية وهمس بأمر:

"ما تحركيش شفايفك..!"

اتسعت عيناها بلا فهم، تنهد، اجتذب الهواء يملأ به صدره، واستقرت نظراته عند شفتيها لتخمن نيته، ازدردت ريقها بصعوبة بالغة، قلبها في مقابل قلبه يتشاركان لغة صراخ النبض، بدا كأنه في صراع ما، ينظر إليهما كطفل محروم يشتهي طبقًا من الحلوى، ثم يعود فيخشى أن يلتهمه دفعة واحدة، أو ربما يجري عملية حسابية معقدة، كيف ستكون؟ وما تأثيرها؟ لا تعلم بالتحديد..! رغبت بالكلام، تنادي اسمه، لكنه زم شفتيه وهز رأسه نافيًا برفض قاطع:

"لأ..!"

وودع آخر فرصها قاطعًا عليها طريق الممانعة أو حتى التدلل باقتراب بطيء، انحنى، يدنو، يشتهي، يتملك، والتقى جفناها في استسلام تام لمالك القلب والكيان، لمسة خفيفة دافئة كأنه يجرب، يختبر، يحسب النتائج ويترقب العواقب، عواقب قبلتها على قلبه، الدقات بين ضلوعه تكاد تحطمها، وتنزع الروح من جسده.. رُغم بساطة اللمسة.

ابتعد بمسافة أنفاس، أنفه تلامس أنفها، عيناها تخفيان لمعتهما الصافية عنه، لكن خصلات العسل تكفيه الآن، لون أحلامه.. وقد لمسه واقعًا ، والآن حلم جديد يستقر بسكون بين ذراعيه في انتظار الحسم، الوسم النهائي، والتوثيق الحقيقي لصك التملك، عاد يقترب لكن قبل أسطورة على وشك البدء تنفس بعمق كأنه إجراء وقائي لغياب متوقع للهواء عن صدره بقربها، ونهل من عسل آخر يشبع توقه نحو تذوقه منذ راودت أحلامه بطيفها تجبره معها على الغوص في دنيا الغرام، ثم تعلن ملكيتها لقلبه المبتدئ في مدرسة العشق.

يقاوم نفسه، حواسه، جنونه وشغفه، ابتعد يا أحمق!! كفى، ستخيفها.. هذا ليس بالمكان المناسب، قد يفتح أحدهم باب الغرفة الآن، أنت لا تحلم، أفق من غيبوبتك.. نداءات تحولت لصراخ داخل عقله المفقود في

متاهة بين شفتيها، سحقًا..! هو يحاول، لكن جسده كله يأبى الطاعة، يعاند بعنف، ويهزم عقله المتخاذل.

دفعة واهنة أخرى من كفيها الصغيرتين تبعده عنها أفاقته، استجاب لها ببطء جالبًا كل ما أمكنه استحضاره من قدرة على ضبط النفس، يلهث يشبع صدره بالأكسجين، وهي تغض الطرف وتلاحق أنفاسها المتسارعة، يرتب ذهنه المشوش، ويعمل على استعادة توزانه المهزوم، يتنفس بعمق علَّ الهواء ينتظم في دخوله وخروجه، ورغم ذلك قلبه يعاند، يخفق بقسوة حد الألم، ويضخ الدم داخل شرايينه يكاد يفتك بها، هذا ما لم يتوقعه، أوربما ما كان يخشاه.. تأثيرسيء عليَّ جميلتي، سيء للغاية، سيء حد الإدمان.. ومن أول قطرة شهد.

ابتعاده الضئيل كان أقصى ما يمكنه احتماله، وجودها -بدفئها، برقتها، وأنوثتها التي يتذوقها للمرة الأولى- بين ذراعيه، تشتد له ضراوة تلك الحرب المشتعلة بين ضلوعه الآن، هي منكسة الرأس، يكتنفها خجل عذري لذيذ أمتعه بشدة.

ليست قبلته أو قبلتها الأولى، لكنهما معًا.. وهذا هو الفارق، هذا هو الكمال.. هذه هي حبيبته و.. زوجته، كلمة بنكهة خاصة تنتهي بهاء انتمائها له.

استند للفراش خلفه وتحرك بيديه بطول ذراعيها ليمسك بكفيها يجذبها أقرب إليه، ناداها بنعومة، رفعت عينيها في تردد تلتقي بعينيه الداكنتين بطريقة غريبة في هذه اللحظة، أو ربما المشتعلتين بنيران زرقاء تحرقها عند مجرد اللقاء، قربها إليه أكثر وأكثر، رفع كفه يحيط بوجنتها، يتحسس بإبهامه فكها أسفل شفتيها، يتحرك به يمنة ويسرة، ثم يدور حولهما، هي تجمدت تمامًا تحت لمساته، وعندما نظر إليها ثانية منحها تلك الابتسامة العابثة، ابتسمت بارتباك، وعادت تشيح بوجهها عنه، اتسعت بسمته واستغل نظرها للبعيد، ترك كفها وتحرك بأصابعه يزيح إحدى خصلاتها خلف أذنها، يقترب ببطء، ويهمس بدفء بينما أنفاسه تكاد تحرقها:

"برده بتهربي..!"

جذبت نفسها تبتعد لكنه لم يحررها، وعاد يهمس بشقاوة:

"لقد وقعنا في الفخ"

ضحكت بخفوت، تعاند بخجل:

"ممكن تسيبني..!"

مط شفتيه متظاهرًا بتفكير، ارتفعت زاوية فمه بخبث مع رده القاطع:

"لأ"

برقت عيناها واشتعل عنادها أكثر:

"أحمد..!"

تأملها كلها بسرعة وصمت، ثم استقر عند شفتيها من جديد برد حار:

"عيون أحمد"

فتحت فمها تحاول الحديث، تطلب منه تركها، أو تأمره حتى.. وكان هذا خطأً دفعت ثمنه على الفور، بجذبة قوية، ثم يمسك عنقها بين كفيه وأصابعه تنقض عهد الحدود، تغوص في شعرها، تحيط بوجهها كله، و حجب كل كلمة كانت على وشك النطق بها.. بقبلة أخرى، أكثر تملكًا، أكثر تفهمًا، أكثر استيعابًا للموقف، وربما أكثر تطلبًا ورغبة، ثم نسي نفسه من جديد لتعود هي فتدفعه برفق وتهمس ضائعة الأنفاس:

"أحمد..! إحنا في المستشفى.. ما ينفعش كده"

لم يترك وجهها، فقط استند بجبهته لجبهتها و رد بشيءٍ من غضب من بين لهيب الأنفاس:

"عارف"

ثم أبعدها عنه ببطء شديد كأنما يحارب كل حواسه وجوارحه بقوة، يعاند كيانه كله مستمعًا لصوت العقل الأحمق الذي لم يهتم له في يوم ما من قبل، يصارع رغبة قلبه في إسكانها بين ضلوعه، وأخيرا يبعد يديه عنها ويضم قبضتيه إلى جواره، الحنق يبدو واضحًا على وجهه، مما دفع بابتسامة إلى شفتيها، عندها سمعته يحتد ساخطًا:

"ما تبتسميش كده يا منى عشان هتخليني أتهور"

كتمت ضحكة كادت تنفلت منها، هزت رأسها تلملم شتات أفكارها، وتهرب بالمزاح من سيطرته عليها فقط.. بقبلة، والغريب أنها تستشعرها كأنها الأولى، أو على الأصح الوحيدة التي تلقتها في حياتها كلها، فمع مجنونها.. كل شيء مختلف.

ظل يتأملها تتهرب من عينيه في كل اتجاه بطريقة عشوائية، وذاك التأمل يدفع بدمه للفوران داخل عروقه، خصلاتها الناعمة مشعثة قليلًا نتيجة معركة صغيرة بينها وبين أصابعه، لكنها بدت الأروع والأكثر جاذبية، التقط وشاحها ومد يده به إليها آمرًا بلهجة لم يعهدها في نفسه من قبل:

"إلبسيه"

نظرت إليه دون فهم واضح، أيغار..! أم يخشى على نفسه الفتنة..! وهنا ابتسمت داخلها بخبث أنثى سعيدة.. فطنت للتو لتأثيرها على رجلها،

تناولته في صمت وأحكمته حول رأسها أمام مرآة جانبية، عاد هو يستلقي في فراشه يتابعها بعينيه، يتابع هروبها الذي أصبح الآن بنكهة مغايرة مميزة وفريدة، نكهة لذيذة يعيش معها ويستمتع بعدها بجذبها إليه رغمًا عن أنفها ورأسها الصلب.

******

كل الصغيرات مدللات، جميلات، لطيفات، والآن معاقبات..

بعدما علم والدها والذي رغم تدليله لها يحسم الأمور بجدية حين اللزوم، منعها من الخروج من البيت، بل وأخبرها أن العقاب مدته شهر وساقها المجبرة ستصبح جاهزة للعمل بعد أقل من ذلك بكثير، مما يعني عذابًا لا نهائيًا حتى قرار العفو.

هي هواية، لم ترغب باحترافها يومًا، وسبب عشقها الأبدي لها، هو أخيها الأكبر "بلال".. الشرير الذي تخلى عنها أمام الأب، ووافقه بكل جرأة على عقابه، وهددها إن لم ترتدع سيفكر لها في عقاب أكبر، يدللها هو الآخر.. لكن الآن هجرها بدعوى الاهتمام.

أي اهتمام عند المنع من ممارسة ما تحب!! بل والعقاب، قدمها هي الملتوية، نعم جبيرة، ونعم ألم شديد، لكن كله إلى زوال، فلمَ فقط لا

يتركونها تخوض التجربة بحرية!! سمعت الطرقات المتتابعة على بابها فردت بملل:

"ادخلي يا نانا"

وأمامها الأخت الكبرى بابتسامة تكاد تكون لاهية عابثة، يبدو أنها تشمت بها، صاحت فيها بنزق طفولي:

"أنتِ فرحانة فيَّ!!"

جلست إلى جوارها بالفراش، ربتت على ساقها بلطف وجاوبتها بصراحة:

"مش فرحانة فيكِ.. بس ع الأقل شايفة إن اللي أنتِ فيه صح، عشان تبطلي عناد"

أدارت وجهها تعاند أكثر وتثبت وجهة النظر، أمسكت "نانسي" بذقنها بين أصابعها تعيده نحوها، تنظر في عينيها تشاكسها:

"مونة بجد أنتِ زودتيها، حتى بيلي اتضايق لما عرف، و أنتِ عارفة إنه مش بيزعل منك بسهولة"

مطت شفتيها بهزة كتف:

"وأديني اتعاقبت أهو، كويس كده، رجلي متجبسة، وكمان بابا مخاصمني وبلال مو افقه على الحبس الانفرادي في البيت"

عادت تربت على كفها هذه المرة برقة:

"ما تقلقيش.. كل حاجة لها حل، اتسلي في باقي هو اياتك الكتير، اقري او اغلبي بيلي في البلاي ستيشن مثلًا"

هزت كتفيها ثانية دون رد، مما دفع بالابتسامة لشفتي أختها، لاحظت ترددها فحثتها برفق:

"إيه..!! عاوزة تسألي عن حاجة؟ أو حد.. معين..!"

نفت بسرعة كمقرٍ بذنب:

"لا أسأل عن مين!!"

هزت شقيقتها كتفيها بلامبالاة ونهضت و اقفة تغادر:

"ولا حد.. يلا تصبحي على خير"

وانكسر العناد عندما كادت تخطو أولى خطواتها خارج الغرفة بلهفة لذيذة:

"خلاص يا رخمة، ما سألش عليَّ؟"

التفتت تنظر إليها بخبث، تتحاذق وتثير جنونها:

"هو مين؟"

صاحت بغضب:

"نانسي..!"

ضحكت بخفوت وعادت تهز كتفيها:

"سأل، وبيسلم عليكِ، وبيقولك خلي بالك من نفسك، يمكن يزورك قريب ويجيب لك لعبة وفيلم كرتون تتفرجوا عليه سوا"

حدقت فيها بسخط واضح تصرخ بغيظ:

"كرتون..!!"

وضحكة أخرى ثم هروب قبل أن ترتطم الوسادة التي استهدفتها بباب الغرفة المغلق، كادت تحرقه بنظراتها، ثم عادت فعدلت عن الفكرة واكتفت باستعادة ذكرى يوم اصطحب أختها إليها، ثم تطوع بتوصيلهما للمنزل بعد تجبيرها، حديثه الودود معها، الذي تطور لمشاكسة ضاحكة، وتبادل السخرية كلٌ من فريق الآخر المفضل.

ثم أمام البيت أصرت شقيقتها على دعوته للدخول، رفض بحرج في البداية ثم رضخ في النهاية، وأسعدها وجوده ذاك، لأن الأب لن يعنفها أمامه على الأقل، وهذا ما حدث، وما اكتشفته أيضًا أنهما يعرفان بعضهما البعض بشكل طفيف، والدها صديق عمه، وصاحب فكرة

عمل أختها معه، رحب به الرجل بود، مشروب بارد، ورحلت هي لغرفتها وفكرة واحدة تحتل ذهنها.

هو طويل للغاية لدرجة أنها تبدو كلعبة إذا ما وقفت أمامه منتصبة القامة، أو ربما فكرتين، فعيناه السوداوين العميقتين تشعان رقة، وشقاوة فطرية أشعلت روح المشاغبة فيها، وانتهى الأمر بمشادة حارة على كرة القدم، ورغم أنه من فريق العدو، إلا أنه.. لطيف جدًا وخفيف الدم.

******

القرب اشتعال والغياب احتراق، وما بين نارين منطقة وسطى تمتلئ بالشغف والفضول..

شغف وأمنية لقاء أكثر حرارة، أعنف شوقًا، حد اكتمال وتسليم لنهاية خط لا رجعة منه..

وفضول اختلط بترقب لتجربة ملحمية هي الكمال بتقدير امتياز، ثم مسألة حسابية جمعت بين كل العمليات المعقدة التي يحتملها العقل، ويشارك فيها القلب بدور شرفي؛ هو النابض بعنف يشابه وغى الحرب.

قليلة هي الأيام التي مرت منذ اقترن اسمها باسمه، لكنها كدهر طويل الأمد، يود الوصال، يدفعه جنونه نحو تنفيذ، سرقتها، اختطافها والهروب بها، إرغامها، حملها على كتفه حتى منزله كرجل كهف وجد أنثاه أخيرًا، لكن يعود التعقل له بعد حين، هناك أولويات، قبل أن تغتنم اكتمالك بها، معها، لابد من وهبها شيء أكثر قيمة، سعادة، وعود حقيقية تستوفي الشروط وتستوجب النفاذ، و.. زفاف أسطوري.

نعم.. هي بداية جديدة لهما، هناك عملية شاملة يخطط لها في ذهنه، محو ذاكرة كلي، يزيل بقايا الآخر الهزيلة، ومكانها ستولد حكايته هو، عشقه هو، وناره هو.. يزرع نفسه ويمد جذوره في العمق حيث لم يصل آخر، ثم ينتهي به الأمر سلطانًا، وبإرادتها الحرة.

يتعافى نعم.. يتمارض..! أيضًا نعم.. وتدلل هي.. بالتأكيد، ويسعد هو بمكره الخاص.. بشدة، ربما هي تفهمه جيدًا وتسير على خطاه، وربما لا.. لكنه أسعد من أي وقت مضى، تحقيق الأحلام ليس بهين، لكن عند وصولها لذروة الامتلاك تعطي الحياة معنىً آخر، وقيمة أكبر.

يشاغبها، يشاكسها، يغازلها وبوقاحة.. تزداد جرأة في كل مرة، وذاك يضغط على قلبه، لكن تخمة السعادة التي تملأ جنبات روحه تسد ثغرات ألم بعدها المؤقت، قرارات اُتِخذت، ونهايات اقتربت، وأخيرًا ستنتظم

الحياة في دورة طبيعية.. على جانبها شيء من المغامرة التي لن يستطيع انتزاعها كليًا أبدًا مهما حاول.

بالأمس حادث متيمته "سهر" يخبرها برغبته في إنهاء عقده وعدم إتمام الفيلم، وكما توقع ثارت سخطت، ورفضت، عَرَض تعويض، والرفض هو الرد من جديد، تخبره أن القصة لن تنجح بدونه، تدور حول من يشبهه فكيف يتركهم في هذه المرحلة الحرجة..! غذت غروره قليلًا، لكنه مضطر رغم إستياءه من موقف الضغط ذاك.

قرارات مصيرية، حقيقية، لا تتبع أهواءه هذه المرة، بل تنبع من إحساس جديد بالمسئولية، وحياة أخرى ستندمج مع حياته قريبًا...

"أنت مركز معايا ولا سرحان كالعادة"

تشاغبه الآن وتمرح، طبيبته العنيدة، الجميلة، اللذيذة، الشهية، التي تثير جنون حواسه مجتمعة، وتفقده تركيزه طالما هي بالقرب، ابتسم لها ورد بعبثه المعتاد معها:

"سرحان طبعًا"

أمالت رأسها تتظاهر بغضب، فأكمل باقتراب بطيء يثير ارتجافة جسدها المترقبة:

"أعمل إيه طيب؟ مش بإيدي"

هزة رأس يائسة مستسلمة، ورد تنهي به نقاش يومي:

"طيب كفاية كده النهاردة، بكرة نكمل عشان تخرج من المستشفى بقى، ولا أنت مبسوط هنا..!"

ويقترب أكثر، ويجيب بلؤم:

"الحقيقة؛ مبسوط"

وبعدها كان أمامها تمامًا، مثيرًا خجلها هذه المرة، وكزته بقبضتها في صدره برفق تعلن غيظًا مزعومًا، ولم تغادر كفها مكانها، أمسك بها بخفة، فردها فوق موضع قلبه الذي تسارعت نبضاته بوضوح استشعرته أسفل أصابعها، والتصقت عيناها بيدها أسفل كفه، رأسها لأسفل تتفادى عينيه، تعلم كيف ينظر إليها دومًا، وتعلم كيف تتبدل تلك النظرة بقوة لشيء أعمق، أكثر حرارة وتملكًا عندما يقترب.. بهذا الشكل.

تأمل هروبها وابتسم، لا تنفك تفعل، وهو يفتأ يثابر في اقتناص عينيها باستمرار، همس لها بمرح:

"خايفة تبصي لي؟"

ولم ترد، بل لم ترمش حتى، كفه يحيط بأصابعها ويسكنها راحته الدافئة فوق صدره الذي يعلو ويهبط بوتيرة متسارعة، ناداها، دللها، بكل مصغرات اسمها، بكل تحبب، وبكل نبرة تغري وجهها بالارتفاع نحوه، حتى النهاية الشقية:

"موووووني.. مر اتي"

وهنا ضحكت، وضحكتها تملأ قلبه سعادة، وتعود بحواسه نحو حافة الإثارة الفعلية وفتيل الجنون، رفع كفها ولثم باطنه بدفء دغدغ قلبها بين ضلوعها فانتفض ببهجة سرت منه نحو جسدها كله الساكن قبالته، أمسك بذقنها يرفع وجهها إليه وبهمسة حارة نفضه بعنف هذه المرة:

"بحبك"

وهربت ثانية بعناق جفنين، اعتبره هو دعوة، أو ربما هي قصدتها، نعم تعلم أنه سيقبلها الآن، تنتظر، تترقب، وتشعر برقة اللمسة فوق شفتيها، لاتزال أنفاسه تغزو وجهها، لكنه ابتعد بعدها، فتحت عينيها بتردد والتقت بعينيه المظلمتين، قرأت الكثير وعادت ترتجف، أسرها هناك ولم تستطع الفرار، لكنه هو من أطلق السراح، ابتلع ريقه بعسر، وهمس بنبرة حادة نوعًا:

"أحسن لك تخرجي دلوقتِ؛ وإلا..."

ومال نحو أذنها يبعثر بقايا تماسكها بحرارة كلماته:

"وإلا هيبقى فعل فاضح في المستشفى"

شهقت بخجل، ابتعدت بسرعة، وهربت بالفعل، و أقفها نداء مشاكس، تلاه اقتراب، انحناء، وهمسة من خلفها بنبرة ممطوطة مداعبة:

"باموووووت فيكِ"

وقفز قلبها عند هذه المرحلة خارج صدرها بالفعل، بخطوتين كانت تفتح الباب، تغادر بسرعة، وتبتسم بعشق، وخجل أنثى تخوض مغامرة، تمر بلوثة وتعيش حالة من هوس بحبيب يدفعها نحوه كإعصار، يجذبها، يدور بها، يرتفع ويهبط، وهي تدور معه في دوامته.. دون خوف، فقط بحب مع سبق الإصرار والترصد..

وهو المجنون.. يعود ببطء فيرتمي فوق فراشه بعرضه، تنهيدة حارة من عمق صدره وحديث خافت يخاطب به ما تبقى من عقله:

"كده كتير..! أنا لازم أحدد ميعاد الفرح"

******

سوف تقتله، نعم ستفعل ودون ذرة ندم، من يظنها..!! طفلة صغيرة؟ يا له من أحمق وسيم للغاية، يقف أمامها بمهابة غريبة لا تليق بعينيه

المشاغبتين في هذه اللحظة، رباه لو وقفت ستكون أقصر من كتفه.. هذا سيء، ويأتي ليزيد الأمر سوءً بدلال يشبه دلال أخيها، حلوى، ورود، وباقة منوعة من أفلام الرسوم المتحركة، وبابتسامة أعجبتها رغم غضبها:

"ها إيه رأيك في الهدية؟ متأكد إن الأفلام دي هتعجبك"

ووضعها على طاولة تنظر إليها، ردت بتبرم:

"أنا مش طفلة عشان تجيب لي أفلام كرتون..."

وقاطعت جملتها فجأة بهتاف وميل نحو الطاولة تلتقط أحد الاسطوانات، تهتف بشغف طفولي توسعت له ابتسامته:

"إيه ده؟ ده FROZEN.. باعشق الفيلم ده"

وجوابه أغاظها:

"قلت لك هتعجبك"

وتغيظه بالتبادل:

"مش كلها، ده بس"

عاد يبتسم بمرح وشقيقتها تعنفها:

"منة..! طيب اشكريه إنه مهتم يسأل عليكِ أصلًا"

بخفوت وصل لأذنيه بصعوبة شكرته بنفس النبرة المتبرمة، لكنه لم يمانع، وجودها قربه يسعده، ويحيي بروحه طفولة شقية حرم منها بعد وفاة والده وجنوح أخيه نحو أهدافه المحددة مسبقًا، أراد ترضيتها فاقترح بجدية:

"طيب عندي فكرة، هنلعب ماتش كورة مع بعض، لو غلبتيني هاخدك ماتش الأهلى والزمالك اللي جاي، لو غلبتك..."

جابهته:

"إيه..!"

فكر قليلًا، مط شفتيه وهز رأسه بجواب محدود غامض:

"سيبيها لوقتها"

وحُضِّرت التحضيرات، شاشة كبيرة، جهاز حديث "بلاي ستيشن" .. ومقومات اللعب، وتركها تهزمه، ليهزم هو شقيقها بعدها، مرات ومرات، وربما لم تفقه حينها أن هزيمته كانت متعمدة، لكنها فقط تشعر ببهجة طفولية، و انتصار سيتبعه تنفيذ وعد.

(21)

زفاف

ليس كل جديد مبهر، وبالتأكيد ليس كل مختلف مناسب..

فالوقح لا تناسبه الغيرة، ولا تبهره نيرانها الحارقة التي تشتعل في جوفه منذ الصباح، يتلاءم معه الغضب، السخط.. و انتوى صبهما فوق رأسها، طبيبته التي لا تثير فيه سوى المزيد من الجنون على الدوام.

بداية جيدة ونهاية سيئة.. وما بينهما مزيج، يحرك فيه الكثير، ويحركه هو كريشة تتلاعب بها رياح خطرة، قوية، عنيفة.. مهلكة.

قبلها، في الليل، استودعته بهمساتها حتى بو ابة حلم لن يكون سوى معها، غازلها كعادته، خجلت بطبيعتها، ابتسم بلذة، أغمض عينيه والتقاها في عالمه الخاص ينفذ ما وعدها به قبل قليل، و ابتسامته تتسع، ولذته تزداد، واستمتاعه المشاغب في نمو.

في الصباح أيقظته كما طلب منها، لا يود سماع صوت عند استيقاظه قبل نبراتها الناعمة، وفعلت، استجابت برقتها التي تذيب أعصابه

وتتحدى تماسكه، وتبهره كعدة أشياء أخرى يختبرها معها للمرة الأولى، ولأنه يشتاقها بشدة، ولم يرها منذ أربعة أيام، فقد اتفق معها على لقاء.. والصغير، واستعدادات بسيطة، تمهد الطريق لوجوده الدائم في حياته.

وكان اللقاء، ود لو ضمها إليه ينحر شوقه القاتل إليها، لكنهما في النادي، والعيون كثر، والصغير حاضر، ابتسم له، داعبه، و انطلقا يمرحان معًا، هي تر اقب بحنو، و ابتسامة رقيقة سعيدة تلتمع على شفتيها لأول مرة منذ زمن، أمام المسبح، جلست تر اقبهما سويًا، طفلها يطفو معه، يضحك ويتداعبان بالماء، ثم بين كل فينة وأخرى يمنحها نظرة مشاغبة، أو جريئة، أو موحية، ومرة قرأت شفتيه بحركات صامتة "ليتكِ كنتِ معي هنا" فأدارت عينيها في خجل وعاد قلبها يبتهج.

في النهاية وبعدما نال التعب من "مالك" خرجا من الماء، غضت الطرف عن جسده وقطرات الماء المنسابة فوقه و اتجهت تعتني بطفلها، لاحظ هو ولم يكن ليمرر الموقف بكرم أبدًا، اتجه إليها بعدما جفف نفسه و انحنى يساعدها بافتعال فقط يريد الدخول لمجال عينيها، منحها ابتسامة مائلة بخبث وغمغم بتظاهر:

"سيبيه هاكمل أنا، بس ناوليني التي شيرت بتاعي"

ولم تمنحه نشوة الفوز، بل نهضت بسرعة، التقطت قميصه وناولته إياه في فرصة اقتنصها وسحب كفه فوق أصابعها المرتجفة، نهض يرتديه وعاد يساعد الصغيروبداخله ابتسامة تتسع، كم يعشق التصرف بشغب معها، بعبث وجرأة، ليرى في النهاية احمراروجنتيها الشهي..!

لم تستمر المتعة، ولم تكتمل اللذة، هادمها أتى من خلفه بصوته ينعق كغراب فوق مكان خَرِب، ببرود يخفي ربما غضب:

"موكا"

ينادي صغيره فترتفع ثلاثة أزواج من الأعين نحوه، إحداها زرقاء نارية بنظرة قد تكون مميتة لو فقط أتيحت لها الفرصة، انطلق الابن نحو أبيه بضحكة مرحة، تقبله هو بعناق وقبلة ثم حمله بين ذراعيه، ومنحهما نظرة حاقدة بادر بعدها بنبرة غيرواضحة المعنى:

"إزيك يا منى، أهلا يا أستاذ أحمد، معلش ما قدرتش أبارك لك بشكل شخصي، اللي عرفته إنك كنت في المستشفى، فهنيت منى"

و اقتراب بخطوة وازى كلمة باردة تخالف المقصد:

"مبروك"

لم يبتسم، لم يتحرك، ولم يصافح، فقط مراعاة للصغير رد بهدوء مفتعل:

"الله يبارك فيك"

وانتوى حرقها حية، لم تخبره أنها تلتقيه، تراه، ويبارك لها أيضًا، والآن هي زوجته، والغبي يناديها باسمها مجردًا، قاطع أفكاره المؤدية لحبل المشنقة نحوه:

"أنا عارف إنهم بيقضوا كل جمعة هنا، فجيت أتفق مع منى على...."

ونال مقاطعة بنبرة غاضبة لم يستطع كبحها فخرجت رغمًا عنه:

"مدام أو دكتورة منى"

والآخر شعر بالحرب، فقرر خوضها برعونة:

"منى.. أم ابني"

وأشهر سلاحه في وجه المشتعل الذي احتقن فهمًا لمقصد ذاك الحقير اللامبالي بما قال وأردف:

"أتفق معاها على زياراتي لموكا، والأيام اللي هنقضيها سوا"

أو ربما ليحرق أعصابه ودمه، ويلهب غضبه، ويثير سخطه فيدفعه نحو عالم الجريمة من أوسع أبوابه، وأنهى اتفاقه الذي ود لو رفضه فقط إن امتلك أحقية.. وهي ليست له أبدًا، انتهى اللقاء، وانتهى اليوم، أوصلها ونال دعوة للصعود وتناول ربما قهوة وبعض الحلوى، لكن غضبه المتأجج جعله يحجم عن العرض، رفضه وغادر تصحبه نظراتها المحتارة في محاولة للفهم، وها هو يكاد يحطم جدران غرفته، يلعن ذاك الآخر، ويود لو يحرقه حيًا.

الساعة تجاوزت منتصف الليل، الجنون على أوجه، وقرار متهور اتخذه ووضعه حيز التنفيذ على الفور، دقائق توازي المسافة بين منزله ومنزلها، ورنين هاتف انتزعها من سباتها بفزع، ثم رقمه وانقباضة في صدرها، ردت بلهفة لتتفاجأ بصوته الجامد:

"أنا تحت البيت.. تنزلي ولا أطلع لك..!!"

ألجمتها المفاجأة، هذا هو الهذيان بعينه، نهضت من الفراش تبتعد عن صغيرها كي لا توقظه، همست بحدة دون فهم:

"أنت مجنون يا أحمد، الساعة واحدة ونص!!"

لم يبالي بقولها بل أعاد بحزم أكبر:

"من غير كلام كتير، أنا طالع"

هتفت بسرعة:

"لا.. لا، هاقول إيه لبابا..!! ممكن أي موضوع عاوز نتكلم فيه يتأجل لبكرة؟"

بحسم أكبر:

"لأ"

تلفتت حولها بعجز، رباه..! مجنون، مجنون، وكادت تنطقها بصراخ.. ردت باستسلام:

"طيب دقايق و أنزل لك"

ولم تكمل الخمس بعدها كانت تجاوره في سيارته المصفوفة أمام مبناها، ظل ينظر أمامه، وهي تنظر إليه، في النهاية فقدت صبرها وسألته بغضب:

"يعني نزلتني من البيت دلوقتِ وساكت..!! ممكن أفهم في إيه؟"

منحها نظرة من قلب الجحيم، أحرقتها بالفعل وشعرت بحرارتها تلفحها في ضيق المكان، ازدادت حيرتها فظلت تبادله نظراته دون فهم، في النهاية سألها بجمود:

"شفتيه كم مرة من يوم ما رجعنا؟"

لم تتضح أمامها الصورة ولم تفهم عمن يسأل فتطلعت إليه تستوضح ونالها جواب ساخر حانق:

"الكابتن..!"

تراجعت كمن تلقى صدمة وعاد الغضب يقيم أودها لتجابه:

"أنت جاي دلوقتِ عشان تسألني السؤال ده؟ ما كانش ينفع في التليفون؟"

لم يرد وأخبرتها عيناه أن تجيب وفقط، زفرت بغيظ مستسلم تمنح ردًا :

"مرتين تقريبًا، كان بييجي ياخد مالك من البيت وبابا اللي بيقابله، أوقات باكون موجودة، فمرة منهم بارك لي وخلاص كده، ده كل ما في الموضوع"

زم شفتيه، لا تعليق، فقط نيران تشتعل أكثر.. حقا، الغيرة..! لا تليق به، هي تكاد تميته، لم يختبرها من قبل في أي أمر، والامتحان الأول معها هي، والنتيجة فشل ذريع، لأنه في هذه اللحظة يود قتل أحدهم، ثم خنقه فحرقه، وتمزيقه وبعثرة أشلائه في الأرجاء.

عاد ينظر إليها بصمت، ثوان، دقيقة، هي تنتظر بسكون، تتفهم، تسعد، بل وقلبها الأحمق يتراقص على نغمات نبرته الساخطة، عيناه بنظرتهما

الجنونية ورغبة القتل الواضحة داخلهما، لم تجد بدًا من الحديث فالموقف غير مناسب، مدت يدها تتلمس كفه الضاغطة على مقوده بقسوة، نظر إلى أصابعها تعانق أصابعه وتحاول تفكيكها واحتضانها، ثم تهمس باسمه:

"أحمد..!"

تأوه داخله بصمت مع همسها ونعومتها ورقة أصابعها تراضيه، كبح كل الشوق الذي يضنيه برد صارم قاطع لا حديث بعده:

"جهزي نفسك، فرحنا بعد أسبوعين"

حقًا..!! ضاعت حروفها تمامًا، المجنون يزداد جنونه، يتحدث عن زفاف!! والجميل.. في خلال أربعة عشر يومًا، يغوص هو في عالم الأحلام، وقت الحزم قد آن:

"فرح إيه يا أحمد وأسبوعين إيه؟ مين قال إني عاوزة فرح؟ وكمان أنا ورايا حاجات كتير لازم أنهيها قبل موضوع الجواز"

كاد يزأر في وجهها:

"الموضوع ما فيهوش نقاش، فرح وكبير.. كمان أسبوعين، و اتصرفي"

سخرت بغيظ:

"ومالك!! هيمسك لي ديل الفستان؟"

رد بحنق يجابه سخريتها:

"أو شمعة.. زي ما تحبي"

حان وقت بعض الجدية إذًا:

"أحمد الكلام ده ما يحتملش هزارولا عناد لمجرد إنك..."

وقاطعها بغضب واضح:

"إني إيه؟"

تحدته ببريق عينين أفقده صوابه:

"غيران..!"

وكان الرد قبلة في ظلام السيارة سحبت كل أنفاسها، وابتعد بهمس أذابها:

"ده قرارنهائي، كمان أسبوعين هتبقي في بيتي.. بيتنا"

والبلهاء عادت تسعد بلهفته وجنونه وتهوره ثم في النهاية تستجيب دون وعي لرغبته بإيماءة صامتة ابتسم لها وأكمل يهمس بشقاوة ونبرة مبتهجة:

"يعني الحل كان بوسة؟"

ابتعدت برأسها تناظره بحنق، تلكز كتفه المقابل لها وتهرب، يتباعد الجسدان، لكن الأرواح، القلوب، وحتى العقول في لقاء مستمر، قرب أبدي، وعشق لا يزول.

تنهد بارتياح، وعاد يبتسم، يستند برأسه لمقعده، ويستدير نحو مدخل المبنى الذي توقفت عنده للحظة تمنحه التفاتة، الصورة غير واضحة لكنها مفهومة.

تنهد ثانية بعمق أكبر، وأعطاها إشارة ضوئية بمصابيح سيارته، ابتسمت لها، لم يرَ ابتسامتها لكنه أحس بها، أكملت صعودها، وغادر هو بشعور غير الذي أتى به وإن لم ينمحي الآخر.. بل فقط توارى حتى محفز جديد.

******

الوفاء بالوعود جميل، والوعود للصغيرة الشقية أجمل وأكثر متعة، منحها نصرًا برغبته، رأى ابتهاجها به وأسعد ذلك قلبه، لمعة عينيها المشاكستين، عنادها وطفولتها، وقرر الوفاء.

أتى موعد تلك المباراة التي قررها، اصطحبها لأحد النوادي الشهيرة حيث يجتمع مشجعو الفريقين، جلسات عائلية وشاشات عرض ضخمة

تمنحك لذة المشاهدة وإن لم تكن حاضرًا في المكان الفعلي، وصلا مبكرًا بعض الشيء، اختارطاولة مناسبة، وجلسا يتحدثان قليلًا قبل البدء.

تتلفت حولها تتابع الجمع، ينظر إليها مبتسمًا، يراها تهرب.. وهي تفعل، الصغيرة المدللة تخجل، ولأنه هو فقد قرر منحها المزيد منه، مال نحوها عبر الطاولة، نقر بأصابعه فوقها يجذب انتباهها وبدأ غزوه الذي كان بالنسبة إليه حديث لطيف:

"بتدوري على حد؟"

نظرت إليه دون فهم فأومأ موضحًا:

"بتتلفتي حواليكِ كتير"

هزت رأسها تنفي:

"لأ.. بس مستنية الماتش يبتدي"

تراجع في مقعده يجيبها:

"هانت"

صمتت قليلًا كأنما تفكرفي أمر ما، ثم سألته:

"أنت مدير نانسي؟"

جاوبها بدهشة مصطنعة:

"ما أنتِ أكيد عارفة"

شعرت بالغيظ، فهي لا تجد ما تقوله وكان أول ما نطقت به غبيًا للغاية:

"أنا عارفة بس مستغربة، شكلك صغير إنك تكون بدأت الشركة من الصفر"

اعتدل ثانية، نبرتها وتعليقها على سنه أثارا حنقه، فرد بدفاع:

"جايز هي في الأصل لوالدي، بس أنا اللي مسئول عنها دلوقتِ وناجح جدًا في المسئولية دي"

مطت شفتيها فرحة بغيظه:

"أنا ما قلتش حاجة.. ده مجرد سؤال"

رمقها بنظرة باردة ولم يعلق، سألته ثانية تدعي المرح، فقد أحزنها أن أغضبته:

"عندك أخوات؟"

رد باقتضاب كأنه يعاقبها:

"أيوة، واحد"

هزت كتفيها و ابتسمت ببراءة:

"أصغر ولا أكبر؟"

عقد حاجبيه لا يفهم الغرض من سؤالها:

"أكبر"

استزادت تملأ فراغ الوقت:

"بيشتغل معاك في الشركة برده؟"

هز رأسه نافيًا وفقط، وقبل أن تسأل المزيد منحها رد غير متوقع:

"بطل سباقات"

رفعت حاجبيها في دهشة، فاستغلها:

"هي نانسي ما اتكلمتش معاكِ عنه؟"

أجابته بهزة كتف لا معنى لها:

"لأ.. وهتحكي معايا عنكم ليه؟"

لاحظ صيغة الجمع وعاد يغتاظ، هي تقارن اهتمامها به بنفسه مع أخيه الذي لا تعرفه مطلقًا، عندما لاحظ غيظه وسببه غضب أكثر، لمَ يهتم من الأساس؟ لحسن حظه بدأت المباراة، انشغلا في المتابعة، فريقه يفوز،

يشاغبها بعبارات من حين لآخر ويشجع بحماس، فريقها ينهزم لكن التشجيع واجب وطني في هذه الحالة، وتشاكسه هي أيضًا.

شارف الوقت على الانتهاء، يهلل هو بانتصار، وحانقة هي بخسارة، يغيظها بشقاوة لكنها تغيظه أكثر حتى شعر أنها تكاد تخرج لسانها كطفلة:

"كسبتوا و إيه يعني!! المهم مين بطل الدوري؟ الزمالك، ده الطبيعي يعني"

نظر إليها ساخرًا:

"طبيعي..!! أنت ما كنتيش موجودة الحداشر سنة اللي فاتوا ولا إيه؟"

ردت بعناد:

"موجودة، بس كفاية عليكوا كده"

عاد يضايقها:

"يا بنتي ما تحاوليش، الفشل ده علامتكم المميزة، حتى لما أخدتوا الدوري؛ برده كسبناكم، دي طقوس كونية"

عقدت حاجبيها ساخطة تنظر إليه باشتعال، فأراد إغاظتها أكثر:

"أنا نفسي أفهم أنتِ بتشجعي الزمالك على إيه؟ يادوب عندك تسعتاشر سنة يعني آخر مرة أخد فيها الدوري كنتِ بتقولي على السكر أوكر"

انعقد لسانها بحق، تكاد تخنقه بعينيها ولا تجد ما ترد به، اعتمدت على الطاولة ونهضت تهتف بحدة وغيظ:

"ممكن تروحني!!"

ابتسم ببهجة، لقد فازفي هذه الجولة، راضاها برفق:

"ليه بس يا منون؟ هو الحق بيزعل كده؟"

للحق هو قصد ترضيتها، لكن مسلسل إثارة سخطها كان أكثر متعة، فاستمر فيه دون وعي، تطلعت إليه بغضب حقيقي لمعت له عيناها، و أنقذه من بر اثنها رنين هاتفه، نظر إليه باهتمام ثم نهض و اقفًا بغمغمة:

"معلش تليفون مهم، ثو اني"

و ابتعد عدة خطوات يجري مكالمته، دقائق قليلة وعاد إليها، والآخر كان و اقفًا إلى جوارها، قريب للغاية، لدرجة ابتعدت هي فيها خطوة للخلف بصعوبة مع قدمها المعتلة، ثم يميل نحوها وعلى ملامحها شيء من قلق رغم الابتسامة المصطنعة، كيف تقلق منه وتبتسم له؟ هل تعرفه؟ هل يهمها؟ من هذا الكائن اللزج مِن الأساس؟ اقترب بسرعة و حدته تمثلت في سؤال:

"في حاجة يا كابتن؟"

التفت إليه بنظرة لامبالية يقدره فيها ورد ببرود:

"أنت اللي في حاجة؟"

رفع حاجبيه دهشة.. هذا الفتى أبله بالتأكيد:

"أنت بتكلمها ليه؟"

وهذه المرة لهجته صارمة أكثر، حادة أكثر، وعيناه مخيفتان أكثر بينما تنظر إليه هي في توتر، تحاول التدخل لكن الأحمق لاحقه:

"و أنت مالك يا بابا؟ دي حاجة تخصني"

هنا الضرب مبدأ أساسي في حالة وجود حمار تعثر عليه الفهم، دون مقدمات ارتفعت قبضته بلكمة في ذقن ذلك المتبجح، تراجع على إثرها للخلف خطوة كادت تسبب ارتطامه بها لولا أن اقترب منها "عمرو" بسرعة وجذبها إليه، هاجمه الفتى فصرخت هي في المنتصف:

"لؤي من فضلك، أنا مع عمرو أصلًا"

وسخر هو بداخله.. "لؤي"..! كم يليق بذاك المدلل!! توقف الآخر للحظة، نظر إليه بحقد، جعله يجذبها خلفه ويتصدى له ثانية حتى أوقفته همستها:

"عمرو لو سمحت، ده زميلي في الكلية وهنا مع أخته"

تجمد لثوان، لم يقل شيئًا، بعدها جذب كفها وبدأ يتحرك، هي تعتمد عليه وعلى عصا بيدها الأخرى تحاول مجاراة خطواته الغاضبة، ابتعد عن المكان قدر الإمكان، وهناك أوقفها يقابلها بسخط واضح:

"حتى لو زميلك في الكلية، تتكلمي معاه بمناسبة إيه مادام أنتِ برا الجامعة؟ ويقرب منك ويقف معاكِ بالشكل ده ليه؟ في بينكم حاجة يا منة؟"

تراجعت بانشداه، تكاد لا تفقه ما يقول، هو عيناه سوداوان بطريقة مخيفة تقدحان الشرر، يتخذ وقفة هجومية كأنه سينقض عليها بعد لحظات، هي ترفع رأسها إليه وتشعر بالضعف أمامه، عاد يصيح فيها، يزعق، يشيح بكلتا يديه في غضب واضح وهي لا تفهم.

ثم دون أن تعي ما يحدث، طرفت عيناها بدمعة التمعت بوضوح داخل زيتون مقلتيها فازداد بريقهما، تراجع مبهوتًا، ما الذي يفعله؟ لقد أبكاها.. كان يريد مواساتها على حبسها الانفرادي، تذلل لوالدها للسماح لها بالخروج معه رغم عقابها المفترض، وو افق الرجل ليرفه عنها قليلًا فإذا به يبكيها، زفر بضيق و اقترب خطوة تباعدتها هي بارتباك أحنقه على نفسه، لم تهزم الدمعة جفنيها بعد، لكن حبسها لها أوجعه أكثر وأشعره بانكسارها ورقتها:

"منة.. أنا آسف، بس..."

لم يجد ما يكمل به حديثه، هو لا يفهم حتى لمَ هذا الغضب الشديد؟ نعم يراها صغيرة تحتاج للعناية والاهتمام، لكن ليس من حقه تعنيفها بهذا الشكل القاسي، تمتمت بصوت دامع:

"عاوزة أروح"

عض شفتيه في غيظ من نفسه، ابتسم يحاول إعادتها لمنطقة المرح:

"مش هينفع، وعدتك بعد الماتش أعزمك على أيس كريم، و أنا متعود أوفي بوعودي"

شهقت برفق تكبح تلك الدمعة الخائنة التي أشعرتها بضعفها أمامه، وتكابر بعناد:

"مش عاوزة، أنا باحلك من وعدك، روحني لو سمحت"

عاد يقترب خطوته، توقفت هي تشيح بوجهها ترفض النظر إليه، أخفض رأسه يقابل عينيها رغمًا عنها، ابتسم لها، داعبها:

"منون..! خلاص ماتزعليش.. ها هتاخدي أيس كريم بطعم إيه؟"

لم ترد، تعاند أكثر، ويمزح هو محاولًا انتزاع بسمة:

"هاجيبلك على ذوقي ويمكن ما يعجبكيش؟"

مصرة، عنيدة، واستسلم برحيل سريع يحضر المثلجات، عاد ليجدها جالسة على سور منخفض، تعانق الأرض بنظراتها، والضيق يغمر وجهها، زم شفتيه، كم هو أحمق..!! وللآن لا يدري لمَ تصرف بهذه الطريقة؟ اقترب منها وناولها خاصتها بابتسامة مشاكسة:

"كل البنات بتحب الشيكولاتة"

نظرت إلى يده الممدودة نحوها ثم رفعت عينيها إلى يده الأخرى، بطفولية تسعده دومًا مدت أصابعها الصغيرة تلتقط خاصته وتغمغم بتحدٍ:

"أنا بحب التوت"

رفع حاجبيه دهشة، ولم يمانع إن كانت ستعود للمرح من جديد، راقبها تتلذذ به ببراءة، هو لا يفضل الشيكولاتة، لكن يمكنه ابتلاعها لخاطرها.

انتهيا، عاد يراضيها، يصالحها، ويداعبها، طوال الطريق إلى منزلها لم تلتفت إليه، وتركته يحدث حاله، قبل أن تغادره نظرت إليه في صمت لثانية وهمست شاكرة رغم الضيق الذي تشعر به:

"متشكرة على اليوم الـ..."

لم تجد ما تصف به يومها الذي بدأ بخفة و انتهى بمشكلة تضايقها للآن، لكنه صالحها من جديد دونما اهتمام لعجزها عن وصف وقت قضته معه:

"ما يبقاش قلبك أسود بقى يا منون"

نظرت إليه بعتاب، ابتسم لها بتذلل لطيف، أجبر شفتيها على الافتراق ببسمة رقيقة هتف بعدها مهللًا بمرح:

"يااااه، شفت ابتسامتك قبل ما أموت، أنا كده خلاص مش عاوز حاجة تاني من الدنيا"

وهذه المرة ضحكت فغردت بلابل دنياه بضحكتها، تطلع إليها في صمت وتأمل، يحاول فهم شيءٍ ما دون جدوى، لكنه راضٍ في الوقت الحال، ومكتفٍ بذلك.

******

شارد دون وعي فيها، في ابتسامتها، برائتها، رقتها، وحتى عنادها الطفولي اللذيذ، مر أسبوع منذ دعوته لها لتلك المباراة، لم يرها من حينها، لكنه حادثها على الانترنت عدة مرات، وفي كل مرة يتودد إليها يراضيها، وتتظاهر

هي بالرفض، لكنه يعلم أنها سامحته فقط تبغي الدلال وهو لا يقتصد فيه، كأنها طفلته الصغيرة ولها كل الحق في ذلك.

نقرات خفيفة وباب مكتبه يفتح، ومعجزة تطل من خلفه، نظر إلى ذلك الذي دلف إلى الداخل بغير تصديق ثم نهض يتحرك نحوه، الآخر واقف بصمت و ابتسامة، وهو يتحسسه بصدمة حتى هتف:

"أنا مش باحلم يا أبوحميد، أنت هنا في الشركة!!! هي الدنيا جرى فيها إيه؟"

وقهقها سويًا، ثم حصل على جوابه المنطقي بلهجة تمطر شغفًا:

"جرى فيها منى"

تنحنح بمرح:

"تيرارارا.. قلت لي، والسيدة الأولى عملت إيه بقى؟"

تحرك شقيقه نحو أريكة في ركن المكان، جلس فوقها براحة ورد بهدوء جدي:

"هابقى زوج و في يوم من الأيام أب، يعني مسئولية محتاجة حياة بجد وشوية روتين والتزام"

جلس إلى جواره، لكنه التزم جانب المرح:

"بركاتك يا ستنا منى.. قلت لعمي؟"

أجابه بتأكيد:

"لسه جاي من عنده، وطبعا هاشتغل معاك في الأول لحد ما أفهم الموضوع ماشي إزاي..!"

ربت على كتفه بحميمية وظهرت فرحة حقيقية في صوته:

"هتنورني يا لورد"

اعتدل "أحمد" في جلسته وهتف:

"المهم أنا استأذنت من عمي، وجاي آخدك وننزل، عاوز أشتري شوية حاجات ولسه ماجبتش بدلة الفرح، لسه أربع أيام يا عمور والشقة فاضل فيها شوية فينيش، غير الديكورات والفرش"

شمت فيه يداعبه:

"ما أنت اللي ضغطت نفسك يا عم المستعجل"

نظر إليه بغيظ فضحك وربت على ركبته يواسيه و اقترح بهمة:

"طيب ما تزعلش نفسك يا كبير، هانزل معاك وتظبط أمورك، بس بالليل في احتفال بيك، أنا وحسن وباقي الشلة طالعين المقطم، وهتودع العزوبية معانا هناك"

عقد حاجبيه بشك أجابه "عمرو" بضحكة متفهمًا:

"ما تقلقش، القعدة ناشفة ع الآخر، بنقولك عزوبية ووداع والله يرحمك بقى"

وكزه في كتفه بمرح، ثم خرجا سويًا كما انتويا، انتهى اليوم بجلسة ممتعة بين الأصدقاء، مداعبات ومرح ومشاغبات ناله منها الكثير من السخرية، فهو أول مرتكبي جريمة القرن في مجموعته، أول زوج، وأول مغادر لحياة الحرية كما يقولون، تركهم قليلًا وتوجه نحو سيارته، جلس فوق مقدمتها واستند لزجاجها الأمامي، مدد ساقيه وأخرج هاتفه، هو يشتاقها الآن ودواء الشوق رسالة.. على الأقل في الوقت الحالي لتعذر اللقاء، اندمج معها حتى أجفلته كف توضع فوق كتفه بقوة وهتاف مرح:

"يا بني بنقولك وداع وقفص و أنت برده سايبنا وجاي ترغي معاها..!!"

استدار إلى أخيه بغيظ:

"إطلع من دماغي يا عمرو"

ضحك وشاكسه:

"طيب سلم عليها"

وابتعد بخطوات متباطئة يغيظه أكثر، تابعه بعينيه لثوان قبل أن يعود لمحادثتها على تطبيق "الواتس آب":

- عمرو بيسلم عليكِ.

* الله يسلمه، سلم عليه.

- لأ ☹

* ههههه ليه بس؟

- سيبك منه وركزي معايا.. ها تجنن وأشوفك.

* لأ.. يوم الفرح.

- بتهرجي -_-

* تؤتؤ

- عموما هانت، كلها كام يوم وأعمل اللي أنا عاوزه.

* -_-

- البادي أظلم ☺.. على فكرة.. بحبك

* ....

- إيه نوكومنت؟

* .....

- كده حسابك تقل قوي.

* أحمد -_-

- منى أحمد ☺

* امشي روح لأصحابك

- أشوفها مكتوبة بعينيا قبل ما أموت.

* بعد الشرعنك، بس برده لأ

- ☹☹

* أحمد ☺

- .....

* مش هترد؟

- .....

* طيب.. إمممممم.. بحبك.

- و أنا هاموت وأشوفك.

وناداه هادمو اللذات، يجذبونه من حلمه معها، ودعها بتباطؤ، ثم اتجه إليهم، يودع لحظات الحرية كما يقولون الأخيرة، لكنهم لا يعلمون، أن حريته، حياته، وروحه ونبض قلبه بالحياة، معها هي وفقط.

******

ليالي الألف ليلة وليلة تبدأ بليلة، تزف فيها الجميلة لأميرها الوسيم، وينعم شهريار بشهرزاده التي غافلت الكل حتى هو وعقله وقلبه، وتملكت من كيانه وروحه، فلم يكن أمامه من مفر سوى التسليم ومنحها صك التملك والاحتكار عن طيب خاطر.

أسفل الدرج ببزة سوداء أنيقة، قميص ناصع وربطة عنق على شكل فراشة، وسامة خطرة، و ابتسامة ساحرة، ينتظر على قيد من جمر، تتهادى هي في خطواتها، تتعلق بذراع والدها، عيناه متعلقتان بها، وعيناها تتنقلان بينه وبين الصغير الوسيم الو اقف إلى جواره، رجلها الثاني الذي يرتدي بذلة تشبهه فقط دون سترتها.

ثوب أبيض كما فضل هو، يحتضن حناياها حتى أعلى ساقيها، ينتفش بعدها باعتدال أنيق، تلتمع ماسات بر اقة على صدره تنساب حتى أسفل

وسطها بقليل، مع كل خطوة اقتراب، ينبض قلبه بعنف، حتى وصلت إليه، وتسلمها من والدها الذي عانقه بود.

دنا أكثر، يرفع طرحتها الشفافة عن وجهها، ينظر في عسل عينيها ويغرق، يحلم، ويكاد بجنون يحملها ويهرب، بمقاومة عنيفة وتماسك رائع، انحنى يطبع قبلة حانية فوق جبهتها، وبلمسة شفتيه اختلاف يتقنه هو وتفهمه هي، هذه ليست قبلة احترام أو توقير أبدًا لكنها فقط مراعاة للمشاهدين.

سارا على أنغام المزمار حتى وصلا لقاعة الزفاف، قادها نحو المقعد المخصص لهما، جلست فوقه برقي ملكي، وتركت له مساحة ضئيلة بجوار ثوبها حشر نفسه فيها، وهمس لها بمرح:

"اتدلعي دلوقتِ براحتك، هانت هانت"

نظرت إليه في خجل فغمزها بمكر زاد منه، أصدقاؤه وصديقاتها المعدودات، رقصات وغناء، وفرحة لا توصف، قبلات والدته وحنوها، اهتمام أبيها ووصايته له، في النهاية جذبه فريقه وجلست هي تراقب، يتركهم حينًا ويعود إليها، فينتزعونه عنوة ليعود معهم ثانية.

تتابعت فقرات الحفل بترتيب مبهر، وصغيرها يمرح مع أولاد إحدى صديقاتها، طوال الوقت توصي والدها به، لا تدري كيف ستتركه وحيدًا بضعة أيام..! لكن ذاك رغمًا عنها، انتزعها من شرودها عودة زوجها

يلهث، يحمل سترته فوق كتفه ويبتسم بسعادة رسمت المماثل لها فوق شفتيها في التو.

رافقها لبعض الوقت يمازحها، يغازلها، ويمرح معها، والمقاطعة هذه المرة ألجمته وصدمتها:

"مبروك يا أحمد"

رفع عينيه نحوها، بفتنتها الطاغية، الحمراء النارية في ثوب أحمر، تجتذب الأنظار وتهنئتها بنبرة لم تعجبه، ابتسم لها برسمية ورد:

"الله يبارك فيك يا سهر، عقبالك"

التفتت نحو العروس تصافحها:

"مبروك، له حق أحمد يفاجئنا بفرحه، أنتِ زي القمر"

شعرت "منى" بتهديد مبطن، هل هي من ماضيه؟ هي تعرفها بشكل ما، لكنها لا تتابع أخبار الفن والفنانين، تعلم أن عمله في فيلمها هذا هو مضطر له حتى ينهيه وبعدها سيترك ذاك المجال نهائيًا، لم تجد بدًا من ابتسامة جافة وجواب أكثر جفافًا:

"ميرسي، الله يبارك فيكِ"

وكأنه شعر بما يعتمل بداخلها، أشار لأخيه بطريقة خفية، علا بعدها صوت موسيقى ناعمة، وقف يجذب كفها بانحناءة طفيفة وهمسة عاشقة:

"تسمح أميرتي بالرقصة دي؟"

ترددت قليلًا فتوسلها بعينيه، و افقت على مضض، وتحركت معه بثوبها الثقيل، ضمها إلى صدره برفق، لم يكتف بكفها بين أصابعه، بل جذبها ليضعها فوق كتفه ويحيط خصرها بكلتا يديه، يتحرك معها في تناغم على اللحن الرقيق، يقربها منه أكثرويهمس لها بحبه.

ثم و في لحظة تهور، أو ربما وصول للحد النهائي من الخط الفاصل بين الصبر والجنون، انحنى يمد ذراعه أسفل ركبتيها، يحملها لأعلى بين ذراعيه فتتعلق هي بعنقه متوجسة تتساءل عما يفعل!! أشار لأخيه بعينيه ثانية وتحرك بها مغادرًا المكان، تصاحبه صافرات الأصدقاء وتحياتهم، موسيقى سريعة محيية، وضحكات العقلاء، وهتافها الخائف:

"أحمد يا مجنون، أنت بتعمل إيه نزلني!!"

ضحك بمرح ولم يهتم برد محدد، عادت تصيح وتتشبث أكثر:

"طيب نزلني و أنا هامشي، هتتعب كده"

نظر إليها بخبث ظاهر وأخيرًا جاوبها:

"لا ماتخافيش، بس لو قلقانة امسكي كويس"

وكاد يركض، عامل المصعد مستمتع بمشهدهما، ولولاه لنال قبلة لكنه يمرح مع الرجل كذلك، أمام باب جناحهما توقف، طلب منها بتعجل:

"طلعي المفتاح من جيب الجاكت"

نظرت إليه وتوردت وجنتاها فهتف بغيظ:

"ده وقته يا منى!! طلعيه"

مدت أطراف أناملها وأخرجته، فتحت الباب فدفعه بقدمه، ولم يكد ينزلها أرضًا ويلتفت ليغلقه حتى منعته والدته بحزم تزجره:

"بقى ده ينفع يا أحمد!! حد ينهي فرحه كده؟"

نظر إليها ببلاهة، ما الذي تفعله هنا؟ رد دون فهم:

"في إيه يا كرملة؟ نسيتي حاجة معايا؟"

أزاحته من طريقها تتجه نحو عروسه:

"أنا مش جاية لك، أنا جاية لمنى"

وجذبتها نحو غرفة النوم، لم يفهم ما يحدث، وما الغرض من وجودها وفيمَ تحادثها؟! لكنه انتظر بصبر، ملل، وتحركات دون هدف داخل المكان، في النهاية خرجت تقترب منه بابتسامة حنون وعينين دامعتين، تحتضنه، تهنئه، وتوصيه بها، ثم تشد أذنه تتوعده بعقاب لو أغضبها، وتنال ابتسامته السعيدة لترحل مطمئنة.

أغلق الباب خلفها والتفت، يتملكه شغف، ويكاد قلبه يقفز خارج ضلوعه متحديًا أن يمنعه، خطوة والثانية وفي الثالثة تعالت الدقات، التفت إليه بنظرة حارقة، زم شفتيه وعاد يفتحه ناويًا الصراخ في وجه الطارق أيًا كان، لكنه حبس انفعاله عندما وجد خدمة الغرف بعشاء العروسين، تسلمه منه، ابتسم له بلطف مصطنع، شكره بلهجة باردة وتقريبًا طرده.

وإغلاق حاد، وتحرك نحوها، وطرقات أخرى، كاد يشد شعره في جنون.. هذا تعمد، هذا إصرار وترصد.. اقترب من الباب وعقد العزم على لكم الطارق بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى، ومن حسن حظه أنه كان أخيه، رفع قبضته يوجهها نحو وجهه، لكن الآخر تراجع بمرح ولاحقه بهتاف:

"إيه بس يا أبو حميد!! أنا غلطان إني جاي أفيدك!!"

تطلع إليه في شك مغتاظ، فاقترب منه يمد يده في جيبه ويهمس بمشاكسة:

"جايب لك حبوب شجاعة"

وقهقه بمرح احمرت له عينا أخيه الذي دفعه خارج الغرفة وصاح فيه بحنق:

"غوريا عمرو خلي الليلة تعدي على خير"

وهذه المرة علق لافتة "ممنوع الإزعاج"، وأغلق الباب بنية سوداء ورغبة في القتل بحق، ضم قبضتيه بغضب، تنفس بعمق، وعاد يستدير متوجهًا إليها.

هي تضحك بخفوت، رغم الترقب والقلق الذي ينتابها، أو ربما شيء من خوف، مزروع في جينات كل أنثى في ليلة كهذه، وهذه المرة منعه رنين هاتفه، وصديقه "حسن".. نظر إليه، وألغى المكالمة، عاد الرنين يرتفع ثانية في اللحظة التي مد فيها إصبعه ليغلق الهاتف تمامًا، فتح الخط وصرخ بغضب:

"أنت بتستهبل يا حسن؟"

كتم صديقه ضحكته، لكن قهقهة أخيه وصلته، رد بشقاوة:

"إيه بس يا أبو حميد، باطمن عليك؟ أنا معطلك عن حاجة كده ولا كده؟"

تنهد بزفرة حانقة، رد بغضب مكتوم ينهي بشكل قاطع:

"احترم نفسك أنت والحيوان اللي واقف جنبك، وليكم يوم ها.. خلي بالك أنت وهو"

وأغلق الخط والهاتف، وخلع سترته، واتجه للغرفة، يغلق باباها يتوجه نحوها بخطوات تشبه الوثب، وتتراجع هي تتلافى النظر لعينيه وتهمس بخجل:

"هاروح أغير في..."

وتنال مقاطعة لاهبة حابسة للأنفاس، وتتطاير أمامها ربطة عنق، وتُحل أزرار قميص ويأتيها همس حار:

"دي عشان تبقي تضحكي وهما بيعذبوني"

تراجعت ولم يفلتها، هل تمزح؟ تظنه سيتركها!! مد يده لحجابها، يحاول معه دون فهم واضح لكيفية التعامل مع ذاك الشيء، حتى هتفت تجذب يديه:

"استنى بس أنا هاشيله"

ابتعد خطوة ورد بنفاذ صبر:

"شيليه"

تحركت ببطء نحو طاولة الزينة، وتتباطأ أكثر وهي تفكه، نبض قلبها يعلو والترقب يكاد يقتلها، انتهت بمساعدته رغمًا عنها، وحينها حرر خصلاتها، وأدارها لتواجهه، همست قبل أن يقترب أكثر:

"جعانة، ما أكلتش حاجة من الصبح"

ابتسم بغيظ:

"أنتِ متفقة معاهم ولا إيه؟ انسي"

وأغلق كل الطرق أمامها باقتراب داهم حواسها فيه، يضمها إليه بقوة، يهمس، يطمئنها، يتسلل إليها لتسلم أشرعتها برغبتها، يبعثرها ويذوب هو في جنة عشقها التي غزت أحلامه واحتكرت عقله كليةً حتى بات تحقيقها أملًا وحياة.

(22)

نصفه المتَمِم

أشهدُ أن لا امرأةً

تجتاحني في لحظات العشق كالزلزال

تحرقني .. تغرقني

تشعلني .. تطفئني

تكسرني نصفين كالهلال

أشهدُ أن لا امرأةً

تحتل نفسي أطول احتلال

وأسعد احتلال

"نزار قباني"

بعض الإضافات المنكهة تجعل ليومك مذاقًا مختلفًا، طعمًا أشهى، ورونقًا مميزًا متفردًا..

وعندما تكون تلك الإضافة خصلات بلون العسل.. وشفاه بمذاق العسل.. بل ولمعة العسل وبريقه الذهبي بين جفنين ناعمين ملتقيين في هدوء وسكينة؛ تكون قد وصلت للدرجة النهائية من المكملات التي تنتفي بعدها الحاجة لشيء آخر، لقد تم الاكتمال الفعلي، أصبح لك نصفك الآخر.. نصفٌ متمم، يزيد على صورتك بهاءً يحمل نكهتها الخاصة التي تتملك من حواسك كلها.

يتمدد إلى جوارها، توليه ظهرها وتغوص في نوم رقيق يشبه نعومتها، ربما يتخلله حلم رَهِيف رسم تلك الابتسامة الراضية فوق شفتيها والتي رآها قبل قليل، أو ربما كان هو السبب.. و انتعش بغرور، يعقد ذراعيه أسفل رأسه ويراجع خطته المرسومة قبل الزفاف لمنحها بعض البهجة قبيل سفرهما في الصباح الباكر من اليوم التالي حيث مدينة النور لقضاء أسبوعي عسل.. أو أشهى من العسل بعدة مراحل.

استيقظ قبل ساعة، هي غافية، ربما مرهقة..! والتوت شفتاه بوقاحة و ابتسامة نصر..

غادر جوارها الدافئ بعدما استكانت بين ذراعيه طوال الليل، أجرى عدة مكالمات هاتفية، شقيقه اللزج الذي لم يتركه لحاله ثم والدها، طلب

إفطارًا مناسبًا بعد ساعتين.. وهما تبدوان كافيتان إلى حد ما لجولة صباحية من العشق قبل أن يبدأ في تنفيذ خطته.

تحرك بهدوء يرتكن إلى مرفقه، أبعد إحدى خصلاتها الناعمة عن جانب وجهها ثم انحنى يطبع شفتيه بعبث فوق كتفها المكشوف متجهًا نحو عنقها، ينفث أنفاسه الحارة هناك، ويمرغ أنفه في دفئها.

تململت ببطء وتفرق جفنيها عنوة تنظر إليه من بين فرجة صغيرة بينما تستدير بابتسامة رقيقة لتواجهه، بادلها إياها بعينين لامعتين وهمسة:

"صباح العسل"

تمطت كقطة ناعمة وردت بخفوت ناعس:

"صباح الخير.. هي الساعة كام؟"

أجاب وهو يعلم أنها ستغضب بلذاذة:

"تمانية"

اتسعت عيناها، وهتافها المستاء هو ما ناله:

"حرام عليك يا أحمد، يعني هما ساعتين اللي نمتهم"

ورده عابث يشاكسها:

"أنا نمت ساعة بس، كويس إني سيبتك تنامي أصلًا..! أنا ماعرفتش أنام"

ضيقت عينيها تنظر إليه بغيظ، فأردف بطريقة تمثيلية ماكرة:

"جالك قلب تنامي إزاي و أنا جنبك؟"

ونال ما سعى إليه، تورد وجنتين، وما لم يسعَ إليه.. وكزة في كتفه بقبضتها الصغيرة، واصطنع تأوه وارتمى فوق الفراش يهتف بمرح:

"قاسية..! حرام عليكِ يا منايا"

ارتكنت هي هذه المرة لمرفقها تنظر إليه من علٍ بغلٍ لطيف وتسحب الشرشف قرب عنقها تهدده بإصبعها:

"دي أبسط حاجة عندي، خد احتياطاتك بقى"

تطلع إليها بابتسامة شقية، تلتمع في عينيه نظرة حب واضحة، أمسك إصبعها المهدد وقبل أنملته بدفء، احتفظ بالصمت، ونظراته تحيطها، تأسرها، تنطق وتعني الكثير.

شهرزاد.. الأسيرة، صاحبة الحكايا، بطلة الأسطورة، أصبحت له.. بعد معجزة، بعد صراع، انتظار و حرب صغيرة لأجل عينيها، لأجل حبها وقربها، لأجلها، لأجل تمزيق شرنقة رعب حبست نفسها بداخلها تجبن عن

الخروج منها حتى لو علمت أنها حينها ستتحول لفراشة، تحلق في عالم الحب.

حلم الأمس، تجسد لو اقع دافيء، بل حار.. يشعل روحه كشمس صاخبة لاهبة، ويضيئها بألوان طيفها السبع، يعطيها بهجة منعشة، بعد حياة لم تحوِ غيرلون واحد جامد، بُعث بوجودها.

نعم.. كلمة البعث مناسبة للغاية، إعادة الروح لجسده المنهك، بقايا سهم.. بطل، فقد هدفه الأوحد، ثم.. تأتي هي وتنتزعه من حربه الخاصة.. ليخوض معاركها هي، ومعها هي، ليفوز بها هي، الغنيمة الأكبر والأكثر قيمة..

والثمن الوحيد كان.. "هو" بكل كيانه وما يملك من نبضات قلب منحها نفسه برضىً..

أنثاه بكل معاني التملك والأنانية والجنون داخل ذكرخلق منها وفقط..

أنثاه بدلالها ونعومتها ورقتها، أنثاه بخجلها و تورد وجنتيها الذي يحفز هوسه بها أكثر..

أنثاه التي لا شيء يشبهها، ولا تشبه أي شيء.. أنثاه التي لا ترتقي أخرى لمرتبة قربها..

في شروده قصة.. تحكيها عيناه ببساطة، وتتلقاها هي ببساطة أكبر، يخبرها دون أبجدية، وترد دون حرف، دون صوت أو حتى همس..

يحكي لها عن لحظة رآها، لحظة أحبها ولم يفهم أو يستوعب، لحظة صدح بحبها وجهر به أمامها فجأة، لحظة عنادها وهروبها ومطاردته لها كفهد في رحلة قنص، وتستجيب هي ودون وعي.. لعينيه، مخدرة، ذائبة، وعاشقة.

ابتسم من جديد يخرج من تلك الثوان أو ربما الدقائق غير المحسوبة التي تأملها وغرق في صفاء عينيها خلالها صامتًا، ثم جذبها يسقطها فوق صدره، يفاجئها وتتدلل بضحكة ناعمة تبعتها همسته العاشقة:

"اعملي فيَّ اللي أنتِ عاوزاه.. أنا كلي ملكك، ومن غير احتياطات"

وحملها لجنته، أو ربما هي من سحبته لنيران حبها، تشعله حد الجنون وترتفع به لأقاصى عنان الخبال، ويعود فيسيطر عليه هوسه وعشقه.. لينحني أمام جبروت وجودها من حوله.

وانتهت الجولة ولم ينتهِ هو، لكن هناك أولويات.. بهجة تستحق التقديم على ما يرغبه، وسعادة تخصها تمنحه سعادته مادامت لها، تسلم إفطارًا لذيذًا من خدمة الغرف وأعاد لهم عشاءً لم يُمس، وجبته الفاخرة، الشهية صاحبة المذاق الحلو كانت هي.. وكفى بها رغم أنه لم يشبع بعد.

خرجت من الحمام ندية منتعشة برائحة مغرية، ترتدي مئزرها، تجفف خصلاتها، ويراقب هو بتلذذ، وبعد المراقبة اقتراب باحتراف، خطى بطيئة، حثيثة، خافتة، ومفاجأة بضمة يحيط بذراعيه خصرها من الخلف، يلاصق ظهرها صدره ، وينحني يتشمم شذاها، يبعد شعرها المبلل عن عنقها ويطبع قبلة.. ثم يهمس همسة:

"الفطارجه"

ابتسمت تومئ برأسها وتترك طوق ذراعيه تتحرك للخارج بخفة:

"أنا ميتة من الجوع بجد"

والتفتت تعاتبه بنظرة، وتشاكسه بتالية:

"قلت لك إمبارح، بس أنت ما اديتنيش فرصة"

وقهقه بمرح ماكر، يقترب ويجذبها إليه، يتحرك معها خارج غرفة النوم مكملًا حديثهما:

"للصبر حدود يا منايا"

عادت تبتسم، لكنه نال وكزة من كوعها في خصره، فضحك مجددًا، وعاقبها بضمة قوية تأوهت لها ثم استأنف تحركه نحو مائدة الطعام.

لم يخبرها عن مفاجأته فلا يريد حرقها، ينتظر فقط حتى يرى البهجة على وجهها حينما تراها، تناولا الطعام في لحظات مرحة، بعدها وبينما تتنشق عبق قهوتها بتلذذ، همس بحسرة مصطنعة:

"يا بختها..!"

نظرت إليه بتساؤل.. غمزها مازحًا:

"القهوة"

ضحكت بدلال، فهب واقفًا يتحرك بعيدًا عنها، كل لفتاتها، همساتها، حركاتها، وحتى ابتلاعها لرشفة من قهوتها ومراقبته لعنقها حينها، وفي النهاية ضحكتها.. تدفع به نحو جنون يحثه على ضرب عرض الحائط بخطته.. لذلك آثر الابتعاد، رافق خطواته المغادرة إلى حجرة النوم حديث مختصر:

"جهزي نفسك بعد ما تخلصي، هنخرج شوية"

ودهشتها المتسائلة بتكرار كلماته جعلته يتوقف فجأة، يلتفت إليها بجواب غامض:

"أيوة.. هنخرج شوية، إلا لو عندك خطط تانية نقضي بيها الوقت لحد ميعاد الطيارة!!"

أغاظته بنظرة فابتسم بخبث، تركت قهوتها و اتجهت إليه تثير حنقه أكثر أو هكذا ظنت:

"لا ما فيش خطط، أنت ناوي على إيه وهنروح فين؟"

تظاهر بحزن و انكسار:

"بقى كده؟ ما فيش خطط عشان حبيبك؟"

مطت شفتيها وتعانده بهزة كتف نافية.. تنهد باستسلام مفتعل، أجابها بهمة:

"دي مفاجأة، اجهزي وهتعرفي لما نوصل"

واستجابت بصمت، عقلها يدور في دوامة من التساؤلات، لكنها تثق به، وتعلم أن خطته بالتأكيد ستسعدها.

******

حسنا هي تريد مصالحته، ربما كانت تعاند وفقط، لكن بمَ يفيد الندم حال انتهاء الأمر ووقوع المحظور..! لا تعلم لمَ يشغل بالها أو تهتم لأمره!! فقط وجودها معه، في مكان ترتفع فيه ضحكاته، بل ويعاندها، يشاغبها، أو حتى يغيظها.. يسعدها بشدة.

قبل أسبوع.. تخلصت من جبيرتها، وكان هو بصحبتها، يهتم لأمرها، يدللها.. وما يثير سخطها، أنه يعاملها كطفلة.. وفي النهاية يناديها "توتة".. مدعيًا أنها تعشق التوت، هي ليست طفلة.. وليست صغيرة، وغضبها لا تدري له سببًا.. لكن كل ذلك لا يهمها الآن.

انتهت مدة عقوبتها على خير، وستخرج اليوم بصحبته كما طلب منها.. أو للأصح عرض عليها بطريقة أشعرتها بغضبه وأنه لا يكترث لرفض.. وللعناد استجابت ببساطة، أو ربما رغبة في إرضاءه، بعدها تعاقبه كما يتطلب الأمر.

توقيت مبكر للغاية، وانتظار منه خارج منزلها، وتلتقي بصغير لطيف، جميل للغاية، ومشاغب جدًا منحها شرفًا خاصًا لمناداته بـ "موكا".. وتعتلي وجهه نظرة سخط أعلمتها أنه لم ينل هذا الشرف بعد، فضحكت بشر.

هو مستاء لأنها لم تحضر زفاف أخيه، وهي فعلتها عمدًا، غاضبة هي من قبل.. ويتوقع منها الحضور وكأن شيئًا لم يكن، نعم أخوها وأختها ذهبا.. لكنها فقط رفضت، وهكذا هو يخاصمها بشكل أو بآخر.. ويحرمها ضحكته.

دقائق قيادة.. صمته في مقابل مداعبتها للصغير، يلقي نحوها بنظرة دون اكتمال.. ويقاوم منحها كامل الاهتمام، تلك الصغيرة الشقية اللطيفة التي تثير صحبتها بداخله كل حبور.

وصلا أمام أحد أكبر مدن الملاهي خارج العاصمة.. وانتظر في سكون، سألته بتردد كأنها تخشى قطع حبل موصول بينهما يعتمد على هدوء ابتدعه هو ووضع أسسه:

"هما هيتأخروا؟"

نظر لساعة سيارته ورد باقتضاب:

"على وصول"

مطت شفتيها بضيق، ولمحها وكاد يبتسم.. "لطيفة".. همس بها لنفسه، هو يعاقبها بصمته وغضبه.. ولو كانت رفضت صحبته اليوم لعاقبها بقسوة أكبر.. وصله حديثها المرتبك:

"أنت هتفضل زعلان مني كتير؟"

التفت إليها برأسه، يقاوم رغبته في الابتسام بقوة أكبر هذه المرة..

تبدو كطفلة مذنبة تراضي عن خطأ لا تريد الاعتراف به..

هي لم تخطئ لهذه الدرجة.. لكنه تمنى وجودها ليلتها، أو ربما توقع أنها لن ترفض دعوته والحضور لرؤيته.. ليس غرورًا بالتأكيد، أو ظنًا منه في شيء ما، فقط هو اعتقد أنهما صديقان.. وهي خاصمته وعاندت بل ورفضت فكان حقًا عليه عقابها ورد فعل مناسب لطريقتها.

رد بجفاف اصطنعه بإرادة صلبة:

"وهازعل من إيه يا توتة؟"

عقدت حاجبيها.. يستفزها إذًا!! ومن بين أسنانها اقتضبت هي الأخرى ردها:

"اسمي منة"

ابتسم بعبث:

"عارف"

وسعت عيناها تخيفه ربما.. وكاد يضحك، يا إلهي كم هي لطيفة بحق!! وأنقذه من اغتيال وربما تمزيق وتمثيل ببقاياه حضور شقيقه وعروسه.

ما إن ترجلا من السيارة ولمحت سيارته، حتى علت الدهشة وجه "منى"، وقبل أن تتساءل فتح الباب للصغير الجالس في الخلف ليركض إليها ويلتقي بدفء أحضانها وقبلاتها المشتاقة.

بادل أخيه الابتسام، و أتم تعارف بسيط بينه وبين طفلته التي شعرت بالخجل فجأة وهي تنظر إليه، أحاط "أحمد" كتفي زوجته بذراعه وحمل الصغير بالآخر، أمسك هو بكف تلك الشقية وقادها للداخل خلف أخيه.

يوم مختلف، مبهج، مشاكسات، يشاغب العريس الجديد، ويغضب هو تارة ويضحك أخرى، ويلقي بتلميحات في ثالثة، ثم تحذيرات تمتزج بتهديدات عن يوم مماثل سيقع فيه داخل قبضته ويعتصره حينها، فيتذلل إليه بمرح:

"ده أنت حبيبي يا أبو حميد"

ويغمزه ويتوعد:

"و أنت برده حبيبي يا عمور"

ثم يتجه نحو الجالسة مع صغيرها، تضمه إليها باشتياق وكل ما غابته عنه كان فقط ليلة، نظر إليها بحنان، و اقترب يجاورها، يضع ذراعه على ظهر المقعد خلفها، و انحناءة خفيفة بهمسة في أذنها:

"ما تيجي ندخل بيت الرعب"

رفعت عينيها إليه فابتسم بمكر، حبست ضحكتها فرفع حاجبًا ينتظر ردًا كأنه يتحدث بجدية، أجابته بدلال وتمنع:

"لأ.. أنا باخاف"

تسلل بأصابعه أسفل وشاحها يداعب عنقها فنظرت إليه تعنفه لكنه لم يأبه:

"معايا مش هتخافي أكيد، هتنشغلي بحاجات أهم"

وضحك بخفوت عابث، لينال وكزة أخرى في صدره وتحصل على وعيد:

"ماشي.. شوية وهنروح، وأعاقبك"

وفاز بحمرة خجله التي يذوب لها، اندمج معهما قليلًا والصغيرة تر اقب بوجه حالم أغاظ المقبل عليها وفي يده مثلجات بنكهتها المفضلة، تتبع اتجاه عينيها وظن أنها تتمعن في أخيه الأكبر، وما فعله دون وعي أن وضع جسده حائلًا بين نظراتها وبينه يناولها مثلجاتها بحنق خبأه قدر استطاعته:

"توت.. يا توتة، زي ما بتحبيه"

منحته نظرة غاضبة لكنها تناولته منه ولم ترد، جلس إلى جوارها وتساءل بتصنع للامبالاة لا يمتلكها:

"بتبصي على إيه؟"

أجابته دون أن تلتفت إليه فأغضبته أكثر:

"عليهم"

لم يفهم، نقر كتفها بخفة لتستدير إليه وتوضح:

"شكلهم بيحبوا بعض قوي، هما اتعرفوا إزاي؟"

والآن فهم.. الصغيرة تبهرها مشاعر العشق.. تلك الواضحة على ملامح أخيه نحو زوجته، يجذبها خجلها منه، ويعجبها قربهما.. غزله ودلالها، مطاردته وهروبها، مشاكسته وضحكاتها.. ابتسم برقة كأنها طفلته التي تشب عن طوق الطفولة وتستمتع بمشاهدة المحبين:

"هي الدكتورة بتاعته"

ابتسمت بحالمية:

"ربنا يخليهم لبعض"

ومحت ابتسامتها في ثانية قبل أن تمنحه فرصة لرد، وعادت تعنف بسخط:

"وقلت لك اسمي منة.. بطل تقول لي توتة"

ضحك في مرح، وانتفض قلبها.. لقد نالت ضحكته أخيرًا، داعب أنفها بسبابته يغيظها:

"توتة لايق عليك أكتر.. يا توتة"

والآن عادت لمنطقة الغضب، أدارت ظهرها له، تلتهم مثلجاتها، تتجاهله، وتسبه بداخلها، تدمدم حانقة، وهو يبتسم سعيدًا مبتهجًا بشقاوتها التي تجذبه إليها.

******

إطلالة من عالم الحلم.. قوس نصر، وبرج معدني هائل الارتفاع يشتهر باسم "إيفل".. شرفة واسعة، جناح فخم، وخضرة ووجه حسن.. ومرحبًا بك في عاصمة الفن والجمال.. مدينة النور"باريس".

وصلا قبل قليل، وبعد إنغلاق باب الغرفة خلف عامل الفندق، تحول الأمر لإعصار داهمها في غفلة منها.. وها هي الآن، ترتدي قميصه والذي يكاد يصل إلى ركبتيها، تحاول فتح إحدى الحقائب بينما هو يحصل على حمامه.

انخلعت رأس السحاب في يدها وسقطت تتدحرج أسفل الفراش فلعنت بخفوت، ستخنقه حتمًا، ألم يمكنه الصبر حتى يرتبا ملابسهما في الصوان!! انحنت على ركبتيها تبحث عنها بضيق وهي تسبه ثانية.. حتمًا ستخنقه كما انتوت.

خرج يلف خصره بمنشفة، يبتسم في نشوة، وعيناه تبحثان عنها.. ومفاجأة ممتعة بقميصه يعانق حناياها، ترتكن على الأرض بحثًا عن شيء ما باهتمام ساخط، وتزوم بحنق، تحولت البسمة للعبث، وارتكن بكتفه للجداريراقب باستمتاع.

وجدتها أخيرًا فنهضت و اقفة، التفتت خلفها تبحث عن مساعدة، لكنها وجدته هو.. ينظر إليها بطريقة أخجلتها وبشدة.. ويعود فيقترب وتتراجع بنظرة محذرة قلقة، اصطدمت بالفراش خلفها وتوقفت، وكان هو أمامها.. سألها مستفهمًا:

"كنتِ بتدوري على إيه؟"

رفعت أصابعها أمام عينيه بغيظ:

"السوستة انكسرت.. عاجبك كده؟"

تظاهر بدهشة أغاظتها أكثر:

"طيب و أنا مالي!!"

و اقترب يحيط خصرها بيديه ويسحبها إليه لكنها عاندت و ابتعدت، ثم جذبت كفه ووضعت به الرأس المخلوع بأمر غاضب:

"اتفضل صلحها بقى"

ابتسم وجذب ذقنها بين أصابعه يطبع قبلة سريعة فوق شفتيها ويهمس أمامهما:

"أمر مولاتي"

تنحت من طريقه بابتسامة، اتجهت نحو الشرفة تقف خلف زجاج بابها الضخم المغلق، تتطلع للبرج الشامخ من بعيد، ترتب خصلاتها بأصابعها وتتنهد بسعادة.. نعم هي تحبه، بل تعشقه، وهو لا يدخر جهدًا في إسعادها.. والأمس.. خير دليل، ممتنة هي لأقصى درجة، وتسعد بحبه في كل لحظة.

حتى جنونه أصبح يروقها بشدة.. ويفجر في قلبها طاقات البهجة..

شعرت بذراعيه تحيطانها من الخلف وهمسه الحار بينما أنفاسه تلفح عنقها:

"القميص ده بتاعي على فكرة"

وبعثرها ثانية بقبلات صغيرة متتابعة وهمسة أخرى:

"كان عندي حق ما أفتحش الشنط"

ابتسمت وأمالت رأسها تستند إليه، تتنهد ثانية وهو يهمس قبل أن يحملها بين ذراعيه:

"بحبك"

******

أشهدُ أن لا امرأةً

قد أخذت من اهتمامي

نصف ما أخذتِ

واستعمرتني مثلما فعلتِ

وحررتني مثلما فعلتِ

"نزار قباني"

دقائق، وساعات تليها أيام عسل، ورحلة لن تنسى بصحبة حبيبها، زوجها، دنيا جديدة تخوضها معه، ومعركة تلتها حرب كان هو المنتصر فيها، الفاتح العظيم، من سيكتب تاريخهما معًا حيث تكتفي هي بمشاهدته وفقط.

فالتاريخ يكتبه المنتصرون.. وحكايا العشاق يخطها العاشق الأكبر، وهي تثق الآن.. أنه متيم بها كما أنها تذوب فيه.

ما بين عراقة المكان.. ورومانسيته، في دهاليز العشاق وطرقات مدينة النور كانت أكثر رحلة ممتعة، هو مرشدها كأنه تربى فيها ويحفظها عن ظهر قلب، وتكتفي هي بالاستماع إليه والاستمتاع بصحبته.

وتمر الأيام سريعًا، كالعادة.. السعادة قصيرة المدى، ولحظات الغيبوبة العشقية التي غادرت إليها بطواعية لن تطول للأبد.

شهر ونصف، خمس وأربعون يومًا بالتمام، لم تسعد مثلها من قبل، ولا تريد شيئًا بعدها.. يغادر قبلها كل يوم إلى عمله، تتبعه هي بعد ساعتين، ويتقابلا في طريق العودة، فقط تلك الأيام التي يذهب فيها لموقع التصوير هي ما تؤرقها.. لكنها تمررها بسلام، ولا يذكرها هو بشيء كأنه يعلم أنها ترفضها.. أو تخافها.

واليوم الخميس، لا مشفى في الصباح، فقط عيادتها في المساء، لذلك قررت أن تمنحه وجبة مطهوة بعناية، واختارت ما يحب ثم بدأت العمل بهمة، اتصل بها من الخارج فردت بابتسامة:

"وحشتيني..!"

نبض قلبها، رباه كم تحبه!! وذاك الحب يثير ذعرها في أحايين كثيرة، ردت بهمس:

"أنت أكتر"

ويداعب كما تعشقه هي.. بجنونه وشقاوته وعبثه:

"أنا أكتر إيه؟"

وتجيب بما يرغب:

"وحشتني قوي، قوي، قوي..."

ويقاطع بنفاذ صبر:

"خلاص كفاية، مش هاعرف أرجع البيت دلوقتِ"

ضحكت بمرح فأعلن غضبه وتوعدها بعقوبة نافذة، فقط عندما يعود، تستعمره هي، تحتل كيانه، ولم يعد يرى غيرها، لقد وصل معها حد الاكتفاء، وما بعدها لا يساوي أبخس شيء.

أخبرها أن لديه مشهدًا هامًا اليوم، وسيتأخر قليلًا لكنه سيمر على الصغير ليصطحبه معه كما وعده من قبل، فالفيلم شارف على الانتهاء، وقد تكون هذه هي الفرصة الأخيرة.

وافقته واتفقا على لقاء بعد انتهاء عملها ليعودا سويًا كما هي العادة، أنهى المكالمة بغزله الجريء، وابتسمت بخجل تسعد به وفقط، نعم لاتزال تخجل، وهو يندهش في كل مرة لكنه راضٍ بذلك بل ويمتعه أحيانًا.

وضعت اللمسات النهائية على الطعام، تنهدت بحب وتمنت أن يعجبه، أخذت حمامًا سريعًا وارتدت ملابسها استعدادًا للذهاب لعملها.. عندما فتحت باب المنزل لتغادروجدته في وجهها، تراجع خطوة مندهشًا فهو لم يطرقه بعد لكنها هتفت بذات الدهشة وربما أكبر يصاحبها استنكار غاضب:

"سامح!!"

(23)

شرارة النهاية

"أنت بتعمل إيه هنا؟!"

سؤال غاضب أقرب للصراخ انطلق من بين شفتيها، حقا الصفاقة لها أهلها كما يقولون، يعلم جيدًا أن زوجها لا يكون بالمنزل في هذا الوقت، وهو لا يأتي لمنزلها بالأساس، بل يرى صغيرها في زياراته لجده.. والآن تتفاجأ به يقف أمام بابها وهي وحيدة كأنه يتعمد ذلك.

جاوبها برفعة حاجب تتظاهر باندهاش هازئ، لكنه رد بجدية:

"معلش يا منى إني جيت البيت في الميعاد ده، بس مضطر"

لم ترد، رمقته بسخط تتساءل عن مقصده دون حديث، تقتصد فيه وتمنع نفسها عن مخاطبته وهي تكاد تشتعل، أردف بتوضيح مختصر:

"مسافر الفجر ويمكن أغيب فترة، عاوز أشوف مالك قبل ما أمشي"

كادت تسخر منه، حقًا!! الآن يهتم لأمر طفله؟ وفي المرة السابقة غادره لعامين دون وداع، دون اهتمام أو مراعاة لها وله، تريد الخروج لكنه يسد الباب بجسده، تململت ترد ببرود:

"مالك مع أحمد في لوكيشن التصوير النهاردة، كان ممكن تتصل قبل ما تيجي"

وأعلن عن غضب بنبرة مستاءة:

"للدرجة دي!! ده ابني وعاوز أشوفه قبل ما أسافر"

حافظت على برودها رغم ملامحه المتجهمة:

"كويس إنك مهتم المرة دي بوداعه، بس أنت عارف برده وكويس قوي إن جوزي مش بيكون موجود في البيت في الوقت ده"

وكلمة "زوجي" التي نطقتها عامدة تضغط أحرفها بثقل أثارت حنقه أكثر، كاد يتقدم للداخل لكنها رمقته بتحذير، فسألها بلية شفاه ساخرة:

"طيب ممكن العنوان اللي "جوزك" موجود فيه، عشان أشوف ابني"

وضغط أحرفها هو الآخر يخبرها أن رسالتها وصلت كاملة دون نقصان، زمت شفتيها لا تهتم لما يدور بذهنه، فقط منحته ما أراد وأوحت له

بالمغادرة، لكنه كلوح من ثلج تطلع إليها كلها بنظرة متفحصة وعاد يتدخل فيما لا يعنيه:

"أنتِ خارجة؟"

ردت بنفاذ صبروطاقة، وتملك غضبٍ من كل خلاياها:

"شغلي يا كابتن، ممكن تعديني!!"

ابتعد خطوة وسمح لها بمرور من حيز ضيق استغلته في هروب من وجوده، وهو تتسع ابتسامته الساخرة، يضيق عينيه يتابع هرولتها للمصعد، ويفكر، أو ربما يخطط، لمَ يمنحها سعادة إن كان بإمكانه تعكيرها؟ تحطيم هالة القدسية اللامنطقية التي تحيط بها ذاك اللعوب السابق باعتباره عاد لطريقه المستقيم وتاب عن كل ذنوبه لمجرد زواجه منها..!!

حالمة هي كعادتها، ودومًا ما تنكسر تلك الأحلام فوق صخور و اقع تحيا فيه ولا تراه، تبتلع هواءه وتظنه نسيم الحياة، وسخر ثانية.. يقرر تحويله لعاصفة.. وربما رعدية ببرق مميت.

تبعها في صمت واحتل معها المصعد بتعمد، وقف إلى جوارها فتباعدت خطوة، ماذا!! تظنه سيهاجمها؟ حمقاء هي..! هجومه سيأتي من حيث لا تتوقع، ومن حيث تكون النتيجة قاتلة بحق.

******

يتأملها بسكون، تأكل شريحة من الخبز المحمص الغارقة في زبدة الفول السوداني التي تدمنها، تتلذذ بها وتلعق الأثر من فوق شفتيها، ويبتسم هو، ترتفع عيناها نحوه وتلمح كيف ينظر إليها، ابتسامته متعددة المعاني بطريقة غير واردة، لكنها تبادله إياها برقة.

تلك الشرفة الواسعة حيث يقيمان في أيام الشهد خاصته، قضى بها أجمل الأوقات، أراها عالم جنونه وأدخلها إليه من أوسع الأبواب، واستجابت هي برضى بعث السرور في نفسه، هي تخرج من عالمها المظلم، وتلتقي به في منتصف طريق سيمضيان فيه معًا.. وكما ينوي، إلى الأبد.

كان صباحًا مشرقًا دافئًا، ورغم ذلك تناثرت قطرات متفرقة من المطر فاقتربت هي كأن تعويذة ما تسحبها نحو السور، ارتكزت إليه بكفيها لكن الهواء عاندها فضمت وشاحها المتطاير فوق رأسها، عاد يعاندها، ويتحدى خصلاتها العسلية لتجاريه في معزوفة رقص ناعمة تداعب وجنتيها.

تبعها كمسحور يربطه بها خيط متين، وقف خلفها يحيطها ويعتمد من حولها على السور هو الآخر، اقتربت منه تستند إليه، تريح رأسها فوق كتفه وتهمس بنعومة:

"بحب المطر"

أسند رأسه لجانب رأسها و ابتسم دون رد، "حالمة أنت يا امرأتي وأعلم أن المطر كذلك يحبك.." عمَّ السكون لدقائق، لم تتحرك والتزم الهدوء مثلها، اكتفيا بتلك الضمة الدافئة تحكي عنهما الرواية، وتقص الحكاية وتسمعها للأكوان كلها.

تحركت فجأة تستدير بين يديه، تريح كفها فوق صدره، رفعت رأسها تلتقي بعينيه، احتواها بنظراته وقبل أن يتحدث هتفت هي بخفة وحماس:

"إيه رأيك ننزل نمشي شوية في الشوارع؟"

تدهشه بحق، تحرك فيه شغفًا بريًا نحوها، ونحو كل شيء ترغبه، تولى أمر العناد هذه المرة وجذبها أقرب إليه:

"لأ.. تبردي"

تدللت تشاغبه دون أن تعلم تأثيرها عليه حقيقةً:

"لو بردت دفيني"

تثير الإعصار ولا تخش هبوبه، لا تعلم نتائجه، ولا تحزر حتى مقدماتها، وإعصاره هنا اشتمل عناقًا حارًا تقطعت أنفاسها بعده، فابتعاد، ولمسات بحنين كأنها عقب فراقٍ لم يكن، وهمس دافئ بشوق لا ينضب:

"أخاف عليكِ"

ابتسمت بحب، في كل مرة يقترب منها.. يعبر لها عن تلك الحرب الدائرة بداخله نحوها.. يهمس بعشقه، يخاف عليها أو يعابثها، يدللها أو يغيظها، كلها حالات تُتخِم قلبها بهواه، وتغرقه فيه أكثر.

عادت تستند للسور وهذه المرة بظهرها، تتحرك بكفيها فوق ذراعيه وتجذب يده اليمني بين يديها، تقلبها وتحرك إبهامها عند طرف معصمه في دوائر لا نهائية، ثم تبدأ في قصة.. عن ماضٍ، طفولة كانت تهرب فيها من أبيها فقط لتتصرف بجنون أسفل المطر مهما اشتدت سطوته أو عزف غيثه، تضحك في نصف الحكاية، تداعبه وتلتمع عيناها بحنين، تشرد وتعود.. وتستمر في قصتها.

ويكاد يقسم أنه لم يستمع لحرف، ليس لأنه ملول، أو لأن حكاياها لا تهمه، لكنها فقط تشتت عقله كله بإصبعها الصغير ذاك، عيناه لم تحيدا عنه، وأذناه تلتقطان صوتها بصعوبة، في النهاية كانت المقاطعة حارة:

"أنتِ بتعملي إيه؟"

نظرت إليه بدهشة مستغربة مقاطعته، لمحت اتجاه نظراته فابتسمت، سألته بضحكة شقية:

"إيه..! بتغير من هنا كمان؟"

وقهقه بمرح يستعيد تلك الذكرى، لكنه في النهاية استجمع صوته بحشرجة ينظر في عينيها ويمنحها الجواب المنطقي الوحيد:

"لأ.. دي بتعمل حاجة تانية خالص"

ولم ينتظر أكثر، فقط حملها بين ذراعيه بسرعة ليريها بطريقة عملية كيف لذلك الإصبع الناعم الرقيق أن يُفَعِّل محرك الجنون، ويقطع حبال الصبر والسكون.

"أستاذ أحمد..! يلا مشهدك"

استدعاء من عالم الواقع الذي يكرهه يسحبه من خيالاته حولها، من ذكرى تشغل المساحة الأكبر من عقله منذ حدثت، لكنها تظل الأكثر متعة، نهض واقفًا يداعب الصغير، يشرح له أنه على وشك البدء، ويخبره أن يستمتع بالمشاهدة فهي تستحق.

لم يرعينان ناريتان حاقدتان تابعتا شروده منذ البداية، لاحقتا انفعالات وجهه المتتابعة، البسمات المتفرقة ذات المعنى الوحيد بعشق والتي ارتسمت على شفتيه دون شعورأو إرادة.

******

ولكل مراقِب.. ما يسيئه، وآخر يراقبه، دائرة هي.. بدايتها ونهايتها عند نفس النقطة.. فاتنة بالفعل، صهباء بخصلات طويلة تتطاير حول وجهها بجاذبية غير اعتيادية، لونها يقارب حمرة النار الحارقة، وذاك الغضب اللاهب بوضوح فوق ملامحها ليس له إلا تفسيروحيد.

حدد خطواته في اتجاهها، تراقب زوج امرأته السابقة بعينين مشتعلتين و.. راغبتين، تمنته لنفسها فتسرب من بين أصابعها لتلك الصغيرة التي جذبته عند بداية الطريق حتى انتابه الملل وهرب، وهذه أخرى تصلح كمسمارصلب في نعش حب.. زواج، سيعمل على إنهائه فقط ليكسرها، الحمقاء التي رفضت العودة إليه رغم ذاك الرابط القوي بينهما.

وفي النهاية تفضل زيرالنساء عليه، وترمي بنفسها بين أحضانه.. مسكينة هي، لا تعلم أن الأمثال الشعبية المعروفة لم تنبت من فراغ، وكل دخان.. بالفعل ناتج من نار اشتعلت حتى مرحلة الرماد.. نعم فذيل الكلب غير

قابل للصلاح يا بريئة رغم أن أميرك ثعلب ماكر، وهو سيسعى لإثبات ذلك.

وقف خلفها، تداعب صغيره، تتخذ منه وسيلة تتقرب بها لذلك المغرور غير مهتمة بزواجه ووجود أخرى في حياته، التقطته أولًا عينا الغاضب القادم من بعيد، فهرول إليه بل كاد يركض، خلال ثوان كان أمامه:

"أهلًا يا كابتن..!!"

وفي عينيه ألف علامة استفهام وتعجب..!؟ حضوره لفت انتباه الجالسة والصغير الذي اندفع إليه فرفعه بين ذراعيه يقبل وجنتيه ويدغدغه بمرح، وقفت هي الأخرى تتطلع إليه بفضول، ثم نقلت عيناها نحو ذلك المستعر بجحيم ساخط حارق يجاورها في وقفة دفاعية لم تفهمها، همست باقتراب غير مسموح، تحلل لنفسها سؤالًا غير مباح:

"مين ده؟"

ابتعد خطوة ثم التفت إليها يخرسها بنظرة، لكن الجواب أتاها من لوح الثلج صاحب الخطة:

"أنا والد مالك يا فنانة، وسعيد قوي إني قابلتك"

ابتسمت بغرور.. وبادلها هو بمثلها، فقط بَطَّنَها باستخفاف، أتظنه حقًا يهتم!! هي فقط بيدق مناسب لتنتهي اللعبة بفوزه هو.. حتى لو غادر المكان بكل ما فيه، صافحته برقة:

"ميرسي.. أنا أسعد"

واعتذرت تغادرهم تدعي فهمًا لا يليق بها، لكنه ابتعاد مؤقت، فقط اتخذت مكانًا مناسبًا لوضع مر اقبة جديد.. حينها دمدم "أحمد" بخفوت من بين أسنانه:

"بتعمل إيه هنا؟ وعرفت مكاني إزاي؟"

أنزل صغيره أرضًا و ابتسم ببرود، يرد باقتضاب، فحسب ليبدأ شرارة النهاية:

"من منى"

"تماسك.. فقط تماسك" ..حدث نفسه بها، أمرها، عنفها، هو يستفزك فقط لا غير..! لكن عيناه أوضحتا ما بداخله دون شك، والآخر لم يدخر وسعًا في إضافة المزيد من محفزات الاحتراق فوق نير انه المتأججة:

"رحت البيت أشوف مالك، وبعد فنجان قهوة أخدت منها العنوان"

"قهوة!!".. لا تعليق إلى الآن.. هي لم تدخله إلى المنزل في غيابه، كلا.. هي لم ولن تفعل، ليس هي..! لكن الأبله يستمر في قصته غير المنطقية:

"أنا آسف إني رحت وأنت مش موجود، أصلي مسافر بكرة، بس كنت مصدع شوية وسألت منى على مسكن، فأصرت إني آخد معاه فنجان قهوة، وأنا مش باقدر أرفض لها طلب خصوصًا لما يكون اهتمام بيَّ"

لا رد، لا أنفاس واضحة حتى.. والجحيم يطالب بالمزيد من الحطب، بل وعلى وشك نفث اللهيب بحق ليحرق ذاك الكاذب المتبجح، اقترب أحد العاملين في هذه اللحظة ينادي الصغير لإحضار وجبة ما، سمح له "أحمد" بالذهاب وتغاضى الوالد عن ذلك.. فقنبلته القادمة لا تحتمل وجوده.. افتعل ترددًا، تصنع ارتباكًا، وحشرج صوته بنبرة ألم:

"أنا.. أنا.. بص هاكون صريح معاك، دي أول مرة نبقى لوحدنا من غير وجودها.. وكنت عاوز أوصيك عليها..."

قاطع نفسه بنفسه، تناله نظرات شك تمتزج بغيرة تطحن أضلع الواقف قبالته يتميز غيظًا، لا يثق بما يقول.. فلو كانت تهمه بالفعل لما أوجعها، خانها، أهملها وأهمل طفله وغادر..! قصته لا يمكن ابتلاعها ولو في حرف ومع كل أدوية الحموضة وعسر الهضم، استطرد ذاك المدعي بلهجة نادمة:

"أنا حبيت منى بجد، مش باقولك كده عشان تغير أو تضايق وده حقك طبعًا، بس فعلًا كان بيننا قصة حب مش من السهل تتنسي رغم كل اللي حصل، أنا عارف إني جرحتها، وعارف إن قلبها كبير ومستحيل هينساني بسهولة.. والدليل..."

ومنحه نظرة سريعة يتأكد من تأثير فحوى حديثه عليه، أردف بعد شعور بالانتصار ملأه حتى فاض:

"الدليل إنها اهتمت بيَّ النهاردة وخافت عليَّ.. أنا مش عاوز أكون سبب في جرح جديد ليها، أو مشكلة بينك وبينها، بس أرجوك.. إسعدها على أد ما تقدر"

ابتسامة حنين مفتعلة، كأنه يستعيد ذكرى ماضٍ يشتاق إليه، والفضول انتعش في قلب الزوج الذي يكاد يموت أمامه وهو يخبره عن قصة غرامه بزوجته وغرامها به، صامت هو.. يستمع لحديث يمزق أحشاءه، يقتل روحه ويجتثها من خلاياه، لا يفهم لمَ يسكت عليه!! لمَ يسمح له بالخوض فيما هو عِرْضُه الآن؟ أهي مازوشية، أم رغبة في اكتشاف ماضيها، كيف كانت تحب هذا النذل!! كيف كانت معه؟! وهل حقًا لايزال يتملك من جزءٍ منها؟!!

ويعود المتبجح للحديث بنبرة شاردة كأنه لا يعي ما يقول، غائب في دنيا جمعته بها يومًا، زمنٍ احتواهما معًا، ويحتفظ ببسمة اشتياق لما فات ومات:

"كل حاجة فيها كنت بحبها، كل حاجة بيننا، كل كلامها، حنيتها، حتى حركاتها.. كانت خجولة بطريقتها الخاصة، لما تحب تقرب مني أو تطلب حبي كانت بتجنني، تمسك إيدي برقة وتحرك صباعها فوقها.. ما كنتش باحس بنفسي وقتها غيرو أنا...."

والألم هذه المرة غير محتمل، فمستنقع حقارته أصبح جاذبًا للغرق.. واختصه هو به دون غيره، رغم تأكده من كون ذاك الأخرق يفتعل المشكلات، يريد قهره، حرق قلبه ربما..! لقد اختارته دونه.. وبالتالي لديه ذريعة انتقام قوية، لذا فإن المقاطعة هذه المرة أيضًا كانت على شكل لكمة عنيفة قاسية تتفجر بالغضب، لكمة كادت تكسر فكه أو تخلعه من مكانه، لكمة ألقت به أرضًا، ثم ذاك المهتاج ينحني فوقه بنيران تندلع من عينيه، يجذبه من قميصه ويعيد اللكمة في أنفه وتتطاير الدماء ممتزجة بسبابه:

"يا واطي.. أنت أحقرو أقذربني آدم.. لأ.. حيوان شفته في حياتي!!"

ويعاجله بلكمة أخرى لم يصدها صارخًا بعنف ذاهل:

"اللي بتتكلم عنها دي مراتي"

وارتفعت يده استعدادًا للكمة جديدة تلقاها "سامح" في قبضته يحمي وجهه، دفعه بعيدًا عنه، ونهض واقفًا يبادله صراخًا بصراخ ويشيح بذراعيه في وجهه:

"أنت فاكر إنها بتحبك بجد؟ لا فوق وصحصح قوي.. و إفتكر إن كل مرة بتعمل معاك كده تبقى بتفكر فيَّ أنا، لأن أنا اللي علمتها كل حاجة تعرفها، كل مرة تبقى في حضنك.. بتكون شايفاني أنا.. حاساني أنا، بتتمناني أنا، ومهما عملتْ يا سي كازانوفا؛ عمرك ما هتوصل جواها للي، أنا.. وصلت له.. أنا أبو ابنها الوحيد"

انقض عليه من جديد، كاد يشتبك معه ثانية لولا أن وجد من يمسك به يحجم اندفاعه نحوه، ويُكتِّف الآخر الذي كان ينقض عليه بدوره، صرخ بجنون يحاول تخليص نفسه من بين أيديهم:

"سيبوني هاقتله..."

لكنهم تمسكوا به أكثرولا فائدة من حربه معهم، صاح بصوت مجروح:

"طلعوا الحيوان ده برا"

اجتذبه الآخرون فنفض أيديهم في قرف، البعض تجمع حول "أحمد" يحاولون تهدئته، لكن تلك المراقِبة.. ألقت عليه نظرة متألقة.. ثم تبعت ذلك المغادر تتقصى، تتدخل، تحاول إشباع فضولها، وربما تسرق ما ليس لها.

******

يكاد شيطانها يرقص طربًا، هناك أمر غامض، وتلك الجميلة الحالمة التي سطت بتبجح على قلب من كان لها، تمتلك ماضيًا، بل وماضٍ سيء يلاحقها، تتبعت خطواته الغاضبة، وبالطبع هو يعلم بوجودها، يمسح بقايا الدماء النازفة فوق وجهه، يخرج من المكان وتناديه.. يلتفت إليها مدعيًا اللامبالاة.. سألته بلهاث:

"هو إيه اللي حصل؟ ليه أحمد اتخانق معاك بالشكل ده؟"

عقد حاجبيه ينظر إليها في استفهام، يصطنع وجه صعب المنال، رافض الحوار.. أردفت بلطف:

"آسفة إني بادخل، بس أحمد عزيز علينا كلنا، ومش سهل نشوفه متضايق كده ويبقى عادي"

ابتسم داخله أخيرًا.. ها قد وقعت، رد ببرود:

"عادي يا فنانة، خناقة عادية بين واحد وزوج مراته السابق"

لم تجد ما ترد به، تريد أن تعرف أكثر ولا تدري كيف..! أخرجها هو من صمته بذهول كأنه يقر حقيقة ما واضحة للعيان:

"أنتِ في حاجة بينك وبينه؟!"

يسألها بنبرة متهمة ومهتمة.. تلجلجت.. هل تدعي!! أم تصرح بو اقع.. أنه لا يكاد يراها!! مع ترددها عاد يكمل ما بدأه.. وخطته تنجح بشكل أفضل مما تمنى:

"أرجوك يا آنسة سهر؛ لو في حاجة ابعدي عنه.. أنا شفت بيبص لك إزاي؟ نظرة عينيه قلقتني.. منى أينعم طليقتي بس سعادتها تهمني، بلاش تكوني سبب في خراب بيتها وكسر قلبها.. حتى لو هو طاردك أو قرب منك؛ ارفضيه"

وفي أعماقها تهلل وترقص كالمجاذيب..

وفي داخله يصفق لنفسه بحرارة وينحني بتحية لجمهور خاص من شياطين الجحيم..

أومأت برأسها في صمت.. لا تنفي ولا تؤكد ظنونه، وابتسم ساخرًا بوادع ثم رحل، وترك لها وللزمن.. ولرجل طُعِنت رجولته وقلبه في الصميم.. إكمال الحكاية.

******

يتأنق بشكل خاص، وسامته تنطق برجولة شرقية سوداء النكهة، خصلات ناعمة حالكة مصففة بعناية، عينان في دُجْنة الليل دون قمره، وحلة كحلية داكنة، قميص رمادي فاتح، دون ربطة عنق، كما شقيقه الأكبر، يكره القيود.. حتى لو ارتبطت بملبس.

تأمل هيئته لمرة أخيرة في المرآة، أغرق نفسه بعطره المفضل.. والذي بخبث علم أنها تستمتع بتنفسه، اليوم هو يومٌ خاص.. هام لها، والدعوة كانت شبه آمرة من طفلته المدللة، ومن هو ليرفض لها طلبًا..!

خطبة شقيقتها الكبرى، في محيط العائلة وقليل من الأصدقاء، بسيطة في حديقة منزلهم الصغير، ومع صداقته النامية مع أخيها الأكبر كان أحد المشاركين في تنظيم الحفل والمساعدين في إعداده بما يليق بالعروس الحسناء.. ولا يخلو الأمر من شغب، عبث وشقاوة مع صغيرته.

ابتسم يتذكر الأمس بعد الانتهاء من التحضيرات، تقف أمامه ببنطال بسيط من الجينز، قميص قطني أزرق اللون، تعقص شعرها على شكل

جديلتين ثم تربطهما في دائرة حول رأسها، بعدما ضحك على مظهرها الطفولي مع زينة خصلاتها الوردية.. والتي تتنافر بشدة مع ملابسها، أخبرته أنه سيندم، وتحدته أن يعاملها كطفلة مجددًا.. لكنها لا تعلم أنها هكذا أشهى، ألذ، وألطف.

وتلك الـ "توتة".. أقرب لقلبه كثيرًا من أنثى تحاول اختراق حُجُب طفولتها البريئة الشقية التي تسحره، طوال الفترة الماضية اقترب منها أكثر، دللها أكثر، ودوما ما كانت لحظاتهما سويًا تبهجه بشدة وتنسيه همومه أو مشاكل العمل المعتادة خاصةً مع وجود أخيه الغاضب على الدوام الحانق بعنف، والمختنق بقيد الروتين الجديد رغمًا عنه.

انتهى فحمل مفاتيح سيارته وتوجه للخارج، قابلته والدته، نظرت إليه بتفحص، قبل أن تبدأ تحقيقها المعتاد:

"إيه الشياكة دي كلها!! على فين كده؟"

رفع حاجبًا بمكر:

"ما أنتِ عارفة يا كرملة، مش قلت لك تيجي معايا أنتِ وأحمد.. بس رفضتوا!!"

ابتسمت تقترب باهتمام، تداعب ذقنه الخشنة وتربت على كتفه بيدها الأخرى، تودعه بدعوة:

"أنا ما أعرفهمش يا عمرو، حتى لو عمك يعرفهم.. المهم تنبسط، يلا عشان ما تتأخرش"

ودعها هو الآخر ورحل، عند وصوله للمكان شعر بالزهو يغمره، الحديقة تبدو كجنة.. والزينة التي عمل عليها مع صغيرته وأخيها بالفعل رائعة..

تقدم للداخل متوجهًا مباشرةً نحو "بلال" المتأنق بصحبة أحد أصدقائه، اندمج معه في الحديث، وتخلله سؤال عنها.. علم أنها بصحبة العروس وستهبط إليهم معها، يكره الانتظار، حقًا وبشدة، لقد توعدته بندم، فلنرَ إذًا كيف ستفعلين طفلتي المدللة!!.

دقائق مرت، تعالت أصوات الموسيقى تعلن حضور العروس، وخلفها كانت هي.. ولوصف موقفه بدقة.. علينا أن ننظر من خلال عينيه.. الطفلة لم تعد صغيرة، الجدائل تفككت بشكل أنيق وارتفعت في قَصَّة راقية، تغافلها خصلات ناعمة صدمته بلونها الأحمر تشاكس وجنتيها بشقاوة وإغواء مؤلم.

وشفتيها المكتنزتين بحلاوة تلتمعان بلون التوت الداكن.. رباه هذا مؤلم بحق!! وذاك الثوب القصير المكشوف.. أتسمى هذا ثوبًا صالحًا للارتداء

أمام الناس؟! لقد فقدت عقلها حتمًا، وسيقتلها فقط لو وصل إليها، تأملها أكثر وارتفعت دقات قلبه، قماش ناعم من الشيفون القرمزي، ينسدل بنعومة حتى ركبتيها ويستطيل من الخلف قليلًا، يضيق عند الخصر بحزام ألماسي أنيق ويحتضن صدرها بإغراء، حمالتين رفيعتين ووشاح شفاف لا يخفي أي شيء بل يزيد في ألمه.

يحاول تخطي الجموع الواقفة ترحب بملكة الحفل، وفي عينيه كانت صورتها هي وفقط.. لم يرَ غيرها، ويسعى للوصول إليها، لمحته يقترب ونظرته أقلقتها، ترى هل تمادت!! لكنه يفتأ يعاملها كطفلة، وهي ليست طفلة، هو أحمق كبير للغاية، وأعمى، لا يفهم أي شيء.. ولا يدري عن قلبها الذي يدق له.. و أقسمت أن تريه.

تهربت منه، تشاغلت بشقيقتها، اندفعت مع صديقاتها، والوشاح المهدور الحق يثير سخطه أكثر في كل مرة ينزلق فيها عن كتفيها وتلتمع أسفله بشرتها الذهبية، في النهاية انشغل هو مع شقيقها لبعض الوقت قلقًا من لفت الأنظار لما يعتمل بداخله.. أو لما يريد فعله في هذه اللحظة فور أن يضع يديه عليها.

تراقبه هي مستمتعة بذلك الحنق الظاهر على وجهه، حسنًا أيها الوسيم شديد الحماقة.. ما رأيك فيَّ الآن؟ هل لاأزال طفلة بجدائل ورباط

وردي..! تشتري لها الحلوى والمثلجات!! تفكر فيه وفي أول كلمة سينطقها عندما يقترب.. لكنها وبعد تفكير انتوت حرمانه من تلك الفرصة، فلن يحدثها طيلة الليلة، وليضرب رأسه السميك المتعامي عن الفهم عرض الحائط.

تتأمله، تدور بأعينها في المكان، تتابع أختها وملامحها السعيدة بخاطبها، ولم تلحظ ذاك الاقتراب الحذر من أحدهم إلا بعد همسه الفج في أذنها:

"مزة آخر حاجة يا منوش"

تراجعت خطوة بصدمة، لقد لفحتها أنفاسه بالفعل، زجرته بعينيها، التفتت ولم ترد، لكنه سمج لحوح، كلاصقة طبية:

"إيه بس.. باعبر عن إعجابي"

زفرت في غيظ:

"لؤي.. الله يخليك مش وقتك، أنا مش فاضية لهزارك"

وعاد يقترب بشكل مربك، يهمس بفحيح:

"مين قال إني باهزر!! أنتِ ما شفتيش نفسك في المرايه، جامدة جدي"

رمقته بتحذير، تبتعد خطوة وتصطدم بصدر آخر التقط آخر الكلمات، والتقت العينان، هي مرتعبة، وهو مشتعل، يطحن أسنانه، ويرد من بينهما على الأبله:

"أنت ما بتحرمش يا بني؟ مش ضربتك قبل كده!!"

التمعت عينا "لؤي" بتحدٍ و اقترب، وكاد الحفل يتحول لعراك، "عمرو" يقف بتحفز واستعداد للانقضاض، والثاني يخطو نحوه بسخف، لكنها قررت عنهما إنهاء الأمر، جذبت الغيور من يده و ابتعدت دون حديث، واكتفى هو بنظرة قاتلة نحو الآخر ثم تبعها، خطوات معدودة و انقلب الأمر، تقدمها، يجذبها خلفه بشيءٍ من عنف، ويدخل إلى المنزل، أوقفها أمامه يصيح في وجهها:

"إيه اللي أنتِ عاملاه في نفسك ده؟"

تكاد ترقص، هي سعيدة للغاية، هو غيور وهذا واضح، لكنه وكأي أحمق.. يكابر، هزت كتفيها ببراءة تتساءل عن مقصده:

"في إيه يا عمرو؟"

جذب مرفقها يهزها، ولايزال يهتف بسخط:

"في إيه؟ أنت تقريبًا مش لابسة حاجة، ده قميص نوم ده ولا فستان!! بتستهبلي يا منة"

حسنًا.. لم تتوقع هجومًا جارحًا!! انتزعت يدها منه وجابهته بعناد غاضب:

"أنت بأي حق تكلمني كده؟ ماله فستاني؟ أخويا ما قالش حاجة عليه، أنت بقى مالك؟"

رفع يده يُشيح بها، فتح فمه يمنحها ردًا منطقيًا، وتوقفت الأحرف على طرف لسانه، نعم بأي حق! وما الذي يحدث له بالفعل؟ ضم شفتيه في حيرة، عاد يفتحهما في محاولة أخرى، ولا صوت.. ظلت تنظر إليه في ترقب امتزج بغيظها منه.. هيا اعترف..! قلها..! لكنه نطق كفرًا يدفع بدمائها للفوران، ويولد بداخلها رغبةً في حرقه حيًا:

"و إيه الروج ده كمان؟ مش ملاحظة إنه كأنه دعوة لكل واحد يبص على شفايفك؟"

وهذه المرة تألمت بحق..! التمعت دمعة في عينيها وتراجعت خطوة تحدق فيه بصدمة، لمحها وعاد يسب نفسه، لمَ يؤلمها في كل مرة؟ وما به حقًا؟ لم يحاول الفهم أو البحث عن أسباب، هذا كثير.. وهي له.

زم شفتيه رافضًا المزيد من الحديث معها، هز رأسه يائسًا، خلع سترته يضعها عنوة فوق كتفيها، ثم جذبها خلفه من جديد في هرولة كادت تسقطها أرضًا مع حذائها المرتفع كناطحة سحاب، توقف يدعمها، يلقي بنظرة نحوه، ويرفع عينيه إليها ثانية بسخط، لكنه ابتسم هذه المرة:

"برده أوزعة.. ما تحاوليش"

ولم تفهم هذا المجنون، قبل لحظة يصرخ ويخطئ في حقها، والآن يلبسها سترته الدافئة بعطره، ويداعبها..!! لكنه لم يهتم لرد فعلها، فقط استمر في التحرك، في النهاية توقف معها أمام والدها الذي نظر إليه في دهشة، دون تزيين، دون مقدمات، دون استيعاب كامل لما ينطق به حقًا هتف بسرعة وجدية واضحة:

"عمي سعد.. أنا عاوز أطلب من حضرتك إيد منة"

واتسعت عيناها، وهلل قلبها، وارتفعت النبضات تنظر إليه مبهوتة، والأب الجالس مع عمه يتأمله بنظرة مطولة، مندهشة قليلًا، تستوعب أكثر، يفكر لثوان، ويمنحه الرد بحزم:

"آسف يا عمرو، ما عنديش بنات للجواز"

(24)

سعادة قصيرة المدى

كلٌ لأمره حاكم

إلا من قلبٍ باع نفسه للحب

سكن دنيا الهوى

يتيه في بلدانها

يتجول في حواريها

ويعاقر خمر حاناتها

سكرٌ بيّن

غياب وعي

ولا حرج على عاشق

حتى لحظة إفاقة بصدمة

على و اقع ظنه هو الحلم

أو ربما الكابوس

الذي لن يزور منامه ولا صحوه أبدا

تبًا لكبرياء الرجال اللعين!!

وتبًا لغرورِ سهمٍ كان بطلًا في يومٍ ما، ساعةٍ ما، وفي طرفةِ عين ضاع اللقب..

ولعنات السعير الذي يصطليه دون شفقة.. دون رحمة؛ على قلب تملك منه العشق حد الوجع، حد أنين صامت تعمد كتمانه بألم فوق قدرة احتمال البشر.

لو كان مكانه آخر.. لغادر إليها، جذبها إليه وأخرج كل الكامن بداخلها، أجبرها على اعتراف تصوغه المشاعر وتنهيه أيضًا، نال ما تمنى، وأغرقها بهوسه، غرامه، عشقه السرمدي حتى تنقطع أنفاسها وتعلنها على الملأ أن لا غيره يسكنها.

لكنه هو.. "أحمد".. زير النساء السابق، الزوج الحالي، وعاشق مغروم ضائع فيما بينهما، ووسوسة شيطان ذاك المهزوم في معركة قلبها لاتزال ترن بأذنيه.. "تتمناني أنا، تفكر بي أنا، تشعر بي أنا".. وماذا عنه هو؟ مجرد صورة خارج الإطار!!.

هو لا يصدق.. لا يعلم إن كان عن يقين!! أم فقط يقنع نفسه بذلك يدعي ثقةً في حبها له!! أم ثقةً لا يمتلكها بنفسه وبقلبها الذي يفترض أن يتملك منه!!.. هو تائه، حائر ويشعر بضياع، يشعر بطعنة غادرة انتقاها المنتقم بعناية ودقة يحسد عليها، سدد الضربة بقوة فبلغ العمق، والنزف مستمر حتى يكاد يهلكه.

يريد الصراخ.. يدعي التماسك، يظهر عقلًا راجحًا رغم تمزقات قلبه التي يكاد يستمع لصوتها، شروخ تمتد بسرعة وعنف فوق جدران هشة اكتشفها للتو.. هو جبان، مغرور.. وهذا خليط مميت يحبس عنه أنفاس الحياة.

الساعة قاربت الحادية عشرة مساءً، هاتفه لم يتوقف عن رنينٍ قلقٍ باسمها، وخافقه لم يتوقف عن استجابة له كلما لمحته عيناه، الصغير في سبات مرهق على أريكة السيارة الخلفية، وهو يقود ويقود، ويدور في دائرة مغلقة، أو للأصح هي شرنقة.. نبتت حوله للتو فحبسته في ظلامها بكل آلامه التي تعدت الحد المسموح.

متيقن هو أن الحقير يريد الانتقام.. ليس منه فهو لا يهمه في شيء، لكن منها هي؛ زوجته، ينفث سمومه في قلبه.. ويلونه بسواد ملأه في السابق،

يدعي حبها وكل ما قاله أو فعله هو دليلُ كرهٍ، حقدٍ، وغضبِ من يشعر بإهانة الرفض من أنثى ذبحت غروره وطعنت كبرياؤه في مقتل.

ومن أفضل من آخر.. يعلم أنه يعشقها، واختارته هي عليه!! ليعيد تسديد الطعنة نحوه، ويترك له هو إكمال الخطة القذرة!! كلا لن يفعل، لن يؤذيها، هو الآن زوجها وهي ملكه.. الخيار كان متاحًا أمامها.. واختارته، فدعوى الحساب المتبوعة بعقاب غير منطقية أو مقبولة.

لا مفر من التسليم، والعودة حيث هي.. يختبر مواجهة لا يعلم مقدار صموده أمامها.. يا الله كم يتمزق قلبه وتنزف رجولته بل حتى غروره الأحمق يئن!!

أجاب اتصالها الأخير، طمأنها أنه في طريق العودة واعتذر لتأخير خارج عن سيطرته.. أوقف سيارته في مرآب المبنى، ظل يحدق في اللامكان لدقيقة أو يزيد، تنهد بعمق وأوجعته تلك الأنفاس بحق، زادت من اشتعال صدره كأنها الأخيرة.

حمل الصغير بحنو، يشفق عليه من أب هو أحقر من قابل وصعد إليها.. استقبلته بلهفة، تتساءل عن حاله.. أجابها برفق وناولها "مالك" لتعتني به.. التقطته وغابت لدقائق لم تطول بعدها عادت إليه.. وكانت جميلة

رقيقة ناعمة كما عهدها دومًا، والخافق التائه بين جنبيه يصرخ فيه بغضب، ويناديها بولهٍ أبله.

تقترب ويكاد يتراجع.. أمر نفسه بصمت أن يتجلد، جلس على أريكة غرفة المعيشة، يقلب بملل بجهاز التحكم، تمر الصور دون صوت ودون أن تقع عيناه عليها، جلست إلى جواره تمسد ذراعه المجاور لها برقة، تعاتبه بهمس:

"اتأخرت قوي.. وكمان ما كنتش بترد عليَّ..! قلقتني!!"

وخرج السؤال من بين شفتيه دون وعي، ليسب نفسه بعده:

"عليَّ ولا على مالك!!"

نالتها دهشة..! فقط لم تصرح، بل طيبت خاطره ببسمة:

"عليك طبعًا، أنا عارفة إن موكا في أمان معاك"

وعاد يلعن لسانه الأرعن ثانية، بادلها بسمتها ببطء، وتراجع يريح ظهره لمسند الأريكة، رفعت بنفسها ذراعه وضمت نفسها إليه تريح رأسها فوق صدره، طبعت قبلة صغيرة عند فكه تسأله بحنان:

"مش جعان!! عملت لك النهاردة كل اللي بتحبه"

وكأنه لم ينصت لحرف.. عقله يدور في دوامة.. متى ستخبره؟ عن زيارة النذل..!! حركت ذقنه بأصابعها تجذب انتباهه:

"لا ده أنت مش معايا خالص!! مالك يا حبيبي؟"

نظر في عمق عينيها وكلمتها الأخيرة تخترق حصونه وتدكها دكًا، كم هو ضعيف أمامها!! وكم بيدها وبكل سهولة أن تكسر قلبه وتحطم كبرياء رجولته!! عاد يبتسم في محاولة فاشلة ويجيبها بحنان:

"أنا كويس.. مرهق بس حبتين، شغل الشركة الصبح والفيلم آخر النهار"

ابتعدت عنه فجأة ولم يفهم لمَ!! نهضت تقف خلف ظهره تدلك كتفيه برقة، تسحب آلامه مع أصابعها، وتمنحه دفئها واهتمامها، لدقيقة أو أكثر بقليل شعر براحة أسفل كفيها، انحنت نحوه تطبع قبلة على وجنته، ثم تهمس بحب:

"ربنا يعينك.. تعالى هاحضرلك الحمام، تاخد شاور على ما أجهز العشا"

وجذبته من يده، تبعها في استسلام صاغر، يعترض فقط:

"مش عاوز أكل يا منى، أنا أكلت برا مع موكا"

توقفت بإحباط.. فكرت لثوان ثم عادت تجذبه نحو غرفة النوم، تجيبه بعناد رقيق يذيبه:

"خلاص، بس هتاكل الحلو"

والتفتت تحيط عنقه بذراعيها في دلال:

"عشان خاطري.. علمت لك حاجة بتحبها جدًا"

وابتسم يراضيها.. من ذا الذي لا يعشق هذا الرقيقة الحانية؟ أحمق هو لو فكر في مجرد إيذاء قلبها الذي يهتم لأمره:

"خلاص ماشي.. عشان من إيدك بس"

وعلا وجهها فرحة بريئة طعنته من جديد، أسفل الماء تناوبت عليه الأفكار.. لا يريد إزعاجها، لا يهمه ما قاله ذلك الحقير.. أو على الأقل يحاول ألا يبالي به، يخشى سؤالها عن زيارته ويتساءل لمَ لم تخبره عنها للآن!! نعم لقد عاد للتو.. ولا يكترث لإرهاق أو ما شابه لتقص عليه يومها، لكنها بالتأكيد تعلم بحضوره له في مكان عمله، إذًا لمَ الصمت؟.

أنهى حمامه وارتدى ملابسه، عندما تأمل ملامحه في المرآة، علم أن بها شيء خاطئ، ظاهر بوضوح.. ولابد أنها لاحظته، ربما تنتظر فرصة سانحة

تناسب الحديث، رباه!! كم يشعر بالضيق والاختناق، ود لو قتله ودفنه في مكانه.. لربما استراح، هدأ باله واستكانت نفسه!!.

استقبلته بدفئها تقدم له حلواه المفضلة.. مفضلة من يديها وفقط، وأحبها لأنها تشبهها في خياله، ربما لم يخبرها من قبل، لكن بداخله يشعر كأنها هي، ابتسم بهدوء يعبر عن أفكاره:

"تارت ليمون!!"

بادلته ابتسامته وعيناها تحيطانه بحنان، أردف بشرود:

"تعرفي إن الليمون بيفكرني بيكِ"

اعتلت ملامحها دهشة مستغربة لكنه لم يلمحها، احتفظ بحاله الغائب يكمل دون سؤال:

"لونه اللي كله حياة، درجة لا تتعب عينيكِ من لون قوي زي ده، ولا تحسسك بالاسترخاء التام، بس تشدك وتحييكِ"

ونظر في عينيها، لا يراها.. بل يرى داخلها:

"طعم حاد وقوي، تدوقيه تكرمشي وشك وتقشعري، بس غصب عنك هترجعي تدوقيه وتتلذذي بيه تاني"

ابتسمت و ابتسم في المقابل:

"وقشرة مش سميكة أو قوية، بس في نفس الوقت بتحميه، ومش سهل تشيلها من عليه، كأنها شرنقة عاوز يعيش جواها وبس"

وانحنى يقترب منها أكثر، يحيط وجهها بكفيه ويزيح الطبق من يدها، ينظر في عمق إبريق العسل بين جفنيها، يرى انعكاس صورته، بل ويرى انعكاس نظرته إليها، عينان تشعران بالضياع.. والعشق.

التقت الشفاه في صمت، يريد الحديث، لكنه فقط لا يعرف ماذا يقول!! يشدو قربها ويخشاه، تروِّعه صورة آخر تتجسد في خيالها دون ملامحه هو، و أفكار تراودها عنه بينما ذراعيه هو تحيطانها وتضمانها لصدره.

أبعدها عنه بشكل مفاجئ حاد زرع الدهشة في عينيها، أراد الحديث ولم تسعفه الحروف، تطلع إليها يريد انتزاع أفكارها من رأسها ليراها عن كثب، يفندها، يهيل عليها تراب الموت، ويبعثها للحياة.. له هو، لكن ما وجده كان استغرابها الذي نبهه لطريقته الخشنة والسيئة للغاية في الابتعاد عنها، فتح فمه ليقول شيئًا لا يعلم بالضبط ما هو..! وما قاطعه.. طرقات الصغير على بابهما.

غادرت، وعادت الأفكار تصارع خلايا عقله تحاول تدميرها، تشويه صورة احتوتهما معًا، تمحو وجهه وتستبدله بزوج سابق وحقير حالي، زرع بداخله

أقسى ما يمكن أن يعلمه رجل عن حبيبة تملكت منه، وترك لجبنه مهمة الإرواء، ولغضبه جني الثمار.

شدد قبضتيه حتى كادت أصابعه تنكسر، أراد لكم الجدار وانتبه لنفسه قبلها بلحظة، ألا يعلمون أن جنون عاشق غيور.. هو حد السيف القاطع الذي ينتزع الحياة من قلب وهبها له طواعية!! يقطع الوصال ويفتح الجروح واحدًا تلو الآخر!!.

من قال أن الحياة وردية؟ أن خياله سيتجسد ويتجسد دون مرور بدوامة واقع يستيقظ عليه كل يوم!! من قال أن الأحلام تتحقق دون أن تتخللها شياطين اليأس، وتقتلها طموحات هوت من علٍّ وتناثرت لفتات.. شتات غير قابل للملمة أو جمع!!

انتبه من موجاته العاتية على صوت خطواتها العائدة إليه، عليه أن يعوضها ما فعله قبل قليل، هو يعشقها، وهي تعلم.. لقد أخبرها، يتيه فيها، في ابتسامتها، في لمعة عينيها، وخصلات العسل الناعمة، رقتها، حنانها وجبنها وحتى هروبها.. كيف له أن يتسبب لها ولو في ذرة من قلق؟!

شغفه بها لم يقل ولو للحظة، وتلك الثورة التي تحركها بداخله لم تهدأ بعد.. إذًا كيف يبعدها عنه بهذه الطريقة!! تمنى ألا تغضب..! فقط تمنى، وانتظر، وظهرت أمام عينيه، تدلف للغرفة ونظراتها تهرب من لقاء

نظراته، تعانق الأرض، تلتزم الصمت، وهناك قلق ما ينبت في خلفية الصورة.

عض شفته السفلى في حنق، نعم.. لقد أحزنها، وهو ما لم يرغبه رغم السعير المضطرم بداخله، أغلقت الباب واتجه نحوها، خطواته سريعة أقرب للهرولة، جذبها بين ذراعيه وقرر محو الصورة، محو الذاكرة، محو أفكاره و أفكارها، والهروب منها إليها.

******

أن ترفضك إحداهن.. هذا مهين لكرامتك كذكر، وفقط ذكر..

لكن أن تعلم.. أو تظن أنها تريدك، ومن بيده الأمر هو الطرف الرافض!!

أن حرمانك من قربها خارج عن إرادة كلاكما..! فهذا مؤلم بحق، ليس لرجولته، كرامته، أو حتى كبريائه.. بل لذلك المستيقظ من غفوة استغرقت عمره كله حتى أفاق أمام نكهة التوت فوق شفتيها، ولمعته فوق ذهبية أنوثتها.

نعم.. لم يفهم أن بقلبه نبض ما، أو أن بروحه شغف ما.. نحو تلك الضئيلة -التي لا تصل حتى لكتفه- إلا بعدما أحرقته نار الغيرة، تلك النار التي أصابته بجنون كاد يتسبب في عراك، بل وتسبب في رفض والدها له.

طلب يدها.. والأب رفض..!!

وهكذا أغلقت الدائرة، أُلجِمت الحروف عن الصعود نحو حلقه بحروف مفهومة، وعيناه شاركت الصورة باتساع مشدوه، وما بين دهشة وانعدام تصديق وُلِد ألم.. ولا يكاد يصدق، فهو لأول مرة يشعر بذاك النوع من الوخزات التي تنغز قلبه وروحه على حد السواء.

الظلام يناسب روحه في هاته الحالة، أطفأ كل ضوء، وجلس في غرفته يطالع بقايا القمر المتداعية في شرود، يستعيد صمته، شعور الخذلان وارتجاف كفها بين أصابعه، عندها التفت يبحث عن زيتون عينيها يهرب إليه من خوف يحلق فوق رأسه كنذير شؤم، ولاحظ اللمعة الدامعة، وتهربت المقل تعاند اللقيا، تنزع آخر شعرة وصل، وتفر بكُلِها بعيدًا عن حضوره، وعن ذلك الرفض الآثم، حكم الإعدام، وقرار النهاية الذي خرج من بين شفتي والدها.

ينقل أنظاره لعمه الجالس في سكون، يعقد حاجبيه الكثين في نوع من غضب لم يتفهم سببه، أو ربما لم يحاول البحث له عن أسباب!! يكاد يسمع مضخة قلبه تدفع الدم بقسوة في عروقه، تنفضها بعنف، وتحثه على الصراخ، ثم يكاد يتخيل أن رفضه أصبح فضيحة علنية على الملأ،

سمع بها الكل، ولو استدار إليهم الآن للمح نظرات الشفقة الساخرة.. في مزيج يليق به حقًا.

هربت الجميلة، وتجمد الأمير الوسيم، لم يكن هناك جواد، ولم يحمل لها وردة.. أراد اختطافها على صهوة جنونه، وزرعها في واحة غرام تنبت للمرة الأولى في صحراء قلبه.. لكنه سقط في هوة سحيقة، تحمل عنوان الرفض.. معنى المنع.. وقصة انكسار بعد فقط مرحلة الحبو ونيل الخطوة الأولى.

والرجل يحيطه بنظرات قوية، يجابه انفعاله المصدوم بحزم صارم، ويكمل ما بدأه:

"الراجل اللي هاقدر أديله بنتي، لازم يحترمني، يحترم وجود عمه كبير عيلته!! قبل ما يجرها من إيدها ويعيش دور الرومانسي يطلبها مني كأنه طالع من رواية"

حينها فهم، وفهم ما هو أكثر عندما أخبره شقيقه.. "العشق يشعل فتيل الجنون"، يوقف العقل عن التخطيط، ويحفز عشوائية القرارات والتصرفات، ابتسم داخله.. ووضع الخطة المناسبة، تتبُع سياسة تكرار الطلب، وتكراره.. وإعادة تكراره حتى مرحلة الرضوخ، عندما يعلن خطأه ويدفع بالعم الصديق في منتصف الطريق بينهما.

والمبادرة كانت لحظية، بتراجع تكنيكي وطأطأة رأس للحظات تفكير، لعب على أوتار المشاعر.. ورغمًا عن أنف الجميع "فليحيا الجنون".. يبتسم، ويخجل بغرابة على ملامحه الخشنة ويهمس بتوتر:

"آسف يا عمي.. أنا.. أنا بحبها"

انعقاد حاجبي العم يزداد، وصدمة خافتة تظهر على ملامح الوالد المتعجب، وينال ردًا لا يعلم أيثلج صدره للنبرة شبه الباسمة التي احتوته..! أم يداهم قلبه بخوف لا مصدر له سوى خشية المجهول المعتادة!!:

"ما فيش فايدة"

ونهض يغادرهم بخطوات بطيئة، يتوكأ على عصاه، ولا ينظر للخلف، تابعه بعينيه، يلعن حماقته التي انتزعت اعترافًا من دواخل قلبه.. لم تكن هي أول من يسمعه، التفت لعمه يستجديه بنظرات عاجزة، فكان الجواب هزة كتف تعلن رفض التدخل، وتلقي بكامل المسئولية فوق عاتقه وحده.

******

انتهى ولم ينتهِ..!

عَشِق فاشتهى، غَضِب فمزق، حمل إلى فراش، وقست اللمسات حد أنينَ وجع.. ابتغى تعويض فمنحها المزيد من القلق داخل مقلتيها اللتين تنظران إليه دون فهم.

يرتمي في استرخاء مصطنع يقطعه لهاثه يجاروها، وتجذب شرشفًا تغطي به جسدها المتألم، يعلو نبض الصمت، تحتبس الحروف بتجبر ترفض التعبير، وقد تساندها الأنفاس بعد قليل، أنفاسه العالية التي لا يعلم أهي لغضب.. أم لعشق!!.

زمن غير محسوب، لكن مهما طال فله نهاية، وقررت هي أن تمتلكها، رفعت نفسها تنظر إليها، يريد الفرار من تلك التساؤلات التي تغلف حدقتيها ولا مهرب، وكان العسل الشجي قيدٌ يكبل زرقة السماء الملتمعة بنيران الحيرة والحزن.

ابتسمت برقة، تظن أنها تعلم!! وتراضي برفق حنون تبحث عن حبيبها الغائب:

"أنا عارفة أنت مالك!!"

انتقل التساؤل إلى ما بين جفنيه، فانحنت تحيط خصره بذراعها وتريح رأسها فوق صدره بهمس:

"أنا آسفة إني إديته العنوان، بس غصب عني.. حق مالك عليَّ"

شعرت به يشدد ذراعيه حولها، رفعت رأسها فقابلتها نظراته، غضب حارق محبوس بقوة، وألم يكمن في الظل يبحث عن ضوء يحييه، قبلت كتفه واعتذرت من جديد:

"قال لي إنه مسافر وهيغيب، ما حبيتش غيابه يكون وجع لابني من تاني!!"

ولانت عيناه.. يرتجيها، فقط أكملي!! ولم تبخل عليه بمزيد من الإيضاح:

"في موقف تاني؛ طبيعي أرفض.. كنت نازلة العيادة وفتحت الباب لقيته قدامي، كنت عاوزاه يمشي بأي شكل، ولما قال سفر ومدة.. فكرت في مالك، وقلت أكيد أنت هتتفهم، أخد العنوان ونزلت على شغلي على طول"

اعتدلت ثانية تنظر إليه بأمل كاد يدمي قلبه، رباه فقط لو تعلم أن الصغير لم يكن هو هدفه أبدًا!! تأملها.. يدور بعينيه فوق ملامحها، ثم لوهلة انعقد حاجباه في ضيق، مد أصابعه نحو عنقها يتلمس كدمة واضحة، وما إن لامسها برفق حتى انتفضت مبتعدة بتأوه ألم ازداد له الانعقاد وتحول للغضب:

"أنا عملت كده!!"

آلمتها اللمسة الخافتة، كان خارجًا عن طوره، ثائرًا وتعلم أنها السبب، لذلك احتملت.. ليغضب هو من نفسه في النهاية، لكنها لن تعيده لذلك المكان ثانيةً، ابتسمت بدلال، تداعب أنفه وتشاغبه:

"عادي يا حبيبي.. مش أول مرة"

امتلأ عقله بعلامات استفهام لا جواب لها.. أكان الآخر يفعل ذلك معها؟ اعتادته فلم تعد تبالي بوجعه الذي لم تحتمل أنامله فوقه.. وخالف هو نيتها، تراضيه فيشتعل بنيران السخط، ويلعن نفسه وفقدانه للسيطرة حد إيلامها، حد إعادة ذكرى كان يريد محوها للأبد، حد مرض بدأ يتسرب لعقله يحمل اسم ماضٍ زُرِع داخله دون إرادته، ويعود صدى الكلمات يتردد، ويعلو فوق كل ذرة تعقل و اتزان.

قبلت فكه ونهضت ترتدي مئزرها الحريري، انحنت تلتقط منامتها الممزقة دون أن تنظر إليه، توجهت إلى الحمام يتابعها بعينيه، لكنها قطعت تتبعه بباب مغلق، وتركته لأفكاره الثائرة تحاوطه من كل اتجاه.

وقفت أمام المرآة تتطلع لكدمتها المحمرة، نعم ترك علامات عشقه على جسدها سابقًا، لكن هذه موجعة بحق.. هذا أثر غضب، غيرة، وكَمَد

مكتوم يتملك منه.. حيث غادره حبه، وتركته رقته الشغوف، وحل محلها ثورة تسببت هي فيها.. بغباء وحمق.

زفرت بضيق شديد، بللت طرف منشفة ناعمة ولامستها برفق فتغضنت ملامحها في ألم، ضغطت شفتيها بين أسنانها وعادت إليها تمسها برفق أكبر، غسلت وجهها بماءٍ بارد وخرجت إليه، لم ينتزعه خروجها من شروده، وقفت تتأمله بسكون، وتعود للحنق على نفسها أكثر.

بعد ثوان رفع عينيه إليها، ابتسم باعتذار لوحت به نظرته، مد كفه إليها فاقتربت منه بتمهل تمنحه يدها، احتضن أصابعها بحنو وجذبها فوق صدره يطبع قبلة عند شعرها ويهمس:

"آسف"

ضمت نفسها إليه واستكانت تنعم بحنانه، تتغاضى، تتناسى، وتقبل الاعتذار.. فهي قدمته قبلًا، أغلق جفنيه يريد النوم، يهرب من واقع منحه الصدمة الأولى، إفاقة على فكرة لم يهتم لها أو يضعها في حسبانه، فإذا بها تؤرق مضجعه وتعكر صفو سعادته.

يريد الوثوق بحبها له، حبها الذي انتزع اعترافها به رغمًا عن إرادتها، يرفض تصديق ذلك الحقير، وتتصدع تلك الإرادة وتتشتت الثقة كلما عاد صدى وابل النيران الذي انفتح في وجهه يتردد في تكرار غير محتمل.

أراد أن يثبت لنفسه أن تلك الكلمات المشابهة للرصاص لم تؤثر به، ليجد أن لها عميق الأثر حد إيلام حبيبته دون أن يشعر، ثم ينال تسامُحها الذي يوجعه أكثر بل وإحساس ذنبٍ لا دخل لها به.

******

المدللة الصغيرة تشب عن الطوق، خافقها ينبض لأميرها الحانق على الدوام، تثير غيرته وتدفعه نحو مفترق طرق، والنتيجة رعونة حددت اتجاهه، يخالف اتجاهها.

تتوحد مع ذاتها، تختبر واقع الألم، تريد البكاء وتخشى صوتًا يصل لمسامع الأب، سالت عبراتها في صمت، لا تنشج أو تنتحب، فقط ترتكن لظهر فراشها، تحتضن وسادتها المفضلة، وتنساب الدموع دون كابح أو رادع.

في عالم لا ينتمي لعالمنا، تائهة لم تلتحق بقطار الفرح.. بعد أن فاتها الموعد الأول، الوالد الحاني يراقبها في صمت لا تنتبه لحضوره، خطا نحوها بهدوء يخشى قطع حبل السكون، أو إثارة زوابع الأفكار أكثر، يتألم لدموعها الهادئة، ويتفهم.. ثم يقترب يحاول الشرح.

جلس إلى جوارها، انتبهت ليده الحانية تمسح وجنتيها برفق، ابتعدت بسرعة تداريها كأنها عار أو تهمة ثبتت عليها بتلبس، حاولت كفكفتها ببراءة ابتسم لها، واجهها يتحدث باهتمام:

"كل الدموع دي عشانه؟"

أدارت وجهها تتلافى النظر إلى عينيه، لكنه أصر، أعاد عينيها نحوه ونظر فيهما بعمق يطلب الجواب، و أتاه بهمس خجول لصغيرته البريئة:

"كنت فاكرة إنك هتو افق"

ربت على شعرها بإشفاق:

"ممكن نتكلم جد مع بعض، تسمعيني للآخر وتحاولي تفهمي بابا غرضه إيه!!"

وتهز رأسها بطفولية جعلته يتساءل.. هل هذه تصلح زوجة!! تتحمل مسئولية رجل، بيت وأسرة!؟ عاد يمسح دمعاتها ويتحدث بعطف:

"منة..! الجواز مش حب ورومانسية وبس، فارس هيخطفك على حصان أو حبيب طالع من رو اية من اللي بتقريهم، يجرك من إيدك وسط الناس عشان أتفاجئ بيه و اقف قدامي يقولي جوزني بنتك يا عمي..."

نظرت إليه تريد مقاطعة، منعها بنظرة و أكمل بهدوء:

" الجواز قبل أي حاجة مسئولية.. عشان تخوضي تجربتها لازم تكوني أدها، ومن أول خطوة، عمرو ما عملش احترام لعمه اللي قاعد معايا، ما قدرنيش أنا لما اتعامل معاكِ إنك ملكية خاصة، يلبسك جاكت بدلته، ويطلب إيدك وخلاص.. ويسحبك وراه كأني مش موجود...!"

وعاد يربت على شعرها بلين:

"قولي عليَّ رجعي، طراز قديم، بس كنت هاحترمه قوي، وغالبًا كنت هاوافق لو كان اتقدم لك بالطريقة العادية، بدل ما يطلب إيدك فجأة في وسط حفلة أختك، يقول لعمه ويكلمني عشان نحدد ميعاد ويجي يطلب إيدك بالطريقة اللي ترضيني وتحسسني إني ممكن أطمن عليكِ معاه..."

تأملته بعينين تلمعان ببقايا دموع، تأمل في حروف سينطقها تُعلِمها أنه فقط يؤدبه ربما، لكنه سيوافق في النهاية، وتخشى أن تبني أوهامها على دعامات لا تحتملها فتنهار فوق رأسها وتحطم قلبها، تنهد هو بعمق و استطرد بتربيتة أخرى:

"لكن هو اتصرف بتهور.. بجنون هتشوفيه إنه حاجة حلوة، لكن أنا كأب لأ.. وكان لازم وطبيعي أرفض"

و ابتسم لنظراتها المتسائلة، لم يتمم حديثه ومنحها حق الرد:

"يعني لو جه مع عمه هتوافق؟"

اتسعت ابتسامته، طفلته لم تلتقط من حديثه كله سوى مسوغات اجتماعها مع من تعلق قلبها الغِّربه، عاد يتنهد ويرد إليها أنفاس الحياة:

"إيه رأيك نطلع عينه شوية، بعدين نقررنو افق ولا لأ"

ضحكت من بين دموعها وارتمت فوق صدره، تهز رأسها بإيماءة راضية، وتبتسم، تدعو، وتقررتعذيبه بشقاوة مادامت الفرصة متاحة.

(25)

وكلنا في الهوى غرقى

المعضلات تزداد واحدة..

والعشاق بعد عملية جمع قصيرة.. أصبحوا رقمًا ما زائد واحدًا آخرًا، يخوض الصراع للمرة الأولى، ويجهل المعطيات المطلوبة لإتمام المعادلة بنجاح.

الرعونة، التهور، ومسلك الجنون.. مواصفات قياسية في عالم المحبين، والاشتياق عامل مساعد.. يحرك كيمياء الأمر، حتى يصل المزيج الجديد حد الفوران.

معاناة اللهفة، الحنين بألم، ومخاض مشاعر وليدة، غياب تخطى الحد المسموح، والنتيجة غضب عارم مكبوت.. مصحوب بكبح فوق طاقات البشر لوسوسة المجانين المعتادة.

كل خلية في جسده، كل عصب تحت جلده، وكل نقطة دم تسري في عروقه تحثه على عمل غير محمود العواقب، لكن التماسك أمر حتمي..

الوالد من طراز قديم، يكره الروايات، ويكره أبطالها.. يحب الروتين، ويريد منه السير في صفه الطويل.

ولأجلها سيرضخ.. سيقاتل نفسه حتى يمتلكها، وحينها ستنفجر طاقات الخبال، ويثور بركان اللهفة والشغف، فقط أولًا.. عليه رؤيتها.

أسبوع طويل للغاية، سبعة أيام اقترب من عدها بالدقيقة والثانية، لا يعلم أتتهرب منه!! أم أن هناك أمرًا قهريًا يمنعها!! يهاتفها والآخر مغلق، ووسائل التواصل تصلح بكل جدية لتصبح "لا تواصل"، لا ظهور أخير على تطبيق "الواتس".. و"الفيس بوك" غير متصل على الدوام، يسأل عنها أخويها فينال نظرة توبيخ، وأمام جامعتها تراه من بعيد قيد الانتظار فتهرب بصحبة الصديقات، أو الأخ اللصيق بها مؤخرًا.

يكاد يقسم أنها تتلذذ بعذابه، أو ربما.. مشاعره لا مردود لديها لها، هل توهم!! اعتقد أنها تريده مثلما يريدها، ظن أن الأمر سهل.. وفقط عليه أن يتخذ خطوة جدية وستصبح له، لكن خطوته انقلبت رأسًا على عقب.. وفوق رأسه هو.

طوال تلك الفترة لم يسمع صوتها الذي يفتقده بشدة ولو بهمسة، ولو بنبرة غاضبة متنمرة يشتاقها، ولو بصراخ لذيذ تنهره فيه، يسيطر على نفسه بصعوبة منعًا لعمل أرعن يبعدها عنه أكثر.. كان يجلس في مكتبه

بغيظ، يشغل عقله بشقيقه ذو الحال المتغير والمزاج المتقلب، تارةً غاضب، وتارةً صامت، ومؤخرًا يلمح في عينيه ما لا يستطيع تفسيره.

تنهد، هل يلهي باله عنها الآن!! أمسك بالهاتف يقلب فيه، في النهاية خضع لنداء قلبه و اتصل بهاتفها.. رنين ورنين يطول وينتهي ولا جواب، والقلب يأمر بلهفة تمتزج بترجي يطالب بالتكرار، ويعود للخنوع له رغمًا عن كل شيء.

وهذه المرة بعد الرنين الثالث سمع صوتها المتوتر وكاد يصرخ فرحًا، لكنه وجد نفسه يصيح فيها بغضب لم يستطع كبحه:

"كنتِ فين طول الأسبوع اللي فات وما بترديش عليَّ؟!"

جوابها كان خفيضَ النبرة، هادئًا بشكل مريب:

"خير يا عمرو؟"

ولمس فيه حزنًا أطاح بصوابه، وقلبه يسقط صريع القلق:

"مالك يا منة؟"

ترددت لثانيتين ربما..! كاد يموت فيهما قبل أن تمنحه الخلاص:

"كويسة الحمد لله، بابا كان واخد مني الموبايل، أنت عامل إيه؟"

وبكل اللهفة التي تشتعل بكيانه رد بحزم:

"عاوز أشوفك"

وعادت للتردد الذي يثير خوفه:

"مش هينفع، بابا مانعني أخرج إلا للكلية أو للحاجات المهمة بس"

وغضب، لا.. بل اشتعل بالغضب، ولم يمنع صراخ حاد ألجمها:

"بتهرجي!! عاوز أشوفك"

وتتلذذ هي بنيران تعلم أنه يحترق بها، تكاد تبتسم، وقلبها ينبض:

"يا عمرو مش هينفع، بابا مش عاوزني أشوفك"

تردد، سيخطئ الآن.. لكن لا حرج على عاشق، فاقد الأهلية، غائب عن الوعي:

"مش لازم يعرف إنك هتشوفيني"

وتبتسم بنشوة، تتمعن في عناده، وتنتقي الكلمات بعناية:

"هو متأكد إني لو خرجت هيبقى غالبًا عشان أشوفك.. عارف إننا أصحاب"

واتسعت عيناه، جف حلقه، وانعقد لسانه، أهي تهذي؟ لقد طلب يدها لزواج وهي تقول "أصدقاء"..!! حمقاء هي أم بلهاء أوربما.. مدعية!! ونالت الرد الجاف:

"أصحاب!!"

تكتم الضحكة بصعوبة هذه المرة:

"آها"

تنهد.. أو فقط هي زفرة حانقة حارة، مشتعلة تحرق صدره، قبل أن ينهي المكالمة بصرامة آمرة:

"في النادي.. بكرة يا منة، وإلا...!!"

ولم يكمل ما وراء النقاط، ترك الفكرة معلقة في الهواء وأغلق الخط دون منحها فرصة الرد، وقامت هي تكاد ترقص، ويهتف قلبها: "رباه.. كم أحبه!!".. توجهت لغرفة والدها، تطلعه على آخر الأخبار، وتعلمه عن اللقاء المرتقب.. ووافق هو لكن بشروط.

******

على من يقع اللوم!!

عندما تتملك حمم منصهرة من جسدك، تصب في أوردتك بلهيبها المتأجج، ولا تجد من تلوم!!

حينما يغرقك الغضب في محيطه، وتبتلعك ظلمة أمواجه، ولا تجد من تعنف أو تؤنب!!

وقتما تشعر بتفتت ذرات كيانك، واحدة منفردة تلو أخرى، ببطء شديد حارق، قاتل، وتضيع الأسباب والمبررات.. وفقط تبقى النتائج!!

يدفن نفسه بين أوراق يحاول فهمها، مر ما يقرب من شهران على عمله في الشركة، ومعظمها كان غارقًا في استعدادات زواجه، تلاها عسل تلذذ به، وفي النهاية كابوس يحاول الخروج منه دون جدوى.

وأسبوع مر منذ ذلك اليوم الذي زاره فيه الحقير، سلة القمامة المتنقلة بروائح تفوح منها تزكم الأنوف وتمنع الأنفاس، يوم قسا عليها، آلمها، وتقبلت هي تُسامح بقلب رؤوف.

أسبوع.. لم يقربها فيه، قبلة على جبين، هروب، ادعاءات، غياب غير مبرر في عقله، لكنه يصطنع الأسباب لأجلها، يستيقظ قبلها، يغادر، تتصل هي تريد الاطمئنان فيتعلل بالعمل الكثير المرهق، وبداية جديدة عليه تحتاج تركيزه وحضوره الكامل.. وتصمت.

لا يدري إلامَ سينتهي الأمر؟ لقد امتلأت رأسه بخرافة، والخرافات تقتات على عقول الضعفاء، وهو في حبها ضعيف، ضعيف للغاية كجنين يقابل العالم للتو ولا يفقه شيئًا عن تكوينه أو متاهاته.

أغلق الملف أمامه ولم يحاول أكثر، نوبة من البرود واللامبالاة تجتاحه تجاه كل شيء، يحتاج لما يغضبه، يصرخ فيه، يحرك كتلة الجمود الصلدة الكامنة فوق صدره تحجب عنه الهواء.

نهض يخرج من غرفة مكتبه، ولم يلحظ الواقف أمامه يهم بالدخول، اصطدم به فأتاه صوته بهتاف مرح:

"إيه يا أبو حميد، طلقة!! رايح فين في وسط اليوم؟"

نظر إليه دون حديث، والآخر يتأمله باهتمام، يسبر أغوار ملامحه الجامدة حد الثلجية، ويهم بالسؤال من جديد، لكنه بتر تلك المحاولة باقتضاب ومغادرة:

"مشوار يا عمرو"

وانطلق لا يلوي على شيء، لم يتوقف إلا أمام مضمار كان نجمه يومًا، يتأمله بحنين، يدعو، يتمنى، يتلهف، يترقب، ويصطدم بواقع يحطم الأمنيات ويبعثرها كهباءٍ منثور.

تردد، يفكر ويرغب، يخاطر ربما.. لكن التجربة ربما تريحه ولو لقليل من الوقت، ضغط دواسة وقوده، حرك ذراع السرعة، وانطلق السهم بعنفوانه فوق الأرض التي فتحت ذراعيها تستقبله بترحاب، يدور، يتفادى، لايزال يمتلك المهارة والقوة، السرعة وحس المغامرة العالي.

تعالى صوت المكابح المفاجئ بينما تحتك العجلات بالأسفلت بقوة، وبمقدار قدم تقريبًا تفادى دهس صديقه أسفلها.. تلاقت الأعين بتحدٍ، يرتفع لهاثه الحاد الغاضب، فتح باب السيارة وغادرها يقف أمامها يصيح فيه مفرغًا كبت الأيام السابقة:

"أنت مجنون يا حسن؟ افرض ماكنتش أخدت بالي في الوقت المناسب!!"

عقد زميله ذراعيه أمام صدره ببرود، يلاحظ التغيرات الطارئة عليه، ولا يفهمها!! بعدما كانت السعادة تتراقص فوق ملامحه، أصبحت الآن تنوء بأثقالٍ من همومٍ لا يدري مصدرها، رد من بين أسنانه بغضب:

"أنا مجنون!! وأنت إيه؟ بتنتحر مثلًا..!"

ضرب سطح السيارة بكلتا قبضتيه في قهر، وقف ثانية ينظر إليه، امتنع عن الرد ببساطة وغادر متقهقرًا بها للخلف، تاركًا المكان لمن وقف في طريقه.

هو على وشك الجنون إن لم يكن قد جُن بالفعل، يحتاج لضرب شيءٍ ما، أو حتى شخصٍ ما.. دون وعي قاده عقله نحو منزل والدته، وهناك التقاها دون حديث كثير، ألقى تحية عابرة، وأعطى سببًا ملائمًا لحضوره المفاجئ، ثم توجه إلى صالته الرياضية.

فتح بابها باقتحام، دخل ببطء يتأمل المكان، يخلع حذاءه وجوربه تلاهما قميصه.. ودون قفازات، بدأ يسدد الضربات العنيفة لـ"كيس اللكم" الخاص به، متتالية، سريعة، فاقدًا الشعور بالألم، خمس دقائق، وعشر، ثم عشرون، حتى كادت أصابعه تتحطم تمامًا.. فقط لو يهدأ البركان!!

أنهى معركته الحامية بركلة للكيس ثم سقط أرضًا على ركبتيه، وببطء بدأت الآلام تنتشر في كفيه وساعديه، ثم قدمه سيئة الحظ، يلهث بقسوة موجعة، أنفاسه تتعالى بضجيج مزعج، وصدره يئن طلبًا للهواء الذي يدخله كأمواسٍ حادة تمزقه.

ارتمى على ظهره يفرد ذراعيه حوله، ينشد راحة لا يدري أهي من آلام تنخر قلبه..! أم من أخرى تمزق روحه..! أو ثالثة تفتك بجسده كله..!

فتح عينيه لتتقابلا مع عيني والدته القلقتين، تنحني فوقه وتفتح فمها بسؤال مهتم:

"مالك يا أحمد؟"

وتمسك بيديه، تتطلع للكدمات التي أصبحت آلامها لا تطاق الآن، سحبها منها بسرعة حابسًا تأوهه بداخله، هزت رأسها بيأس:

"عملت في نفسك كده ليه؟!.. قوم تعالى"

تبعها في استسلام، يحتاج لتفريغ عقله من الكثير، يحتاج للغياب عن الوعي، يحتاج لتشتيت، يحتاج ويحتاج ويحتاج.. وليس كل احتياج له دواء، فبعضها يبلغ حد النهاية دون ارتواء، دون ترياق، دون منح.

أدخلته غرفته القديمة ليأخذ حمامًا سريعًا، وعندما عاد إليها كانت تجلس على طاولة المطبخ وأمامها وعاء واسع يمتلئ بالماء ومكعبات الثلج، جلس أمامها لتجذب هي يديه وتضعهما في الوعاء بصبر، زم شفتيه يتحمل الألم، تنظر إليه تحاول الفهم، ويتخلص هو من كل التساؤلات بتفسير قد يكون منطقيًا عندها:

"متضايق من الشغل، متكتف، كل حاجة جديدة وصعبة ومحتاجة شرح، مخنوق شوية بس"

وتبتسم بحزن داخل قلبها.. يكذب عليها ويتوقع التصديق، وتقابل كذبه بدعم، وتفهم، تنتظر منه البوح حينما يناسبه الوقت، انتقلت الابتسامة لشفتيها:

"معلش يا حبيبي، كل حاجة في الأول بتكون صعبة، بس أنا عارفة إنك قدها وقدود"

ابتسم لها في المقابل، وصمت، لا أماه..! أنا لست أهلًا لشيء، لا أصلح.. لا للعمل، لا للحب، لا للزواج، ولا لشيء سوى عالم المجون الجانح دون قيود..!

لم يعلم أن نبض القلب موجع لهذه الدرجة..! حتى بعد التملك، تعود الصورة فترتسم أمام عينيه، وتذبحه سياط الكلمات، يتأوه داخله، وتعلن نبضات قلبه العصيان والتمرد.

غادرها عائدًا لمنزله، ربما المواجهة هي الحل!! توفر له احتياجه من الأمان، من الشعور بحبها كما ينبغي، لقد انتزع اعترافها به منها.. والآن يريد منها المنح.. لكن بإرادتها الحرة.

******

الحب..! تهذيب وإصلاح..

جميل أن تحب، والأجمل أن تشاكس الحبيب، تثير حنقه، وتتسلل هاربًا من بين أصابعه.. فقط عندما يظن نفسه قد وصل لما يبتغي..

وهي.. سعيدة بشدة، تتعلق بذراع إحدى صديقاتها، تسير معهما في المكان، تمرح، وتضحك.. تنتظر، وتتوقع رد فعله الأوليّ.

هذا هو اتفاقها مع والدها، لقد وافق فقط رفقًا بحالها.. نعم يعلم، فالشوق يضنيها هي الأخرى، تريد سماع صوته، النظر في عينيه.. وعينيه وحدهما قصة أخرى، يتحدث هو، يبتسم ويداعب، وتغرق هي.. بحر، أو محيط.. أسود لامع، صاخب بالحياة، يشع بالقوة والحنان، والشقاوة.

مزيج لطالما تضاربت له النبضات، واحتمل الصدر تنهدات محبوسة غير مسموح لها بالظهور، واليوم أتت مع الصديقات، ستقف معه لدقيقة فحسب، تحسبها بالفيمتو ثانية، وتدعو ألا تنتهي، تنصت لصوته، تنظر إليه.. وتحتفظ بذكرى تلك اللحظات تشبع بها فراغها البعيد عنه.

تخلل شرودها همسات صديقتيها، أو هي لمزات مصحوبة بغمزات، ونظرات معجبة، قبل أن تردد إحداهما بهيام مضحك وصوت خفيض:

"هو القمر بيطلع مع الشمس؟ ولا أنا ما بقتش عارفة إحنا صبح ولا ليل!!"

ضحكت الأخرى والتفتت هي تنظر لما جذب انتباه تلك البلهاء!! عقدت حاجبيها في غضب، وكادت تنقض على عنقها تشطرها لنصفين.. يقف هناك بطوله الفارع، بنطال من الجينز الأزرق وقميص قطني أبيض قصير الأكمام يبرز عرض منكبيه، منظار شمسي يغطي معظم مساحة وجهه فقط يبرز لحيته الخشنة والتي تزيده وسامة.. ويبحث عنها.

غرست كوعها في معدة صديقتها العابثة وتركتهما إليه بخطوات ساخطة، تتابعانها بدهشة، وتحط نظراته عليها، هي مشتعلة لسبب لا يفهمه، ولسبب آخر لا يعلمه تبدو أشهى وألذ، اقترب هو الآخر يرفع منظاره فوق رأسه وينظر إليها بشوق واضح، أخجلها فخفضت عينيها أرضًا، وقف أمامها يتأملها قبل أن يلقي نظرة خلفها نحو الضاحكتين بتساؤل مغتاظ:

"ودول إيه بقى!! البودي جاردز؟!"

نظرت إليه بحنق، فرفع حاجبًا يغيظها أكثر، لكنها ردته بأسرع مما تخيل في جوابها القاطع:

"دول عشان أنا هامشي بسرعة، بابا خلاني أخرج بصعوبة، عاوز إيه يا عمرو؟"

ورفعة الحاجب تتحول للانعقاد الساخط:

"تمشي بسرعة؟"

لم ترد.. تطالبه بتفسير سريع لطلبه اللقاء، وتستمتع بحالته.. زفر، خلع المنظار من فوق رأسه وخلل خصلاته بأصابعه في عنف، هتف بها من بين أسنانه:

"منة.. أنت مو افقة تتجوزيني ولا لأ؟"

تخضبت وجنتاها، تملكتها دهشة.. واستمتع هو هذه المرة بارتباكها وتوترها وحمرة خجلها، همسها الخافت بشدة، ونبرتها المتقطعة:

"أنت.. أنت بتقول إيه؟"

كاد يمد يده يرفع وجهها نحوه لكنه تراجع، وضع كفيه في جيبي بنطاله يحجم اندفاعهما، ويكرر السؤال، وتغضب هي من جديد وترد تثير جنونه:

"أنا مو افقة على اللي بابا يقول عليه"

تأمل رأسها المنخفض بصدمة، ألا تريده كما يريدها؟!.. "لا تفقد أعصابك الآن" أمرها نفسه، يحتويها بعينيه، ويهمس برفق:

"منة..! بصي لي"

رفعت عينيها إليه، ابتسم.. وتضيع في ابتسامته قلوب.. وقلبها الغِر.. يسلم مفاتيحه، ويعلنها صراحة يمنحه صك التملك وعهد الوفاء،

وشرودها أخبره بما يريد، ربما تعانده، تعابثه، تشاكسه.. لكن عيناها تصرحان بحبه والرغبة في قربه، همس برقة:

"عاوز أقولك على حاجة، بس..."

وترددت تتساءل أم لا!! ثم حسمت ترددها:

"بس إيه..؟"

عاد يبتسم يطيح ببقايا وعيها:

"بعدين عمي سعد يزعل"

لم تفهم.. ولم ترغب في التخمين، فدقات قلبها تعدت طاقتها القصوى في النبض، وهذا يكفي الآن.. فقط هزت رأسها تخبره بالمحتوم:

"مضطرة أمشي"

ولم يمنعها، تخطو بعيدًا عنه، تلتفت بنظرة وداع وحنين.. وتتحرك شفتيه بهمسة نفضت قلبها بتجبر يسمى "العشق".. لقد قالها.. قال "أحبك".

تابعها بعينيه حتى تركت المكان مع صديقتيها اللتين ضحكتا على موقفها وعاندتهما هي كعادتها.. كتلة صغيرة الحجم من العناد والشغب واللذة

هي.. التفت يغادر، يتصل بعمه ويخبره بحتمية اللقاء دون انتظار.. فالأمر أصبح حياة أو موت.

******

وكلنا في الهوى غرق.. لكن كلٌ بطريقته..!

حيرة.. تساؤلات ملتاعة مذعورة، وهلع يتملك من حناياها..

لقد وصل لمرحلة الملل سريعًا، انطفأت الشعلة فجأة وذاب الوهج، لو توقف الأمر على عدم اقترابه منها لتفهمته، أو على الأقل حاولت إقناع نفسها بالتفهم.. لكن شروده، هروبه، غيابه عن المنزل، وتملصه من محاولات دعمها له أو الاهتمام به هي الجواب الذي تناله في النهاية، ويطوف عقلها محلقًا نحو هاوية الهلاك.. يزرع الشك بوجود أخرى.

أنهت حمامها البارد علها تتخلص من نيرانٍ تحرق صدرها، خرجت ترتدي مئزرها، تصفف شعرها أمام المرآة وتشرد.. لم تعد تفهم ما به..! منذ ذلك اليوم الذي أرسلت فيه "سامح" إليه وهو منقلب الحال.. منقلب بزاوية حادة شديدة الجفاء على قلبها الذي خرج من عتمة الغدر للتو.

تحسست عنقها تلمح آثار الكدمة التي تركها هناك يومها، لم تختفِ نهائيًا للآن، ربما لتذكرها أنه يمتلك القسوة حين يريد، وتعود بعدها بلحظة

فتؤنب نفسها.. "أنت سيئة الظن".. ويرد العقل بحكمة موجعة.. "بل هي فقط سابق خبرة".. ويهتف القلب "أبدًا هو لن يخون، يخدع، أو يغادر كآخر سبقه تاركًا ندبة سوداء لم تختفِ آثارها بعد".

وتتيه هي بينهم جميعًا، وترتدي الصمت عله يعود من رحلة غيابه غير المفهومة، دخل إلى الغرفة في هذه اللحظة، التفتت إليه بسرعة والتقت الأعين في لهفة، ابتسم لها برقة و اقترب:

"بتعملي إيه؟"

هزت كتفيها بجواب لا يحتاج لحروف، دفع نفسه يدنو أكثر، يضمها إليه، يمنح وجنتها قبلة سريعة، ويتلبس دوره الذي اعتقد أنه هو حقيقةً بطباع فطرية:

"كنت فاكر هتقولي مستنياني!!"

نظرت إليه بلا استيعاب، يتقلب من حالٍ لحال، ومطلوب منها مجاراته!! هز رأسه و ابتعد يتخلص من تأثيرها عليه لكنها أمسكت بمعصمه فجأة، التفت إليها يتساءل ليجدها ترفع يده قرب وجهها، تنظر عن كثب، تعقد حاجبيها، تقلق ثم تغضب وتفحص بجنون ويتألم هو.. لوجع قبضتيه.. ووجع قلبه باهتمامها.

هتفت بقلق واضح:

"إيديك مالها؟"

انتزعها من بين أصابعها برفق، لا يريد إثارة حزنها أكثر.. يكفيه تلك النظرة الشاردة التي لمحها عند دخوله، ويجيب بخفوت:

"ما تقلقيش، لعبت ملاكمة من غير جلافز بس.. بسيطة"

جذبته، تجلسه فوق الفراش، وتأتي بصندوق إسعافات أولية لأول مرة تقع عيناه عليه، التقطت منه دهانًا ما، رفعت كُميّه للأعلى، وبدأت تمسد كفيه برفق حنون تخشى إيلامه.

لا تدري عن ألمه شيء، لا تفقه ما تفعله به أصابعها، حنوها، رقتها، اعتنائها به..! ولا كيف يكاد قلبه يقفز خارج صدره الآن ملقيًا بنفسه بين ذراعيها..! تطلع لرأسها المحني تهتم به، ود لو ضمها إليه، أخبرها عن اشتياقه القاتل نحوها، عن عشقه الذي يتغلغل فيه كل يومٍ عن سابقه..!

لكن دومًا هناك.. حاجز غير مرئي، من حقد آخر، وغروره، خوفه، وكبرياء ذكر عتيد يحمل الكثير منها في جيناته.. وبالفطرة أيضًا.

انتهت من مهمتها، ورفعت رأسها لتر كيف ينظر إليها!! وكادت تصرخ في وجهه.. هو على وشك إصابتها بجلطة.. أو ربما جنون، كيف يتأملها هكذا؟ وبنفس الوقت يهرب منها، لا يبالي بحزنها، يفارقها معظم الوقت بادعاءات لا حصر لها!!

ابتسمت لعينيه فابتسم، و اقترب.. لا يضم، لا يلمس، يطبع قبلة على جبينها يشكرها فحسب، ويغمغم بهمسة ممتنة، قررت السؤال، ترفض دفن رأسها في الرمال، تتعرض للطعنة، وتتظاهر أنها لا تراها، نادته بحيرة:

"أحمد..!"

احتواها بعينيه يجيب من عمق روحه:

"منى أحمد!!"

انكسرت شفتاها بابتسامة هزيلة، تطعنه هي هذه المرة.. وفي مقتل:

"أنا فعلا لسه منى أحمد؟"

أراد التربيت على شعرها وضمها إليه، منعته كفيه المكدومتين، وخوفه من قربها يحرك تلك الثورة المكبوتة بداخله، فيخضع، ويقسو، وتتألم

هي.. نتيجة خياله المريض بغيره معها، وضع في ابتسامة أكبرَكمٍ من ذاك العشق الذي يتملك منه:

"مناه، وأحلامه، وحياته كلها"

نبض قلبها بأمل، هو لن يكذب.. تعلم أنه لا يكذب، لا بل تتمنى.. وأحيانًا تتساقط الأمنيات كأوراق الخريف، تفقد لونها، حياتها.. وتودع أشجارها بوداع لا لقاء بعده.

ترددت لوهلة، ومنع نفسه من طمأنتها.. يهدد روحه وقلبه وكيانه وعقله الذي يفقد خط سيره نحو الطريق القويم برعونة:

"طيب مالك؟"

بدأ الغضب يتسلل إليه، "ما به لا يمكنه الإخبار عنه.. و أنت يا حبيبة، تصلحين وبشدة كمتنفس للسعير الذي يشعل كياني، لكني لا أرضاه لك، ضغوطات كثيرة، عمل يكرهه، ومستقبل ضاع بطعنة غادرة، ومعشوقة شاركه فيها آخر ويأتي بعدها متباهيًا بما سبقه إليه، يعدد المميزات.. ويخبره أنه هو الأول والوحيد".

رد بهدوء مفتعل تمكن منه بعد عناء:

"شغلي يا منى، معلش.. مش متعود ومش بحبه"

ربتت على ركبته باهتمام تواسيه:

"حبيبي.. ربنا يعينك، أنت تقدر، وأد أي تحدي"

غضبه ازداد بمواساتها الرقيقة، ماذا يفعل؟ يود تحطيم شيء.. يرغب في الهروب، يريد الابتعاد عنها في الحال، وقف يخلع قميصه ببطء، ظهر على ملامحه توجع وأصابعه تحاول الإمساك بالأزرار، هبت تساعده، فكت واحدًا و ابتعد في الثاني بهتاف حاد مفاجئ:

"لأ.. هاعرف أفكهم"

تراجعت خطوة بصدمة، وصدمتها أحنقته أكثر.. لا منها، لكن من نفسه وفقدانه للسيطرة من جديد، هتف بها يقطع أفكاره الحائرة:

"منى من فضلك عاوز أقعد لوحدي"

وبارتباك متوتر أنهى فك أزرار القميص، خلعه بهدوء وجلس فوق الفراش ينتظر منها الرحيل، لكنها لم ترحل.. تبًّا..! لم ترحل، والأمر سيزداد سوءً، اقتربت تجلس إلى جواره تحاول الفهم، وقلبها يتلوى بداخلها من وجع غير محتمل، و أفكار غير مقبولة:

"أحمد، مش الشغل اللي يخليك كده!! حبيبي أنا..."

وقاطع بزعيق يريد إبعادها من أمام ناظريه في الحال:

"لا هو الشغل يا منى، هو الزفت.. حياتي كلها اتغيرت عشانك، واشتغلت حاجة مش بحبها عشانك، فعلى الأقل لما أكون متضايق ومحتاج أبقى لوحدي، تديني الحق ده"

ونظر نحوها أخيرًا بعد وصلة الصراخ!! لو كان ذبحها لربما كان الأمر أهون..! عيناها انكسر بريقهما، خفتت اللمعة، وتحول الاهتمام لحزن مجددًا.

والنظرة تخبره دون حروف حبستها بكرامة أو ربما رفضًا لألم قد تسببه له.. "أنا لم أسألك أن تتغير لأجلي".. ونهضت تغادر الغرفة لكن معصمها كان حبيس أصابعه في الثانية التالية، التفتت إليه تدعي اللامبالاة والجمود، وتلتمع دموعٌ في مقلتيها تهدد بانهيار، وقف أمامها يهمس بحب يتملك منه ولا يستطيع الفكاك من فخه المحكم حول قلبه:

"وعندي استعداد أغير الكون كله عشانك.. بس...."

ولم يكمل، لمَ عليه إيلامها؟ لمَ عليها أن تعاني؟ ولأسباب داخل نفسه، لا تعلمها هي!!

ظنون تحرقه في كل لحظة، وحقير تغلغل بداخله، يبث سمومه وينتظر النتيجة كأستاذ خبير يعلم تلامذة الشر فنون قتل الروح..

ضمها إليه في شوق كاد يحطم عظامها، لم يأبه لوجع أصابعه، فقط أراد احتوائها، طمأنتها.. وطمأنة نفسه التي لم تشعر بالراحة إلا الآن.. وهي بين ذراعيه، أما هي!! فسمحت لدموعها بالهطول في صمت.

******

الإقناع يتطلب التكرار، والتكرار مادام الهدف يستحق.. سيكون سهلًا ولو لملايين المرات، المهم أن يحصل على النتيجة المرجوة.

لهذا وطوال أسبوع كان يخاطب عمه، يكاد يتوسله، يوضح موقفه، يشرح.. ويخبره عنها وكيف أنها لن تكون إلا له.. والعم يتهرب، يرد بخشونة أحيانًا، وبعقلانية أحيانٌ أخرى.

اليوم وبعدما رآها لدقيقة تقريبًا.. علم أن عليه بذل المزيد من الجهد.. فاللقاء لم يرح قلبه، أو يخفض من درجة حرارة شوقه.. بل زادها، حتى كسرت كل أرقام المقياس.

وها هو يقف أمام العم، بحزم شديد، وجدية ربما يتحدث بها لأول مرة:

"ها يا عمي!! قلت إيه؟"

عقد الرجل حاجبيه بتفكير.. كأنما هناك اتفاق ما بينه وبين أبيها وهي على تعذيبه، بعدها رد باهتمام حقيقي:

"عمرو.. أنت خليت موقفي وحش، أنت عارف إن أنت ابني مش هاقولك زي وبس، لكن يومها تصرفك ما كانش بطبيعتك اللي أنا متعود عليها"

تنهد بحرارة يغمغم دون فهم:

"اللي حصل بقى يا عمي..! مش عارف وقتها اتصرفت كده إزاي!! بس كل اللي كنت بافكر فيه إنها لازم تكون مراتي"

كاد يبتسم، جنون الحب خبرة مر بها كل فرد في عائلته، بدءً بأخيه الكبير والد الأخين، ثم هو مع زوجته التي يعشقها للآن رغم عدم حصولهما على أطفال دون مانع معروف، مرورًا بابن الأخ الأكبر صاحب ملحمة الجنون الأصلية.. وانتهاءً بالصغير الذي جذب الفتاة من يدها يطالب بها من أبيها كإنسان كهف.. والشكر لله أنه طلبها ولم يحملها على كتفه ويغادر المكان.

منحه راحة بقرار أخير:

"خلاص يا عمرو، هاتكلم معاه وربنا يعمل اللي فيه الخير"

وتتسع عينا العاشق الصغير، ويقفز متخطيًا المكتب يمسك برأس الرجل، يقبلها بامتنان وتشع الفرحة من مقلتيه بهتاف سعيد:

"بجد يا عمي!! مش عارف أقولك إيه..!"

أبعده الرجل بمزاح خفيف، يأمره بلهجة مداعبة:

"ما تقولش حاجة.. روح على شغلك وسيبني أحاول أقنع عمك سعد لأن دماغه أنشف مني ومنك.. ويا رب يو افق"

دعا "عمرو" بسرعة مؤمنًا على كلام عمه، وغادر لعمله.. يتقافز قلبه بين ضلوعه فرحًا، مشتاقًا وعلى أمل، الصغيرة ستكون له في النهاية.

هاتف الرجل صديقه، يتحدث معه، يبتسم.. وفي النهاية يضحك بحنان:

"جننت لي الولد العاقل يا سعد حرام عليك، ارحمه بقى"

وصله صوت صديقه الجاد:

"هو إحنا لحقنا يا جمال..! ده الموضوع كله من أسبوع بس"

حاول إقناعه هذه المرة بحق:

"كفاية كده.. نيجي بقى نطلب إيدها رسمي"

تردد الصوت الآتي عبر الأسلاك.. لكنه رد في النهاية:

"كمان أسبوع يا جمال، وقول له برده إني لسه معارض، ومش عاجبني طريقته"

تأفف العم بجدية:

"يا سعد أنا فهمتك الموقف كذا مرة، عمرو أكتر واحد شايل المسئولية وحاسس بيها، بس اللي بيحب مش بيشوف صح وبيتصرف بالطريقة اللي قلبه يقوله عليها، ارحمه بقى"

ضحك "سعد" بحنان أخيرًا.. لكنه عاند:

"برده كمان أسبوع يا جمال.. ونبقى نقعد ونتكلم ونو افق ولا لأ"

بادله ضحكته:

"لا.. ده أنا كده اللي هاخطفها وأجوزها له"

رد صديقه بثقة:

"ما أنت في مقام أبوها برده يا جمال"

انتهت المكالمة بعد عدة مجاملات أخرى.. وعقد الأمر على أسبوع آخر يتقلب فيه المغرم الصغير على جمر الشوق والانتظار.. والتعذيب اللذيذ.

******

غادرت آخر حالة، وجلست تنتظر، قال أنه سيمر عليها اليوم ليقضيا ما بقي منه بالخارج، وينهياه عند والدها ليصطحبا الصغير.

تستعيد ذكرى يومين مضيا، تقلباته تفقدها عقلها فعليًا لا مجازًا، لا تفهمه.. أو ربما هو العصي على الفهم، يتنقل بين الحرارة والبرودة.. الشغف والغضب.. زمهرير الإهمال وسعير الاهتمام، وكلها في لحظات كأنه مجنون فعلي وبأوراق رسمية.

تراجعت في مقعدها تشرد فيما حدث يوم كاد يحطم يديه في مباراة ملاكمة غاضبة مع حقيبة اللكم خاصته كأنه يعاني من أمرٍ ما ويرغب فقط في إيلام نفسه..!

لأول مرة يعلو صوته حد زعيق أخافها منه.. أحزنها وقهر قلبها، وفي النهاية تسبب في دموعها، دموعها التي سالت فوق صدره حينها لتتسارع دقات قلبه أسفل أذنها فجأة قبل أن يبعدها عنه ينظر إلى ملامحها في ارتباك متوتر.

يهتف بها أن تتوقف، لا بل يأمرها بحزم مخيف..! وعيناه تبرقان بلمعة غريبة لم تفهمها، ثم ينتقل من مرحلة الصرامة والصراخ.. لمرحلة الحنو والرقة.. يتلمس وجنتيها المبللتين ودموعها المالحة بشفتيه، يتتبع خط سيرها، يمحوها، ويمنحها دفئه بدلًا منها، وبعدها تفاجأت به يعتدل ويمتصها داخل فمه، يبتلعها ويغمض عينيه وقبل أن تتساءل عمَ يفعل!! يقابل نظرتها بحسم ولهجة قاطعة:

"عشان أفتكر طعمهم دايمًا.. و إني ما أكونش سبب في نزولهم تاني"

وتكاد تصرخ ثانية، أنها لا تفهمه.. لمَ لم يعطِها دليل الاستخدام قبل الزواج؟ لربما تفهمت كيف تتعامل معه!! وما هي أزراره التي يجب أن تقربها بحذر!! بعدها ضمها إليه ثانية ودخل إلى الفراش، رأسها فوق صدره، يتخلل خصلاتها بأصابعه ويهمس لها برقة حتى غابت في نوم تخللته كوابيس لا حصر لها.. وكلها تنتهي بفراق.

"وعادت ريما"..!

استيقظت باكرًا في اليوم التالي ترغب في تحضير فطور شهي، والبدء من جديد.. لكنه لم يكن هناك، ليعود الحزن فيسيطر عليها كأنه خلق لأجلها هي وفقط.

ألا تستحق!!

هل بها نقص ما ينفر منها من تحب!!

أليست أنثى كاملة!! يكتفي بها وحدها.. رجل؟

وتتنهد في حزن، تلتقط هاتفها تتعجله فقد ملت الانتظار ومرارة الأفكار التي تصارعها كأنها في حلبة لابد أن تخرج من جميع جولاتها منتصرة، لكن رنينه ارتفع يعلن عن قدوم رسالة قبل أن تطلبه، عقدت حاجبيها..

رقم لا تعرفه، ترددت قبل أن تمد إصبعها لتفتحها، واكتشفت أنها على حق.

رأته.. ورأتها معه، في وضع فوضوي، رأسها فوق كتفه، الابتسامة واسعة مرحة، هو يميل برأسه نحوها .. وبيده هاتفه يلتقط تلك الصورة الشخصية "سيلفي"..

وانهار قلبها بين جنبيها، وهتف عقلها يتألم ويشمت ويوضح للمسكين المحطم.. "لقد أخبرتك.. كلهم يخونون في النهاية".. وينزوي القلب في ركن مظلم.. لا يجد ما يرد به.

ثم رنين آخروجملة قصيرة..

"الأفضل تنسحبي من حياته بكرامتك.. بدل ما هويطردك منها"

(26)

عيناها

عالم الكوابيس مظلم، خانق، يحبس الأنفاس فرَقًا، ويوقف النبضات من هلعٍ يحيط بالقلب، يمزقه، يكسره، ويتركه في حالة نزفٍ دون مد يد العون.

والانهيار.. مرة بعد مرة، يوصل للجمود، يسلم النفس للبرود، فقدان الاهتمام وتبلد يغمر الروح حتى تفقد الإحساس بكل طعم.. لون، أو رائحة.

والعشق.. مذبحة دامية، لا يخرج منها منتصر..

كل القلوب فيها صرعى، والفائز فقط من أغلق الباب على قلبه حتى النهاية دون الاستسلام، تخطى لحظات الضعف، لم يتأثر بكلمات حب، ولم يرضخ لمتطلبات فانية بالخضوع.. ليصبح عند الوصول للمفترق مجرد رقم في قائمة ضحايا الغرام.

مغرومون، مفتونون.. وعلى النيران يصطلون، وكيوبيد يأكل المسليات ويستمتع بمشاهدة ما تفعله أسهمه الطائشة في قلوب ظنت أنها وصلت للجنة.

يوم بعد يوم، ساعة تليها أخرى، ودقائق تتعانق في صراع أيهما تسبق الثانية!! وتتوالى الرسائل.. هذه يراقصها، هنا تريح رأسها فوق كتفه وشارد هو، هنا يبتسم لها، هنا تتدلل عليه، وهناك..! اقتراب لحد غير مسموح يتيح قبلة.. ربما تم اقتطاعها من الصورة الثابتة.. لكنها تمت في و اقع مُرتحياه وتغوص بلحظاته المريرة للمرة الثانية.

رسائل مسمومة، وأحرف تمزق أحشائها حرفيًا.. قررت تلبس دور النعامة هذه المرة، على الأقل حتى تسترد قواها، لقد ذُبحت من الوريد إلى الوريد، وسقطت تنزف بلا انقطاع، وحيدة، ساكنة، متوجعة، وهو في عالمه الشارد لا يشعر بشيء، ولا يهتم لها.

تحتاج لمحاليل الحياة، تفتقر للهواء، أكسجينٍ نقيٍ يمنحها أنفاسًا جديدة تصلح لخوض معركتها الجديدة، تنشد فترة إفاقة أو ربما غفوة تستجمع فيها عنفوانها، قلبها المبعثر وشتات نفسها المخدوعة.

دموعها أصبحت هي الصديقة، والوسادة هي الداعمة الوفية، تمتصها، تضمها وتواسيها بصمتها، والجمود أصبح مسلكًا لم يبالِ هو به رغم وضوح الصورة.

ربما يمنحها اليقين أن الأمر حقيقي، أنها لا تخدع نفسها، أن الواقع يختلف عن الروايات والأفلام.. فليس هناك شرير الفيلم الذي يرغب في إنهاء قصة العشق اللاهبة، ويفرق بين المحبين، بل هو حبيب غادر، نال ما أراد، ومَلَّ.. طعن في الظهر، وينتظر الفرصة الملائمة للرحيل.

ودت لو أنهت الأمر، هونت عليه الطريق، اختصرت الكثير، وقطعت السبل ووفرت الادعاءات، تريحه وتريح نفسها، تعود لقوقعتها الآمنة، وتكون ملكة وحدتها حيث اللاشعور هو الحاكم بأمره، هو السلطان، هو من يختار ويمنح الاستقرار.. لكنها تجبن في كل مرة، وتفتقد القوة لاتخاذ قرار الحسم.

ربما لو لم يكن متباعدًا..! رافضًا لها..! لقربها واهتمامها؛ لما صدقت أو على الأقل فكرت.. لكن هنا والآن، وبما يفعله؛ لمَ عساها ألا تصدق!! وهل هناك أدَلُ على الأمر من جسد يحيا معها على الكفاف، وروح وقلب لا تجتمع وإياهما في نفس المكان!!.

قبل يومين.. كادت تهلل لملاحظته العابرة أنها ليست على ما يرام.. حقًا أنت رجل مميز..! خائن رائع، متمرس بحق، وخبير.. لكن لك جزيل الشكر، لا نريد اهتمامك اليوم.. لقد أغلقنا وانتهت ساعات العمل الرسمية يا مهتم.

حين اقترب يضمها، تهربت، لا تريد لمسته، تشعر أنه ملوث، لا تريد حتى التواجد معه في نفس الغرفة، تنفس ذات الهواء، ولا تريده أن يقترب من طفلها.. هي حاقدة الآن، غاضبة، وكل طاقة الحب بداخلها شارفت النضوب، تقترب من النفاذ، ولا سبيل لإعادة الشحن.. يتم استبدالها بنوع جديد من الطاقة النظيفة الخالية من كل المشاعر التي تضعف القلب.

ما تريده بالفعل، هو الصراخ.. طرده من مكان يحتويهما معًا، مواجهته بحقيقته القذرة، وتسديد طعنة بسكين ثالم في عمق قلبه.. تقتله وترتاح، لن تتعرض للخيانة ثانية وتصمت، ستقتله، وكثيرات من يقتلن أزواجهن، ستنهي الأمر وتغسل روحها المذبوحة بدمائه هو.

وبعد قرار القتل، تأتي الدموع، تنهار، تجلس أرضًا وتنشج بقلب مذبوح، لا تريد التصديق، حقًا لا تريد، هو لا يمكنه فعل هذا، ليس هو..! لقد

طاردها كثيرًا، كاد يقتل نفسه لينالها، يغار عليها بجنون، تقتله دموعها، يحنو ويرق رغم قسوته وغرابته مؤخرًا، هو ليس بخائنٍ أبدًا.

وتعود فتكاد تصرخ، وعقلها يصيبه لوثة، لا تعلم ما عليها فعله!! لا تفهم!! تحتار وتنوء بحمول ثقيلة قصمت ظهرها وروحها، تريد المصارحة وتخشاها، لم تعرف أنها بهذا الجبن سوى الآن!!.

عندما علمت بخيانة زوجها السابق، واجهته في اللحظة التالية، لكن "أحمد"!! حبيبها، مالك قلبها، سلطان روحها، لا تستطيع، لا تريد.. تخاف، ترتعب وتصاب بهلع مزمن.. لم تدرك أنها بهذا الضعف إلا معه، لم يصبها تردد، وتتوقف بشلل إلا عندما يأتي هو على المحك.

ماذا لو واجهته واعترف!! هل ستموت حينها؟ يتوقف قلبها على الفور وتنتهي الحكاية!!

وماذا لو واجهته وأنكر ولم تصدق!! هل ستعيش داخل كذبة من صنع أوهامها..!

لكن الصور لا تكذب، وتأتي نقطة ضوء من الخلف تنبهها.. كل شيء قابل للاصطناع هذه الأيام.

مسحت دموعها، نهضت من جلستها إلى جوار طفلها النائم تطبع قبلة على جبينه وتغادر غرفته، تتذكر يوم أتتها أول رسالة.. وبعدها بخمس دقائق كان هو يقف أمامها، يبتسم لها ويغازلها، لا يلاحظ جمودها أو غيابها عن وعيها به وبحضوره، تسير وتتحرك وتأكل بل وتلاعب طفلها، بينما روحها وعقلها في غياهب مظلمة ما لها من قرار، وقلبها يئن في انكسار منزويًا على نفسه في ركن قصي يبكي حاله وحالها، ويلعن ثقته فيمن غدر.

******

إلى من تلجأ إلا إليه؟ هو وحده من يمكنه أن يربط على قلبها، يلهمها الصبر ويرشدها إلى الطريق الصحيح، رباه أعن قلبي.. فهو لن يتحمل طعنة أخرى.

توضأت، وقفت بخشوع بين يديه، تبتهل، تدعو، يئن خافقها متوجعًا، وتشتكي له.. عاد هو ووصله صوت بكائها الذي كاد يوقف قلبه، وينحر روحه كما في كل مرة.

وقف أمام باب الغرفة يتأملها في سجودها، يحن إليها، ويتمزق داخله لأشلاء تتناثر في البقاع، يود طمأنتها، ينشد احتوائها، ولم يكن للأمر من بد..!

كفاه ما يفعله بها، كل ما جنته هي أن وافقت على الزواج منه، صدقت حبه، أحبته، وفي النهاية يبكيها، يكسرها، يحزنها..! وتنام كل ليلة دامعة..! كيف يصدق ادعاء ذلك الحاقد.. وهي بين يديه كل لحظة تتسول حبه!!

انتظر في الخارج حتى انتهت، خرجت من الغرفة بعينين متورمتين لتتفاجأ بوجوده، نهض إليها يقف قبالتها، هز رأسه بيأس يسألها في ألم:

"بتعيطي ليه؟"

نظراتها تحمل اتهامًا لا يفهم مغزاه!! أو ربما يدعي عدم الفهم، لقد أهملها وهو من رسم لها قصة من عالم الخيال ليكتباها سويًا، ثم تستفيق على واقع أمَّر من العلقم يخنقها ويعيدها لجُحر الخوف وفقدان الثقة والأمان.

اقترب وتباعدت، يعقد حاجبيه ويصر، وتمنعه بعينيها وتتراجع، لكنه هو صاحب القرار، لن تمنعه من دعمها وقت احتياجها.. رغم تقصيره الكبير وجبنه وغروره الأكبر.

فاجأها بخطوتين واسعتين وجذبها لصدره، دفعته بقوة، ظلت تدفع وتقاوم، ويتمسك هو.. يتشبث بها، يقربها إليه أكثر، وتدفع وتبكي، ويضم بقوة أكبر، يهدهد ويمسد ظهرها بحنو، وتظل تدفع ويتعالى النحيب الذي يمزق قلبه بعنف.. لقد ذبلت أوركيدته، وهو من منعها الحياة.

لم تخفت مقاومتها، ولم يخف احتواءه لها، حتى صرخت فيه:

"أنت عاوز مني إيه؟!"

لم يتحدث.. سؤالها في محله، ولا يمتلك له جوابًا، اكتفى بتشديد ذراعيه حولها أكثر، حتى تراخت هي واستكانت في صمت، دموعها لم تتوقف، ولم يحررها هو.

في النهاية حملها بالقرب من قلبه الخافق لها بحزن، توجه إلى غرفتهما وجلس في الفراش يضمها بين ذراعيه، فاقد القدرة على النطق، وهي فاقدة للسيطرة على دموعها المنهمرة.. كم وعدًا أخل به معها؟ أين وعده لنفسه بألا يؤذيها أو يجرحها!! هو مجرد كاذب آخر، وغد آخر، لا يستحقها.

رفع وجهها إليه، اعتدل يواجهها يمسك به بين كفيه، وبإبهاميه يمسح عبراتها الصامتة، وتغلق هي جفنيها دون صورته، يهمس باسمها ويغمغم بعشق، يعتذر وتبكي، فيضم ويقبل دموعها، يسب نفسه أمامها، وقلبها يدخل الصورة.

فتحت عينيها أخيرًا تنظر إليه، انكسار يائس، عتاب، وحزن زرعه فيهما رغمًا عنه، هز رأسه يؤنب نفسه قبل أن يتحدث برفق:

"أنا ما أستاهلش دموعك!!"

مسحتها بكفيها في حركة خرقاء تعانده وتعاند نفسها:

"مين قال إنهم عشانك؟"

ابتسم ببؤس:

"طيب قولي لي مين السبب!! و أنا هامحيه من على وش الأرض"

وعادت تبكي، وتجيب من بين نحيبها:

"للأسف بحبه"

رباه..!! لقد ذبحته و انتهى الأمر، هو لا يستحق قلبًا كقلبها، أنثى برقتها، امرأة بحنانها.. هي سيدة قلبه، ونصفه المتمم.

تنهد فجأة وجذبها إليه بيأس.. الهدف قبلة، والمسوغ اشتياق حبيس بطول دهر، استسلمت هي تحتاج قربه.. لكن كل ذرة فيها، بقايا عقلها، وكرامتها الجريحة تعاندها، إلا قلبها الأحمق الذي يستجدي وجوده، وفي النهاية تتجمد كلوح جليدي بين يديه.

دفعته بضعف قبل أن يبتعد بنفسه، يطالع ملامحها المنهكة، والتعب البادي على وجهها الجميل، حتى في حزنها جميلة وتسرع بدقات قلبه حد

الجنون، لم تستجب له، فقط استسلمت لثوان كأنها تشتاقه ثم أبعدته عنها ترفض قربًا تسولته بدموعها.

همس باسمها فنظرت إليه، في كل مرة تلتقي الأعين تشعر بدوار.. هي تذوب فيه، وتلك النظرة لن يمنحها رجلٌ لأنثى إلا لو كانت مالكة قلبه.. هذه الرسائل، تلك الصور، هناك احتمال أن تكون كاذبة!! لمَ لا تثق به وهو لم يؤذها من قبل؟ نعم متباعد لكنها تعلم الوقت الذي بدأ فيه الأمر بالتحديد.. وكانت هي السبب.

ولو كانت هناك أخرى تحوم حوله!! تريده لنفسها!! تبثها سمها كأفعى مميتة، وتفتح لها باب المغادرة لتحتل مكانها!! هل ستتركه لها دون حرب؟ دون أن تحاول الفوز!!..

لكن هل من خائن يستحق المحاربة لأجله؟

أفكارها ثائرة بشدة في مقابل أفكاره الحائرة.. لقد كاد يضيعها، كان قريبًا جدًا من فقدانها، لكنه ومنذ هذه اللحظة سيعوضها عما سببه لها خلال الأسبوعين الماضيين.. هذه المرأة بين ذراعيه تحبه، بل تعشقه، كل لمحة منها، كل نظرة وبسمة وحتى دمعة تبرهن على حبها له.. أهو غبي أو أعمى كي لا يرى ذلك!!.

أبعدها ينظر في عينيها بعدما استكانت في دفء حضنه لوقت لم يعلمه، ابتسم لها بحب وداعبها:

"أنا جعان، ما اتغديتش، هاكل حاجة ولا هانام من غير عشا!!"

هزت كتفها بلا معنى ونهضت تغادر محل اطمئنانها الآمن فوق صدره، نهض في المقابل، يمسك بكفها، وينحني بقبلة فوق جبينها يعيدها حيث يقف هو، يبتسم بحنان، ويمسح أثار الدموع:

"هاغير وأحصلك أحضر معاكِ العشا"

أومأت برأسها صامتة.. صمتها يحيره إن لم يكن يخيفه، لكنه تركه جانبًا الآن ووضع في رأسه خطة تعويضها عن جفائه السابق.

تبعها بعد دقائق، يلاحقها في المكان، يغرقها في الدعابات عله ينال ابتسامة، يساعدها فعليًا ولم يخلُ الأمر من تخريبه لعملها لتنهره في النهاية وتأمره بالخروج، ويعاند جالسًا في صمت متظاهرًا بالأدب كطفل مطيع، حتى أجبر شفتيها الحزينتين على بسمة خافتة تسللت رغمًا عنها ودارتها هي عنه تحرمه إشراقة شمسه لكنه لمحها وانتفض قلبه في سعادة.

تناولت معه بضع لقيمات دسها في فمها عنوة، وفي النهاية انتقلا لغرفة المعيشة أمام التلفاز المفتوح الذي لا يتابعه أحد، شدها إليه لتستقر قرب قلبه، يتخلل خصلاتها في شرود وتستجيب هي بصمت، حتى سألته فجأة:

"هو الفيلم قرب يخلص؟"

اعتدل قليلًا باستغراب، لكنه أجاب ببساطة:

"باقي أسبوع بس"

وتنهد بما يشبه ارتياح، التفتت برأسها إليه، تتظاهر بلامبالاة لا تمتلكها تكمل أسئلتها المؤرقة:

"أصحابك هيوحشوك لما يخلص!!"

عقد حاجبيه يرد بسؤال مندهش:

"أصحابي!! أنا ما ليش أصحاب هناك"

ترددت وهمست دون تصديق:

"فعلًا!!"

تأملها في صمت، تلف وتدور وهذا ليس من شيمها، استنار فجأة فرفع وجهها ينظر في عسل عينيها الدافئ بابتسامة مزهوة:

"إمممممم!! دي غيرة؟"

ابتعدت لمسافة قصيرة تنفي بسرعة:

"لا طبعًا، هاغير من إيه؟!"

وركزت في عينيه تردف:

"هو في حاجة تستدعي الغيرة!!"

بادلها بتركيز أكبر، يغوص في العمق، يهدهد القلب، ويبتسم بثقة وحب:

"ما ينفعش يكون في، لأن من يوم قلبي ما حس بحبك من غير حتى أنا ما أفهم إيه اللي بيجرى لي؛ وهو مش بيشوف غيرك"

تسللت ابتسامة ناعمة لشفتيها وقلبها يهلل من جديد ببلاهته المعتادة، تستشعر صدقه، هاتين العينين، هذه النبرة، ذلك الدفء.. لا يمكن أن يكون مصطنعًا.

عادت تضع رأسها فوق صدره، ويضمها هو إليه أقرب، التقطت كفه ووضعتها بين يديها، قلبتها وبدأت تحرك إبهامها في دوائر عند معصمه، تشرد، تفكر، وتتمنى.

وهو يشتعل.. بل يحترق حتى قاربت نيرانه على حرقها هي أيضًا، نبض قلبه يوشك على التوقف، وزفيره أصبح حارًا مختنقًا، هي تكررها، إذًا ماذا؟ هل تريده الآن؟ أهذه هي الإشارة؟ تسمح له وتدعوه!! لِمَ يختلف شعوره هذه المرة عن تلك السابقة؟ يومها كاد يجن واليوم أيضًا لكن الأسباب تختلف، تتعارض وبعنف مهلك.

كان يريد الابتعاد عنها، فقط يحاول بهدوء حتى لا يكسر تلك الهدنة القصيرة التي لم تبدأ إلا وأوشكت على الانتهاء، حاول النهوض بافتعال تثاؤب:

"أنا خلاص مش قادر، يلا ننام.. هانزل بكرة بدري وأنتِ عندك مستشفى الصبح"

ترددت للحظة ثم ابتعدت في صمت، نهض يحاوط كتفيها بذراعه ويسير إلى جوارها، تبًا لتلك الشياطين التي تعيث فسادًا داخل عقله، لقد خطا خطوة.. خطوة واحدة، وها هو نكصها ومعها أخرى واثنتان، جبان خاضع لذل القلب.

دخلا إلى الفراش، أولته ظهرها بصمتها المريب، وتظاهر هو بالاستسلام للنوم، مر الوقت دون حساب وانتظمت أنفاسها في مقابل سعير أنفاسه المحتدم، نهض بحرص يخرج من الغرفة، توجه للحمام الخارجي، يغلق

الباب ويستند إليه، يلهث، يعاني وصدره يضيق، يسحب الهواء بعنف لكنه يرفض تطبيب رئتيه بأنسامه، وجه لكمة للجدار أنَّتْ لها أصابعه التي لم تبرأ تمامًا بعد وعاد يقاتل شياطينه وتقاتله في حرب لا ظافر فيها.

******

حان الوقت، ستتحقق الأحلام، وستصبح ثمرة التوت الشهية ملكًا له..

كان يسير في ممرات الشركة بحيوية، يكاد يقفز فرحًا، متوجهًا لمكتب شقيقه المريب مؤخرًا، طرق الباب ودلف إليه بمرحه المعتاد، نال ترحيبًا فاترًا لم يهتم به.. فاليوم لن تعكر سعادته كآبة ملامح الحانق الجالس أمامه، ابتسم له بعبث:

"شهرين بس يا أبو حميد وظهر عليك نكد المتجوزين!! أنت لحقت؟"

عقد أخيه حاجبيه يتظاهر بضيقٍ مغروس في العمق، يحاول تفاديه ولا يفلح:

"نكد إيه يا رايق أنت!! الوش ده بيركب أول ما بادخل من بوابة الشركة"

ضحك بمرح:

"أكيد مش أنا السبب"

رد بابتسامة ولدت بعد مخاض عصيب:

"أنت عامل مساعد"

عاد يضحك.. انقلبت ملامحه فجأة للجدية بينما يميل فوق المكتب مقتربًا من أخيه:

"في موضوع مهم عاوزك فيه"

رفع "أحمد" حاجبًا يشاكسه بمكر:

"منة!!"

تراجع في دهشة، فأردف:

"يا بني حكايتك قربت تتنشر في الجرايد، ماما قالت لي طبعًا ع الفيلم اللي حصل الفترة اللي فاتت، وبصراحة شمتان فيك"

زم شفتيه يتظاهر بالغضب:

"بقى كده.. كريمة باعتني في أول مطب!! ماشي، المهم هتيجي معايا بكرة؟"

امتزج في لهجته التساؤل بالرجاء، فنال ابتسامة صادقة هذه المرة:

"أنت فاكر إنك هتروح تخطب من غير أخوك الكبير..! على الأقل عشان أفضحك قدامها"

تعالت ضحكاتهما سويًا قبل أن يتوسله ببراءة:

"حبيبي يا أبو حميد، أهون عليك برده؟!"

رد يشاغبه بمرحٍ ينسل داخله ببطء:

"مش لازم البنت تدخل الجوازة بضمانات كافية ولا إيه!!"

عدل "عمرو" ياقة قميصه يدعي الغرور:

"يا بني أنا ضمان مدى الحياة"

ابتسم أخيه ينظر إليه بتأمل، جعل التساؤل يرتسم على وجهه، جاوبه ببساطة:

"دلوقتِ بتحب بجد؛ ما قدرتش تمنع نفسك من الجنون!! لدرجة إن أبوها خاف منك!!"

شرد الصغير في قوله.. ملامحها، ضحكتها، عنادها وحتى لمعة الدموع في عينيها، نعم يحب.. وبجدية، وقوة.. حب يستهلك نبضاته بشراسة ليس بندٍّ لها، ولا يمتلك القدرة على مجابهتها.

لا يكاد يصدق أن والدها قد و افق على مقابلته أخيرًا، هذه خطوة تقربه منها بما يكفي ولو بشكل مؤقت، عقد العزم على الانتهاء من منتصف الطريق اليوم، وفي أقرب وقت ستكون زوجته.

******

تبدو جميلة، مختلفة عما اعتادت حتى عندما أرادت إثارة غيرته يوم خطبة أختها.. هذه المرة ثوبها طويل، أنيق بلون أرجواني يليق بذهبية بشرتها، خصلات الكراميل مرفوعة لأعلى إلا من بعضها يزين جبينها ويداعب وجنتيها، شفتين بلون وردي وعيون لا تحتاج لظلال بلونها ورموشها الكثيفة.. دارت حول نفسها لمرة أخيرة تتأمل مظهرها في المرآة قبل أن تجذب حذائها عالي الكعب وتجلس فوق فراشها ترتديه بتوتر.

تتذكر ما فعله ثوبها به آخر مرة، تشرد في عينيه يومها وهما تطوفان فوقها بغضب وغيرة، وخلفهما تأمل أخجلها، واليوم سيمتلك حرية النظر.

دلفت أختها للغرفة تطالعها بعينين حانيتين، ابتسامتها تشع سعادة قبل أن تحذرها ولمرة أخيرة:

"منوش..! الكعب عالي جدًا، وبابا مصمم إنك تشيلي صينية العصير"

عقدت حاجبيها في استياء غاضب:

"بابا مصمم يكمل الموضوع أولد فاشون"

ضحكت "نانسي" بمرح، فابتسمت هي الأخرى قبل أن يعلنوا في الخارج عن قدوم "العريس" المرتقب.. ويدق قلبها وتتسارع نبضاته.. تستعد للقاء.

مر بعض الوقت وحان الاستدعاء العاجل لأداء تلك المهمة الانتحارية.. ما إن رأت صينية التقديم مهولة الحجم وكم الأكواب فوقها حتى كاد قلبها يتوقف هذه المرة.. حملتها بهدوء تحاول التماسك.. ثقيلة هي للغاية لكنها تقدر.

تقدمت داخل الغرفة بخجل، لا تعلم أين هو من بين كل هذه الأحذية الرجالية التي تطالعها بنظرها في أرضية الغرفة بتأمل؟! وجهتها أختها للحذاء الأنثوي الوحيد في المكان، والدته التي ابتسمت لها بمودة وتناولت منها كوبًا تخفف عنها حمولتها.. توجهت دون وعي لمن يجاورها.

اتسعت ابتسامته يتأملها، ما هذا الخجل وهذه الرقة؟ أين زوبعته الصغيرة التي تثير كل الجنون فيه؟ تابع عيني أخيه تنظران إليها بحذر ولم يفهم لمَ!! كان إلى جواره وأراد أن يغلقهما له بلاصق دائم، مهلًا..! هل يغار من أخيه الآن؟!

ناولت والدته كوب العصير خاصتها، و اقتربت منه دون أن ترفع عينيها لترى دور من هو..! وقفت أمامه ولم يتناول الكوب.. فقط ظل يرمقها

بشقاوة يريد منها نظرة، وأخيه المريب يبتعد عنه ببطء ولا يدري السبب، لم يبالِ، الآن هي تحرك رأسها تنظر للجالس.

التقت العيون وعادت هي لمرحلة انعدام التوازن فالغرق في محيطه الأسود مجددًا، والنتيجة غير مرجوة، غير سعيدة، ولم يتوقعها بالطبع حين غرقه هو الآخر.

سائل بارد، الكثير منه، وأصوات متداخلة بعضها يشبه احتكاك الزجاج ببعضه البعض، وقفزة شقيقه مبتعدًا عنه في اللحظة الأخيرة.. ثم إفاقة على تعبير وجهها المصدوم، ضحكة أخيها و ابتسامة أخيه.. ووالدها يهتف في دهشة بجملة ما لم يستوعبها.

شهق بعنف وشهقت في المقابل، ينظر إليها في ذهول والعصير يغرق قميصه وبنطاله، لم يعد الأكواب لكنها كانت كثيرة والآن أصبحت ملابسه بنكهتها كلها في كوكتيل رائع.

تجمدت تنظر إليه وهو لايزال تحت تأثير الصدمة، هتف شقيقها:

"حرام عليك يا منة.. قوم يا عمرو تعالى معايا"

وكأنه لم يقل شيئًا، هي لم تتحرك، وهو رد دون أن يبعد عينيه عنها:

"دلق العصير خيريا بلال.. مش هاقوم إلا لما نقرا الفاتحة"

والدها يعقد حاجبيه، وينال هو وكزة من أخيه، فيسارع:

"معلش يا عمي أنا ماعنديش مشكلة، حتى العصير موضة اليومين دول"

وكتمت ضحكتها تهرب من الغرفة، كاد يناديها "ألن تقرأي فاتحة اقترانننا يا عروس!!".. تنهد الأب في استسلام، هذا المجنون يريد ابنته، ولن يرحل قبل أن يصبح الأمر رسميًا، ارتفعت الأكف تتبعها الألسن بقراءة خافتة، وقلبه، روحه، عقله.. كله، ينبض بحب.

تبع الأخ حتى غرفته، ناوله بنطالًا وقميصًا خفيفًا، وأدخله إلى الحمام، توجهت هي إلى الغرفة تناول أخيها منشفة كبيرة وتهمس له باعتذار:

"بيلي.. اعتذرله بجد ما كنتش أقصد"

ابتسم أخيها يربت على كتفها:

"ما تقلقيش.. ما أعتقدش إنه زعلان!!"

فُتح باب الحمام فجأة وخرج منه خاطبها عاري الجذع يتساءل دون انتباه لوجودها:

"بيلي ما فيش قميص تاني!! ده قصير"

وشهقت تتراجع خارج الغرفة بسرعة، يتابعها هو بعينيه في عبث، قبل أن يلكزه "بلال" في كتفه حانقًا:

"إيه يا بني أنت، ما فيش إحم!! كلاكس!! أي حاجة؟"

هزكتفيه بمرح:

"و أنا أعرف منين إنها هنا؟"

وابتسم بمكر، يستعيد ملامحها المصدومة للمرة الثانية في خلال دقائق معدودة، قلبه النابض يحثه على المزيد واستجاب، لم يغادر المكان إلا عقب اتفاق على عقد قران بعد سبعة أيام بالتمام، وهذا أقصى ما يمكنه انتظاره.. على وعد بإتمام الزواج عند انتهاء دراستها.

******

قلبي يصيح مع اللقاء تمهلي

و أنا أخاف عليه بين يديك

فأضم أيامي إليك مع المُنى

والقلب يخفق بالحنين إليك

آه من الزمن الذي قد خانني

قد ضاع من عمري.. بلا عينيك

"فاروق جويدة"

لم يكن ذا خبرة سابقة، تجاربه مع الإناث محدودة عابرة، وحتى تلك الواحدة التي ظنها اختيار القدر لم تكن له، ولم ينتفض قلبه بين جنبيه عند لقاء عينيها كتلك الساكنة أمامه.

عينيها.. عالم واسع، تتوجهما أهداب سامقة تتلوى بين حين وآخر في عناق تحرمه لمعة الزيتون، يشرد، يضيع، ينتظر، وتفترق الأجفان.. وهنا عناق آخر.. بين حلكة مقلتيه وخجل هروبها من ذاك اللقاء العاصف.

نعم عاصف، إعصاري، يهدد كيانه بالتحليق في متاهات لا رجوع منها، فيتيه دون أسباب، ويغادر عالم الوعي بإرادته الحرة.

قبل دقائق نطقها ولا يصدق.. "قبلت زواجها"..

وامتلك ثمرة التوت الناضجة، يود ويود ويود الكثير ولا يمتلك أمام خجلها وصمتها سوى الصمت في المقابل، احتوائها بعينيه، وتأمل أنثاه.

نعم هي أنثاه الآن.. له، وحبيبته التي تسكن قلبه، تجاور روحه.. وتهرب منه، ابتسم بحنان، ثم عاد للعبث، يريد جذبها لمنطقة المشاغبة تعانده كما اعتاد، يريد "توتة" خاصته، اقترب يجاورها، فابتعدت ولم ترفع عينيها، عاند باقتراب يقتحم حيز الخصوصية وينظر بمكر.

ونال نظرتها المؤنبة، ومنحها بسمته التي تضيع فيها، احتجز عينيها و اقترب أكثر، و أتاه تهديدها صامتًا، همس لها يريد سماع صوتها:

"على فكرة.. من حقي بوسة!!"

نظرت إليه بحاجبين معقودين، حمرة وجنتيها تدلل على خجلها، لكن عنادها يمنعها الفرار، فمنحته ما يريد تمد كفها إليه بغرور مصطنع، وترد برقي:

"اتفضل"

نظر إليها، ضحك بمرح والتقط يدها الناعمة يقلبها، يقبل باطنها ببطء وعينيه تحبسان عينيها خلف قضبان نظرة عاشقة، وهمسة خافتة أكثر:

"مش كفاية، أنت أخدتِ أيس كريم التوت بتاعي، و أنا عاوز أدوق التوت"

وعيناه على شفتيها، وعيناها تهربان، ويقترب، ويميل، فتنهض و اقفة فجأة تتحرك لركن آخر من الغرفة، تتوتر، و أنفاسها تتقطع، ترتبك.. لا كصغيرة شقية، لا كفتاة عنيدة، لا كحبيبة تشاكس.. لكن كأنثى تنال اقترابًا من عاشقها، ويهتف القلب يشجعها على استجابة، ويمانع العقل بصبر يطلب التأجيل.

تبعها ببطء يثير أعصابها، ويجلس إلى جوارها ثانية، يبتسم.. يتنفس عبيرها، ويهمس قرب أذنها بلهجة لم تسمعها منه قبلًا:

"توت برده!!"

طأطأت رأسها تبتسم في خجل، مد أصابعه يحيط بذقنها ويرفع وجهها إليه، أبعدت يده بخفة وكادت تنهض لولا أن حبسها بينه وبين الأريكة يمد ذراعه أمامها يستند به إلى مسندها الجانبي.. ورسميًا أصبحت بين ذراعيه، يقترب بتسارعٍ أنفاس عالقة بين استسلامها.. وهروبها في اللحظة الأخيرة.

ولم تمنحه هي الفرصة، مدت أناملها توقف اقتراب شفتيه الخطر، وتسلل منهما عبق التوت إلى أنفه، فرفع عينيه إليها.. قَبَّل تلك الأنامل المرتعشة بدفء نقل الارتجافة لكامل جسدها ويستشعرها هو.. يبتسم، يتنهد، ويقدر خجلها ويستجيب لتمنعها وقبله ينال حمرته بهمسة أخرى:

"أنتِ مراتي على فكرة، م..ر..ا..ت..ي"

ويتهجاها أحرفًا.. وتشعر بخدر يشل حركتها.. ويتأمل في صمت، أهذا هو العشق الذي يتحدثون عنه؟ جنون، هوس، غريزة حماية بدائية، غيرة تشعل الجمر في أحشائه.. وعند القرب يشتعل أكثر!! ابتعد بهدوء لكنه

قبلها منح قلبها نفس الرجفة بنبرة حارة شردت فيها وفي عمق عينيه حين نطقها:

"بحبك"

(27)

قانون الحب

في قانون الحب .. هناك عدة علاقات..

وليس الكل يخضع للقوانين؛ لكن الخاضع دومًا من بين ثلاث..

بين العشق والألم علاقة مقايضة، وبين العشق والجنون علاقة طردية، وأخيرا بين العشق والسعادة علاقة تكافلية، فأي الطرق أوقع بك مصيرك، فإنك حتمًا سترضخ لقانونه وتسير في طرقاته.

عندما تعشق..! يزداد معدل الألم، وتقايضه بالبذل لمنعه من قتل روحك وذبح آمالك، لكن ماذا لو لم تمتلك ما تقايض به..؟ إذًا عليك توديع قلبك مهضوم الحق في هذه المعادلة.

عندما تعشق..! يتسارع معدل الجنون، الغيرة والتملك، التصرفات العشوائية.. بعضها يصب في محيط اللذة، والبعض الآخر يساند الأوجاع بدرجة امتياز.

عندما تعشق..! يكفل لك الحب السعادة.. وتتحمل هي استمرار الحب، فقط لو فرغنا من مطبات الطريق، وعاندنا المعوقات، وتمسكنا بالأمل بكل قوانا.

عندما تعشق..! يتغير العالم من حولك ولا تملك إلا مسايرته حتى لا تتيه في دروبه المظلمة، وعندما تعشق.. تصبح حليفًا ولاؤك الأول للجبن.. ورعب الفراق.

ودروبه تلك تتشعب كمتاهة لا تخرج منها إلا بخارطة مفصلة، وعند باب الخروج.. قد تجد السعادة، وقد تسقط في هوة الشقاء.. اختيارك بالقرب أو البعد يحدد نيلك لما تريد، وبما أن الابتعاد هو الخيار الأقل ألمًا فإنك تغادر كفأر عندما تغرق السفينة.

لكن..! أهي تغرق؟ سفينة زواجه الهشة التي أبحرت للتو؛ تغرق!! ألن يرتق الثقوب؟ ألن يسقط المرساة ويخفف الحمولة!! ألن يغلق فتحات التسرب ويحاول إنعاش ما بقي منها فوق السطح!! لقد بدأ يكره نفسه ويحتقرها.

كل يوم هي باكية.. وبكاؤها صامت موجع، تخفيه عنه، ومعه تتحرك كتمثال، أينما وجهها مالت، وفي كل لحظة تمر.. ينهار حلمه أكثر وتتصدع ثقته بنفسه وبحبها، تبًا له وألف.. واللعنة عليه وعلى شياطينه العابثة،

بل كل اللعنات.. ماذا يريد أكثر؟ أي أدلة تلك التي يبحث عنها؟ لمَ فقط لا يخبرها.. توقفي لا تفعلي ما علمه إياكِ ذاك الحقير معي!! أنا آخر.. رجل آخر، جسد آخر، وقلب آخر يكاد يختنق بعشقك دون دواء.

يكبل عقلها ويترك قلبها حبيس أصفاد هواه هو، ينهي مهزلة جبنه وغروره وذاك المزيج المقزز بينهما!! لمَ ولمَ ولماذا وكيف ومتى!! كلها علامات استفهام تحتاج لجواب لا يملكه، ويجبن أكثر ويتباعد أكثر.. وتسيل أنهار دموعها حزنًا حتى ذبلت ونحل جسدها الرقيق.

ورغم كل ذلك.. فهي أمامه قوية، شامخة، معطاءة.. وكله بسكون، تتقبل لمساته باستسلام خانع يقشعر له جسده، وتدير شفتيها بعيدًا عن لقاء شفتيه فتسقط القبلة الخاطفة على الوجنة ويرتاح هو أكثر.. ويشتاق بعنف، ويقتل شوقه بغياب.

ارتفع رنين هاتفه النقال يخرجه من ظلمات أفكاره المتراكمة، التقطه ينظر بشرود، و ابتسم بحزن، صديقه الذي لم يره منذ وقت، فتح الخط وأجاب بتراخي، تبادل معه الحديث لدقيقة، شعر فيها بتردده.. هو يريد إخباره بأمر ما، لكنه يخشى رد فعله، سأله بوضوح وكان الجواب:

"النيابة حفظت التحقيق"

كاد يهزأ من الأمر ويعلن سخريته للملأ، نسي أو تناسى والسبب معشوقة قلبت كيانه بل وحياته رأسًا على عقب.. والآن "ابن الشاذلي" أنسته دنياه امرأة.. مرحى!!

يتلقى الخبر بجمود، لا يعلق، يتصلب فكه كأنه عند أول بادرة حركة سيحطم أسنانه، وتتبلور عيناه بنظرة غاضبة ككرتين من نار، ثم ينهي المكالمة دون مقدمات، الهياج لم يعد له من مجال، طغى على قلبه البرود، واجتمعت عليه مكائد الحياة، ففقد الشعور وكاد يفارق بنفس راضية.

ماذا سيحدث لو قام الآن وصرخ؟ حطم مكتبه أو عاد يحطم كفيه كما فعل سابقًا!! تشاجر مع كل من يمر في طريقه!! انطلق يبحث ويجمع الأدلة ويقوم هو بوظيفة المحقق التي لا يدري عن أبجدياتها شيئًا!! ولنقلب الأمور.. ماذا سيحدث لو لم يفعل أي شيء؟ لقد مَّل وانتهى الأمر.

أنهى عمله الذي بات يكرهه أكثر بل ويكره كل ما يتعلق به، عاد للمنزل بعد جلسته العلاجية مع طبيبه، والقرار الحاسم يقطع عليه طريق الرجوع، وجدها مستكينة في مقعدها المعتاد، الصغير نائم فوق ذراعيها وعيناها تحدقان في الفراغ بجمود، لم تشعر بوجوده وربما لم تعد تأبه.

رسم ابتسامة من قاع الجحيم على شفتيه و اقترب، يقبل رأسها ويعتذر:

"معلش يا منى اتأخرت عند دكتورعلي"

نظرت إليه، ومنحته هزة رأس متفهمة ببسمة ميتة وجواب نطقته بصعوبة:

"ربنا يعينك"

أكثرما تُكرر، وأكثرما يحرقه.. لم تعد تملك ما تريد قوله له، وهو لم تعد به طاقة للمزيد، لقد فقد القدرة على الإحساس بالوقت، كم مرعلى زيارة ذلك الحقير!! شهر..! لم يقربها فيه منذ تلك الليلة القاسية، ولم تسأل هي أو تهتم!! ولمَ تهتم إن كان هو مجرد ملء فراغ تركه آخر.. وجوده، قربه، حبه.. من عدمه لا يشكل أدنى فارق.

سيخبرها وينهي الأمر، تحدث بهدوء يخالف كل تلك الانفعالات داخله:

"دكتورعلي مد البرنامج فترة كمان، بيقول محتاجها عشان قطعت في النص، و..."

نظرت إليه كأنها تنظرمن خلاله تنتظره ليكمل، ونظرتها ذبحته.. ما الذي فعله بها؟ اصطنع مرحًا بلا طعم يكسرجمودها:

"مش لو كانت الدكتورة بتاعتي هي اللي مكملة معايا كنت ارتحت!!"

تحركت شفتيها بابتسامة تجاريه، ابتسامة لا تقل موتًا عن سابقتها:

"ما ينفعش نكمل مع بعض..!"

ما هذه الجملة التي انتقت كلماتها بعناية!! ما الذي تقصده؟.. استمر في اصطناع مرحٍ لا يملك داخله ذرة منه وغمزها بإيحاء:

"ما كانتش هتبقى جلسات علاج..!"

شبح ابتسامة ولد ومات في ثانية واحدة، أدارت وجهها، تذبحه بكلمة، تقصد بها معنىً آخر، وربما تنبهه أن الفراق متاح لو تمادى.. وهو يتمادى ويضغط ويتألم ويؤلم بل ولا يكترث، يحاول وكل وسوساته تقطع عليه طريق العودة.. لم يعد يدري ما يريد!! فقد القدرة حتى على الرغبة، تنهد يلقي ما في جعبته عله يرتاح:

"أنا هاسيب البيت فترة كده، هاقعد في..."

قاطعه التفاتتها الحادة إليه، تترقب ما يقول وتذبحه نظرتها المنكسرة كأنه يوقع قرارَ إعدامها:

"غصب عني يا منايا صدقيني، محتاج أكون قريب من الصالة بتاعتي عشان في تمارين مهمة هاعملها أكتر من مرة في اليوم، مش هاغيب"

تجاهلت لفظ التحبب، كادت تسأله.. "ولمَ لا تأخذني معك؟".. لكنها أحجمت، ماذا الآن؟ هل ستتسول قربه؟ هل ستطارده هي وتلقي بنفسها عليه وهو يرفضها!! كلا لن تفعل وليحترق الكون.. هي لا تهتم!! يبتعد الآن ربما لتكون خياناته أكثر راحة و أقل عناءً، غيابه لا يحتاج لتبرير، وليحيا ذكرها الفخور دون قيود.

نهضت تحمل الصغير، وترد بجمودها الذي لم تخرج منه:

"ولا يهمك يا أحمد، المهم مصلحتك"

وغادرته بخطى بطيئة منكسرة، ورأس منحنية، لم يلمح دموعًا بدأت في مسيرتها اليومية فوق وجنتيها دون كلل، وألمًا يطعنها في العمق يخترقها دون هوادة.

******

عندما تعشق.. يطول الوقت في الغياب، ويقصر حتى سرعة الضوء عند اللقاء، تنهب الثواني طرقاتك، وتقطع عليك اكتمالًا تنشده.

فقد قدرته على العد.. أسبوع ربما!! أسبوعان.. وكل لحظة بينهما تقدر بالأثمن، تثير جنون رجولته بأنوثتها، وتقتله بشقاوتها وبرائتها، ثم تعود

فتحلق مع روحه في سماء غرامها، وتسقطه من علٍّ بعبثها الذي يذيبه فيها أكثر.

لم ينل قبلة للآن، كلما حاول اقتراب ابتعدت، وعندما يطالب بها تمنحه أناملها فيكاد يقتلها، لا يريدها مسروقة، لا يريد بداية مرغمة، بل رضاها هو الأهم، وحياته التي يهدده قلبه بإيقافها عندما يكون قربها وهي لا تدرك معاناته، فيهرب من حضورها بمزاح.

أوقف سيارته الرياضية الصغيرة أمام جامعتها، خرج منها وارتكن إلى مقدمتها ينتظرها، لاحقته نظرات بعضهن فأنزل منظاره الشمسي فوق عينيه وتجاهل بصمت، رآها تخرج من البوابة الضخمة بصحبة صديقتين و.. آخر يقف معها، يعرض عليها شيئًا ما، وتبتسم.. ماذا!! تبتسم له؟ تمنحه رأيها فيعلو وجهه لمحة فخر به.. ما هذا!!.

تحرك، اقترب بخطوات متسارعة تشبه الانقضاض، لم تلحظ وجوده لكنها نالت وكزة خفيفة تنبهها لوجود خاطبها من صديقتها، قبل أن تلتفت إليه أحاط كتفيها بذراعه و انحنى يهمس لها وحدها بتملك:

"وحشاني"

رفع رأسه بابتسامة باردة يقابل بها مقلوب الوجه ذاك وهزة رأس محيية، ثم ابتسامة أوسع للصديقات، وتحية ودود:

"إزيكم يا بنات!!"

نال حمرة اندهش لها، وردودًا متقطعة وهي تكاد تمزقه إربًا، قامت بتعارف سريع:

"ماهر زميلي.. عمرو خطيبي"

ابتسم ثانية ومد يده بمصافحة كاد يكسر فيها أصابع الفنان مرهف الحس، يعدل ما قالته بحزم:

"جوزها"

ولاحظ بغضب انقلاب وجه ذلك الـ"ماهر".. زمت شفتيها تدرك ما به، رمت الضاحكتين بنظرة قاتلة، وأنهى هو الموقف بتحية ثانية من رأسه بصمت، حرك كفه يقبض على أصابعها بقوة آلمتها دون أن يعي ذلك!! سار وتبعته بلا حرف حتى استقرت إلى جواره في سيارته، أدار المحرك وانطلق، لم يعلق، ولم تفتح فمها.

بعد دقائق همس لها من بين أسنانه:

"ممكن أفهم كان عاوز إيه الأخ؟!"

غاضبة وغيور، منتشية ومحتقن الوجه، وسعيدة لكنها لن تظهر ذلك، استدارت تنظر إلي ملامحه من جانبها، لايزال يخبئ عينيه أسفل ذلك المنظار الداكن الضخم، أجابته بصوت محايد:

"عندنا مشروع وكان بياخد رأيي في فكرته"

رماها بنظرة جانبية لم ترها، تساءل بعدها بحدة بدأت تتسلل لنبرته:

"وما فيش غيرك ياخد رأيه؟"

ردت ترفع كتفيها بفخر:

"الأولى على دفعتي، طبيعي يعني"

زفر بغيظ، لا يستطيع أن يغضب منها أكثر من دقائق، لا يدري كيف تنتزع ابتساماته رغمًا عنه!! هو في مشروع شجار وهي تتفاخر بذكائها الألمعي، وابتسم.. فابتسمت، لكنه عاد يعقد حاجبيه يقرر بعنجهية "شاذلية":

"آخر مرة يا منة، أنا باغير.. وبغباوة"

اتسعت ابتسامتها في سعادة، نعم هو متحكم، لكنها راضية.. مدت كفها تربت على ذراعه تواسيه:

"هاحاول"

رمق أناملها بنظرة ارتفعت نحوها بعدها يحسم الأمر:

"هتنفذي"

عقدت حاجبيها من تسلطه اللذيذ الذي يتخم أنوثتها برجولته، وأوامره التي لا ترفضها، هي فقط تعانده، لكنها الآن ترغب في القليل من المشاكسة والدلال، زجرته باسمه وبنبرة تعلم كم يعشقها:

"عمروووو"

لاحظت انقباضة أصابعه فوق المقود، وكادن تصرخ" أجل هدف".. سحب نفسًا عميقًا، مد يده يكشف عينيه ويرمقها بنظرة مؤنبة ابتسمت لها.. هزرأسه في استسلام وغير الموضوع:

"هتتغدي فين؟"

استرخت في مقعدها، أغمضت عينيها، تنهدت بتعمد وردت بنعومة:

"اختارعلى ذوقك"

ضغط شفتيه مغتاظاً، هي تشاغبه كما في كل مرة، وينتهي الأمر بصفر له.. واحد لها، تطلع لشفتيها المتعانقتين بسكون للحظة ثم أبعد عينيه يزفر بحنق وتعود هي فتبتسم بنصر.

اختار مكانًا يعلم أنها تفضله، انتقى طاولة منزوية بعيدًا عن أعين المراقبين، طلب لها عصير الليمون قليل السكر الذي تحبه ويعشق رؤيتها تتذوقه وتغمض عينيها لمذاقه اللاذع، وجلس في مقابلها ينتقي من القائمة ما يرغب، تناولت هاتفه تقلب فيه وتركت له مهمة اختيار الطعام لها.

ابتسمت لصوره التي رأتها فرفع حاجبيه ورمقها بنظرة متسائلة، أدارت الشاشة إليه فوجد صورته وشقيقه ينام فوقه يقيده على الأرض، يمد يده لأقصى مسافة يبعد فيها شيئًا ما والثاني يقاتل ليأخذه، ابتسم يستعيد الذكرى:

"كانت هدية لمنى بس اتحول لوحش لما خطفتها منه، وآدي النتيجة"

ضحكت برقة فهمس لها بلهجة عابثة:

"اضحكي.. هيجي يوم وأخلص القديم والجديد"

احمرت وجنتاها وجاء دوره ليضحك.. عادت تتلافى لقاء عينيه، تتشاغل بالهاتف حتى ظهرت تلك الجميلة، عاجية البشرة، بعيون فيروزية وشعر حالك كما دجى الليل، بسمة.. اقتراب.. وصورة شخصية تعلن أن لصاحبتها مكانة خاصة عند خاطبها، فارت دماءها على الفور، جذبت القائمة من يده وكادت تثقب عينيه بالهاتف تهتف بحدة:

"مين دي؟!"

******

"مجنونة"

همس بها بغيظ، نعم حبيبته الشقية مجنونة.. لا أكثر ولا أقل، بل حبكة الجنون تليق بها تمامًا، وحتى ردود فعلها الحركية قططية سريعة تدهشه ولا يلاحقها.

كان يقف أمام المغسلة في دورة مياه المطعم، يحاول تنظيف قميصه المبلل، يتذكر ما فعلته قبل قليل ويعود للغضب والحنق، ما إن رأت الصورة ودفعتها في مقابل عينيه بعنف حتى أصابه الخرس، الذكرى لا تعني له أي شيء، ونسيانها دليل أكبر، لكن متقلبة المشاعر هذه لن تقبل بمبرر النسيان، ومع تردده الصامت وهو يتطلع للهاتف بصدمة أفاق على السائل البارد يغرق قميصه من جديد.. وبسببها أيضًا.

لقد سكبت فوق صدره بقايا عصيرها ويحمد الله أن المتبقي في الكوب كان أقل من النصف، بعدها هتفت بلهجة تكاد النيران تخرج من أحرفها:

"ممكن تفوق بدل ما أنت مركز مع الصورة قوي كده!!"

وبالفعل أفاق، يحدق فيها بذهول، لا يدري أيغضب ويعنفها على تصرفها الأرعن!! أم يحاول توضيح الأمر..! في النهاية هب و اقفًا بحركة عنيفة دفعت بمقعده للخلف وأجفلتها:

"أنا رايح الحمام وراجع لك"

وها هو يحاول تنظيف قميصه ولا جدوى بالطبع، عاد إليها والدخان يتسرب فعليًا من أذنيه، التقطت عيناها نظرته فبادلته إياها بصلابة، جلس أمامها يضغط فكيه يمنع نفسه من الصياح في وجهها، زفرة حارة غاضبة وبخفوت نبرة باردة:

"هاقولك..!"

قص عليها باختصار عن ذكرى "ياسمين".. لم يرغب سوى بمصارحة، فألقى ما في جعبته دون تزيين ينهي الأمر ويضع على الحروف نقاطها بوضوح، أنهى حديثه بجدية:

"وده طبعًا موضوع قديم قبل ما أعرفك أصلًا، يعني ما كانش في داعي لحمام العصير اللي بقى لازمة عندك ده..!"

لم تضحك، ولم يرغب هو في ضحك.. بل كان يتحدث بضيق ولهجة مغتاظة، لكنها لم تهتم، فقط هناك نار تحرقها وهو يبرر ويشرح ويقص

عن جميلة قديمة غزت أفكاره و انهربها.. يا الله.. انهربها!! كيف يقول لها ذلك؟ سألته ببرود:

"ولما هو موضوع قديم؛ ليه صورتها معاك لسه ع الموبايل؟"

التقط هاتفه من يدها، مسح الصورة أمام ناظريها ثم هز رأسه بجواب صادق:

"نسيتها يا منة، مش فاضي ألعب في الموبايل كل شوية وأمسح اللي ما يهمنيش"

أنبته بعينيها فقابلها بتحدٍ، عاندته وهمست بأمر:

"آخر مرة يا عمرو، أنا باغير.. وبغباوة"

و ابتسم، بل ضحك بمرح.. هي تقلده وتعيد حديثه لكنها أضافت بحسم:

"مش باهزر على فكرة، مر اتك أنا لو ناسي"

زوى ما بين حاجبيه واستغل الفرصة بجرأة:

"إيه الدليل؟ ورقة عليها توقيعنا!!"

واحمرت وجنتاها كما توقع، اقترب على المقعد المجاور بدلا من المقابل خاصته، يميل نحوها برأسه ويلتقط كفها الصغير بين أصابعه، يرفعه لشفتيه بدفء، يلثمه بشوق واضح ويهمس بينما عيناه تكبلان عينيها:

"آخري أبوس إيدك يا توتة!!"

سحبتها منه ترد بترفع لذيذ:

"ودي هاحرمك منها كمان.. عشان تبقى تخلي صور بنات على موبايلك"

شاغبها بغمزة ماكرة:

"قلبك قاسي قوي"

هزت كتفيها بتفاخر:

"جدًا.. خلي بالك بقى"

لمعت عيناه بنظرة لم تفهمها وهمس:

"هاحاول"

ردت تشاكسه هي هذه المرة ونظرتها تأمره:

"هتنفذ"

وعاد يضحك، يمسك بأصابعها ثانية، ويحتفظ بها داخل قبضته، وحتى بعد مجيء الطعام، تناوله بيد واحدة، يرغمها هي الأخرى، ولم يتخلَ عن يدها في حضن يده.

******

أكثر من شهر مر، الفضول قاتل كما يقولون، ولو لم يروِ فضوله لاشتعل بنيرانه، ترى كيف أثمرت خطته؟ هل هُدِم العش السعيد، وغادره عصفوري الحب بلا رجعة؟ أم مازال هناك بقايا تقاتل للصمود!!.

قبل نهاية رحلة عمله اعتذر وقرر العودة، لم يستطع التأخر أكثر بل استخدم الطائرة دون أن يعود لمينائه كعادته، سيفاجئها بزيارة.. أو ربما لا، سيعلمها قبلها عن حضوره، ويترك لعامل الوقت تمزيق ما تماسك منها.

أخرجه من شروده يد ناعمة، أظافر مطلية بحمرة قانية، وحفيف قماش ناعم فوق جسد انحنى يقترب منه يتبع اليد التي تحركت فوق كتفه تداعبه، عطر مثير وهمسة مغوية:

"راجع من السفر عشان تسرح بعيد عني!!"

ودارت حول الأريكة تقف على ركبتيها في مواجهته، تحيط عنقه بذراعيها وتقترب أكثر:

"وحشتني قوي.. إيه ما وحشتكش!!"

اصطنع ابتسامة قبل أن يجذبها يقربها منه، يجيبها بآلية:

"وحشتيني طبعًا"

داعبت زر قميصه العلوي تهمس بدلال أصابه بالضجر:

"مش باين!!"

وأثبت لها بالفعل لا بالقول كي ينهي الأمر، في النهاية نهض من فوق الأريكة يعاود ارتداء ملابسه وتلتقط هي غلالتها الحريرية تعيدها فوق جسدها، ثم تعود فتقترب منه:

"عاوزة أقولك على حاجة..."

نظر لها بتدقيق بينما يغلق أزرار قميصه، ترددت، وارتباكها أقلقه، جذبت يده لتجلس ثانية وتهمس باسمه في قلق:

"سامح...!"

همهم بجواب صامت فرفعت عينيها إليها، تحاول اكتساب شيء من الجرأة، تتذبذب الأحرف عند طرف لسانها تعاندها، ترغب في النطق، وينغلق حلقها الجاف يمنعها، تحشرج صوتها أخيرًا:

"أنا حامل"

اتسعت عيناه لوهلة في صدمة.. وبعد استيعاب ما نطقت به هب و اقفًا يصيح فيها:

"نعم يا مدام!! ليه حد قالك إني عاوزعيال تاني!! إذا كان الأولاني هو اللي خلاني سيبت مر اتي"

ترددت ترد بحرقة دامعة:

"يا سامح أنا من حقي أكون أم، وعلى فكرة الحمل مش مقصود، ده حصل غصب عني"

قهقه بسخرية، يميل نحوها يهزأ منها:

"والله..!! و أنا بقى العيل الصغير اللي هتقولي له الكلام ده فيقولك يا حياتي ألف مبروك ويطيرمن الفرحة!! مش كده؟"

ولم يترك لها ردًا، أمسك بذقنها بين أصابعه يضغطها بقوة آلمتها، يحتد بصوت خفيض ونبرة مميتة:

"الجنين ده هينزل، يا إما الورقتين اللي بينا تبليهم وتشربي مايتهم ع الريق كل يوم"

ونفضها بقسوة، مال يلتقط سترته يرميها بنظرة قاتلة أخرى ويغادر المكان كعاصفة، جلست في مكانها تشد غلالتها فوق جسدها قدر استطاعتها، تدمع عيناها ويحاول النحيب التسلل من بين شفتيها، أمسكت بهاتفها تطبع رسالة قصيرة:

"كان عندك حق"

******

لو يدري شيئًا عن بقاياها المنهكة!!

عن كرامتها المهدرة و أنوثتها المطعونة في مقتل لا إفاقة بعده!!

عن عشق هو ذنب.. تكفر عنه في كل لحظة، وتصبر على ابتلاء قلبها به!!

لو يعلم عن آلام عقرت روحها فلم يعد لها من مكان سوى القبر!!

ولو فقط يفكر في كل لحظة يغيبها.. نظرة يهرب من لقائها.. وبسمة تموت فوق شفتيه قبلها!!

لربما أنهى عذابه وعذابها.. ثقتها بنفسها في الحضيض، وبه..! تتهاوي من القمة بسرعة صاروخية، أما عنه فلا اكتراث، جهل تام أو فقط لامبالاة.

سبعة أيام هي الأطول، الأكثر قهرًا والأكثر غزارة في سيل الدموع التي لم تتوقف إلا حين ذهابها للعمل، هي من جنت ذلك على نفسها.. نعم هي صاحبة الخطيئة العظمى، من سلمت واستسلمت.. رغم خبراتها، وعقلها الذي ظل يناديها يأمل تمهلًا حجبته غشاوة عشق عن قلبها فنال الطعنة.. وحاله نازف.. وفقط لايزال ينبض لحامل سكين الغدر.

منذ يومين أتتها رسالة.. بدليل جديد، تثبت جرمه وتحثها على فراق:

"مستنية إيه تاني بعد ما ساب لك البيت!!"

نعم.. ماذا تنتظر؟ لا.. هي فقط تجبن، وشيءٌ آخر تدعو ألا تكون على حق بشأنه.. هي تحتاجه بشدة، لقاءاتهما المعدودة قصيرة المدى لا تغنيها عن وجوده، ووجوده شبه المعدوم يعذبها ببلادة وقسوة.

تقف أمام غرفته الرياضية بتردد.. سلمت على والدته وجلست معها قليلًا، أخبرتها عن مكانه فذهبت إليه، في ظلام الحديقة وعلى ضوء المكان تر اقبه في سكون، عاري الصدر يضرب بعنف وتتابع سريع، يلتقط أنفاسه لثوان بلهاث ثم يستأنف ضرباته بقوة.

غاضب هو ربما.. ملامحه محتقنة وشفتيه مزمومتين بشدة.. ترددت ثانية قبل أن تخطو إلى الداخل دون أن يلحظ وجودها، في صمت أشبعت

عينيها بصورته غير المهندمة.. لحيته التي نمت أكثر، وعرقه الذي يغمره ويسيل فوق وجهه وجسده.

لو كان خائنًا!! أليس من الأفضل أن يكون بين أحضان عشيقته بدلًا من تسديد اللكمات لكيس الرمل!!.

استدار فجأة ليجدها تتأمله بحزن ممتزج بحنين.. تجمد في مكانه، هل هو يحلم؟ هل أتت إليه؟ هل نحل جسدها أكثر وذبلت عيناها كما يرى!! لم يقابلها منذ يومين والآن يود لو فقط يضمها، يزرعها داخله ويحبسها دون مهرب.. ويعود فيصيح شيطانه: "تضمها أنت كعاشق وتضمك هي كوهم".. وتؤنبه بقايا ضمير: "ما الذي فعلته بها يا أحمق؟!".. اقترب بابتسامة، يتناول منشفة يجفف بها وجهه وصدره ثم يلقيها فوق كتفيه، يلتقط كفها بين يديه ويهمس باسمها، بادلته البسمة ترد:

"عامل إيه؟"

ويطمئنها وقلبه يشتعل..

هو يشتاقها حد وجع تئن له خلاياه وروحه وقلبه، وماله من ترياق..

ألقت نظرة خلفه، لا تريد فتح الحديث الذي أتت لأجله، رباه!! تحتاجه وبشدة، تريده أن يكون معها، لكنها تخشى الطلب فتقابل بالصدود..!

همست بتساؤل دافئ:

"ممكن تعلمني!!"

اندهش والتفت يتابع اتجاه عينيها، ابتسم وعاد ينظر إليها، مازحها:

"لا يا ستي أخاف على نفسي"

هزت كتفيها تمنحه وعدَ ثقة:

"ما تقلقش، أنت في أمان معايا"

وكأنها تقول.. "لكنني لست بأمان معك".. تحرك يلتقط شيئًا ثم عاد إليها، مد يده يجذب كفها وبدأ يلف حولها شريطا من القماش ببطء ورفق، يمسح باطنها بإبهامه، ورأسه منحنٍ يتأمل يدها الناعمة بشوق.

أنهى واحدة وتناول الأخرى.. وقبل أن يبدأ قربها من فمه يطبع شفتيه داخلها بتوق واضح، نبض قلبها بعنف.. هذه بداية جيدة، لمسة لم تنلها منذ زمن، ولهفة لم ترها لوقت طويل.. رفع رأسه يلقي بروحه الضائعة بين جفنيها، يعانق نظراتها ويحكي دون حديث عن غرامه بها.

ابتسمت بحب، نحت ترددها جانبًا وتشجعت تطلب بخفوت:

"أحمد..!"

جاوبها قبل أن تكمل:

"مناه وروحه وحياته"

لمع الأمل في عينيها بطريقة أوجعته.. لعن نفسه على آلامها، على ضعفها، ويصرخ قلبه: "هي تحبك يا أكثر أهل الأرض غباءً".. ويوسوس شيطانه: "نعم في أحلامك وأوهامك أنت فقط".. لمح ترددها فحثها بعينيه.. أردفت بحنين:

"ممكن ترجع معايا النهاردة بس!! بعدين تعالى كمل تمارينك من بكرة"

كاد يقفز من مكانه!! كلا.. لن يجتمع معها في مكان واحد أبدًا، لن يختلي بها لأنه سيضعف، سيخضع لنداءات قلبه، وحينها يقسو.. يوجعها من جديد، ويعود فيهرب وتتألم أكثر، ارتبك للحظة ثم أعلنها بوضوح كأن شياطين جهنم كلها تطارده:

"معلش يا منى مش هينفع..! عندي شغل بدري وكل أوراقي هنا كمان لسه ورايا شوية تمارين مش عارف هاخلصها إمتى!!"

لم تجادل.. وكأنها كانت تتوقع رده، وآلمه ذلك أكثر، هي تفقد ثقتها به، كاد يضمها ويهتف أنه أحمق كبير، نعم سيعود معها وليس لليلة فقط، بل لما

تبقى له من عمر، لكنه جمد مكانه كلوح من ثلج، عادت تفك الرباط عن يدها فتطلع إليها بدهشة جاوبتها بهدوء:

"خليها مرة تانية تكون فاضي، هامشي أنا بقى"

أمسك بساعدها قبل أن تستدير فرفعت عينيها إليه، أبدى اهتمامًا لم تشعر بجديته:

"استني تمشي إزاي!! استنيني دقايق هاخد شاوروألبس وآجي أوصلك"

ابتسمت بانكساروهزت رأسها بنفي:

"مالوش لزوم.. عربيتي معايا"

ضغط على يدها أكثريقطع الطريق بقرارحاسم:

"هاخلي السواق يوديها عند البيت، أنا هاوصلك"

كادت تخبره أنها تركت منزلهما هي الأخرى بالأمس وذهبت لوالدها المستغرب، منحته تبريرًا واهيًا يطابق تبريرزوجها وتقبله هوعلى مضض.. لكنها تراجعت، لو يهمه الأمر!! لو يحاول رؤيتها!! والكثير من هذه الـ"لو" لعرف أنها لم تعد تسكن مكانًا كل حجر فيه يذكرها به، ويذبحها بذكرى همساته وعشقه المجنون الذي فتر فجأة ودون مقدمات.

أخذ صمتها على محمل الموافقة فاقترح:

"تعالي اقعدي مع ماما على ما أخلص"

هزت رأسها نافية وتحشرج صوتها بغمغمة قصيرة لم يفهم منها شيئًا، لكنه استنتج أنها ستبقى هنا، غادرها مسرعًا وتابعته هي بعينيها حتى توارى داخل المنزل، توجهت إلى سيارتها ودخلتها بهدوء، أدارت المحرك وغادرت المنزل بصمت ودون أن تنظر إلى الوراء.

بعد مسافة قصيرة غشيت عيناها الدموع، لم تعد تحتمل..! رباه لم تعد تحتمل.. قلبها ينقبض بشدة كرحم في حالة مخاض، الوجع أصبح لا يطاق، وجبنها يجلب لها المزيد.. صفت السيارة إلى جانب الطريق وصاحت بقهر:

"ليه؟ حبيته وسمحت له يدخل حياتي ليه؟ غبية ما اتعلمتش من درسي اللي فات، المرة دي باموت"

التقطت محرمة ورقية تجفف بها السيل ولا فائدة، تهمس بأنين:

"باموت وهو مش حاسس بيَّ"

ألقت نظرة على حقيبتها الملقاة على المقعد المجاور لها، حملتها تلتقط منها مغلفًا ما، تطلعت إليه بألم، قلبها يبتهل، روحها تدعو وتأمل، وتعود فتهمس:

"كان نفسي يكون معايا، بس هو دبحني وخلاص.. والألم بيتكرر"

سكنت تبكي، حتى قدرتها الغريبة على البكاء مستحدثة، أتت معه هو، لم تبكِ هكذا سابقًا..! لم تعلم حتى أنها تمتلك كل هذا القدر من الدموع..! لكنه صاحب الفضل.. وربما عليها أن تشكره.

عادت تتحرك بالسيارة، تحاول التماسك، وتدعو ألا يكون ظنها حقيقة.. فهي لن تستمر هذه المرة، قد تموت، قد يتوقف قلبها، وقد تحيا ثانية بذكرى أتت رغمًا عنها.

(28)

خط النهاية

لكل قاعدة شواذ، حقيقة مثبتة..!

وكلٌ يشذ بطريقته الخاصة، في أبجديات العشاق.. أنت تهتم، تمنح، تبذل وتسعد؛ إذًا أنت تحب، بعدها تتدرج في السلم العشقي مرتبة تلو أخر.. حتى تنال الإجازة العليا.

شواذ قاعدة المغرمين.. من يهتمون ولا يظهرون، تتوقف عندهم ميزة المنح، ويحاولون البذل وإسعاد النصف الآخر.. لكن العوائق تكون أقوى.

هؤلاء قد لا يكون عشقهم قويًا حد الصمود في مواجهة عواصف الحياة التي قد تقض أساسه، لكنهم يحاولون.. وكما العادة فشرف المحاولة كافٍ.

لكن.. عندما يهيأ لهم أنهم بالفعل يقدمون الأفضل.. يمنحون كل ما كان ملكًا لهم؛ هنا يبدأ الخلل.. ويصبح الشذوذ ضارًا.. ضارًا بصحة القلب ونبضاته.

فكر بكل هذه الأمور عندما عاد لغرفته الرياضية ليجدها فارغة إلا من بقايا رائحتها التي يستشعرها بكل حواسه دومًا، نعم..! لقد شذ عن القاعدة ولدرجة خطيرة، إلى متى سيؤذيها بأوهامه!! وإلى متى ستتحمل هي؟ ولا تتوقف الوسوسات عن إثارة الضجيج داخل عقله وروحه.. من قال أنها أوهام؟!

خطا بسرعة خارج المكان علَّه يلحق بها لكن لا أثر.. لمَ غادرت!! هل غضبت؟ أم يا ترى أحزنها!! هو لا يفهم.. كل الأمور معقدة وفوق طاقة عقله على الفهم، حداثة عهده بالحب وتعقيداته تشبه غيمة رمادية.. تحمل الكثير من المطر، تسير به، فلا هي قادرة على إفراغه فتروي بقطراته الأرض، ولا لديها الاستطاعة للاحتفاظ بحمولته للأبد.

هو يحبها ويقسم.. لكن هل طريقته في الحب مناسبة؟ كافية؟ تسعدها؟ لو الإجابة على سؤال واحد من هذه الأسئلة بـ"لا"!! هو فاشل إذًا، وبجدارة.

"ماذا تريد بعد؟"

خاطب نفسه وقلبه بل وحتى غروره الذي يحجب عنه وضوح الرؤية.. لقد أتت إليه بنفسها كما يحلم كل ليلة، أتت تبغي منه العودة، ولو لوقت قصير، بدا عليها احتياجٌ ما أهلك روحه لكنه وبكل حماقة لم يلبِهِ لها، بكل عنجهية وغرور الذكر أهمله، سيضيعها الغبي.. لا بل "ستضيعها يا غبي"، أفق لنفسك قبل أن يفوت الوقت وتسبب لها ندبة جديدة، تمحوك بها من حياتها.

تحرك بخطوات واسعة نحو سيارته، لا لن يؤذيها بعد اليوم، كفاها ما عانته منه، سيذهب إليها، يرجوها العفو، يطمح في غفرانها، ويعد وهذه المرة يوفي بسعادة لم ترها من قبل.

قابل أخيه الذي كان يغادر سيارته في الممر أمام المنزل، هتف به متلهفًا:

"عمرو..! ما قابلتش منى و أنت داخل؟"

نال انعقاد حاجبين مندهش.. بل مستغرب، نعم أخي الصغير لقد أتت إليَّ و أنا بكل ما أملك من حمق رددتها صفر اليدين، و أتاه الرد بدهشة لا تقل عن تلك المرسومة على ملامحه:

"منى!! هي كانت هنا؟"

هز رأسه في يأس، اتجه نحو سيارته وأخيه يتابعه بعينيه.. عينين غاضبتين، وحزينتين.. لأجله ولأجل المسكينة التي هجرها شقيقه دون سبب واضح أو على الأقل مقنع، ادعاءه لا يصدقه.. باعه إياه وهو لم يشترِ.. والأخ الأكبر يرفض الإفصاح عن مكنون صدره رغم محاولاته ولكن دون جدوى.

قاد هو بسرعة قد تكون قاتلة، لم يهمه في هذه اللحظة سوى أن يضمها لصدره، لا بل يعتصرها بين ذراعيه حتى لو حطم عظامها، ثم يتوسلها أن تسامحه، هو مجرد مغرور عاشق أخطأ فهم الأبجدية، ففشل في أول اختبار.

وصل لمنزله وصعد إليه، فتح الباب بهدوء وما قابله كان الظلام الحالك، تساءل: ألم تعد بعد؟ تحرك في المكان بعدما أضاء الأنوار كلها كأن فراغه يخيفه.. أو ربما يرعبه ويثير الذعر في نفسه، ناداها بابتهال:

"منى!!"

وتحول صوته بعد عدة نداءات لتوسل.. فرجاء وهو يطوف أرجاء المكان الموحش دونها، لم تعد إلى الآن.. ربما هي في منزل والدها لتحضر "مالك".. لم يكن معها عندما ذهبت إليه، هكذا ردد داخله في أمل.. لكن فكرة أخيرة دفعته لفتح صوان ملابسها ونال ما يستحق.. شبه فارغ إلا من القليل الذي يخصه هو.. ما ترتديه له هو، ما يرغبه هو.

"لقد رحلت..!"

صرخ بها عقله وقلبه في آن واحد، و اتفقا أخيرًا على نغمة عذاب أهلكت روحه، دار كالمخبول في أنحاء الغرفة يفتش عن بقايا تركتها، أهملتها، نسيتها، ثم لمح نفسه في مرآتها.. حينها أدرك أنه خارج نطاق الذاكرة، أنه مجرد شيء من بقاياها المنسية.

خرج من الغرفة يبحث ويبحث، يكاد يركض في كل ركن، يناديها بهمس، بصراخ، بجنون.. وهي لا تجيب، ويسب نفسه.. "أنت تستحق، لقد نسيتها فأضعتها ونسيتك.. لقد تركتك".

أمسك هاتفه يتصل بها، أسقطه أرضًا في توتر، مال يلتقطه بسرعة، يبحث عن اسمها، يستمع للرنين والمفاجأة.. لا رنين، الهاتف مغلق.. نعم عذرًا، فصاحبه غير متاح.

أعاد الاتصال بغباء ويتكرر الأمر، رباه..! ماذا يفعل؟ لمع الأمل في رأسه فجأة.. بحث عن الرقم و اتصل.. وهذه المرة أتاه رنينًا جعل زفرة ارتياح تخرج حارة من صدره، عندما وصل لأذنيه الصوت الحنون بتحية أمسك لجام اللهفة و أكسب لهجته نبرة عادية قدر استطاعته:

"إزيك يا عمي..! معلش آسف إني اتصلت على حضرتك، بس باكلم منى وموبايلها مقفول، يمكن فصل شحن، قلقت عليها.. هي موجودة دلوقتِ؟ ممكن أكلمها؟"

أجابه الرجل بود.. إذًا؛ هي لم تخبره بشيء، انتظر أن ينعم بصوتها علَّ قلبه يعود للحياة من جديد لكن عاد إليه صوت والدها باعتذار:

"معلش يا أحمد، دخلت لقيتها نايمة، كلمها بكرة بقى و أنا هاقولها إنك اتصلت"

هناك نبضة سكون واطمئنان تفلتت من بين أضلعه، هي لم ترحل تمامًا صحيح!! كانت ستخبر والدها، أو على الأقل تخبره هو، سمع الأب يتحدث معه بنبرة قلقة عنها، عن نحولها الغريب، وتلك الهالات التي أصبحت تطوق عينيها.. قلقًا عليها وعلى صحتها، وعلى غيابه هو عن منزله، وبدت

نبرته غير مقتنعة بتبريره الساذج، حاول بث بعض الطمأنينة في صوته يجيبه براحة.. ثم أغلق الخط.

رمى بنفسه فوق فراشهما، يتشمم شذاها العالق به، يضم وسادتها، ويتألم.. بعدها يأتي السؤال، إلى متى؟ وما الحل؟! لقد أُنهِك وأنهكها معه.. ربما هي الآن تهرب منه، وهذه المرة لن يستطيع استعادتها أو الفوز بها.. سيصبح السهم هو الخاسر، خاسر في مضمار لم يخض طرقاته يومًا، ولم يتدرب عليها.. ليكتشف في النهاية أنه لم يكن أهلًا لخوضه منذ البداية.

******

سمعت حديث والدها معه، وكل ما فعلته أن تظاهرت بالنوم، كفاها ألمًا ما حدث لليلة واحدة، بل كفاها من كل شيء، ما الذي يهمه الآن؟ أنها لم تنتظر سيادته بعد قراره بتوصيلها؟ أنها لم تنفذ رغبته المتسلطة في التحكم بها؟ أنها رحلت تجر أوجاعها معها وينوء بها ظهرها، بل قلبها المسكين الذي لم يتعلم الدرس فوجب على الحياة تكراره.. ماذا!! أليس التكرار يعلم من.. من يا غبية!!

دفنت رأسها في وسادتها، لم تعد تبكي، جفت دموعها ولأول مرة منذ وقت طويل، ربما أدرك القلب أنه لا يستحق، وربما لم تعد تملك منها المزيد،

ستقتصر على ما عانته فيما سبق، لا تريد ما هو أكثر، لو لها من الأمر شيء لأطبقت بيديها على قلبها، تعتصره، تخنقه، حتى يصرخ مستغيثًا واعدًا بعدم السقوط في فخ العشق مجددًا، فخ الرجال، فخ أمل لم تكد تلمسه بأناملها حتى تلاشى وتلاشت روحها معه.

بقي القليل من الوقت وتجري اختبارها، همس قلبها بخفوت كأنه يخشى رد فعلها: "ربما لو أخبرته عن سبب رغبتك في وجوده لأتى، ربما لو...." وقاطعته تنهره بعنف: "لن أتوسل قربه بهذه الطريقة.. فعلتها من قبل دون علمي والنتيجة جرح غائر غادر ظننت أنني داويته حتى التئم، وظهر هو يعيد فتح الجرح.. بل ويضع بصمته الخاصة بجرح جديد أكثر عمقًا ووجعًا".

وانكمش القلب في صمت، لم يعد يملك مسوغات للدفاع عمن يعشق، لقد أقفل الأبواب دونه، منحها سببًا لتكبيله من جديد.. وهو الأحمق الذي يسيرها في كل مرة إلى حيث تقابل الألم.

فقط كانت تدعو، لا تريد أن تعود لتلك الخانة من جديد، لا تريد ما يربطها به للأبد، لا تريد أن يعود الراحل بسبب ابن لم يرغب في وجوده.. تتمنى ألا تتكرر مأساتها، ظننت أنها أفضل، أكثر حنكة وبراعة، أكثر خبرة،

أن اختيارها هذه المرة هو الأصوب.. ثم اكتشفت أنها لاتزال تلك المراهقة الغريرة التي سقطت في فخ الزواج من نوع واحد من الذكور، نوع لا يعطي سوى الأوجاع، ويمتص الحياة من روحها حد الذبول.

تقلبت في الفراش حتى سمعت صوت الفجر، تنهدت تلاحق أنفاسها الضائعة وتكاد تبتهل أن تكون الأخيرة، الوجع يتخللها بحدة قاتلة، ينخر في جسدها بطريقة غريبة لم تعهدها، كأن سائر أعضائها قررت مشاركة القلب أنينه علَّها تخفف عنه.

نهضت بتكاسل، تقدم خطوة وتعود فتتراجعها، حان الوقت وعندما يحين؛ تعلم أن الكثير من الأمور ستتبدل، قرارات ستتخذ، وعواقب ستتبعها ورغمًا عن كل شيء.

ذهبت إلى الحمام، فضت المغلف الصغير وأجرت الاختبار بوقته المناسب، لم تنظر إليه فقط تركته فوق طرف المغطس و ابتعدت، توضأت ووقفت بخشوع بين يدي الله، تبتهل، تدعو وتستكين لقربها منه.

لم تعد تبكي، ولا تستغرب الأمر، فالحكاية بلغت من القسوة ما أصابها بعنفها، جفائها، ما انتزع روحها فتوقفت عن إيلامها بجروح لا تتكرر

فقط، ولكن فوق جراح قديمة لم تندمل تمامًا بعد ولم تجد من يداويها بصدق.

توجهت ببطء حيث تركت اختبارها الصغير، لم تستطع إلقاء نظرة لحظية عليه، ارتبكت وتوترت كل ذرة فيها، تساءلت: "ماذا لو كان هنا الآن؟".. كيف سيكون رد فعله إن كانت النتيجة إيجابية؟ وتبتسم ساخرة من نفسها وأمنياتها الحمقاء، لايزال خافقها الخانع لعشقه يبحث عن ذكراه ويأمل دون كلل، دون استفادة من دروس ذُبح خلالها كل يوم.

التقطته وخرجت به من الحمام، جلست فوق فراشها، كأن تلقيها لخبر ما، لنتيجة ما.. يحتاج لجلوسها فربما تفقد وعيها، بتردد مالت بعينيها تنظر إليه بين أصابعها، تكاد تطبق جفنيها تمنع الصورة، لكن الو اقع أقوى من حجبه بطفولية وبراءة، الو اقع مؤلم.. الو اقع يقول أنها تحمل طفله، ثمرة عشقها وغدره، خطان مكتملان.. ودموع عادت تدر ولا مانع لها الآن.

الأمر يتكرر.. الأنين يتكرر، وكل تفاصيله بحذافيرها التي تكاد توقف قلبها فرَقًا تتكرر، وضع بذوره داخلها وبرضاها كما في المرة السابقة ورحل، حصل على ما أراد من أنوثتها المهترئة وهجر، لم ينظر للوراء، ولم يبرر.. بل

كان أسرع هذه المرة، على الأقل الآخر بقي لأعوام نالت هي منها مع مخادعها الجديد أشهرًا لم تكمل أصابع إحدى اليدين.

شهقت بوجع، ارتمت أرضًا في الركن بين الفراش والطاولة المجاورة له، ارتفع صوت بكائها هذه المرة، تنظر لبطنها المسطحة دون دليل واضح، تبكي، تخاف.. لا تمتلك قدرة على الشعور بسعادة حملها لطفل ككل أنثى في هذه اللحظة.

تتحسسها بكفها وتبكي، تكاد تضم قبضتها وتلكمها بأقصى قوة تمتلكها وتجبن.. تخاف، وتعود فترثي لحالها، لقلب ظن أن الحياة قد عادت لمسارها الطبيعي، فاكتشف أنه دخل متاهة أخرى لا مخرج منها هذه المرة.. إلا ربما للقبر.

رباه..! تريد أن تفرح، هي حامل، تحمل جنينًا صغيرًا منمنمًا من حبيبها، ولا تستطيع، لا يمكنها، تنشد راحة لا تحصل عليها، وتريد إبلاغه بالأمر لكنه فقط.. لا يستحق.

عادت تربت على بطنها، تواسي نفسها وربما تواسي صغيرًا لم ير النور بعد، على حماقتها وسوء اختيارها، لمَ هي عمياء لا تميز الصالح من الطالح عندما تتخير آباء أطفالها؟ تحضرهم لدنيا رفضهم من زرعوا بذورهم في

رحمها فيها، وغادروها قبل أن يسكنوها هم!! وعليها وحدها أن تروي وتحصد ثمرة تمنتها حد اللهفة وخشيت وجودها حد الفزع.

نهضت ترتكن للفراش، تمددت فوقه في وضع جنين خائف، انطوت على نفسها تضم جسدها إليها، واستكانت لذرف الدموع بصمت وجمود، أغمضت عينيها وغادرت الواقع لنوم قد يريح عقلها وقلبها بعض الشيء، تهرب من حلم ظنته تجسد لتجد أنه غافلها وكان كابوسًا يرتدي رداء ملائكة الأحلام.

******

أطفأ الانوار وأغلق الباب خلفه.. كمن يجفف بئر الذكريات ويمنع نفسه من الغوص فيه حد موت هو السعادة التي لا يريد غيرها.. انتقى قطعة من ملابسها المتروكة تحمل عبقها، طواها بعناية واحتفظ بها في جيب سترته، غادر وترك روحه تحوم بالداخل كشبح هجر الحياة دون عودة.

الوقت قارب الفجر، اتصالات أخيه لم تنقطع وقلق أمه يحثه على العودة ويتساءل عن الأسباب، اختصر الطريق وقرر الذهاب إلى حيث كان.. يفكر في حلول لا يمتلك لها ذرائع كافية ولا دوافع مقنعة، عقله يكاد يتمزق وقلبه يشاركه بصمت.

دخل إلى غرفته ولم يكد يقفل بابها حتى فتح من جديد، عبرته والدته بخطوات سريعة تشي بغضب ما لم يره عليها منذ زمن طويل، تغلقه خلفها وتلتفت إليه تتأمله بتركيز.. في النهاية ودون فرصة لحديث من جانبه سألته بوضوح:

"ممكن أفهم أنت هنا بتعمل إيه؟ وما روحتش مع مر اتك ليه؟"

لمعت عيناه بحيرة.. فعاجلته بسؤال آخر:

"منى مالها يا أحمد؟ فيها إيه مخلي حالتها بالشكل ده؟"

اصطنع بلاهة لم يملك غيرها:

"مالها يا ماما!! هي كويسة"

زمت شفتيها، صغيرها يلف ويدور وهي لا تهتم لعدم مصارحته في هذه اللحظة.. ستنتزع منه الحقيقة ولو بالعنف:

"أحمد.. من غير لف ودوران"

أخفض عينيه أرضًا، ماذا يخبرها؟! بماذا يبرر تركه لزوجته أو بالأحرى عروسه.. أشهر قليلة وهو هنا في منزل والدته دونها.. أتته ورحلت وحيدة ولا مبرر يقنعها، رد بخفوت:

"ما فيش حاجة كبيرة يا ماما.. شوية حسابات محتاج أعيدها مع نفسي مش أكتر"

ارتفع حاجباها في استنكار، ثم أتاه هتافها الغاضب:

"حسابات!! وبتعيدها؟ دلوقتِ بعد ما اتجوزتها في شهر زي ما يكون كان وراك ميت عفريت؟ ما كان قدامك الوقت قبل ما تدخلها حياتك وتدخل حياتها تقلبها لها بعدين تهرب وتقول باعيد حسابات!!"

نظر إليها في صدمة، والدته تعنفه لأجلها، يعلم أنه مخطئ لكن فقط من قد يفهمه!! الأمور معقدة، وصدره تثقله همومه ولا أحد يعلم عنها أي شيء.. هو يموت بها كل يوم فحسب، اقتربت منه توخزه بإصبعها في كتفه بخفة مكملة بنبرة حادة:

"ما فيش حاجة اسمها إعادة حسابات يا أحمد، الجواز مش لعبة، ده حياة ومشاركة، انسانة بتتكيف على وجودك في حياتها بكل حميمية وتفاصيل مش بتحصل غير بينكم، مسئولية كبيرة قوي ومع الأسف ..."

ونظرت له بضيق شديد:

"طلعت مش أدها"

عادت تبتعد، تستدير للخروج من الغرفة، وخلف الباب توقفت لثانية، تفكر.. ثم تقرر:

"على آخر الأسبوع ترجع بيتك وتحل مشاكلك بطريقة صح.. مش عاوزة أشوفك هنا إلا وهي معاك وفي زيارة وبس"

وخرجت تصفق الباب خلفها بعنف نفضه من مكانه، حتى أمه ترى خطأه!! من بقي إذًا؟ لو فقط يمتلك الجرأة على المواجهة؟ أو حتى الحديث عن الأمر!! يقطع الشك باليقين ويعود إلى نبض قلبه الذي غادره معها!!.

******

هو قلقٌ عليها بشدة، ونبرة زوجها التي لمس فيها شيئًا من هلع عندما حادثه تخبره أن الخلفية تحوي أكثر من الصورة الظاهرة أمامه، هذه الساكنة الصامتة، ناحلة الجسد والروح، آلية التحرك ليست هي صغيرته التي تزوجت بحبيبها قبل أشهر، ليست هي أبدًا..!

وحتى حجبها لأمورها مؤخرًا عنه، ليس هي، هي دومًا تصارحه، تنشد رأيه ودعمه، قلبه حزين عليها، يريد سؤالها.. وحاول بطريقة ملتفة لكنها تفهمه جيدًا، تهربت منه ورحلت من أمامه تمنعه محاولة أخرى.

تسلل لغرفتها، لقد تركت صغيرها يقضي الليلة معه، وهذا نادرًا ما يحدث!! تثير حيرته، والأكثر تثير خوفه وبشدة، وجدها نائمة، وضعها المنكمش حول نفسها عصر قلبه.. همس لها بخفوت دون أن تغادر الحروف شفتيه: "ما بك صغيرتي؟".. دار حول الفراش يجلس إلى جوارها.

تطلع لوجهها وهاله ما رأى، آثار الدموع الواضحة، البلل على الوسادة، الذبول، والألم المرسوم بحرفية فنان صانعَ عذاب، ربت بحنو على شعرها يبعده عن وجنتها، وانحنى يطبع قبلة خافتة فوق جبينها الدافئ.

عاد يجلس يتأملها في هدوء، لن يسكت، سينتظر استيقاظها وسيعلم كل شيء.. ابتعد بعينيه عن وجهها البائس، ووقعت عيناه على اختبار الحمل المستكين فوق الطاولة المواجهة له، سقط قلبه بين قدميه بينما يميل ليلتقطه ببطء.

"حامل!!"

همس بها في صدمة، طفلته.. حامل، باكية، حزينة وساكنة.. ماذا فعل بها ذلك الأحمق؟ سيقتله هذه المرة لو آذاها!! كفاها ما نالته ممن سبقه ليأتي هو وينهي ما تبقى منها، لن يصمت ولن يترك لها هي القرار، بل سيمسك هو بلجام الأمور ويعيدها لنصابها الصحيح.

تمدد إلى جوارها يمسد خصلاتها برتابة حتى فتحت عينيها بجمود أحزنه أكثر، مال نحوها يمسح بإبهامه وجنتيها، يهمس باسمها فانفجرت في البكاء من جديد.. ودون أن ينتزع منها شيئًا فتحت هي قلبها بين يديه تخبره عن كل التفاصيل.

روَّعه ما سمع، ضمها لصدره يربت على كتفها حينًا، يقبل رأسها حينًا، ويمسح دموعها في حين آخر، أنصت لها بصبر حتى انتهت.. وأول ما قاله كان سؤالًا حازمًا:

"وما قلتيلوش ليه وواجهتيه بده كله؟"

رفعت عينيها تنظر إليه بانكسار ممتزج بخوف، فهم الصورة لكنه لم يبتلعها فأردف:

"منى..! أنتِ من إمتى جبانة؟ حتى لو بتحبيه!! بتشكي في حبه ليكِ!! بس واجهيه.. واجهيه بتقصيره وأخطاءه، وقفيه عند حده واعرفي ماله وعاوز إيه؟"

عضت شفتيها في ألم، مالت تلتقط هاتفها، تفتحه وتقلب فيه قليلًا قبل أن تمنحه حرية المشاهدة، وتناله صدمة أخرى، الزوج مدعي العشق.. مجرد خائن آخر، أتقن فنون اللعبة وفاز بجائزته ثم زهدها.

عقد حاجبيه في غضب شديد، هب و اقفًا وتحرك يخرج من الغرفة بصحبة الهاتف، كادت تناديه، لكن فقط ما خرج منها هو همسة ضعيفة وصلت لأذنيه بصعوبة:

"ما تقلش إني حامل يا بابا عشان خاطري"

واستكانت بعدها لضعفٍ ما ألمَّ بها فأغمضت عينيها ثانية تستلم للغياب عن الوعي، ترتاح في غياهب ظلماته عن ظلمات الو اقع المر.

******

تحبه.. هذا أمر مفروغ منه، تثق بحبه!! بالتأكيد، كل هذا الجنون إن لم يدل على حبه فعلام يدل؟ لكنها غاضبة وبشدة، لا تستطيع منع الشعور

بالغضب من تملك عقلها حتى هذه اللحظة، هي لن تحاسبه على ما سبقها، لكن أن ترى ذلك السابق بين يديها فهذا أحزنها، نعم حذرته، شعرت بالرضى عندما محى الصورة، وأنبته.. فقط هناك بقايا عالقة تخنقها.

تطلعت إليها شقيقتها بصمت، مر أسبوع منذ قابلته لآخر مرة، ومن يومها وهي شاردة، يكتنفها حزنٌ ليس من عادتها، حتى مكالماته أصبحت قصيرة مقتضبة.. سألتها بوضوح:

"أنتِ زعلانة مع عمرو؟"

نظرت إليها بشرود، هزت رأسها تنفض عن نفسها ذلك التيه وأجابت بخفوت:

"أيوة"

نالت نظرة متسائلة فأكملت:

"حاجة كده بس مش عاجبني إن الموضوع يعدي ببساطة كأنه عادي وسهل يتكرر"

ابتسمت "نانسي" بتفهم امرأة لأخرى تشبهها، ردت بمكر أنثوي:

"عاوزة تعاقبيه!!"

رفعت عينيها إليها في لهفة، فهزت كتفيها مع إيماءة موافقة من رأسها تستطرد:

"عاقبيه"

تهدل كتفا العنيدة في يأس، تغمغم بإحباط:

"مش عارفة أعاقبه إزاي؟!"

اتسعت ابتسامة الكبرى تخبرها بفهم أكبر:

"أنا مش هاقدر أقولك إزاي!! أنتِ يا منوش ليك شخصيتك وطريقتك اللي أكيد مختلفة عني أنا كنانسي، وممكن أقولك حاجة عمرو ما يتقبلهاش، لكن أنتِ بتجذبيه بكل ما فيك"

ومالت نحوها تطرق جانب رأسها بإصبعها تردف بخبث عابث:

"هنا بس هتلاقي الحل.. اللي ممكن عمرو يقبله ويعديه"

لوت طرف شفتيها بلذاذة تفكر، قبل أن تنتفض فجأة بهتاف مرح:

"وجدتها!!"

ضحكت شقيقتها بمرح مقابل وجلست هي تفكر بعمق، تخطط، وتبتسم بشقاوة، عقابها سيكون مشاكسًا مثلها، وتتحداه أن يعترض.

******

يكاد يصرخ ساخطًا، يلعن اللحظة التي وافقها فيها ومنحها مباركته للأمر، بل ويكاد يضع يده على قلبه في رعب من تلك العنيدة المتهورة التي تجاوره، تتحرك بحماقة واندفاع، دون سيطرة تامة على مجريات الأمور.

هتف بها يحاول جاهدًا منع كارثة:

"منة خلي بالك، أنتِ ماشية بسرعة جدًا"

وتبتسم ببراءة مصطنعة تجيبه بخوف لا يقل عنها اصطناعًا:

"عمرو أنا مش عارفة أعمل إيه!! مش كده صح؟"

وتشير بكلتا يديها تاركة المقود حر الحركة دون سيطرة، يمد يده بسرعة يتحكم به ويكاد يصرخ:

"حد يسيب الدريكسيون يا منة هتجنيني!! ركزي الله يخليكِ"

وتستمع لأمره، تتحرك بعشوائية، تضغط دواسة الوقود وفي اللحظة التالية تنتقل للمكابح فتتقافز السيارة كأرنب مذعور ومعها قلبه بين ضلوعه، والتالي صدمة في حاجز جانبي أسمنتي تهدل لها كتفاه في يأس وهو يتطلع عبر الزجاج الأمامي للمقدمة المأسوف عليها، التفت ينظر نحوها بذهول فمطت شفتيها ببراءة تعتذر بأسف:

"عمرو أنا آسفة بجد"

زم شفتيه يمنع تأنيبًا من الخروج عبرهما، هز كتفيه ورد بعد زفرة مختنقة:

"معلش، حصل خير، تتصلح"

نظرت إليه برمشة خجول هز رأسه لها ولم يعلق، تراجعت بالسيارة مجددًا وهذه المرة كان الارتطام عند الخلفية، شهقت هي له، وضغط هو أسنانه بقوة، وتستدير نحوه وشعور بالذنب مرسوم بوضوح على ملامحها، فيهز رأسه ثانية:

"معلش"

ترنو إليه بتساؤل متوتر يجيبه:

"عربيتي المفضلة!! عارف.. بس هي غلطتي أنا مش غلطتك إني اخترتها عشان أعلمك السو اقة"

ابتسمت تواسيه، تذكر كيف ضغطت عليه، هددته أنها ستطلب من شقيقه المساعدة، ورضخ في النهاية، لتنتقم منه ببراعة تحسد عليها، بضع خبطات قوية نوعًا ما، والجميلة الصغيرة مدللته الأثيرة التي يفتخر بها تصبح مشوهة، وهكذا ينال عقابه.

******

أنهى جلسته في محيطه الشارد كما هو الحال منذ غادرته.. أو غادرها!! ما الفارق؟ المهم أنه غياب، غياب يمنع عنه الأنفاس، يطبق صدره على بعضه ويكاد يحطم ضلوعه، كل ما فيه تغير.. لم يعد هو من كان، لم يعد البطل، لم يعد العاشق، لم يعد السهم صاحب الانتصارات سواء في مضمار سباقه أو في حلبات النساء.

يريد الذهاب إليها ويخشى المواجهة، منذ حادثته أمه قبل يومين وهو يكاد يقتلع روحه من جسده بنفسه علَّه يستريح، بالأمس ذهب لعيادتها، لم تو اته الجرأة للصعود، انتظر و انتظر أسفل المبنى وتفاجأ في النهاية أنه

بحماقته لم يلمح سيارتها في مكانها المعتاد، وجنَّ الليل دون أن يلمح طرفها أو يتسلل إليه أريج عبيرها.

مر بمنزل والدها، بقي أسفله حتى منتصف الليل قيد الانتظار، رهين الحنين، حبيس الاشتياق الذي يهلك ذراته.. يبعثرها، يشتتها، ولا يجمعها من جديد، وفي النهاية غادر دون ارتواء.

لم يرَ منها في أحلامه سوى نظراتها العاتبة الكسيرة، لمعة عينيها المنطفئة وحزنها الغامر الذي أشعل هو فتيله، يريد البكاء ولا يستطيع، كأن صلابة قلبه وصلت حد القسوة.. هل دموع الرجال غالية لتلك الدرجة؟ أهي مهينة؟ أتعني انحدار في مستوى الكرامة والكبرياء؟ تبًّا.. هو فقط يريد أن يبكي فوق صدرها، أن تربت على رأسه وتخبره أنها سامحته، أن تقبل اعتذاره وأن يعود إليها ليحارب شياطينه معها، يقهر وسوساتهم ويصم أذنيه عنها.

كاد يغادر المكان بحالته هذه لولا أن استوقفه طبيبه بلهجة جادة، نظر إليه بتساؤل فأشار إليه بالجلوس، بادره بحزم أبوي لم يخلُ من صرامة:

"أنا مديت البرنامج بتاعك إمتى يا أحمد؟"

أصابه ارتباك حاد، لقد وصلته الأخبار!! أهي من سألت؟ أم تراها لا تهتم!! لم يجد جوابًا والرجل لم ينتظر منه شيئًا بل أردف بنفس اللهجة:

"لما جيت لي في يوم وقلت لي إنك عاوز تكمل مع منى ويمكن يكون في جواز؛ لما كنت محتار ومش فاهم أنت جواك إيه!! يومها و افقتك لأنك زي ابني وأنت عارف.. يهمني سعادتك ومصلحتك، لاحظت إنك متغير.. إنك بتحب بس مش فاهم، لو تفتكر يومها وعدتني، قلت لي أنا مش زيه، مش ممكن أخونها أو أجرحها..."

ورفع رأسه يستطرد بجمود:

"ما كنتش أعرف إنك مش أد وعودك يا أحمد"

فتح فمه يرد بشيء ما لا يعلم ما هو، نعم لقد آذاها ولم يختلف عن سابقه في الكثير، قاطعه الرجل بإشارة حاسمة.. يكمل دون انتظار:

"مش عاوز أسمع منك مبررات، مش أنا اللي المفروض أسمعها ع الأقل.. أنا بس بابلغك رسالة مهمة، مطلوب منك تسمعها وتنفذها لأنك ما كنتش أد مسئوليتها..."

وصمت لثانيتين أو يزيد، يتأمل وجه الجالس أمامه والذي يتسلل إليه الذعر ببطء، عيناه القلقتين والتوتر الذي يغزو ملامحه، يزدرد لعابه كشوكة تخزعنقه ولا تقبل البلع.. أكمل دون تزيين:

"منى طالبة الطلاق.. و أنا وعدتها بالتنفيذ"

(29)

لا مهرب لكِ مني

هل جربت الذبح من قبل؟!

بالطبع لا.. فما دمت تتنفس وتشعر بالنبض فأنت سليم تمامًا، أما هو..

مذبوح، وينزف كطير صغير غادر عالمه الذي لم يدرِ عن وجود عالم أكبر خارجه، فأغرقته أمطار الخوف والرهبة، وفي النهاية هوت عليه سكين اليأس فذبحته، وها هو ينتفض بما تبقى من نبض، يجاهد لالتقاط الأنفاس، ثم يودعها حتى الرمق الأخير.

نعم هي ذبحته، بطلبها الفراق ذبحته، هو أناني ويعلم، طفل كبير يرغب في كامل اهتمامها، دلالها، حبها، لكنها فقط وببساطة.. بكلمة واحدة، ذبحته.

لا.. لم تطعنه، لم تغدر، هو من طعنها..

وكل ما فعلته كان رد فعل، دفاع عن النفس، عن القلب، عن بقايا أنثى كانت له الكمال وكان هو لها مزيدًا من الثقوب تهترئ بها نفسها وروحها.

كيف واتتها القدرة على لفظ كلمة "طلاق"..!! تريد فراق، انتزاع ما بقي له من حياة في جسده المريض، في قلبه الذي يدق لها هي وفقط، تعلم النبض لها هي، يصرخ باسمها هي، ويتنفسها هي!! هذا محض جنون لا تريد أن تختبر نتيجته لو علمت العواقب.

لايزال متجمدًا ساهمًا في مقعده أمام طبيبه الذي توقع رد فعل مشابه، هدوء ما قبل العاصفة لو أجاز لنفسه التوصيف الدقيق، وها هي لحظات الخمود.. ينتظر الحمم في التالية، ويحضر لردود تليق بها، هذا الأحمق سيضيعها من يده بغبائه المعتاد والذي ظن أنه شفي منه.

رفع عينيه إليه بسكون، تغيرت زرقتهما الصافية للون أقرب لسماء ملبدة بالغيوم تنذر بسيل، همس بصرير كأنه يسيطر على غضبه بصعوبة:

"طلاق!! منى عاوزة تتطلق"

مال الطبيب فوق سطح مكتبه يستند إليه بمرفقيه ويشبك أصابعه، يجيب بحسم:

"متوقع منها إيه؟ انتظار لحد ما الدون جوان يحن عليها بعد ما يخلص مغامرته!!"

انعقد حاجباه وزمجر بشر:

"مغامرته؟"

رفع "على" أحد حاجبيه يستفزه أكثر:

"أنت معتقد إن خيانتك هتفضل في الضل؟ إنها مش هتعرف؟"

نفث لهيبًا أو ربما شرارة الاحتراق الأخيرة قبل نزع الفتيل:

"خيااانة!!!"

مال الرجل نحوه أكثر يجيب ببرود:

"إيه سبب بعدك عنها إلا لو خيانة؟ خلاص اللعبة ما بقتش مرغوبة، بتدور على جديد!!"

نهض و اقفًا بعنف يكاد يصرخ:

"لعبة!!!"

نهض "علي" في مقابله يجيب بحزم أبوي صارم:

"حاول تلاقي ردود على كلامي تتضمن أكتر من كلمة يا أحمد، ومنى..! هتطلقها"

لف وجهه ناحيته بصمت لثوان، لا يظهر على ملامحه انفعال محدد سوى عينيه اللامعتين بعذاب وهياج، وفكه المشدود بقسوة.. مال يقترب منه يستند بكفيه إلى سطح المكتب:

"على جثتي.. ودي جملة أهي"

رفع الطبيب رأسه يتأمله، يعلم أنه يدفعه بشدة، لكنه يستحق صفعة إفاقة، عاد للجلوس وأشارله بالمثل، يرد بنفس الصرامة المخيفة:

"منى معاك بتدبل كل يوم عن اللي قبله، ولو على جثتك زي ما بتقول؛ هاحررها منك.. إذا كنت أنت زي ابني؛ فهي تلميذتي اللي وثقت فيَّ، بنت صديقي اللي سألني عنك وإديته الأمان، عشان أنت في النهاية تخلي بنته تموت قدامه في كل لحظة"

وعاد لمرحلة الانتفاض بعد سكين ثالم مرت على وريديه فقطعت منهما النصف، وتركته يتعذب لأمد أطول، ارتمى "أحمد" فوق مقعده مجددًا بذهول، بيأس، بذعروهلع يرسم ملامحه، يهمس باستجداء:

"أنا ما خنتش منى ومستحيل أخونها.. ما أقدرش"

التقط الرجل طرف الخيط يحاول سحبه نحوه:

"أمال ليه بعدت عنها وسيبت البيت؟ وبتكدب عليها كمان؟"

ظهر على وجهه صراع عنيف، كأنه يقاتل شيئًا ما أقوى منه، أعنف من قدرته على الصمود، شيئًا يدمي قلبه ولا يملك القدرة على التصرف حياله.. ثم تبع كل ذلك ظهور نوع من التصميم أخيرًا.. تنازلًا ما يحرقه، لكنه سيفعله لأجلها مع صوته الخافت المصاحب لتلك النظرة المتوسلة من جديد:

"هاقولك"

وليته ما فعل، التعبير على وجه طبيبه تمازج معه شيء من تقزز أجفله، كان يعلم أن هذا ما سيحدث، لن يفهمه أحد، لن يصدقه أو يشعر بالنيران التي تسري في جسده كما الهشيم آخر غيره، أخفض عينيه في صمت بعدما أنهى قصته و أتاه الرد الذي لم يتوقعه:

"كده أدعى إنك تطلقها، مادام بتشك إنها لسه بتحب جوزها رغم إنها اختارتك أنت، حرر نفسك منها وامحي عذابك بإيدك"

ويضغط عليه أكثر بينما يسبه في سره، علا الهياج وجهه ثانية وهذه المرة رد الفعل كان أعنف.. بكثير:

"مستحيل أطلقها، حتى لو طلبته مني بنفسها، بس هي جبانة.. في كل حاجة جبانة، مش قادرة تقف قدامي وتطلبه"

صحح له بقسوة:

"هي مش طايقة تقف قدامك"

انتفض قلبه بنبضة ميتة، كيف تولد نبضة تحييه وتشعره بالموت في ذات الوقت!! تطلع إليه بعينين مذبوحتين، وهمس بلهاث:

"كرهتني؟!"

مال الرجل نحوه بابتسامة ساخرة:

"هي حبتك أصلًا..! على كلامك وكلام القذر طليقها، أنت ما دخلتش قلبها من الأساس"

ومال أكثر يردف بكلمات كطلقات الرصاص:

"إزاي تسمح له يقولك كلام زي ده عن مراتك؟ حب إيه ده يا أحمد اللي أنت فاكر إنك عايشه؟ أنت مش فاهم يعني إيه حب.. يعني إيه تختار انسانة وتوعدها بالسعادة وكل اللي بتشوفه منك جرح وخيانة وهجر!! ليه صممت تتجوزها لما أنت مش واثق في نفسك ولا فيها؟"

كل كلمة كانت تخترق عظامه بصقيع قاتل، تنغرس في قلبه كإبرة مسمومة.. لا تميت لكنها تؤلم بشدة، هو لا يثق بنفسه ولا بها.. يجرحها لكنه لم يخنها أبدًا ولن يفعل.. كل جوارحه ترفض حتى ذكر أحرف الكلمة فما الذي أوحى لها بخيانته!!

نهض واقفًا، يلقي إليه بنظرة تصميم، يعلمه أن نجوم السماء كما يقولون أقرب لها من فراقه ولو قتلها معه.. أناني هو!! ويعود فيؤكد، نعم بالفعل ولا يهتم، هي لن تكون لغيره، ولن يتركها أبدًا.

******

لو أمكنه دهس كل الألم وفقدان الثقة وذلك الشعور المضني بالمشاركة تحت عجلات سيارته الآن لفعل!! ينطلق إليها، هي لم تغادر عيادتها الآن ولو أسرع قليلًا سيلحق بها.

كيف فكرت أنه يخونها!! لكن ألم يفكر هو في خيانتها القلبية؟ العقلية والروحية!! رباه كيف أمكنه هو؟! "مناه" التي نال الشقاء منه ما نال لتصبح له، ويظن فيها ذلك..! يعلم من البداية أنها خطة قذرة، لكنه وبكل حماقة سارعلى خطواتها بتصميم غريب.

في مستهل الأمرزعم أنه لن يفعل، وفي النهاية رضخ لسلطة غروره وتفكيره المريض، نعم هو مريض وبشدة.. كيف يفكر فيها بهذه الطريقة؟ عدد الأسئلة التي تبدأ بـ"كيف" لا نهائية، وهو لا يجد ولو جوابًا واحدًا فقط لأحدها.

سيحارب من جديد، وسيحاربها كما اعتاد، سيعتذر.. وربما لا، بل بالفعل وبالقوة لا، هذه المرة له السلطان عليها، هذه المرة هي له ورغمًا عن إرادتها، ولو قاومت سيحملها ويعود بها لمنزلهما دون أن يهتم لرغبتها من عدمها، وهناك.. سيعتذر، يقبل يديها وربما تحنو عليه دموعه وتخفف عن قلبه بعض الثقل ولو بواحدة ترطب جفافه، ثم يضمها إليه أو تضمه إليها.. المهم أن تكون معه حتى آخر أنفاسه.

خطته بسيطة جدًا وتعتمد على مبدأ حربي شهير ومثلًا شعبيًا أشهر.. "الهجوم خير وسيلة للدفاع" و.. "واجهوهم بالصوت قبل أن يغلبوكم"..

هذا هو قراره، سيصرخ في وجهها، يخيفها على جرأتها في طلب الطلاق، يؤنبها على تركها المنزل دون إذنه، ويأمرها أن تعود، وتعتذر.. وبعدها يقدم هو قربانه الخاص.. قلبه خالصًا وروحه وعقله الذي لا يدري للآن كيف يصدق في خدعة ذلك الحقير!!.

وصل أسفل العقار حيث عيادتها، ترجل من سيارته بهدوء لا يدل على ذلك الإعصار الذي يضربه من أقصى اليمين لأقصى اليسار، رفع نظره ينظر لاسمها على اللوحة أسفل النافذة، عبَّ الهواء داخل صدره حتى امتلأ.. توكل على الله و اتجه للمبنى.

هي حرب صغيرة، هو مذنب باقتدار، وهي له مهما حدث.

******

علاج الألم التناسي، وقتل الذكرى الماضية بحاضر جديد، لن تموت ربما، ولن تحيا بالتأكيد، لكنها ستتحرك للأمام بفعل القصور الذاتي، ظننته سيحادثها بالأمس وهو فقط تجاهلها، حسنًا هذه دليل آخر، ربما لو أظهر بعض الاهتمام؛ لطارت إليه تخبره عن طفله الذي ينمو في أحشائها، وحينها تتمنى أن ترى البهجة والسرور على وجهه.

تبدأ في تلك الأسئلة المعتادة، والعراك على اسم الطفل، يرغبها أنثى تشبهها، وتريد صبيًا يشبهه بزرقة عينيه وغمازته الوحيدة، بخصلاته البنية الداكنة ووسامته التي ستدير رؤوس الفتيات، وتربيتها الخاصة التي ستكسر قلوبهن أيضًا.. فلن يكون فتاها الوسيم مثل أبيه أبدًا.

ابتسمت بحزن تتطلع لنموذج سيارته الذي تحتفظ به في درج مكتبها، لم تأخذه معها لمنزله، يرافقها في غيابه، وكان أول هداياه، تنهدت بحرارة تحاول تبريد تلك النار المشتعلة داخل صدرها.. تشتاقه، تخافه، تهرب منه، تعشقه.. ويدمرها هو، مزيج مذهل لطالما كان هو قدرها في هذه الدنيا، وهذه المرة المزيج.. فيه سم قاتل.

نهضت بهدوء متجهة نحو دورة المياه الصغيرة بمكتبها، لقد غادرت مساعدتها ورغبت هي في البقاء وحدها قليلًا قبل العودة إلى والدها المستاء الغاضب.. والذي من ملامحه تعلم أنه ينوي الشر لكنه فقط لا يخبرها.

غسلت وجهها بالماء البارد، نظرت إليه في المرآة.. باهت شاحب، يقترب من وجه جثة دون حياة، عيناها غائرتان من كثرة البكاء، والهالات السوداء

تطوقهما ككلابة حديدية تربطهما بالأرق وتثبت وجوده.. عادت تتنهد وخرجت.

ما لم تعمل حسابه أن تجده أمامها، يرتكن لمقدمة مكتبها يكتف ساقيه ويعقد ذراعيه حول صدره يتطلع نحوها، يقف بجمود، ينظر إليها بشر، شر مستطير حارق يشعرها أنه سيشعل فيها النيران فقط لو تمادت، تمادت إلى أين بالضبط؟ ماذا الآن..! هل سيقلب الطاولة على رأسها!!.

لم تجد ما تقوله رغم أنفاسها التي أفلتت منها قبل أن تضمها إلى رئتيها، هو أيضًا يبدو أكثر نحولًا، عيناه محمرتان.. ألغضب هذا أم أرق؟ ربما شعرت بالنشوة لو أرقه غيابها، لكن تبلد مشاعرها الغريب يذبحها ويخيفها، سحبت بضع أنفاس تعوض بها السابقات، وتحركت أمامه دون أن تعيره انتباه.. لو يريد شيئًا فلينطق.. والأفضل فليرحل، ليس بها طاقة لجدال أو حتى حديث.

تأملها بصمت وألم.. هو السبب في هيئتها الحزينة الضعيفة هذه!! قبلًا كانت تبدو شرسة وناعمة كقطة.. أما الآن فهي ذابلة تمامًا وعيناها مرهقتان بشدة، جسدها أضعف حتى من لمسة قد تكسر هشاشته بها، ترتدي ثوبًا أبيض اللون ذا نقوش زرقاء ووردية، تعلوه سترة قصيرة من

الجينز الأزرق ووشاحها المشابه له في اللون.. كم بدت رقيقة وهشة!! تحتاج للدعم والحماية!! تسرق أنفاسه كعادتها.. وتثير في نفسه شعورًا بالقهر.. نعم هو مقهور لأنه من أوصلها لهذه الحال.

لم تهتم لوجوده وحقها، لكن من قال أنه سيصمت!! اتجهت خلف مكتبها تمر من مواجهته بسرعة، تابعها بنظراته ترتب أوراقًا وهمية، تعدل من المكان وتساويه، لم تنبس بحرف، ولم يصدر عنه همسة، تبعها بخطوات بطيئة واستشعرت وقوفه خلفها، التفتت إليه تحدجه بعتاب صامت اعتصر قلبه، بادر للهجوم بهمس مشتعل:

"عاوزة تتطلقي يا منى؟.. عشان كنت مضطر أسيب البيت كم يوم!!"

فغرت فاهها بذهول.. "عن أي طلاق يتحدث هذا المجنون!!".. اقترب أكثر فتراجعت للخلف تخشى غضبه الواضح:

"أنت فاكرة أنك ممكن تهربي بعد ما بقيتي ملكي؟ ده كان زمان"

لم تفهم ما يقصده!! هل أخبره والدها بذلك؟ لن تسأله وتقلل من شأنها، لكن هياجه الناري رقص له قلبها الأحمق من جديد.. ويعود العقل فينبهه.. "ربما لم ينته جوعه لدميته بعد!!" وتصمت هي في ألم، ويستمر

هو في اقترابه حتى وجدت الحائط في ظهرها، مد يده يقبض على مرفقها بعنف أرعبها قبل صراخه الحاد:

"عاوزة تسيبيني؟ هاه.. بتحلمي!!"

اقشعر بدنها فجأة فجذبت يدها بقوة تحاول التخلص من قبضته المحكمة تبادله صياحًا بدموع، وأول كلمة يسمع بها صوتها تميته:

"ما تلمسنيش"

والصدمة من نصيبه هذه المرة، تقاومه وترفض قربه..! شعر بالنيران تشتعل أكثر، تتأجج باضطرام يقارب السعير، ثم فُتِحَت أبواب الجحيم فجأة على مصراعيها وهو يقترب بشدة يهمس أمام وجهها بجمود مخيف:

"ما ألمسكيش؟"

و ابتعد فجأة يكمل بنفس الجمود:

"كنت باعمل أكتر من اللمس ولا لحقتِ تنسي؟"

وصرخ بمباغتة بينما يزيح بعضًا من الأوراق والأشياء فوق مكتبها خلفه لتتناثر على الأرض من حوله، يضربه بكفه في ضجيج مزعج صاحب هتافه الذي أخافها:

"ممكن أفكرك هنا على مكتبك لو كنتِ نسيتِ فعلًا!!"

واستدار إليها بعنف انكمشت له، تلتصق بالحائط أكثر وتغمض عينيها بما يشبه الرعب، تعلم جنونه لكنه لن يجبرها صحيح!! وهنا؟ ليس لهذه الدرجة.. وطفلها المسكين الذي لا يعلم عنه شيئًا.. لمَ هو مهتاج هكذا؟ من طلب الطلاق عنها؟ هي لم تفعل.. وتخشى أن تفعل، وربما لن تفعل.. تبًّا له.. هي تحبه وهو أحمق لا يفهم.

نظر إلى ذعرها الجليّ، ألن تصرخ في وجهه؟ تجابهه كما اعتاد؟ هو يهددها فقط.. لمَ تخافه هكذا؟ ما الذي فعله بها وغيرها؟ حولها من المقاتلة العنيدة الهاربة إلى تلك المستكينة أمامه في ضعف؟ أحبها له من فعل؟ عاد يقترب منها.. يقف أمامها، لمح الدمعة المنسابة فوق وجنتيها فشتم نفسه، مد كفه يحدد ملامحها دون أن يلمسها، المسافة بينهما تختلط فيها الأنفاس، أنفاسها المتسارعة بهلع و أنفاسه المحترقة بغضب، مر أمام شفتيها بإصبعه.. أغمض عينيه يعود بذاكرته لأيام كان ينهل من بينهما رحيق الحب، ويهمس إليهما بعشقه الموجع.

ابتعد خطوة وظل يتأملها في صمت، فتحت عينيها بتردد تنظر إليه من خلف غشاوة الدموع التي تمردت على إرادتها وفضحتها أمامه.. ودت لو

صمدت!! عادت "منى" القديمة التي كانت تناطحه بكل كلمة وتغلق عليه الطرق، لكن ذلك الضعف الذي يتمكن منها نحوه يشعرها بالإهانة، يهيل على كرامتها التراب، ويزيدها هوانًا.

تنهد يهز رأسه، عاد يسأل بصرامة أجاد افتعالها:

"سيبتِ البيت ليه من غير إذني؟"

كادت تنشج.. رباه!! قليلًا من التماسك فقط، رفعت رأسها بكبرياء ولم تمد إصبعًا تمسح به وجنتها المبتلة، ردت بصوت دامع رغم محاولاتها غير ذات الفائدة:

"مش عاوزة أقعد لوحدي"

هاجمها ثانية يغلق عليها جميع الطرق:

"وليه ما قلتليش تيجي تقعدي معايا!!"

رفعت عينيها إليه غير مصدقة؟ ماذا!! ولا ألف علامة تعجب تكفي ما قاله، اقترب منها ثانية، يرفض منحها الفرصة لجواب، يضغط على كل حرف يخرج من بين أسنانه المشدودة:

"النهاردة ترجعي بيتنا!! وأنا بكرة هاكون هناك.. آخر مرة يا منى تسيبي البيت، وفكرة الطلاق انسيها.. أنتِ ملكي أنا ولحد آخر نفس"

قلبها ينبض بعنف.. ها هو يحارب من جديد.. يقاتلها هي.. ويريد الفوز بها هي، وعقلها يكاد يشد شعره لو كان يمتلك واحدًا,, يصرخ بغضب وانهيار: "أفيقي يا غبية".. لكنها تاهت في نشوة غريبة أثارها بها تملكه.. لم تستطع الحديث والصدمة لاتزال تسبب لها شللًا مؤقتًا، تحرك مغادرًا ببطء.. وخلف الباب التفت إليها بعينين حزينتين.. يهمس بصوت مكسور:

"قضيتي اتحفظ فيها التحقيق"

الآن.. هذه ضربة غير شريفة تحت الحزام، يشعرها بالذنب وقلة الاهتمام.. لكنها حرب وكل ما فيها مباح فقط حتى يستعيدها، وحينها يعود للعاشق القديم الذي تاه عنه.

أغمضت عينيها بضعف مع نبرته المذبوحة، يخطط لتحميلها الذنب، يلبسها عتابًا يستحق هو أكثر منه.. ورغم ذلك قلبها يتألم لأجله ولا تملك له دواء، أكمل بنبرة متحشرجة أكسبها بعض الحزم:

"هاستناكِ تحت عشان أوصلك"

ونفت بسرعة:

"معايا عربيتي"

نظر إليها بصرامة وحسم فتظاهرت هي الأخرى بالغضب الذي ضاع منها أمام حزنه:

"مش هاسيبها هنا، وكفاية أوامر لحد كده"

استدار إليها بكليته وأوشك على العودة إليها لولا همستها الضعيفة:

"من فضلك يا أحمد.. أنا تعبانة ومش قادرة أجادل"

رق قلبه لها وكاد يجري إليها يضمها لصدره، يريحها فوق نبضاته، ويمتص منها أوجاعها لكنها سترفض بالتأكيد، رد بهدوء:

"ماشي يا منى، تكوني في بيتنا النهاردة و أنا بكرة بعد الشغل هارجع على البيت"

كادت تهتف بسؤال: "ولمَ ليس الآن!!" لكنها صمتت. فهي لن تعود تبعًا لأوامره المطاعة ورغباته المبجلة.. سيادته لو أرادها بحق.. فسيخوض حربًا أخرى من جديد، ويقر لها بكل شيء.

******

رغم حالها الواهن الذي يقبض قلبه عليها لكنها كانت تجلس أمامه في غضب واضح، تهز ساقيها بسرعة ورتابة، وتنظر إليه بعينيها العاتبتين، جاوب سؤالها بحزم لم يستخدمه معها ربما منذ الأزل:

"القرار مش بتاعك لوحدك يا منى، المرة دي أنا اللي هاقف له.. والكبار هما اللي هيتكلموا"

توترت بشدة تدافع بقلب وجل:

"بابا من فضلك.. دي حياتي أنا.. أنا بس الوحيدة اللي من حقي أطلب الطلاق أو أكمل فيها"

هتف بصرامة حادة:

"مش من حقك لوحدك لما يكون جوزك خاين وبيعرف عليك واحدة تانية!!"

طعنتها الكلمة لكنها عادت تدافع بغرابة حتى على نفسها:

"أنا مش متأكدة من الصوردي يا بابا.. ممكن تكون متفبركة!!"

وكلمتها الأخيرة اقترن فيها السؤال بالتقرير.. تراجع في مقعده ينظر إليها بعمق، يسبر أغوارها ويضيق عليها الخناق:

"ولما هي كده!! سيبتِ بيتك ليه. ومش عاوزة تقولي له ع الحمل؟"

تلجلجت.. تدافع عنه وتسيء به الظن، لقد أصبحت مجنونة والفضل له:

"أتأكد يا بابا بس"

اقترب منها هذه المرة يركز على عينيها:

"وهتتأكدي إزاي و أنتِ مش عاوزة تواجهيه!! وتعرفي حتى هو بيبعد عنك ليه!!"

ولم تجد ردًا، الجبن هو سيد الأخلاق.. وهي تتحلى بالكثير منه، لا تريد أن تفقده، تخشى كلا الجوابين.. تخشى الـ"نعم".. والـ"لا".. ففي الأولى ستموت.. وفي الثانية ستغدر بها الظنون.

تنهدت تبحث عن جواب مقنع لكن قاطعها رنين هاتف والدها، أجاب بهدوء ثم انعقد حاجباه بنظرة قلقة نحوها أثارت رعبها قبل أن تعبر أذنيها

بسرعة البرق كلمة.. "حادث".. ثم شهقت بعنف عندما اقترنت باسم زوجها وقاربت على فقدان الوعي.

الرد واضح دون سؤال والجرح مخيف.. والطعنة هذه المرة لن تسامح فيها لو غادر الحياة قبل أن تعترف له بعشقها، همست بحروف متقطعة أثارت شفقته:

"في إيه يا بابا؟"

بلل شفتيه بتردد، كادت تنحني عند قدميه وقتها قبل أن يجيبها بقلق:

"أحمد عمل حادثة بالعربية!!"

و انتفض قلبها ثم سقط صريعًا في اللحظة التالية بينما يردف بتركيز:

"بس هوكويس، حاجات بسيطة، في البيت دلوقتِ"

انتفضت و اقفة بسرعة، تجذب حقيبتها وتحمد الله أنها لم تغير ملابسها بعد، تركض نحو باب المنزل ووالدها خلفها يمنعها بهتاف جاد:

"منى.. حددي هدفك أنتِ رايحة له ليه؟"

التفتت إليه بحيرة، فأكمل بجدية أكبر:

"لازم تحطي النقط على الحروف، تصارحيه، وتعرفيه بحملك.. يا إما تطمني عليه بالتليفون ونخرج بالمعروف أحسن"

وكادت تفقد وعيها مع كلمات والدها الحادة، منذ متى كان قاسيًا إلى هذه الدرجة؟ اقترب يربت على كتفها بتفهم لنظراتها المستجدية:

"صارحيه يا منى، ما تعلقيش نفسك بيه أكتر وأنت شاكة إنه بيخونك، حطي النقط على الحروف"

وشدد ثانية على كلماته الأخيرة، دمعت عيناها وأومأت بصمت، عادت تركض إليه، ستسامحه على كل شيء.. شرط أن يكون بخير.

ما إن خرجت حتى أجرى والدها اتصالًا سريعًا:

"أيوة يا علي... الخطة ماشية تمام... راح لها العيادة زي ما توقعنا وهي دلوقتِ في طريقها له.. ادعي لها.. أنا صدقتك لما قلتِ لي أحمد مش ممكن يخونها، بس لو ثبتت عليه الخيانة بجد؛ أنا فعلًا هاطلقها منه... الباقي بقى على عمرو ومدام كريمة... ماشي مع السلامة"

وأنهى المكالمة بابتسامة تمني.. يرجو لها السعادة وراحة البال والقلب، ويدعو أن تكون خطته في صالحها لا العكس.. طفلته التي عانت الكثير ولاتزال تعاني.

******

مذاق النصر فريد ومميز، يعطي طاقة لا نهائية ويجدد الحياة في خلاياه، نعم.. أفقدها سعادتها المؤقتة تلك الحمقاء التي رفضته، ولأجل من!! رجل عرف نساءً بعدد شعر رأسه وفي النهاية تتهمه هو بالخيانة والغدر وترحل لمن صدق كلماته عنها في ثوان.

يبدو أنه لم يحبها منذ البداية أو ربما لا يثق في حبها هي له، مسكين أو هي المسكينة لا يهم، ما يهم أنه انتصر، وكسرها للمرة الثانية.

لقد أعاد طفله للمنزل منذ دقائق.. الصغير المستفز طوال الوقت يتحدث عن زوج والدته بفخر كأنه بطل حقيقي أو نجم غادر السماء وتكرم على بنو البشر بوجوده اللامع، لم يكمل اليوم معه كما وعده فقد سمع ما يكفي، أوصله لمنزل والدها واتجه لزوجته المصون التي تحمل طفلًا هي الأخرى.

ما بال هؤلاء النسوة..! لا تكاد الواحدة منهن ترتبط برجل إلا وترغب في سلسلته.. وبأطفال كثركأنه لن يهرب حينها.. حمقاوات لا أكثر.

فتح الباب بهدوء، يريد معرفة آخر ما تفتق عنه ذهنها العبقري بعدما أمرها بالتخلص من الجنين و ابتعد عنها لأيام!! أغلقه خلفه وما إن خطا خطوتين أو ثلاث حتى كاد يتعثر في سترة رجالية أنيقة ليست له، انحنى يلتقطها يشتم عطرها الفج، عقد حاجبيه وتحرك أكثرللداخل وكل بضع خطوات تدوس قدماه فوق قطعة أخرى.. ذاك قميص، وقبله ربطة عنق، و... بنطال، ما هذا..!!

أمام باب غرفة النوم وجد ما يخصها هي، غلالة حريرية قصيرة بلون النبيذ ملقاة بإهمال ورعونة، كأن من خلعها افتقد الصبر لآخر قطرة، وقف خلف الباب ينصت بسكون ولم يكن يتخيل أن يصله ما وصل.

زوجته تخونه..! أحدهم معها بالداخل والأصوات تثير غثيانه، مد يده يريد اقتحام المكان لولا أن سمع جملة من وسط أنفاس عالية:

"قلت لك مش هيعترف بيه، بس أنتِ ما صدقتيش"

وردها بعث في جسده قشعريرة بنبرتها التي لمس فيها الغضب:

"دي غلطتي فعلًا.. صدقته في الأول ورجعت لما حملت قلت هيحب ابنه، بس إزاي وهو باع مراته الأولانية بسبب ابنها!! أنا غبية"

والنبرة متقطعة لكن الكلمات واضحة كحد السيف:

"أنتِ متأكدة إنه ابنه؟ مش يمكن ابني!! عرفتِ إزاي؟"

سمع تأوهها فكاد يتقيأ أمام الباب، صوت أنفاسها الذي أخذ في الهدوء بينما تجيب:

"أنا حامل في أول الشهر التاني، أنت كنت مسافر بقى لك شهرين"

وكان هذا أكثر بكثير مما يحتاج، أدار مقبض الباب وفتحه ببرود، دلف للغرفة تصاحب خطوته شهقة أنثوية بينما يلقي بعينيه تجاه فراش لطالما ضمهما معًا، نظر إليهما دون تعبير محدد، تجذب الشرشف تستر به عريها والآخر يختفي خلفها ينظر إليه بتوتر.. هتفت ترجوه بتوسل ذليل:

"سامح..!!"

لكن ماذا تقول؟! اقترب ببرود أكبر وتتراجع هي حتى التصقت بالرجل خلفها فأسندها بيده، ألقى نظرة سريعة نحو تلك اليد، ثم رفع عينيه

إليها، جثا على ركبته فوق الفراش ينحني نحوها أكثر، بصق في وجهها بعنجهية مع رجفتها العنيفة ونظراتها المذعورة:

"أنتِ متأكدة إنه ابني فعلًا يا مدام؟"

وألقى بنظرة متقززة نحو الفراش المبعثر تجمدت لها قبل أن يبتعد و اقفًا:

"ابنك عندك.. عاوزة تحتفظي بيه براحتك، بس الورقتين اللي بينا، بليهم وحطي عليهم معلقتين سكر عشان المرارة واشربي مايتهم على الريق، هينفعوا البيبي"

و ابتعد أكثر و أكثر يكمل بحقارة:

"أنتِ طالق"

تجمدت مكانها، حتى أنفاسها انحبست داخل صدرها والذي يجاورها يضمها إليه ويلقي نظرة قاتمة نحو الباب الذي خرج منه ذاك المتعجرف، بينما الآخر يغادر وصدره يحترق.. لقد أتته هو الطعنة هذه المرة ومن امرأة حقيرة منحها اسمه.. ولو على ورقة بيضاء.

******

هي لم تعد هي، عادت تلك الصغيرة التي تذوب بهمسة حب، تتعلق بأهداب الأمل وتتيه في دنيا الغرام، تخشى على الحبيب وتخشاه، فقدت قدرتها التي اكتسبتها بمرارة الغدر.. تلك القدرة الشرسة في الدفاع عن نفسها وصد هجوم العشق على القلب.

لكن مع زوجها.. الوقح المغرور، سقطت كل الحواجز فجأة ودون أن تأخذ في حسبانها أنها تضعف من جديد، لم تتصور أن تقف أمامه باكية خانعة تنتظر أوامره.. تحزن لحزنه، وتخضع له برضوخ أنثى عاشقة!! لم تفكر أن تعود لدائرة الانتظار مجددًا وتتلبسها تلك الأنثى التي تهتم لمعشوقها وفقط.. أنثى غادرتها منذ زمن، وجلبها هو ما إن نطق بكلمة حب.

الجنون يكاد يفقدها تركيزها أثناء قيادتها الرعناء، هو مصاب الآن.. حتى وإن كان بمنزله لكنه حادث.. "يا الله احفظه، يا رب اجعله بخير، لأجلي وأجل طفله الذي لم يعلم بوجوده بعد".

طرقت الباب الضخم بعنف، ما إن فُتِح حتى اندفعت عبره كعاصفة صغيرة تهتف بالواقف أمامها في جزع ودمعة ما تتسلل عبر جفنيها:

"عمرو.. أحمد فين؟ هو كويس؟ طمني من فضلك"

كاد يتلقفها عندما شعر بها على وشك السقوط، نبض قلبه بحزن وهو يرى وجهها وتلك الدمعة الخبيثة التي خادعتها بالظهور.. جاوبها برقة:

"ما تقلقيش يا منى، هو كويس"

تطلعت إليه وصوتها به بحة ضياع:

"بجد!! عاوزة أشوفه"

أتت والدته من خلفه مرحبة بحنان:

"منى حبيبتي.. تعالي، أحمد فوق في أوضته"

ارتمت فوق صدرها تكاد تنتحب، تتساءل بعد ابتعاد وتدقيق في عيني الأم تستقي منهما الجواب.. تشك في خداع وأن الأمر أكبر مما يبدو:

"هو عامل إيه؟ إيه اللي حصل؟"

وقاطع الأم جواب الشقيق من خلفها:

"اطلعي له يا منى واطمني بنفسك"

بدت تائهة وهي تلتفت إليه، تهز رأسها في إيماءة موافقة صامتة والدمعة تنساب هذه المرة بسرعة على وجنتها، ثم تحركت في خطوات أقرب للركض تتجه إليه، همس "عمرو" لوالدته:

"عاجبك ابنك واللي عامله في مراته؟ والله مجنون وهي خسارة فيه"

وكزته في كتفه:

"إحنا عملنا اللي علينا، ياريت بس يتصرف هو صح المرة دي، وما لكش دعوة بمرات أخوك بدل ما أقول لمنة وهي تتصرف معاك"

ضحك بمرح يرفع كفيه أمام وجهه:

"لا يا كرملة أبوس إيدك، أنا قلت إيه بس!!"

عادت تعقد حاجبيها تتظاهر بالجدية:

"على فكرة اتصلت بيك من شوية وبتقولك موبايلك مقفول ليه؟ عاوزاك تكلمها عشان تتفقوا على ميعاد الدرس التاني"

تراجع بسرعة يهرب نحو غرفته مشاكسًا:

"لو اتصلت تاني..! قولي لها إني هاجرت سيبيريا"

ضحكت الأم هي الأخرى وتطلعت للأعلى بأمل، تسب ولدها وتدعو له، وقلبها يحن للمسكينة العاشقة ويلعن غباء العاشق المغرور.

******

وقفت أمام باب غرفته، تتردد، تقلق، وتشعر برهبة.. لقد كان معها منذ بضع ساعات، وها هو الآن كاد يضيع منها، هي لن تتحمل فقدانه، ليس بهذه الطريقة، ستواجهه أولًا، تخبره عن ثمرة عشق مجنون ولد ونما بينهما، وعن خيانة هي له اتهام، وستصدق.. أيًا كان ما سيجيب به فستصدق، وتتفهم، وتظل بجانبه هذه المرة حتى لو حاول هو الهروب من جديد.

طرقت الباب بتتابع سريع، سمعت صوته الحبيب يطلب لحظة.. هذا الأحمق!! ألا يعلم ما تعنيه تلك اللحظة لها؟ هي أطول من دهر حين ترتجي اطمئنانًا عليه، فتح الباب ليتفاجأ بوجودها، تطلع إليها بدهشة وتأملته هي بلهفة.. تصعد من قدميه إلى شعره الداكن بتركيز، اندفعت نحوه تتحسس ملامحه المشدوهة بتوق، وهمست من بين أسنان تصطك بجليد الخوف:

"أنت كويس؟"

وعادت تطوف بعينيها فوق جسده كأنها تبحث عن جرح ما تتأكد من سلامته، لم يفهم ما بها!! لكن وجودها أمامه في هذه الحظة وكأنما تجسدت من أحلامه التي تدور في فلكها ارتفع بقلبه نحو الشمس.. جذبها إليه فجأة وأغلق الباب خلفها مع أسئلتها الملتاعة:

"كده ما تقوليش؟ حصل إيه؟ طمني.. قولي الحادثة إزاي؟ أنت كويس بجد؟"

وازداد ذهوله.. عن أي حادث تهذي هي؟ ثم استنار فجأة..! إذًا هذه هي الخطة منذ البداية؟! كاد يضحك لكنه أراد طمأنتها أولًا، ضمها لصدره يربت على كتفها بحنو ويهمس لها:

"أنا كويس ما تقلقيش، بسيطة"

تراجعت تبتعد عنه، أمسكت بيده تجره خلفها وتهتف من جديد بلهفة لا تنتهي:

"طيب أنت و اقف ليه؟ تعالى ادخل السرير وارتاح"

دفعته فوق الفراش ودثرته بعناية واهتمام، جلست إلى جواره تنظر إليه ثانية بدقة أكبر، تكذبه وتبحث عن ألم ما في الواضح من جسده بينما

يتأملها هو بحب.. هو الحماقة مجسدة و انتهى الأمر، وعشقها هو حياته وكفى.

غاصت بأناملها في خصلاته، تتخللها برتابة وتهمس بقلق:

"في حاجة بتوجعك؟"

ابتسم.. يكاد قلبه يتضخم داخل صدره حتى فاض بهواها، رد بهمسة حانية:

"بعدك عني بيوجعني"

أجفلت تنظر إليه دون فهم.. اعتدل في جلسته دون أن يمنحها الفرصة لتفند قوله، هو مخطئ ويعلم وسيعترف على الفور:

"عارف إني غلطان، عاوزك تسامحيني وتديني فرصة تانية، أنا اللي بعدت الأول بس لما لقيتك بتبعدي قصادي حسيت إني باموت"

رمت نفسها فوق صدره تهتف بنبرة دامعة:

"بعد الشر.. ما تقولش كده، الكلمة دي بتوجعني أنا"

احتواها بعمق يستند بذقنه إلى رأسها، يتشمم عبيرها ويحبسه داخله لثوان، يزفره ببطء ويغمض عينيه بنشوة وجودها هنا.. معه والآن، رفعت رأسها تنظر إليه وخرجت الهمسة من بين شفتيها بشكل مفاجئ لها وله:

"بحبك.. ما تبعدش عني تاني"

اتسعت عيناه وكاد يلتهمها بنظراته، همس لها ووجيب قلبه يرتفع ويرتفع:

"دي أول مرة أسمعك تقوليها من يوم ما اتجوزنا تقريبًا"

تراجعت لمسافة قصيرة بدهشة:

"بجد؟"

أومأ بنعم وابتسم:

"آخر مرة كنت طلبتها منك وكنا بنتكلم على الواتس، وبرده طلعتِ روحي على ما قلتيها"

شعرت بالخجل من نفسها، فهو كان يغرقها في عشقه قولًا وفعلًا قبل الهجر الأخير، ونسيت هي أو تناست أنها تبخل بكلمة ينتظرها كل عاشق من معشوقته، ولو كل حين.

ابتعدت عنه تنظر إليه بتوتر، تأملها في صمت، تقضم شفتيها وهذا معناه أنها تتردد بخصوص أمر ما تريد الحديث بشأنه، أمسك بكفها واعتدل أكثر يحثها برفق:

"قولي اللي عاوزة تقوليه، حتى لو هتشتميني"

وضحكت بحزن، أخرجت هاتفها، فتحت الصور وناولته إياه دون كلام، التقطه منها بتساؤل، لكن الجواب أمام ناظريه ألجمه خاصة بعدما فتحت له الرسائل المسمومة التي كانت تقتلها كل يوم، رفع عينيه إليها بألم أكثر منه صدمة:

"أنتِ مصدقة الكلام ده؟"

هزت رأسها نافية وردت بخفوت:

"لو كنت مصدقاه ما كنتش هابقى هنا دلوقتِ"

سألها باهتمام صارم:

"الرسايل دي بتجيلك من إمتى؟"

أجابته بخنوع:

"من حوالي شهر"

تجول في الهاتف قليلًا يبحث عن رقم المرسل.. وللوقاحة كانت ترسل من رقمها الخاص الذي يعرفه حق المعرفة، رفع عينيه إليها بسؤال مهتم ومتهم:

"ليه ما قلتيش من أول مرة؟"

لم تجد ما ترد به، ووجه لنفسه السؤال ذاته، كم هما أحمقان!! يتباعدان وكل منهما يبني بيت الرعب الخاص به نحو الآخر، أمسك بكفها بين أصابعه، يلثمها بقبلة دافئة ويهمس لها:

"أنا آسف على كل حاجة، كل دمعة وكل لحظة حزن، على الإرهاق اللي شايفه على ملامحك والتعب اللي سببتهولك..."

و ابتسم يتأملها بوقاحته المعتادة يكسر جمود الموقف:

"وعلى الكام كيلو اللي ضاعوا بسببي"

وكزته في كتفه، تعانده وقلبها ينتفض فرحًا:

"مش بسببك على فكرة"

نظر في عينيها بسكون، يشبع من نهر العسل الرائق والذي عاد يلتمع هناك، نبرته هذه المرة خافتة مؤكدة حانية وعاشقة:

"أنا مستحيل أخونك يا منى، لو هاموت.. فاهمة!! مستحيل"

ابتسمت وعندما حاولت الرد أسكتها بإصبعه فوق شفتيها بينما يردف:

"حتى لو حاولت، كل حاجة فيَّ هترفض، لا عيوني ولا عقلي ولا قلبي يقبلوا يقربوا من حد غيرك"

وصمت لثوان، يبحث عن مبررٍ مناسبٍ لتباعده في الفترة الماضية:

"أنا ما كنتش عارف مالي..! بس كان المفروض أفضل جنبك، مش أهرب بعيد، يمكن الحياة الجديدة، المسئولية وضغط الشغل!! بس ده كله ما يعوضش لحظة بعدت فيها عنك ولا دمعة نزلت من عيونك بسببي.. سامحيني"

ونعم.. لن يخبرها، بحق الله كيف يخبرها أنه بغباء منقطع النظير كان يظنها لاتزال باقية على عهد العشق مع زوجها السابق وهي تكاد تموت أمامه لهفة عليه؟! وتذبل حزنًا على فراقه!! الحماقة لا دين لها بالفعل، عقد حاجبيه بتصميم وهو ينهض من الفراش:

"هاروح مشوارسريع وراجع، مش هاتأخر، إوعي تمشي.. استنيني هنا"

نهضت خلفه تتساءل بلهفة وقلق:

"تروح فين؟ أحمد المفروض ترتاح"

أمسك بكتفيها يغوص بين جفنيها ويكاد يغرق:

"حاجة مهمة لازم أنتهي منها.. واثقة فيَّ؟!"

أومأت برأسها كمأخوذة بينما تغرق هي الأخرى في سمائه الداكنة، ابتسم فشتت نظراتها بين وجنته الغائرة بغمازته وعينيه الولهتين، انحنى يزين جبينها بقبلة دافئة وغادرعاقدًا العزم والغضب.. على إنهاء الأمربالفعل، وبالقوة لو لزمه ذلك.

(30)

وانتهى السباق

وإن سألوك عن العاشقين يا بني؛ فقل: أنهم حفنة من المجانين، تلاعبهم المشاعر كحجر فوق رقعة شطرنج.. يلهو بهم الحب، ويحركهم الخوف بجموح، والصبر هو مفتاح القرب كما الأمل نبض الحياة.

ولكل عاشق.. عشقه موت يعادل لذة انتفاضة البعث، دموعه وإن كانت لألم تزيد من ولهه بالمعشوق، وتبالغ من إدمانه وسريانه في دمائه، يسكن الشر ايين ويتربع على عرش الفؤاد.

ثم الأقوى والأعنف والأكثر إثارة للرعب والفزع.. فكرة فراق لم تكن مستعدًا له، ومنذ متى يتحضر الحبيب لفراق حبيبه!! بل منذ متى يبدأ اللقاء وهناك ظن بنهاية له!! فكأن وجوده مسلم به للأبد ودفء حضوره عادة صباحية تفتح عليها عيناك بدلًا من الشروق.. فيصبح هو شمسك.. تغيب معك وتشرق لك وتحيا ببهجة نورها.

وفي تلك اللحظات.. عندما يتداخل مع صورتك الوردية المرسومة بعناية نقاط سوداء، مزعومة ومكذوبة؛ فإنك بين حالين؛ ذعر لدرجة الشلل، وغضب لدرجة الجنون.. وهو المسكين تأرجح بينهما، عندما لفظ طبيبه كلمة "طلاق".. فكان كأنما فتح له القبر وحضر الكفن وأخبره أنه سيدفن حيًا، وعندما عادت هي له بخوفها وحبها ورقتها وحنانها الذي يعلق قلبه بها أكثر، وعلم بالخطة الحقيرة التي استغلت فيها أنثى العنكبوت صورها القديمة معه لتفرق بينهما؛ تحول الخوف لنيران.. تأججت واشتعلت وتعالت ألسنة اللهب حتى أقسم أن تحرقها.

نصف ساعة من القيادة السريعة المتهورة لم تهدئ أعصابه ولو مقدار ذرة، لا يريد مقابلتها على هذه الحال لأنه سيؤذيها حتمًا، لكنها من جنت على نفسها وحان وقت جني ثمار فعلتها، وكما دخلت منطقة الخطر التي تخصه فعليها تحمل العو اقب أيًا كانت.

توقف أسفل المبنى الذي يضم مسكنها، الجميلة ترسم الخطط للتفريق بينه وبين زوجته، تريده لنفسها وعلى الرغم من ذلك تنصب شباكها حول منتج فيلمها الجديد، كأنها تتخذ احتياطاتها في حالة الفشل..! حسنًا لنرى أين سنصل من هذه النقطة؟.

عندما أطلق رنين الجرس وفتحت هي له؛ تجمدت في مكانها للحظة، تأملته بلهفة كأنه سيرتمي في أحضانها بعدما عرف قيمتها، ثم تراجعت خطوة بدلال تهمس باسمه وتتغنج بحروفه:

"أحمد..! اتفضل"

التوى جانب شفتيه بابتسامة باردة يستجيب لدعوتها، أغلق الباب خلفه وتلفت حوله باهتمام يبحث عن صحبة، اقتربت منه تمط شفتيها المطليتين بلونها النحاسي المفضل:

"ما فيش حد غيري"

توقف عن التدقيق فيما حوله ليلقي بعينيه نحوها، يتأملها في قميصها الحريري بحمالتيه الرفيعتين وبنطالها القصير الذي يرتفع فوق ركبتيها بقليل، شعرها الناري ينساب حول كتفيها بثورة حمراء، وعينيها تلتمعان بنظرة تملك ونشوة انتصار، بادلها اقترابًا باقتراب، وانحنى يهمس في أذنها ينفث أنفاسه المشتعلة قرب عنقها:

"حلو قوي"

انتقل الشعور بالنصر لابتسامة رسمتها على شفتيها بينما ترفع كفيها فوق كتفيه، تنظر في عمق عينيه وتتساءل بنبرة مغوية:

"وحشتك؟"

عاد ذلك الالتواء الماكر إلى شفتيه بابتسامة خبيثة، مد يديه يمسك بكفيها يبعدهما عن كتفيه وينحني نحوها مجددًا فشعرت أنها على وشك نيل قبلة:

"ما تتخيليش أد إيه!!"

ثم ابتعد وتركها محبطة، يدور في المكان، يتأمله بلامبالاة وتتأمله هي بشغف، حتى استقرت عيناه عليها ثانية، دنا منها ومد يده في جيبه يخرج هاتف زوجته، تطلعت إليه بدهشة ، وجهه نحوها مع خطوة أشعرتها أنه ينقض عليها بقسوة فتراجعت بشهقة قبل أن تنظر للشاشة الموجهة مباشرة تجاه عينيها، لم ينطق وترك لقلبها الذي سقط بين قدميها إدارة الحديث، نبتت حبات من عرق فوق جبينها تسأل باصطناع غباء:

"إيه ده؟ إيه جاب الصوردي على موبايلك!!"

مط شفتيه بعينين جامدتين:

"ده مش موبايلي"

كررت بنفس النبرة المتغابية:

"أمال موبايل مين؟"

ونالت ابتسامة باردة ونظرة سامة يمكنها أن تقتل لو أتيح لها، ثم أتاها الجواب بنبرة كالصقيع:

"مراتي"

ممثلة بارعة في بعض الأحيان لا ينكر، خاصة مع تلك الشهقة المصدومة التي خرجت من حلقها، اتساع عينيها المذهول ولهجتها القلقة:

"بجد!! وعلمت إيه المسكينة؟"

هز كتفيه بعنجهية:

"ما صدقتش طبعًا"

زمت شفتيها، هو يتبجح إذًا..! تحركت أمامه ببطء، تجلس على أريكة واسعة وترفع إحدى ساقيها فوق الأخرى، تسأله بسخرية هازئة:

"ليه!! مش عارفة سمعتك؟ ولا عامل لها سحر!!"

وهنا انقضت مدة البرود المفتعل وسيترك لغول الغضب دفة الحوار، انقض عليها بالفعل فكادت تقفز صارخة، انحنى يضع يده على مسند الأريكة المجاور لها والثانية تمسك بذقنها تضغطها بعنف حتى كاد فكها ينكسر:

"ده تحذير أول وأخير ووحيد يا سهر، ابعدي عن مراتي، الدنيا كلها في كفة وهي في كفة، لحظة حزن بعمرك كله المرة اللي جاية وعليَّ وعلى أعدائي"

لم تستطع نطق حرف وهي تنظر إلى عينيه اللامعتين بجنون في رعب، أردف بخشونة وهو يضغط فكها في عنف أكبر:

"بنك الفلوس بتاعك وتليفون واحد، يعرف عن علاقة الفنانة الصاعدة اللي هيتجنن عليها بالدوبلير بتاع أفلامها، تسريب صغير للصحافة... وبووم، باي باي عالم السينما وباي باي للبنك المتحرك"

دمعت عيناها ألمًا وقهرًا فهمس من بين أسنانه كأنه يجابه قوى شريرة تدفعه نحو خنقها دون ذرة شفقة:

"مفهوم يا.. فنانة؟"

كلمته الأخيرة هازئة بشدة، ودمعتها الوحيدة تنساب بينما ينفضها بعيدًا عنه كشيء ملوث، همست بألم لم يعلم مدى و اقعيته:

"للدرجة دي بتحبها؟"

منحها نظرة قاتلة يخبرها بها أنها لم تنل تصريحًا للحديث عن زوجته، استطردت بعدها بنبرة أسبغت عليها لامبالاة لا تمتلكها:

"خليها تشبع بيك، أنت أعمى وغبي.. و أنا مش بحب الأغبيا"

عقد حاجبيه ولم يفهم، عاد ينحني نحوها ببطء فتراجعت للخلف بنظرة قلقة، سأل بخفوت بارد:

"قصدك إيه بأعمى وغبي؟ انطقي"

هزت كتفيها باستعلاء تداري به رعبها:

"الكل ملاحظ نظراتك ليَّ يا أحمد، مش فاهمة أنت بتنكرليه!!"

زوى ما بين حاجبيه، كاد يسخر لكنه يرغب في المزيد، فأكمل بجدية:

"الكل!! زي مين مثلًا؟"

نظرت إليه بتردد، فابتعد يريحها بشيء من الأمان حتى يحصل على جوابه، تنحنحت تعانده:

"ما بقتش تفرق"

هو يفهمها جيدًا، ولذلك سيتعامل معها بالطريقة الأصلح، فمثلها ككل أنثى لن يمتنع لسانها عن ذكر ما يرغب فقط لو تجاهلها، رمقها بنظرة محذرة أخيرة والتفت يغادر المكان ببطء يمنحها فرصة النداء، وكما توقع قرب الباب هتفت في مزيج من الحدة والغيظ:

"سامح طليق مراتك، القبطان الوسيم، كان يا حرام صعبان عليه الطريقة اللي بتبص لي بيها وقلقان عليها، لدرجة إنه شك إن في بيننا حاجة!!"

توقف كأنما تلقى لكمة في معدته، هذا هو الأمر إذًا!! الحقير لم يكتفِ ببث سمومه داخل عقله وحده، بل تجاوزها لأفعى غبية تظن أنها تسير وفق هواها في حين سيرها هو بكلمة، استدار يلقي إليها بنظرة جمدتها ثم رفع إصبعه محذرًا بصرامة:

"أنا قلت كل اللي عندي، مستقبلك ممكن يتمحي بخبر صغير قوي، فخلي بالك"

فتح الباب وغادر يغلقه خلفه بعنف كأنما يرغب في تحطيمه، ما الذي عليه فعله الآن!! هل يذهب ويبحث عن ذلك القذر، يقتله ويريح الدنيا من قذارته!! جلس في سيارته يزفر بغضب، تتلاحق أنفاسه ساخنة سريعة، اللعنة على كل شيء وعليه هو أولًا.. كيف سيكفر عما اقترفه في حقها وهي في كل لحظة تلقي بنفسها بين ذراعيه عاشقة..! بينما هو يتلبسه شبح الغباء وجنون الغيرة.. واللعنة هو فقط يعشقها وكفى.

اتخذ طريق العودة، بحنين وشوق، بلهفة وقلبه ينتفض طلبًا للصفح، أتراها سامحته حقًا؟ أم أن قلقها ما إن يزول حتى تعاقبه على ما فعل؟ هو لا يمانع عقابها شريطة أن تكون معه.. يمكنها قتله، تعذيبه، وذبحه وكل شيء.. فقط وهي في دفء أحضانه.

******

لطالما ظننت أن هناك علاقة طردية بين الحب والألم عند المرأة.. قالوا أنها حقيقة علمية أثبتتها عملية الولادة.. فعندما تتوجع الأنثى تزداد عشقًا، و أثبتتها هي عندما هجرها ورمت بنفسها بين يديه في كل مرة، تلك

الفكرة الصغيرة التي وسوس بها لها قلبها أنه تأذى، سيذهب، وربما يغادر الحياة كلها رغم تأكيد من حولها أنه بخير أصابتها بهوس، كلا لن تفقده بهذه الطريقة أبدًا.

كل ما استطاعت فعله هو أن تذهب إليه، تطمئن، تملأ عينيها بملامحه وتتأكد من خلوها حتى من الخدوش، يا لها من ضعيفة!! تعلقت به حتى أصبح فر اقه يحتاج لإحدى مصحات العلاج من الإدمان.

بعدما غادر هبطت للطابق الأرضي من المنزل وجالست والدته لبعض الوقت، كانت المرأة تنظر إليها بحنان غريب تفتقده بشدة، تمنت لو صارحتها بكل ما يؤرقها.. لكنها لن تشتكي لها من ابنها، تشرد في الأيام الماضية، أكثر من شهر تباعد عنها فيه ليختمه بعشرة أيام خارج بيتهما، تفكر كم حزنت وتألمت..! كم بكت حتى جفت مآقيها..! وكم خافت وفكرت أنه نبذها بعدما أصابه الملل..! أنها لم تكن كافية له أو حتى لسابقه..! وكم تمنت لو يقترب خطوة فتقترب هي ما بقي من مسافة..! فقط يُطَمئِن قلبها أنه باقٍ على العهد.

تظن أنها حمقاء تهون من نفسها أمامه، فالمرة الأولى هي الأساس الذي ستبنى عليه علاقتهما فيما بعد، ولو تساهلت ستبخس من قيمة غضبها وحزنها.. بل وحبها.

لا تدري أضعفها راجع لعشقها له فقط..! أم اختلط به خوف من ذكرى الماضي الذي لا تريد تكراره..! الغوص فيه من جديد ومعاناة توابعه التي لا تنتهي..! لطالما ظنت أنها قوية صلبة، والضربة السابقة والتي لم تمتها أكسبتها القوة والقدرة على المواجهة والصمود.. لكن مع أول بادرة فَقْد في معركة عشقها تهاوت الحصون وسلمت دون قيد أو شرط.

أصرت والدته عليها أن تصعد لغرفته وترتاح، لقد تأخر، أكثر من ساعتين ولم يعد بعد والوقت قارب الحادية عشرة مساءً، هاتفت والدها تخبره عن بقائها معه الليلة وأوصته بالصغير، تجولت في الغرفة التي دخلتها مرة واحدة من قبل من باب الفضول.

أمسكت بزجاجة عطر وعندما قربتها من أنفها كادت تتقيأ، أبعدتها بسرعة تحاول التماسك، تردد لنفسها: "تبًا هذا كان عطرها المفضل!!" جنون الهرمونات بدأ وسيتلبسها شيطانه.. ابتسمت بخبث، فربما للأمر عدة فوائد قررت معاقبته بها، فقط عندما يعود وتخبره عن طفله، لا

تدري كيف ستفعل!! ولا ما هو رد فعله المتوقع!! لكنها تتمنى أن تلمح السعادة في عينيه.

اتجهت للفراش، انكمشت فوقه تضم وسادته وهذه المرة حمدت الله أن عطره العالق بها مختلف عن الآخر، بحثت عن هاتفها تريد الاتصال به لكنها لم تجده، لقد أخذه معه..! ترى هل ذهب إليها؟ هل سيصرخ في وجهها؟ يا إلهي ماذا لو أذاها!! انتفضت جالسة تفكر بقلق وتبتهل لله أن يتعقل رغم كل شيء.

دارت عيناها في المكان بتوتر، عادت تستند لظهر الفراش وتفكر، الآن وبعد كل ما حدث لاتزال تذوب لمجرد ذكر اسمه، تصاب بالهلع خوفًا عليه، ربما لم يحدث الكثير.. نعم تباعده أحزنها وأوجع قلبها ونحل له جسدها، لكنها تعلم بيقين داخل قلبها أنه يعشقها، بطريقته الخاصة التي ربما في بعض الأحيان لا تحبها، لكنها تتمكن منه كما لم تفعل أخرى من قبل.

وترتسم ابتسامة بلهاء على شفتيها، نعم يحبها وبجنون، تتذكر ما فعله قبل ساعات عندما هاجمها في مكتبها، يهددها ويبادر بالفعل قبل أن يوضع في موقف دفاع، أيظن أنها لم تفهمه؟ هو فقط يقلب الأمر عليها

لأنه لا يجد طريقة لاسترضائها فقرر اتخاذ طريق العنف.. يا له من طفل كبير، تحبه وترغب في تدليله.. ولكن ليس الآن.

انكسرت ابتسامتها بحزن عندما شردت في أسبابه، العمل.. المسئولية، بعده عن المضمار وحفظ التحقيق مع هروب الجاني، هل ذلك يمنحه الحق في الابتعاد عنها؟ لا تصدق مبرراته رغم أنها تعلم كم تؤلمه!! لكن ما ذنبها هي؟...

أخرجها من أفكارها المبعثرة وقوفه أمامها وفي عينيه اشتياق واضح، ابتسمت له بحنان فجلس إلى جوارها يسأل بقلق:

"كنتِ بعيد قوي؟ سرحانة في إيه؟"

تلذذت بقلقه، تمهلت في الرد تقلبه فوق نيران الانتظار قليلًا:

"أبدًا..! كنت فين؟"

يدرك أنها تجاهلت الرد على سؤاله وارتفع معدل القلق في دمه، لم يرغب في أن يدور أو يناور هذه المرة، كفاه ما حدث بالفعل، رد بخفوت يحمل نبرة غاضبة لم تنمحي بعد:

"رحت لها"

اعتدلت بحدة، هي تعلم.. توقعت، لكن أن يخبرها بوضوح..! هذا أثار غيظها، لم يلحظ بينما يهرب بعينيه بعيدًا عن لقاء عينيها، ويردف بتصميم:

"كان لازم أعلمها درس"

انتفض قلبها في خوف، هتفت تحثه:

"قصدك إيه؟ عملت فيها إيه؟"

رفع عينيه إليها بلهفة وأمل، أهذا قلقٌ عليه؟ أم شكٌ فيه؟.. تردد لثانية قبل أن يبتعد بنظراته مجددًا ويجيب بنبرة جامدة:

"عرفتها هي مكانها فين!! وحدودها اللي لازم تقف عندها"

ثم اعتدل في جلسته يواجهها أكثر، يمسك بكفيها ويقترب، يلثم كل منهما بحنين ويكمل بهمس:

"منى.. سامحيني، أنا عارف إني اتسببت لك في حزن وقلق، سواء مني أنا أو بسببي من تصرفها، هاعوضك عن كل ده، صدقيني، بس ما تبعديش عني، هاموت لو..."

وقاطعته بلمسة من سبابتها لشفتيه تمنعه من الاستطراد:

"بعد الشرعنك"

تطلع إليها بأمل نبض له قلبها بحنان أمومي غريب:

"يعني سامحتيني؟"

لم تناور هذه المرة أو تتخابث، هي لم تسامحه تمامًا، لكنها لا تريد فراقه ثانيةً، ستعاقبه وهي معه، وسيتحمل دون إرادته، ردت بجدية:

"سيبها للوقت يا أحمد"

اتسعت مقلتيه بلا فهم، ماذا تقصد؟ كاد يسأل بصراخ: "هل ستتركينني؟" لكنها أردفت بهدوء:

"أنا بحبك"

وجاء دور قلبه لينتفض مكانه مهللًا بفرح، نابضًا بحياة، راقصًا على نغمات نبرتها الرقيقة وهي تتلفظ بكلمة السحر.. عندها لمح ابتسامتها الماكرة:

"بس مش معنى كده إنك هتفلت من غير عقاب!!"

أمسك بكفيها من جديد يلثمهما بلهفة ويهتف من عمق روحه:

"عاقبيني زي ما تحبي و أنا مو افق، المهم و أنتِ معايا"

تأملته بحنو، تبًا لقلبها الذي يتيه في خبايا عينيه ويتحول لعجينة لينة بين أصابعه يشكلها كيفما شاء!! ترددت ثانية، لابد أن تخبره، وعادت تخاف، ماذا سيفعل؟ لمح ترددها فعاد لقلقه، هل تخطط لأمر ما أم تود قول شيء تعلم أنه سيقتله،؟! شرد في خوفه لا يريد أن يحثها على الحديث، ترددها يحسم الأمر وهو يخاف حد الرعب من قرار قد يظهر على شفتيها في أية لحظة، لم يشعر إلا وهي تجذب كفه وتضعها فوق بطنها برفق، تهمس بخجل رهيف:

"بتحب الولاد ولا البنات!!"

حسنًا هذا مختلف!! كيف تدور في فلك إعصار يقذف بك في كل الاتجاهات وتظل في نفس الوقت جامدًا لا تتخذ أي رد فعل؟! صدمة ربما، ذهول، عينين حائرتين مرتبكتين تتنقلان بترتيب بين موضع كفه وعينيها الحانيتين، هل تكرر تبادل النظرة لمائة مرة!! لدقائق أو ساعات!! المهم أنه ليس في هذا العالم، اهتزت شفته السفلى برجفة بسيطة كان لها صداها عند كفه المستريحة فوق بطنها، شعرت بها أسفل يدها

فاحتضنتها بأصابعها قبل أن تشعر بأنامله تتحسسها بتردد متوتر، و أتتها في النهاية همسته الضائعة كأنه يتأكد قبل كل شيء:

"حامل..؟!"

حصل على إيماءة مو افقة، فعاد يسأل بغباء:

"هابقى أب؟"

كادت تضحك لكنها اكتفت بابتسامة والأمل في صدرها ينتعش، تشاغبه برد مرح:

"ده المعنى الوحيد للحمل"

وهذه المرة ضحك هو بذهول، ضحك بشدة حتى كاد ينقلب على ظهره كما يقولون في الحكايات القديمة، موجة غريبة من القهقهة امتلأ بها حلقه حد حبس الأنفاس، وعندما توقف كانت دمعة غالية تنساب من عينيه فوق وجنته الخشنة، ثم استقرت بين شعيرات ذقنه المهملة، رق لها قلبها، صوته هذه المرة مرتجف بعدم تصديق وفرحة سافرة:

"هابقى أب..!! هابقى أب"

الأولى بتعجب والثانية بتقرير، والقلب يعلنها واضحة.. " العاشق تحول لمجنون من نوعٍ آخر".. ولا يهم، هو فقط سعيد، مدت أناملها تمسح دمعته تصاحب نفس الإيماءة المو افقة الصامتة، فاجأها بهتاف متلهف:

"عاوز بنت.. ميان"

لم يهتم للدمعة الثانية التي تلت الأولى، فقلبه وعقله كانا في عالمين مختلفين، لكنه هجم عليها بشكل مفاجئ يضمها إليه بقوة كادت تذهب أنفاسها، يغمروجهها بقبلاته ويهمس بفرحة مزدوجة:

"كده ارتبطتِ بيَّ لآخر العمر، مش هتقدري تبعدي عني"

انقبض قلبها، لم يكن الطفل رابطًا أبديًا من قبل، وكأنه فهم فيما شرودها الغريب فهزها برفق رغم ضيقٍ أصابه، لاتزال تخاف الغدر وتعقد المقارنات!! همس بإيضاح يضع بصمته على خيالها الماضي والحاضروالقادم:

"أنا أحمد يا منايا"

ولفظ اسمه كأنما كان ممحاة سحرية، محى السابق وذكرى ألمه وطفله اليتيم بوجوده، وأعادها للو اقع، حيث تنعم بالدفء وتشعر بالحب مع مالك قلبها.

******

أسبوع طويل مر، تعاقبه وتتلذذ بعقابه وهو راضٍ، بل وأكثر، رغم اشتياقه لها، لكن عليه التحمل، الاتسام بالجلد والصبر، هو من بدأ وعليه هو أيضًا تحمل العو اقب، تنام بين ذراعيه، أصابعه تستقر عند طفلته التي بات يحلم بها، وفقط..! كم هذا مخزٍ، وموجع!! لكنه يتحمل، وسيتحمل حتى ترضى، فرضاها هو جنته.

عاد من عمله يبحث بعينيه عنها، وجدها تنحني على ركبتيها فوق الأرض أمام الصغير، تتحدث معه بهدوء، يدها تربت على ذراعه كأنها تواسيه والأخرى...!

عقد حاجبيه بعنف غاضب، الأخرى تدور في حلقات لا نهائية عند موطن النبض في معصمه، تلك الحركة التي تثير جنونه من جديد، ألن تختفي أبدًا!! لكن مهلًا يا أبله...

دقق النظر كأنه يحتاج، تصارعت بداخله مشاعر شتى.. أعنفها وأكثرها وضوحًا هو الغضب، من نفسه هذه المرة، من غبائه وتصديقه بحماقة لادعاء الدنيء، حركة إصبعها هذه التي عذبته وأسهدت لياليه، تسببت في فراق بينهما، وكانت تقتله كلما فكر بها أو فعلتها معه ما هي إلا أمر خارج عن إرادتها تمارسه حتى مع صغيرها!! الآن هو على وشك القتل، لو تمثل أمامه ذلك الحقير فسيقتله فورًا.

توجه إليهما يسحب الهواء علَّه يبرد تلك النيران المشتعلة في جوفه، رسم ابتسامة بصعوبة وجلس إلى جواره يتحدث معه، يداعبه بل ويدغدغه حتى نال ضحكته المرحة، ابتسمت هي الأخرى فغمزها بشقاوة، هزت رأسها في يأس وغادرت المكان.

لحق بها بعد دقائق، وقف خلفها في المطبخ يتحرك بإصبعه بطول ذراعها، ثم أحاطها يتلمس بطنها برفق ويسأل بحنو:

"بنوتي عاملة إيه؟"

ابتسمت برقة، رباه كم تعشقه!! ردت تشاغبه:

"مطلعة عيني، خلاص مش عارفة آكل أي حاجة"

نالت تربيتة خفيفة هناك وهو يعاتب ابنته المزعومة:

"كده يا ميون تتعبي ماما!!"

ابتسمت ثانية تشعر بالسعادة لسعادته.. لقد قرر أنها فتاة و انتهى الأمر، انحنى أكثر يهمس في أذنها بنبرة لم تفهم معناها:

"كنت فاكرها عشاني بس!!"

استدارت إليه بتساؤل، أمسك بكفها وتلمس نبضها بإبهامه في توضيح، جعلتها تقطيبة جبينه تضحك، سحبت يدها منه تعتذر دون إحساس حقيقي بالندم:

"يؤسفني أقولك إنها لازمة عندي، لما أكون سرحانة أو باواسي حد"

مط شفتيه بطفولية غاضبة فعادت تضحك ويبادلها قلبه برفرفة بين جنبيه:

"مغرور.. مش كل حاجة بتدور في فلك السهم يا بطل"

تراجع خطوة يتظاهر بالألم، قبضته مضمومة فوق قلبه يهتف بتوجع مفتعل:

"أوووتش"

عاندته برفعة حاجب استقبلها بابتسامة حانية استغربتها، وعاد يقترب فتراجعت تحذره بعينيها، لكنه همس بينما يغوص في نهر العسل اللامع:

"برده بحبك"

وتوقف كما أمرته عيناها، يتظلم إليهما وتنتعش هي أكثر، تتورد وجنتاها مع نظراته التي تفلت من عقالها في كل لحظة لتراقب حركة شفتيها عندما تتحدث، أو تحيطها بالدفء عندما يظنها لا تنتبه له، تنهدت توليه ظهرها وتأمره بلذة:

"طيب، الحب مش هيطبخ الغدا، اتفضل غير هدومك على ما أحضر السفرة"

اقترب بسرعة يطبع قبلة أسفل أذنها هاتفًا بمرح:

"أوووتش تاني"

وكزته في معدته تأمره بالخروج في صمت، لكنه سألها باهتمام:

"موكا ماله بقى؟"

تنهدت بضيق، عادت تلتفت إليه تجيبه بغضب:

"باباه راح له المدرسة، قال له إنه مسافر ومش راجع قريب، ونطق قدامه كلمة هجرة.. تخيل!!"

زفر بعنف، لقد نفذ من ضرسه الذي انتوى أن يطحنه تحته، والقذر يخبر ابنه الصغير بكل تبجح عن هجرة، إذًا في ستين ألف داهية أو ربما سبعين يا حقير، كيف يفعل ذلك بطفله؟ كل سباب العالم لا يكفيه، ولن يلوث فمه بنطق اسمه ثانية، همس يطمئنها:

"المفروض تكوني متوقعة منه أي حاجة!! اختفى قبل كده"

نظرت إليه بتأنيب، رفع كفيه أمام وجهه يوضح:

"من غير زعل، بس مش جديد عليه، وخلي موكا عليَّ، ولا أنا ما أنفعش أبقى باباه؟"

هذه المرة ابتسمت بحب، تأملته وردت بصدق:

"أنت أحن منه عليه"

تنهد بعمق، قبل أن يزمجر من بين أسنانه في حنق:

"صبرني يا رب"

ضحكت بشقاوة فرمقها بضيق مصطنع، ثم استسلم لأمرها هذه المرة وغادر، هل تراجعت رغبته في القتل؟ لا.. لكن الخسيس هرب وتسرب من بين أصابعه، وعد نفسه أنه عند أول لقاء قادم طال الزمان أم قصر؛ ستكون التحية لكمة يكسر بها أنفه المتغطرس.

******

هل مر شهران بالفعل؟ لا تكاد تصدق ولا حتى هو..! انتهى برنامجه العلاجي المكثف، وخرج منه بطاقة مهولة ورغبة في كسر التحديات من جديد، فإن لم ينتقم بشكل فعلي ممن غدر به؛ فسيكون انتقامه على مضمار السباق، يثأر بالفوز ويقتص بالعودة متربعًا على عرش البطولة.

جلست بعيدًا تتأمله يخوض المنحنيات، يمر من بينها بقوة ومهارة، أثار إعجابها وبشدة، هذا هو بطلها، زوجها، حبيبها، القوي المثابر العنيد قاهر التحديات و.. السهم الأسود.

ابتسمت بحنان وظهرت دمعة في مقلتيها، رباه كم تعشقه، وتذوب فقط تذوب وتذوي فيه وله!! في كل يوم يدللها، يتقرب منها، يعاهدها على

الحب والصدق، ويصبر حتى ظنت أنه لم يعد يرغبها، ألقت إليه بحبل قصير تختبره لكنها سحبته بسرعة عندما كاد يشدها نحوه في موجة هادرة من العشق أثبتت وبجدارة أنه يريدها حد قسوة تذبحه لكنه يترك لها تحديد الوقت.

تتلذذ بغضبه، قهره، وحزنه، حتى حمامات الماء البارد التي أصبحت مؤنس وحدته في الكثير من الليالي، هو عقاب يستحق كل ذرة منه، طالما فارقها برغبته سابقًا، فهذه المرة ستكون رغمًا عن إرادته حتى ترضى عنه، وكم يسعدها عذابه، فهي قربه، معه، بين أحضانه، لكن غير مسموح له بما هو أكثر، ابتسمت في شرود، هذا عقابه الأقوى والأنسب، فقط قلبها يحثها: "ألم يحن الوقت بعد!! ارأفي بحاله".

وعقلها يتدخل في الحوار بكل صفاقة ودون إذن، يذكرها بصور تحاول تناسيها، وتسأله هي: لمَ عساها ألا تصدقه؟ لمَ تعاقبه على تجربة مرت بها مع غيره وتحمله وزرها؟ هو لم يكذب عليها من قبل؛ فلمَ تكذبه عندما ينفي خيانته؟ عندما يقسم بحبه الذي أثبته لها وبأعنف الطرق؟.

تذكرت يوم أخبرها أن الصور حقيقية، صرخت في وجهه تتهمه بالكذب، أنت خنتني!! لكنه نفى بسرعة و أقسم أنه لم يفعل، هي صور قديمة

بعضها قبل حتى أن يراها، والباقي قبل أن يعلن قلبه ملكيتها له وللأبد، لم يهدأ بالها وبكت، تعلم أن السبب هو هرموناتها التي تُحدِث هيجانًا في مشاعرها من الصفر حتى أقصاها دون سبب قوي، لكنه احتواها يومها، تقبل غضبها بل وسبابها الرقيق، عتابها الذي تعلم أنه أوجعه، وعاد فقط يبثها حزنه وندمه.. وعشقه.

وتحسرت هي بعدها.. ربما لو صارحته من البداية لما وصلا لهذه النقطة السوداء!! لاتخذ موقفًا واضحًا وتنبه أنها أيضًا تبتعد وتقتل عقلها الظنون، لكن تعود.. فتتنهد، وتصدق، هذا هو القدر ولا مفر، هذا هو اختبار احتاجا أن يمرا به سويًا، والعبور بنجاح معناه وجودهما معًا للأبد.

أنهى التدريب الذي يخوضه كاملًا للمرة الأولى بنجاح مبهر، هبط من سيارته يلهث كأنه كان في سباق للجري، لكن الخوف والرغبة في النجاح.. سحبا كل الهواء من صدره.

لمحها من بعيد فابتسم ورفع يده إليها، أشارت إليه هي الأخرى مع اقترابه، تراقبه باهتمام، خصلاته المبعثرة ووجهه المبتهج، عيناه اللامعتان

بسعادة لم ترها من قبل.. أو ربما حياة لم تخضها معه سابقًا، وقف قبالتها ينظر إليه و أنفاسه تهدأ ببطء، ابتسمت بهمسة:

"نجحت"

أومأ مو افقًا:

"نجحت"

يريد أن يضمها في هذه اللحظة، تأمل المكان من حوله، الكثير من العيون، الكثير جدًا، ابتلع غصة ونظر في عينيها، فهمته.. تشعر بحاجته إليها، أمسكت بكفه بين يديها الصغيرتين، ومنحته تلك الضمة التي يحتاجها بين جفنيها، ابتسم يحاوطها بنظراته، وفي الخلفية لمحت قلقًا ما، هي تفهم، نعم.. يريد العودة، ولا يعلم كيف ستكون ردة فعلها.. لذلك ودون أن يسأل أو حتى يلمح همست بحنان:

"السباق اللي جاي هتفوز بيه، صح!!"

تأملها بلهفة لا تنفذ، هل تمنحه جو ابًا على سؤال لم يسأله..! في عينيها علم أنه على حق، وازداد عشقها داخل قلبه مقدارًا آخر.. وهذا كثير بحق، فقلبه المسكين يكاد ينفجر امتلاءً.

ناداه صديقه "حسن" بنبرة متوترة:

"أحمد..!"

التفت إليه بقلق والآخر يردف بحزن:

"عماد عمل حادثة بالعربية على الدائري"

اتسعت عيناه، رباه..! الأمر يتكرر، ربما هو مختلف.. لكن النتيجة مهلكة في جميع الأحوال، استدار إليها فشجعته بنظرة مهتمة:

"ولا يهمك روح له، ربنا معاه"

رد بحزم:

"هاروحك الأول"

لكنها أنهت الأمر بحزم أكبر:

"أنت عارف إن بابا هيعدي عليَّ مع موكا، أنا هاستناهم هنا.. عشان ما تتأخرش، ما تقلقش"

تردد ثانية فدفعته بيدها، منحها نظرة ممتنة وغادر بسرعة مع صاحبه، أحشاءه تتلوى بعنف، يشعر بها من جديد، بالطعنة التي غدرت به وكادت تنهي مستقبله، بل وتحبسه رهين مقعد متحرك لولا عناية القدر.

وصل للمشفى، أمام غرفته تردد ثانية قبل أن يجذبه "حسن" الذي يشعر بما يجول بداخله، طمأنه بعينيه فابتسم له ودلف خلفه للغرفة التي يرقد بها زميلهما وحيدًا بائسًا.

رفع عينيه إليهما وما إن وقعتا على "أحمد" حتى تمرد بهما بريق حارق يمتلئ بالحقد والكراهية الواضحة، تراجع هو خطوة لا يفهم لكن الآخر بادره بعنف:

"إيه!! البيه جاي يشمت فيَّ؟"

فتح فمه يحاول النطق والذهول ألجمه، سمع هتاف "حسن" الغاضب:

"في إيه يا عماد؟ يشمت فيك ليه؟ أنت صاحبنا وزميلنا"

أجابه بحقد أكبر:

"ورقم اتنين"

عقد "أحمد" حاجبيه بينما الراقد أمامه يردف بقسوة غير آبه لما يتلفظ به في فورة يأسه وهياجه:

"احتياطي للسهم، البطل، اللي عملت كل اللي أقدر عليه عشان أزيحه من طريقي و أبقى أنا رقم واحد بس ما فيش فايدة، بيرجع ويناطحني وفي الآخر جاي يشمت"

أوقفه "حسن" بإشارة لا يستوعب ما يقول!! أما "أحمد" فقد تجمد مكانه، هل ما فهمه صحيح؟ هل هو من فعلها؟ نظر إليه دون انفعال وهو يرفض الصمت:

"بتسكتني ليه يا حسن؟ آه صحيح ما هو صاحبك، البطل اللي بتاكل على قفا بطولاته عيش"

زجره "حسن" بعنف ذاهل:

"عماد أنت بتقول إيه؟"

رد ببؤس ولهجته يتقاطر منه الكره:

"باقول الحقيقة.. ولا هي دايما بتوجع!! إمتى تغور من على وش الدنيا بقى؟! حتى الضربة كان المفروض تشلك بس إزاي!! أديك زي الحصان قدامي وكلها أيام وترجع مكانك القديم..."

ولهث بعنف مع اتساع عيني "حسن" وضيق عيني "أحمد" بهياج مخيف، أكمل دون وعي:

"بس في الآخر.. رجلي أنا اللي ضاعت، وطلعت من السباقات للأبد، افرح يا بطل"

في اللحظة التالية كانت قبة قميص المشفى في قبضة "أحمد" الغاضبة وهو ينحني نحوه يهمس بشرارات حارقة تكاد تظهر بوضوح من بين أحرفه:

"أنت!!"

جابهه بعناد غبي:

"أيوة أنا.. وريني شطارتك، هتعمل إيه؟"

وضحك بجنون، لقد فقد عقله بعد بتر ساقه، هكذا فكر "حسن" وهو يندفع يجذب "أحمد" يبعده عنه عندما أوشكت قبضته المضمومة أن

تعانق ملامح المستلقي بفراشه يقهقه كأنه مخبول بالفعل، همس له من بين أسنانه يقاوم جذبه إليه:

"هاقتله يا حسن"

لكن الرد أتاه مع لهاث:

"هتضيع نفسك عشان واحد حقير ربنا أخد لك حقك منه؟ سيبه يا أحمد، سيبه هو خد جزاءه خلاص، ما يستاهلش"

تمسك به للحظات أطول والآخر يثير غضبه أكثر بضحكاته الغريبة، نفضه بعنف يستدير لصديقه يخبره بحسم:

"هابلغ البوليس عن اعترافه"

أتاه صوت المخبول من خلفه:

"أنت فاكرني هاعترف تاني قدام البوليس؟ إيه يا سهم عيب عليك!!"

كاد يعود إليه لولا أن أمسك به صديقه، وألقى بنظر للغادر ود فيها لو قتله، يردد بصمود:

"اعقل يا أحمد، والله ما يستاهل، ربنا أخد لك حقك وأهو اتحرم من السباقات لحد ما يموت، أنت هتبقى أب.. ركز في مستقبلك"

وكأن كلمة "أب" نزلت على قلبه كماء بارد، لايزال يشعر باحتقان شديد، بالعجز عن انتقام توعد به من طعنه، عن وضع الظالم في مكانه، أو حتى أن يذيقه لكمة يشكل بها ملامح وجهه من جديد، الجبان اعترف وهو فوق فراش المرض، وهو ليس بحقير مثله كي ينتقم منه في هذه اللحظة.. لكنه سيترك الباب مفتوحًا، لن ينعم بحياته أبدًا، وهذا وعد.

ليلتها وعندما علمت بما حدث..! تلمست غضبه وحزنه..! سعادته بعودته والتي تحولت لإحباط غاضب لا يدري له متنفسًا..! منحته نفسها يدفن بين ضلوعها كمده وقهره، تزيل عنه حسرته بفرحة لم تكتمل وبعدها تحثه على بناء مجده من جديد.. ففي نهاية الخط؛ هو البطل.

******

"السهم الأسود يفوز بأول سباق له على مضمار الأوتوكروس بعد العودة متحديًا المستحيل"

وكان هذا هو العنوان الذي تصدر الصحف الرياضية، أثلج صدره!! نعم، أسعده!! بلى وبشدة.. لقد عاد، نعم عاد وفاز، ونبض قلبه بعشق المخاطرة من جديد.

ثلاثة أشهر أخرى لم يتوقف خلالها عن التدريب، وفي لحظة الحسم.. نال الجائزة، وحقق الهدف، امتلك المضمار وتوج ملكًا عليه كما كان دومًا.

والليلة.. حفل بهيج في منزل والدته، سعادة بانتصاره، بعودته، بإياب الروح التي غابت عنه لوقت طويل، وفي نهايته سيعلن قراره الذي توصل إليه بعدما حقق ما تمنى.

وهي.. يا الله!! هي، مدللته ذات البطن المتكورة بطفلته، نعم هي طفلة، فتاة.. ستكون مدللة أبيها كما والدتها حبيبته، يكاد يعد الثواني حتى موعد وصولها، ولا ينام كل ليلة إلا بعد أن يقص لها عن يومه، يقبلها ويكاد يدفن نفسه في الفراش قربها لولا تذمر أمها التي أصبحت تداعبه وتغار منها.

حتى أخته الصغيرة، أتت اليوم تعلن فرحتها بعودته، وكم يبث فيه الحياة أن يشعر بذاك الاهتمام.. ربما لأنه صادق، وربما لأنه ممن يحب، تنفس بعمق يتابع الجميع من حوله، لقد تأخرت في النزول، وهو لم يمنحها

هديتها بعد، تحرك للداخل يصعد إليها وفي داخله ينبض الشوق يجاوره ارتياح عارم.. وإحساس أن الاستقرار قد حان.

******

يعلم بسعادة أخيه، ويكاد يكون هو أكثر سعادة وبهجة.. عودته لمضماره وفوزه فوق أرضه كتجدد الحياة في خلاياه، يعلم ذلك علم اليقين رغم فكرة ينوء بها عقله أنه قد يغادره مرة أخرى لعالم السباقات تاركًا العمل ومثيرًا لغضب العم من جديد.

ابتسم يفكر، لا.. الأخ الأكبر أصبح مختلفًا، وطفلته التي تثير داخله شتى أنواع المشاعر غيرت فيه الكثير، ابتسم ثانية بحنان يتذكر ملامح وجهه عندما أخبره أنها فتاة كما تمنى ودعا الله، وقتها بدا كطفل صغير نال حلواه المفضلة ولم يعد لديه ما يريده مزيدًا من الدنيا.

شرد فكره نحو صغيرته، ستة أشهر مرت على عقد قرانهما، وهي تزيد وتزيد في الدلال، ولا يكاد يصدق نفسه.. فهو لا يجد السعادة إلا في قربها، في تدليلها، وشقاوتها وحتى عنادها، عرض عليها صباحًا أن يذهب لإحضارها من منزلها لكنها رفضت تتعلل برغبتها في مفاجأته بثوبها الذي

اشترته خصيصًا لأجله.. حذرها ألا تتمادى، وضحكت تربك دقات قلبه وتعده أن تترفق به.

"إزيك يا عمرو؟"

ذلك الصوت، تلك النبرة!! وحتى طريقتها الغريبة في نطق اسمه، ثم التفاتته ولقاء بخصلاتها الغجرية الحالكة والمصففة بعناية تجابه بشرتها العاجية بغطرسة كأنهما تتنافسان أيهما تجمل الأخرى.. همس بتوتر:

"ياسمين!!"

ابتسمت له برقة، وفي عينيها لمح ما لم يفهمه.. وبعيدًا خارج نطاق رؤيته، كانت ذهبية البشرة الصغيرة، تقف بصمت، تر اقب بألم.. ويلتمع زيتون مقلتيها بدمعة غضب.

الخاتمة

لطالما كره المفاجآت، وعندما تتعلق المفاجأة بمن يعلم أن ظهورها الآن سيغضب حبيبته..! وحينها لن يستطيع السيطرة على ذلك الغضب، فيناله منها ما يناله؛ فهذه المفاجأة تصبح قاتلة.

دار بعينيه سريعًا في المكان يبحث عنها لكنه لم يجدها، ظهور الجميلة، العالمة الصغيرة الآن لا يرغب فيه على الإطلاق، لمحت صورتها سابقًا و حطمت سيارته.. فماذا ستفعل هذه المرة؟!

عاد بعينيه إلى الواقفة أمامه تتأمل توتره بصمت، وعندما رفع يمناه يتخلل بها شعره عقدت حاجبيها في دهشة، تهمس بنبرة غريبة:

"أنت خطبت!!"

انتبه لسؤالها فتطلع ليده بابتسامة، جاوبها بهدوء:

"كتبت كتابي"

ازدادت دهشتها وامتزج بها حنق دون سبب محدد:

"بسرعة كده؟"

هز كتفيه ولم يعقب، ترددت قبل أن تطلب ببطء:

"ممكن نتكلم شوية!!"

توتر أكثر لكنه لم يجد بدًا من الموافقة، وجدها تتحرك أمامه فتبعها في صمت واجم حتى المنزل، دخلت للبهو الفارغ، حيث أن الكل في الحديقة المعدة للحفل، وقف قبالتها ينتظر ما ستجود به، فهاجمته بحدة حينها لا تمنحه الفرصة لدفاع:

"لحقت تتجوز بعد الكلام اللي قلته ليَّ قبل ما أسافر!!"

عقد حاجبيه وبدأ غضب يتسلل إلى صدره، رد ببرود لم يعلم من أين أتى به..!:

"والله الحب ما بياخدش إذن، ومادام حبيت يبقى أول خطوة آخدها هتكون جدية ناحية الانسانة اللي اخترتها"

رمقته بسخرية:

"حب!! كمان لحقت تحب؟"

أكسب لهجته الجدية اللازمة:

"برده الحب مالوش مواعيد ولا جدول زمني بيمشي عليه"

تغيرت ملامحها هذه المرة، لقد عادت من السفر تأمل أن يكون باقيًا في محراب اعتقدت أنه بناه لأجلها، لكنها وجدته محاها ببساطة، ويخبرها أنه يحب.. كم هذا جميل!! وصلها صوته ينتزعها من شرودها:

"هي أميرة ما قالتش على موضوع خطوبتي؟"

ردت بغطرسة تقف عليها كرامتها التي سقطت منها عند أول سؤال:

"ما كنتش باتكلم عنك عشان أعرف أخبارك"

مط شفتيه مع ضحكة خافتة مرحة:

"إمممممم.. أوك، حمد الله على السلامة"

والتفت يغادر لكنها لاحقته بسؤال آخر:

"حبيتها إمتى يا عمرو؟"

توقف للحظة، عاد يستدير نحوها يجيبها بشرود:

"مش عارف..! المهم إني لقيت نفسي بحبها كأنه من يوم ما اتولدت"

تراجعت خطوة بحدة، زمت شفتيها وتحركت هي لترحل بتمتمة باردة:

"على العموم مبروك"

وغادرت تتبعها عيناه دون يراها فعليًا، فاجأه الصوت الغاضب من خلفه:

"أحلى على الطبيعة بكتير"

التفت بسرعة يدور حول نفسه ينظر لمجنونته الصغيرة، رباه!! الآن تعقد الأمر بالفعل، اقتربت منه ببطء هادئ أثار قلقه أكثر، وقفت أمامه تنظر إليه بغموض فتح فمه يهمس باسمها لكنها عاجلته بالعصير البارد في يدها تغرق به وجهه وقميصه وسترة بذلته الأنيقة، تراجع في خشونة بشهقة غاضبة هذه المرة، لمعة عيناها العنيدة أثارت غيظه أكثر فصاح حانقًا:

"لا بقى أنتِ بتستهبلي يا منة"

اقتربت تدفعه في صدره بإصبعها بحركة عنيفة، تكاد تصرخ لكن همسها خفيض النبرة:

"ده عقاب عشان تبقى تقف معاها"

زم شفتيه وعقله يفكر بسرعة، غضبه يشتعل أكثر، ويده تمتد بحركة أجفلتها لتقبض على مرفقها تجذبها إليه بينما يضغط أسنانه يرد من بينها:

"و أنا هاوريكِ عقابي عشان تبطلي أنتِ فيلم العصير بتاعك ده"

وتحرك يجذبها خلفه بخطوات واسعة كادت تسقطها على وجهها، أسفل السلم المؤدي للطابق العلوي دفعها للجدار وقبل أن تصرخ فيه تعنفه على تهوره كان يتنفس أنفاسها بين شفتيه، يبتلع أحرفًا حاولت نطقها ولم تجد الوقت، دفعته بعنف تقاومه وتهمهم بغضب لكنه لم يستسلم لها، بل أغلق عينيه عن جفنيها المتفرقين باتساع مذهول وصم أذنيه عن همسها المحبوس خلف قبلته وترك لنفسه العنان يحقق حلمًا تمنعه عنه حبيبته الصغيرة ويدللها هو رفقًا بها، لكنها تمادت، والآن حان وقت الدفع.

شعر بسكونها وكفيها اللتين استراحتا فوق صدره بدلًا من المقاومة العنيفة السابقة، تستسلم لغزوه الذي تحول لرقة بالغة في هذه اللحظة قبل أن يبتعد لمسافة قصيرة، ينظر لعينيها المغمضتين، يستجمع أنفاسه المهدورة ويهمس لها بحب:

"بطلي جنان بقى"

فتحت عينيها تنظر إليه بخجل لم يعتده منها، ترد بهمس متحشرج:

"ده عينة بس، الجنان على أصوله لو شفتك مع واحدة تاني"

فتح فمه يدافع لكنها أشارت إليه تمنعه وتردف برقة:

"أنا سمعت كلامكم، بس ده ما يمنعش إني باغير.. وبغباوة يا عمرو، وأنت عارف كده كويس"

ابتسم يمنحها نظرة عاشقة، وانحنى يقترب أكثر يكمل همسه بعبث:

"على فكرة، ممكن أجهز لك كمية عصير مناسبة لو كل مرة هاعاقبك كده"

شهقت بنعومة، ودفعته في صدره تهرب من أمامه متعثرة في خجلها الذي أذابه أكثر، تابعها بعينيه، وتنهد بعمق، يدعو بالصبر فأمامه عام جامعي آخر قبل أن تزف إليه، وهو بالكاد يستطيع التماسك خاصة بعدما حدث قبل دقيقتين.

تحرك بمرح يصعد للطابق العلوي ينظر إلى ملابسه المبتلة دون اهتمام، وسعادة مرسومة على ملامحه بابتسامة واسعة، قابل شقيقه أمام الدرج، نال نظرة دهشة تبعتها ضحكة ساخرة:

"إيه يا بني!! أنت تخصص عصير؟"

رد بنفس النبرة المشاكسة:

"ها ها، دمك خفيف"

رفع "أحمد" حاجبيه يضايقه، لكنه وكزه في كتفه وسابقه للأعلى، ينتفض قلبه بحب الصغيرة الشقية، ويتردد بداخله صدى ضحكة صافية سعيدة.

******

ترك أخيه الصغير وتوجه إليها، يشتاقها ويفكر هل ستعجبها هديته!! فتح الباب ليجدها لم تنته بعد، اقترب بهدوء حتى قابلت عينيه في المرآة وبهما بقايا نظرة نهمة فهمتها عندما همس بدفء:

"كده كتير على قلبي!!"

ابتسمت له، فحرك يده المختفية خلف ظهره، أخرج علبة مخملية أنيقة يستطرد باهتمام:

"بس الجمال ده ناقصه حاجة بسيطة قوي.. توقيعي أنا"

كانت تقف أمامه بثوب ناعم ذي لونٍورديٍ هادئ، بحمالتين رفيعتين وحزام أسفل صدرها، يتدلى بعده باتساع رقيق يظهر حملها بأنوثة، فتح العلبة وأخرج منها قلادة أنيقة يتعلق فيها قلب على شكل قفل ماسي راقي، أزاحت شعرها وأمالت عنقها تمنحه حرية الحركة، أغلقها بإحكام وطبع بجوار طرفها قبلة ناعمة صاحبت همسه:

"كده الكمال"

ردت بعدما جذبت كفه تقبل باطنها برقة:

"المفروض إحنا نجيب للبطل هدايا، مش العكس"

سرت قشعريرة في جسده مع لمسة شفتيها اللينة، التقط القلب بأصابعه وفتحه بينما يرد:

"أنت هديتي، ومكتفي بيكِ"

تأملت حرف "A" اللامع داخل شكل القفل المتدلي من القلادة، وهو يتمم همسه بتملك:

"عشان أفضل جنب قلبك على طول، إوعي تقلعيها"

أومأت توافقه، فما عساها أن تفعل أمام طوفان مشاعره في كل حالاته!! عندما يغضب أو يغار أو يهمس برفق ويعلن ملكيته الأبدية..! أحاطها بذراعيه يربت على بطنها برفق، يسألها بحنان:

"ميون عاملة إيه؟ بابا مش واحشها؟"

ضحكت بحنان وسألته باهتمام:

"أنت خلاص قررت إن اسمها ميان؟ طيب قولي معناه ع الأقل"

رفع عينيه ينظر إليها عبر السطح البراق، يرد بنظرة تحيطها كليتها بحرارة تذيب عظامها:

"معناه.. أعلى درجات العشق"

نبض قلبها بقوة يصرخ بعنف أسفل كفه، فعاد يكمل بمكر:

"أيوة بالظبط كده"

وكزته بكوعها في خجل، وهربت من بين يديه، تحركت تلتقط سترتها القصيرة فتناولها قبلها وعاونها على ارتدائها، سحب نفسًا عميقًا يفكر قبل أن يتحدث وهو يراقبها تضع وشاحها بأناقة فوق رأسها:

"أنا قررت أسيب السباقات وأدخل مجال التدريب"

توقفت أصابعها فجأة، التفتت إليه بتساؤل.. فأكمل بحب:

"وصلت للي أنا عاوزه ونجحت، هاحافظ على شغلي وشركة والدي، وفي نفس الوقت مش هابعد عن المجال اللي بحبه"

تأملته بحنو، تساءلت باهتمام بالغ:

"عن اقتناع!!"

اقترب يضمها إليه ويجيبها بحسم:

"أكيد"

ورغمًا عنها نبض قلبها في ارتياح وتنفس الصعداء، نعم تعلم أن السباق شغفه الأكبر، لكن قلقها عليه في كل لحظة ليس بأمرٍ جيدٍ على الإطلاق.. فكرة أن يصيبه أقل أذىً تثير رعبها، ولا تتحمل حتى مرورها بذهنها، لذا شعرت بالراحة والاطمئنان لقراره.

أنهت ارتداء ملابسها وتأبطت ذراعه، تهبط معه للأسفل حيث يحتفل الجميع بفوزه وعودته، وتحتفل هي باكتمال بهجة حياتها.. تفتخر بوجوده وبطفلته التي تنمو قرب قلبها.. تتباهى ببطلها الأوحد الذي فاز فوق مضمار قلبها، وعبر وحده خط النهاية.

تمت بحمد الله

صابرين الديب

2015/11/30

حلم-هن